جغرافية العالم المعاصر

جغرافية الوطن العربي

الدكتور عبد الرحمن حميدة

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

جغرافية الوطن العربي

الدكتور عبد الرحمن حميدة

جغرافية الوطن العربي

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

مقدمة

وردت ولا تزال ترد على أقلام الكتّاب والجغرافيين عدة تسميات مختلفة لمجموع الأقطار العربية. وإذا كان قسم الجغرافيا في جامعة دمشق قد تبّنى عبارة «الوطن العربي» قبل سواه، والتي هي أقرب إلى طموحاتنا وتطلعاتنا لأن إيماننا بوحدانية بلاد العرب جعلتنا نتخذ شعار «الوحدة» قبل أي شعار آخر، فهذا غير مستغرب في قطر يرنو للانعتاق من قيود الحدود الهندسية المفروضة، وللالتقاء بإخوة لنا وراء هذه الحدود التي فرضها الاستعمار بعد الحرب العالمية الأولى ممثلاً بدول بريطانيا وفرنسا وإيطاليا حينذاك، هذه الحدود التي لم يكن لأبناء العروبة أي رأي في تخطيطها، والتي تفصل بين الأخ في الدم واللسان والوجدان وأخيه بخطوط هندسية غالباً.

وهناك من يرجّح عبارة «العالم العربي» بحسبان اتساعه الهائل، لأنه أكبر من قارة أوروبا (١٠ ملايين كم^2)، أو من قارة أوقيانوسيا (٨,٩ ملايين كم^2)، إذ لا يفوقه اتساعاً سوى الاتحاد السوفيتي (٢٢ مليون كم^2)، مما جعل بعض المصادر الأجنبية تذكر عبارة «القارة العربية»، وهي في ذلك لا تنأى كثيراً عن الحقيقة الجغرافية.

أما الكاتب ديزموند ستيورات ـ مؤلف كتاب «العالم العربي» ضمن إطار مجلة «لايف» ـ فيطلق عبارة «الأرخبيل العربي» وهي تسمية صحيحة تماماً

على الصعيد الجغرافي الطبيعي، بحسبان البقاع العربية الصالحة للسكن تتألف من مناطق مبعثرة تفصل بينها الصحاري والبحار، وقد سبق لابن خلدون أن أطلق على أقطار المغرب العربي الثلاثة تسمية «جزيرة المغرب» المحصورة بين الصحراء الكبرى جنوباً والبحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطي غرباً، وعلى هذا الأساس يبدو الهلال الخصيب جزيرة وكذلك وادي النيل، أو الجبل الأخضر سواء في ليبيا أو في سلطنة عمان، أو اليمن السعيد، وتبدو بقية «الواحات» كأنها جزر مرجانية تائهة في متاهات المحيطات الشاسعة، شأن الواحات المتناثرة المتباعدة في جزيرة العرب والصحراء الكبرى. ولعل هذا التفكك الجغرافي كان عائقاً أمام استمرارية الوحدة العربية الأولى في عصر الفتوحات الأموية الكبرى، حين كان الجمل والحصان وسيلة الاتصال، والذي لا يجد مبرّراً ومسوّغاً في عصر الطائرة، إذ يكون بمقدور المسافر العربي الذي يتناول وجبة أفطاره في مسقط أن يجلس على مائدة الغذاء ظهراً في طنجة أو الدار البيضاء.

ولكن للوحدة دواعيها الملّحة نظراً للتنمية المتفاوتة في الوطن العربي (شكل ١) و(شكل ٢) وضرورة انفتاح الأقطار العربية على بعضها بقصد تحقيق التنمية المتوازنة والتكامل الاقتصادي مما يؤلف الركيزة الحقيقية لأية وحدة منشودة[١].

هذا وإذا كان سكان الأقطار الاسكندينافية لا يتكاثرون، وإذا كان الألمان يتناقصون، وإذا كان سكان الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة يتزايدون بنسبة واحد بالمئة بالعام، ومتوسط عدد الأطفال في الأسرة الواحدة

(١) إن انعدام التنسيق الاقتصادي في الوطن العربي يحمل الأغنياء العرب من أفراد وحكومات على وضع أموالهم في مصارف أو شركات أجنبية ففي ١٩٨٨ فقدت استثمارات العرب بالخارج نصف قدرتها الشرائية عن عام ١٩٨٥ علماً بأن هذه المبالغ تقارب ٤٠٠ مليار دولار.
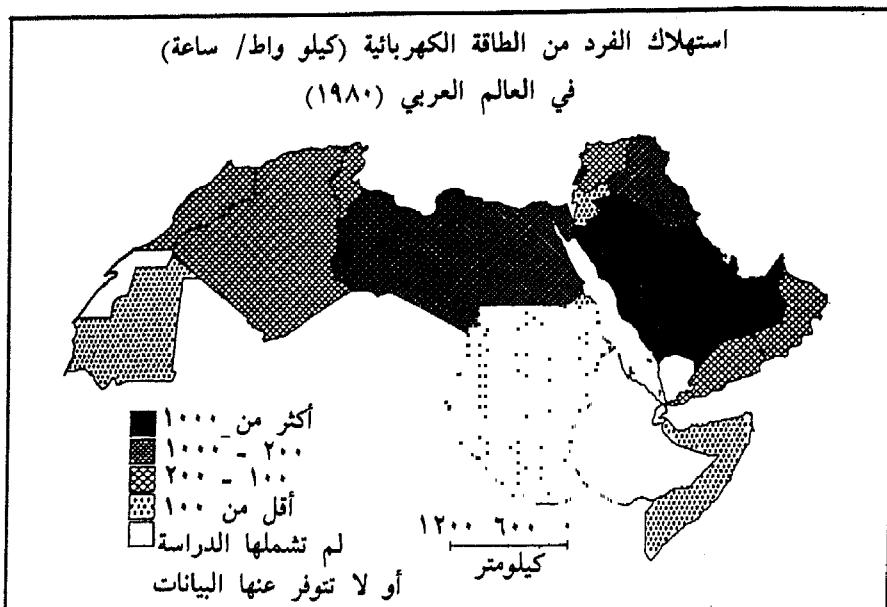
شكل - ١ -
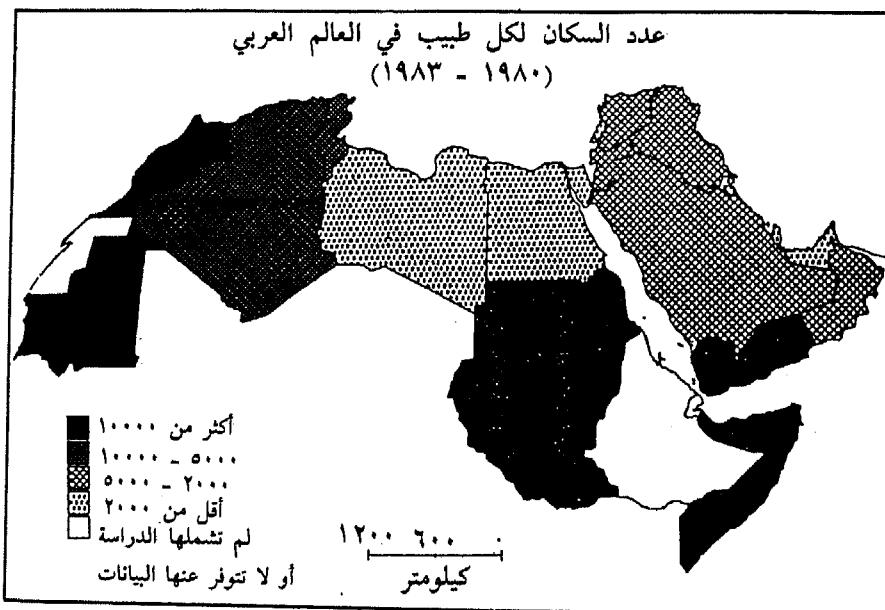
شكل - ٢ -

١,٩ ، فإن سكان الوطن العربي يتزايدون وسطياً بمعدل ٣٪، ومتوسط عدد أطفال الأسرة الواحدة ٦,٥ ، مما يجعلهم يتضاعفون مرة كل ربع قرن، مقابل

اسم الدولة	النسبة المئوية لنمو السكان بالسنة ١٩٧٠ - ١٩٨٠	الناتج الغذائي لكل مواطن ٪	الناتج القومي للمواطن بالفرنك الفرنسي	نسبة نمو الناتج القومي الخام ١٩٧٠ - ١٩٨٠
موريتانيا	٢,٧	٧٥	٢٢٠٠	١,٦
السودان	٢,٦	١٠٥	٢٢٠٥	٠,٢
اليمن الشمالي	١,٨	٩٥	٢١٥٠	٤,٥
مصر	٢	٩٣	٢٩٠٠	٣,٤
اليمن الجنوبي	٢,٣	١٠٦	٢١٠٠	١٢,١
المغرب	٢,٩	٩٣	٤٥٠٠	٢,٥
سورية	٣,٦	١٤٥	٦٧٠٠	٣,٧
تونس	٢,١	١١٨	٦٥٥٠	٤,٨
الأردن	٣,٤	٨٩	٧١٠٠	٥,٧
الجزائر	٣,٣	٧٥	٩٣٥٠	٣,٢
العراق	٣,٣	١٨٦	١٥١٠٠	٥,٣
السعودية	٤,٥	٩٦	٥٦٣٠٠	٨,١
ليبيا	٤,١	١١٣	٤٣٢٠٠	٥,٢
كويت	٦	-	٩٩١٥٠	١,١-
تايوان	٢,٤	١١٣	٢٣٠٠٠	٤,١

٨٠ عاماً بالنسبة لسكان أوروبا الغربية. ومعنى هذا أن مليوني عربي يدخلون سن العمل في كل عام، مما تطرح مشكلات غذائية خطيرة للغاية.

ففي عام ١٩٨٣ كان كل من سورية والمغرب وتونس يستورد أكثر من ثلث استهلاكه من الحبوب، في حين يستورد كل من مصر والجزائر أكثر من موارده الغذائية الاساسية. أما الأردن فإنه يستورد من الخارج كامل حاجته من القمح أو ٨٥٪ تقريباً، ودول الخليج كامل حاجتها من المواد الغذائية تقريباً.

وتعاني الدول العربية الثلاث الأكثر سكاناً - وهي مصر والمغرب والجزائر - من عجز الانتاج الزراعي عن اللحاق بالنمو السكاني . وحتى في الدول العربية الأكثر توازناً على هذا الصعيد، مثل تونس وسورية، فإن الانتاج

الزراعي المحلي لا زال مقصّراً عن اللحاق بالطلب الذي يرتفع بنسبة ٥ إلى ٨٪ سنوياً.

ونقدم مثالاً على ذلك العجز نسبة من انتاجية البقرة الحلوب الواحدة من الحليب سنوياً بالكيلوغرامات، كما نشرته مجلة الزراعة والتنمية العربية في عام ١٩٨٧ والتي تصدر بالخرطوم: هولندا ٥٣٣٢ كغم، انكلترا ٥١٣٩، بلغاريا ٢٩٩٤، سورية ١٥٠٠، العراق ٧٥٠، المغرب ٦٣٠، الهند ٥٣٨.

وتبدو المتغيرات في الوطن العربي متسارعة للغاية، بحيث تدفع الحاجة لنشر كتاب سنوياً عن المستجدات.

هذا ولا يصح إطلاقاً أن يستغرق تدريس أي كتاب جغرافي عن الوطن العربي أكثر من خمسة أعوام أو ستة على الأكثر، لأن سرعان ما تصبح معطياته الجغرافية البشرية والاقتصادية أو السياسية والعمرانية باطلة، وبالتالي غير صحيحة، ولا صادقة، ولا تقدم صورة أمينة عن الواقع العربي الذي يتعرض لتبدلات متسارعة مما يستدعي، تحقيقاً للتزامن، ضم ملحق سنوي في آخر كل كتاب.

ولي وطيد الأمل أن يجد الطلاب والمثقفون ما يروي فضولهم العلمي وتعطشهم للمعرفة، من خلال لوحة جغرافية واقعية عن وطنهم الكبير، الذي أرجو مخلصاً أن يشهدوا اليوم الذي يتجولون في أرجائه الفسيحة بكل حرية، وقد زالت الحدود وزالت عوائق السفر المصطنعة وظهرت العروبة بوجهها المشرق الوضّاء بعد التجزئة والتفتت والتشرذم مما لا تنشرح لها سوى صدور أعداء هذه الأمة المجيدة.

عبد الرحمن حميدة
دكتوراه الدولة في الآداب من السوربون،
استاذ في قسم الجغرافيا بكلية الآداب
جامعة دمشق

مقدمة
حول ملامح ومشكلات الوطن العربي والتحديات

الاتساع: ينتشر العالم العربي على رقعة تقارب ١٤ مليون كيلومتر مربع، أو ثاني رقعة في العالم بعد الاتحاد السوفيتي. وإذا كانت فيافي التوندرا والصحارى المعتدلة تحتل ثلاثة أخماس مساحة أكبر دول العالم قاطبة، فإن الصحارى تستأثر لوحدها بتسعة أعشار مساحة دول الجامعة العربية، الممتدة على درجات عرض تتراوح بين ٣٧ شمالاً حتى خط الاستواء في الصومال، في حين لا تتجاوز درجة العرض ١٦ في أفريقيا الغربية، أي تقع معظم أرجاء وطننا العربي الكبير على طرفي مدار السرطان. وهكذا يؤلف القسم الصالح للسكنى الدائمة أو المؤقتة عشر مساحة بلاد العرب، يقع معظمه إلى الشمال من درجة العرض ٣٠، وفي شريط الساحل الواقع إلى الجنوب من الصحراء الكبرى.

وإذا تركنا المراعي جانباً فإن المناطق الصالحة للزراعة لا تحتل أكثر من ٥٪ من هذه المساحة العامة مقابل ٦٠٪ في فرنسا و ٤٠٪ في ألمانيا الغربية، وتهبط هذه النسبة إلى ٢,٥ ٪ في كل من المملكة العربية السعودية وليبيا وإلى ٣,٥ في مصر.

وقد أطلق الكاتب ديزموند ستيوارت في كتابه «العالم العربي» اسم

«الأرخبيل العربي» على المناطق المأهولة فيه بحسبانها تتألف من بقاع منعزلة مفصولة عن بعضها بالفيافي الصحراوية أو بالبحر، فتتألف من «جزي المغرب» حسب تعبير ابن خلدون، والشريط الساحلي المجاور لمدي طرابلس ومنطقة الجبل الأخضر في ليبيا، ووادي النيل ودلتاه بمصر، وعل طرفي النيل الأبيض والأزرق ومنطقة الجزيرة بينهما بالسودان، والهلا الخصيب ومرتفعات عسير واليمن، ونثير من الواحات أو «الجزر» المتباعد التائهة في مجاهل الصحارى، والتي تماثل الجزر البركانية «آتول Atol المتناثرة في المحيط الأطلنطي والمحيط الهندي والمحيط الهادي، كالرياض والهفوف وبريدة وعنيزة في جزيرة العرب، وأوجلة والجغبوب وودّان والأغوا والمزاب والجولّية، والتي تعد من أبرز أمثلتها.

وهذا الاتساع وتباعد المسافات بين المناطق المأهولة يجعل المواصلا البرية عسيرة يتردّد أمامها أنصار تمديد الخطوط الحديدية، وتعرقل المبادلا التجارية عن طريق البر بين الأقطار العربية نظراً لضمور الأسطول العرب البحري، مما يجعل الاتصالات الناجعة الوحيدة هي التي تتم عن طري الطيران الذي لا يستطيع أن يلعب دوراً ذا بال في المبادلات التجارية فالمسافة بين مسقط ونواكشوط تزيد عن ٨٠٠٠ كم، أو أكثر من ضعف المساف بين لشبونة وموسكو، كما تظل المسافات بين شمالي الوطن العربي وجنو شاسعة إذ تبلغ المسافة بين حلب وعدن أكثر من ٣٠٠٠ كم على خط مستقيم.

عبء القحولة: يقع القسم الشمالي من الوطن العربي ضمن النطاق الجنوبي من المناخ المتوسطي (الرومي)، وبالتالي يتصف بمدة جفاف صيفي متطاولة تمتد على نصف السنة، هذا فضلاً عن انتصاب سلاسل جبلية موازي للساحل كالسلسلة الساحلية السورية، أو جبال سلسلة الأطلس المغربية، مم يحول دون نفوذ التأثيرات البحرية للداخل لأكثر من ١٠٠ كيلومتر. وتكون أكث

الأماكن أمطاراً هي الجبال التي يزيد ارتفاعها عن ١٠٠٠ م، وحيث تكون السفوح عارية أو مكسوّة ببقايا الغابات المتقهقرة.

وتنجح في هذا النطاق الزراعات البعلية كالحبوب ولا سيما القمح، والأشجار المثمرة حيثما تكون الأمطار الوسطى السنوية لا تقل عن ٣٥٠ مم، وينجح الشعير ما بين هذا الحد و ٢٥٠ مم، وبعد ذلك تنشر السهوب الصحراوية أو البادية التي هي مجال الرعاة البدو حتى خط المطر ١٥٠ مم.

ويمتد النطاق الصحراوي بدءاً من السفوح الجنوبية لجبال الأطلس من درجة العرض ٣٥ شمالاً أحياناً حتى درجة عرض ضفاف نهر السنغال، أو درجة العرض ١٦، حيث يتوقف امتداد العنصر العربي جنوباً في أفريقيا الغربية، مقابل درجة العرض ١٣ في السودان، وتتوغل الصحراء شمالاً في بلاد ما بين النهرين لدرجة العرض ٣٥، كما في المغرب، وإذا كانت بعض الصحارى العربية تحوي بعض المخزونات المائية، وهي احتياطي جيولوجي، موروث من العصور المطيرة قبل عشرات الآلاف من السنين كما في جنوبي الجزائر وواحة الكفرة وفي موريتانيا ونجد، فهي قابلة للنفاد السريع شأنها شأن النفط تماماً.

وإلى الجنوب من نطاق السافانة ـ التي تظهر إلى الجنوب من النطاق الصحراوي ـ تكون الزراعة البعلية ممكنة في أعقاب الأمطار الصيفية، وهنا لا تكون الزراعة المذكورة مضمونة إلّا إذا زاد المعدّل السنوي عن ٤٠٠ مم، حيث تسود زراعة الحبوب الصيفية كالذرة بنوعيها والدخن. أما وادي النيل بين الخرطوم والقاهرة فهو عبارة عن واحة شريطية تولدت عن مياه أجنبية المصدر Allogène وينطبق هذا القول على الفرات، وإلى حدّ ما على نهر الدجلة.

التربة والهيدرولوجيا: تنتشر الترب الجيدة على شكل بقع منعزلة تنحصر في السهول الساحلية الضيقة في الشمال وفي السهول اللحقية

(الإطمائية) على ضفاف الأنهار وفي الدلتا المصرية، وفي السهول المطلة على المحيط الأطلنطي في المملكة المغربية، ولا سيما في حوض نهر السبو ومناطق تربة «التيرس» إلى الجنوب من ذلك، وفي مناطق الجزيرة السودانية بين النيلين.

وعلى العموم تتحكّم في خصوبة التربة مقادير المياه المتوافرة من أمطار أو ري أكثر من العناصر المعدنية التي تفتقر إليها أحياناً. وعلى كل حال تشكو ترب الوطن العربي عموماً من مشكلة الملوحة الناجمة عن تكوينات جيولوجية محلية، كصخور البرموترياس في حوض نهر الملّاق والمجردة في تونس، أو التكوينات الجبسية الملحية في بلاد ما بين النهرين بدءاً من دخول الفرات ودجلة في الأراضي العربية، وكذلك الحال في مصر مما يستدعي إنجاز عمليات صرف أو «بزل».

وبالإضافة إلى ذلك هناك مشكلة إنجراف التربة بسبب الرعي الجائر والاحتطاب، وعلى الأخصّ في الأقطار التي لا تزال تعتمد على الحطب كوقود كالسودان وموريتانيا مثلاً، وهو ما يدعى خطأً «التصحّر» والأحرى بنا أن ندعوه «التصحير».

والمشكلة الكبرى هي أن توسع المدن والقرى يتم على حساب أجود الترب والسهول الزراعية، شأن غوطة دمشق، وسهل المتيجة الجزائري، ودلتا مصر، وسهل الغاب السوري، وذلك عوضاً عن البناء فوق الأراضي الصخرية العقيمة، كما تفعل جمهورية تايوان التي تحرم البناء فوق أية قطعة أرض تصلح للزراعة.

وهناك مشكلة المياه التي تؤلف قضية ذات أبعاد كبيرة لأن الأنهار العربية الكبرى تكون أجنبيّة المصدر عربية المعبر، وهي النيل والرافدان. وإذا كانت أثيوبيا التي تقدم ٨٥٪ من مياه النيل لم تقم حتى الآن بمشاريع بناء سدود بقصد توليد الطاقة الكهرمائية التي تفتقر إليها، فإن تركيا أقامت ثلاثة سدود

على الفرات لأغراض الري وتوليد الطاقة، ويقتنص التبخر لوحده من سطوح بحيراتها الاصطناعية قرابة ١٥ ٪ من مخزونها، أو شريحة تبلغ ١,٥ م، مقابل حوالي ٢ م على بحيرة ناصر خلف السد العالي. ومما لا ريب فيه أن هناك مشاريع ستقوم بالمستقبل على نهر الدجلة في الأراضي التركية التي يقدم نصف مياه دجلة العراقي، والمتميّز بواد خانقي في المناطق الجبلية، وموائم جداً لبناء السدود لأغراض الطاقة الكهرمائية.

أما الأنهار المحلية البحتة مثل نهر السبو وأم الربيع وأبو الرقراق والتنسيفت والملويّة في المملكة المغربية ـ وهي أغنى الأقطار العربية بالمياه «الوطنية» ـ ونهر الشلف الجزائري، أو المجردة التونسي، والعاصي والأردن والخابور وبردى، فقد أصبحت منذ عقد من الزمن عرضة لاستنزاف شديد من أجل الري أو تموين المدن المتورّمة ـ بمياه الشرب، فضلاً عن بناء سدود على معظمها، حتى أن بعضها تلاشى تماماً كنهر قويق ونهر الذهب في منطقة حلب، ولم يعد الخابور، يمد الفرات بشيء من مياهه، وفي صيف ١٩٨٩ كفّ نهر العاصي عن الجريان في مجراه الأوسط والأدنى عند مدينتي جسر الشغور وأنطاكية، كما تلاشى نهر بردى الذي تغّنى به الشاعر شوقي قبل أكثر من نصف قرن، وتحول إلى مجرى للمياه القذرة، وهكذا تقف الأقطار العربية أمام شعار «الأمن المائي» بعد أن طرحت شعار «الأمن الغذائي».

وتعتبر أقطار الخليج العربية أكثر دول العالم اعتماداً على إعذاب مياه البحر ضمن مصانع عملاقة تنتج قرابة ٧٥٪ من المياه العذبة في العالم، ولكن يجب أن نتذكر أن كلفة المتر المكعب الواحد تبلغ ٣ دولارات، وهي كلفة مرتفعة لا تطيقها سوى الدول العربية الغنية بالنفط.

المشكلة السكانية: لقد كان لتمديد المياه النقية في المدن العربية وبعض المناطق الريفية أثره في خفض نسبة وفيات الأطفال الرّضع إلى النصف، كما ساهمت المبيدات الحشرية ومضادّات الحيويات كالبنسلين

ومشتقاته، منذ منتصف القرن العشرين بعد ظهور اللقاحات المضادة للجائحات ـ كالجدري والطاعون والسل في الربع الأول من هذا القرن ـ في تخفيض نسبة الوفيات العامة، وبقاء نسبة التوالد على حالها وهو ما يسمى «الانفجار السكاني» الناجم عن انعدام التوازي بين التنمية الاقتصادية ـ ولا سيما إنتاج المواد الغذائية ـ وبين النمو السكاني الناتج عن زيادة الولادات على الوفيات وارتفاع متوسط الأعمار أو الأجل المرتقب.

وإليكم جدولاً عن النمو السكاني ونمو الناتج القومي الخام في بعض الدول العربية بين ١٩٦٠ ـ ١٩٨٠.

الدولة	نمو السكان السنوي	نمو الناتج القومي الخام ٪ سنوياً
الصومال	٢,٣ ٪	؟
موريتانيا	١,٦ ٪	١,٦
السودان	٢,٦ ٪	ـ ٠,٢
اليمن	١,٨ ٪	٤,٥
مصر	٢ ٪	٣,٤
اليمن الديمقراطي	٢,٣ ٪	١٢,١
المغرب	٢,٩ ٪	٢,٥
سورية	٣,٦ ٪	٣,٧
تونس	٢,١ ٪	٤,٨
الأردن	٣,٤ ٪	٥,٧
الجزائر	٣,٣٪	٣,٢
العراق	٣,٣ ٪	٥,٧
المملكة السعودية	٤,٥ ٪	٨,١
ليبيا	٤,١ ٪	٥,٢
الكويت	٦ ٪	ـ ١,١

هذا علماً بأن التنمية الاقتصادية في كل من اليابان وفورموزا (تايوان وكوريا الجنوبية تبلغ ٧٪ سنوياً مقابل نمو سكاني يعادل ١٪ وكان في دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة حوالي ٤,٥٪ سنوياً مقابل نمو سكاني متوقف أو يقل عن ٠,٥٪.

فإذا كان متوسط النمو السكاني السنوي يعادل ٠,٥ ٪ في أوروبا الغربية ويتضاعف عدد السكان فيها مرة كل ١٣٥ سنة[1]، وسكان كل من اليابان والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يتزايدون بمعدّل ١ ٪، أي يتضاعفون مرة كل ٧٠ سنة، فإن نسبة النمو السكاني العربي التي تعادل وسطياً ٣,٥ ٪ تجعل السكان يتضاعفون مرة كل ٢٠ سنة وهو ظاهرة جديدة يجب أن يحسب لها العرب ألف حساب لما قد ينجم عنها من نتائج وبيلة على مختلف الأصعدة.

ويتجلّى هذا الاكتظاظ السكاني بالموازنة مع التنمية الاقتصادية شبه الراكدة أو المتقهقرة أحياناً، ببطالة حقيقية تصل إلى ٢٠ ٪ من القوى العاملة، وبطالة مقنعة تصيب نصف السكان القادرين على العمل، وبظواهر الجنوح، وتدنّي مستويات المعيشة، وازدحام المساكن، واندلاع «ثورات الخبز» بعد قرنين من الثورة الفرنسية، كما حدث في مصر عام ١٩٧٧، وفي المغرب (حزيران ١٩٨١)، وفي تونس (كانون الأول ١٩٨٤)، وفي الجزائر في ١٩٨٠، وفي الأردن أخيراً في ١٩٨٩.

وهذا التفجر السكاني اللامسؤول والعشوائي يدفع بحكومات الدول العربية الفقيرة للاستدانة، حتى لقد أصبحت بمجموعها أول مدين بالعالم

---

(١) كان عدد سكان فرنسا ٢٥ مليون نسمة عند اندلاع الثورة الفرنسية في ١٧٨٩ وبلغ حالياً ٥٤ مليون نسمة في ١٩٨٩ منهم أكثر من ٣ ملايين من أصل أجنبي أي من المتجنسين أكثر من نصفهم من أصل عربي.

فتأتي قبل البرازيل، لأن حجم ديون الدول العربية يبلغ قرابة ١٧٥ مليار دولار[٢]، أو ١٠٠٠ دولار لكل مواطن في «دول العسر» العربية، باستثناء دول الخليج طبعاً. هذا علماً بأن مليوني شاب عربي ينزلون سنوياً في كل عام إلى سوق العمل، وأن تشغيل العامل الواحد في الصناعة الحديثة يتطلب توظيف مبلغ لا يقل عن ٢٥٠٠٠ دولار.

وتتجلّى نتائج هذه المعضلة بأشكالها الثلاثة، أي الهجرة أو هجرة الرقيق الأسمر، وعلى الخصوص من أقطار الشمال الأفريقي باتجاه فرنسا وبلجيكا وهجرة المصريين بأعداد كبيرة نحو أمريكا وأوروبا والعراق، وهجرة مماثلة من سورية والأردن ولا سيما من الفلسطينيين بعد كارثتي حربي ١٩٤٨ و١٩٦٧. غير أن هذه الهجرة تستأثر أحياناً بالأدمغة الذين هم «خميرة التقدم» وأمل المستقبل، إذ قدمت الأقطار العربية ٧٪ من العلماء الوافدين إلى الولايات المتحدة، ويقدر اليابانيون كلفة الدماغ الواحد بمبلغ ١٢٥٠٠٠ دولار تذهب هدراً. أما الشكل الثاني فيكون على صورة حرب أهلية رهيبة، كما حدث في لبنان الذي يعاني منها منذ عام ١٩٧٦، وخسر من جرائها أكثر من ربع مليون قتيل وتشريد حوالي مليون نسمة، ويحدث مثل ذلك في السودان والصومال، وأخيراً تكون المجاعة الشكل الأخير، ومثال ذلك السودان وموريتانيا والصومال.

ويمكن القول أن مشكلة نقص التغذية هي إحدى نتائج هذا النمو السكاني الوثّاب. فقد أظهرت الإحصاءات أن متوسط استهلاك الفرد العربي من الحبوب لا يقل سنوياً عن ١٧٠ كغم مقابل ٣٥ كغم للمواطن البريطاني. وإذا كان الياباني يستهلك في العام ٦٥ كغم من الأسماك الغنية بالبروتينات

---

(٢) علماً بأن الأرصدة العربية في المصارف الأجنبية للحكومات النفطية الغنية وللأثرياء العرب تكاد تعادل هذا الرقم.

النبيلة، وبالفسفور الذي يشحذ الذكاء، فإن العربي لا ينال أكثر من ٢ كغم وسطياً من هذا النوع من الغذاء الممتاز، على الرغم من غنى السواحل العربية بالأسماك التي تستغلها بشكل جائر أساطيل الدول المتقدمة كاليابان واسبانيا والاتحاد السوفيتي وفرنسا.. وحتى يهود فلسطين.

ويبدو أن من الضروري كبح جماح هذا التوالد العشوائي الذي سيقود حتماً لكوارث لا نهاية لها على مختلف الأصعدة، ما دامت التنمية الاقتصادية شبه مشلولة، بسبب توجيه معظم الأموال العربية لشراء المواد الغذائية، لأن مصر تستورد أكثر من نصف غذائها، كما تذهب نصف عوائد النفط الجزائري لشراء الغذاء، وهناك استيراد الدواء ووسائل الترف من سيارات فارهة، إذ استورد القطر التونسي عام ١٩٨٨ قرابة ٨٥٠ سيارة من نوع «مرسيدس» لا غير رغم ديونه المرهقة، أو يتم إيداع الأموال العربية الضخمة في مصارف أوروبا وأمريكا لعدم ثقة أصحابها بمصائر أوطانهم.

أما في المجال الزراعي فيبدو أن الامكانات في توسيع الرقعة الزراعية أفقياً محدودة للغاية لقلة المياه من أجل الري، في حين يمكن التوسع في الزراعات الشجرية البعلية كالزيتون والتين والكرمة والفستق الحلبي لضمان محصولها في سني القحط، كما أن هناك مجالات واسعة للغاية في مضمار التحريج للحد من ظاهرة انجراف التربة، وتأمين احتياطي من الوقود الخشبي، ولا سيما بالأقطار الفقيرة بالنفط أو المهددة بنضوبه في المنظور القريب كالجزائر وليبيا.

هذا ويمكن الحصول على نتائج باهرة من الزراعة تحت الدفيئات «البيوت البلاستيكية». أو بعبارة أخرى هناك مجال للتنمية الزراعية عمودياً وليس أفقياً، حيث يكون المجال منحصراً باستغلال الترب ذات القشرة الصحراوية عن طريق اقتلاعها بالجرافات الحديثة. «النقّابات»، والتي تغطي

قرابة ثلث الأراضي القابلة للزراعة في أقطار المغرب وبلدان الهلال الخصيب والتي أعطت عمليات استصلاحها نتائج مشجعة.

هذا. ولا يبدو أن تصدير الخامات المعدنية كالفوسفات من بلدان المغرب ومن سوريا والأردن، وخامات الحديد الممتازة من موريتانيا، يقدم حلاً ناجحاً على الصعيد الاقتصادي، لأن تصدير ٨ ملايين طن من فلزات الحديد الموريتاني لم يوفّر للبلاد أكثر من ١٠٠ مليون دولار وهو ما يعادل ما كان يرسله المهاجرون الموريتانيون المقيمون في السنغال، كما أن تصدير ٢٠ مليون طن من الفوسفات المغربي لم يحقق في عام ١٩٨٠ من المال ما يكفي لتسديد فاتورة مشتريات النفط في العام ذاته والتي لم تتجاوز ٦ ملايين طن.

والخلاصة:

يبدو الاقتصاد العربي على العموم هشاً، لأنه لا يزال يحمل الطابع الاستعماري القديم، أي يقتصر على تصدير الخامات الرخيصة وشراء المواد المصنّعة المرتفعة الثمن والخفيفة الوزن، هذا فضلاً عن استفحال شراء المواد الغذائية التي كانت أهم صادرات الأقطار العربية قبل الحرب العالمية الثانية.

وأخيراً يبدو من المتعذر إقامة بنية اقتصادية عربية متينة، وطيدة الأركان، دون تحقيق وحدة تضم اشتات العرب وتوحد طاقاتهم المادية والبشرية والعقلية.

الوطن العربي
الجناح الإفريقي أو إفريقيا البيضاء

الصحراء الكبرى:

المناخ: إن الصحراء الكبرى بمساحتها ٨ ملايين كم^{2} تتلقى أقل من ١٠٠ ملم من الأمطار في العام، فهي أوسع الصحاري وأكثرها حرارة وقساوة (شكل ٣).
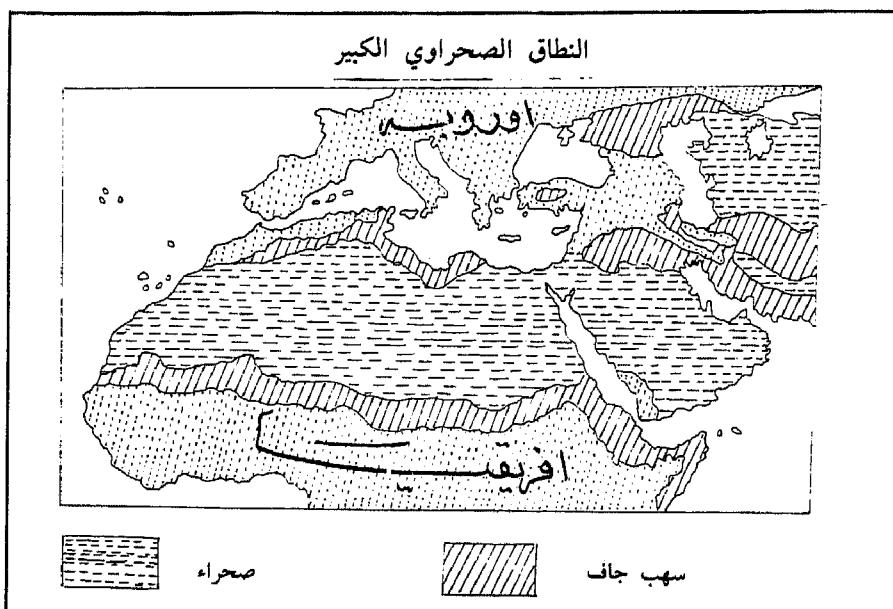
شكل - ٣ -

فصحراء جزيرة العرب أصغر رقعة، كما أن الصحاري في إيران وتركستان أقل جدباً، مثلما تبدو صحاري أستراليا والصحارى الأمريكية على شكل سهوب ضاحكة إذا ما قورنت بوحشة الصحراء الكبرى، غير أن الصحراء الكبرى تضم عدداً من السكان أكبر مما تحويه الصحارى الأخرى الأقل قساوة. فهنالك ظروف تاريخية وأوضاع حضارية جعلت الصحراء الكبرى تؤوي أفضل التقنيين (التكنيك) الصحراويين في العالم

الحرارة: تكون حرارة الصيف مرتفعة جداً وممتدة في الزمن (من أيار حتى تشرين الأول) فقد سجلت حرارة تحت الظل وصلت إلى ٥٨° مئوية في بلدة العزيزية القريبة من طرابلس الغرب كما سجلت حرارة قدرها ٥٦,٣° مئوية في عين صالح في الصحراء الجزائرية، كما سجلت حرارة بلغت ٥٥,٤ م في مركز تيميون (جنوب العرق الكبير الغربي) في الجزائر، هذا ولا يستبعد تسجيل حرارة قصوى تبلغ ٥٧° م إذا تمت ملاحظات رصدية جدية على ارتفاع ضعيف في الصحراء الوسطى والشرقية، فكل محطة رصدية صحراوية يقل ارتفاعها عن ٨٠٠ م يمكنها أن تسجل حرارة تزيد على ٥٠° مئوية. فمعدل الحرارة في تموز في بلدة وَالّن ٣٧,٧° مئوية وتقع والّن على هامش منطقة تانزروفت في الصحراء الجزائرية، ويمكن أن يعدّ هذا المعدل أكثر الأمثال ارتفاعاً في الصحراء الكبرى ولوحظ في بلدة عين صالح في عام ١٩٤١ مرور ٤٥ يوماً كان ميزان الحرارة خلالها يتجاوز ٤٨° مئوية تحت الظل، وتتصف حرارة الصحراء الكبرى بشدة سعتها (السعة الحرارية السنوية هي الفارق بين درجتي الحرارة المنخفضة الدنيا والحرارة القصوى)، ففي مركز تيميون يكون معدل الحرارة في شهر كانون الثاني ١٠,٩ درجة ومعدل شهر تموز ٣٧,٤° أي أن السعة الوسطى تبلغ ٢٦,٥° مئوية وأضعف سعة سجلت في تمبكتو (على نهر النيجر) إذ كان معدل شهر كانون الثاني فيها

٢١,٢° مئوية ومعدل شهر أيار ٣٤,٦° مئوية أي أن السعة هنا ١٣,٤° مئوية.
ويسجل ميزان الحرارة في الصحراء درجات حرارة منخفضة ليلاً، تنخفض بسبب الإشعاع تحت سماء صافية الأديم، فالحد الأدنى المطلق يصل إلى - ٥° مئوية في بلدة غدامس (غرب ليبيا)، و- ٤° مئوية في ورقلة، و- ٢° مئوية في عين صالح وفي بسكرة وواحة سيوه ووادي حلفا. وهناك سعات حرارية يومية شديدة، فمثلاً سجلت حرارة قدرها ١٠° مئوية الساعة السادسة وتكون ٤٥° مئوية ظهراً، ولكن تبدلات الحرارة تكون سريعة جداً فوق الرمل أو عند سطح الأرض فقد تتجاوز ٧٠° مئوية عند الظهر، وهذه درجة لا يمكن أن يسير الأنسان فيها حافياً، وفيها درجات عالية من الحرارة حتى يستطيع الانسان أن يطارد الغزال فوق عروق الرمل الملتهبة. غير أن الحرارة تنفذ بصعوبة في الرمال. لهذا يفضل سكان المنطقة التخييم فوق الكثبان لأن الصخر يتسخن كثيراً، كما لا يتوقف خلال الليل عن إشعاع الحرارة التي تلقاها خلال النهار.

الجفاف: تكون الرطوبة النسبية (قدرة الهواء على استيعاب الرطوبة) في الصحراء منخفضة فتصل إلى ٢٠٪ أو ٢٣٪ وذلك في تموز، لكن تكون أكثر ارتفاعاً بقليل في الشتاء، ولكن سجلت نسبة مذهلة في بلدة تامنراست في منطقة (هقّار الجزائرية) بلغت ٢,٣٪. كما أن التغيم يكون ضعيفاً فيبلغ ٠,٢ بصورة وسطية، كما تكون الحرارة مرتفعة جداً والريح عنيفة وإمكانية التبخر كبيرة جداً ويبلغ ٣٠٠ وحتى ٦٠٠ سم في العام.

وفي داخل الصحراء الكبرى ومساحتها ٨,١ من ملايين الكيلومترات المربعة (شكل ٤)، والتي تنال أقل من ١٠٠ ملم مطر في العام، فإن فيها مساحة تبلغ ٦,٩ ملايين كم² تقل أمطارها عن ٥٠ ملم وفيها ٤,٨ مليون كم² تقل أمطارها عن ٢٠ ملم، فبلدة تيجرحي في ليبيا (في ولاية فزان بين سبها وزوارة) تتلقى وسطياً في العام ٢,٤ ملم كما تنال قرية الرقّان في الصحراء
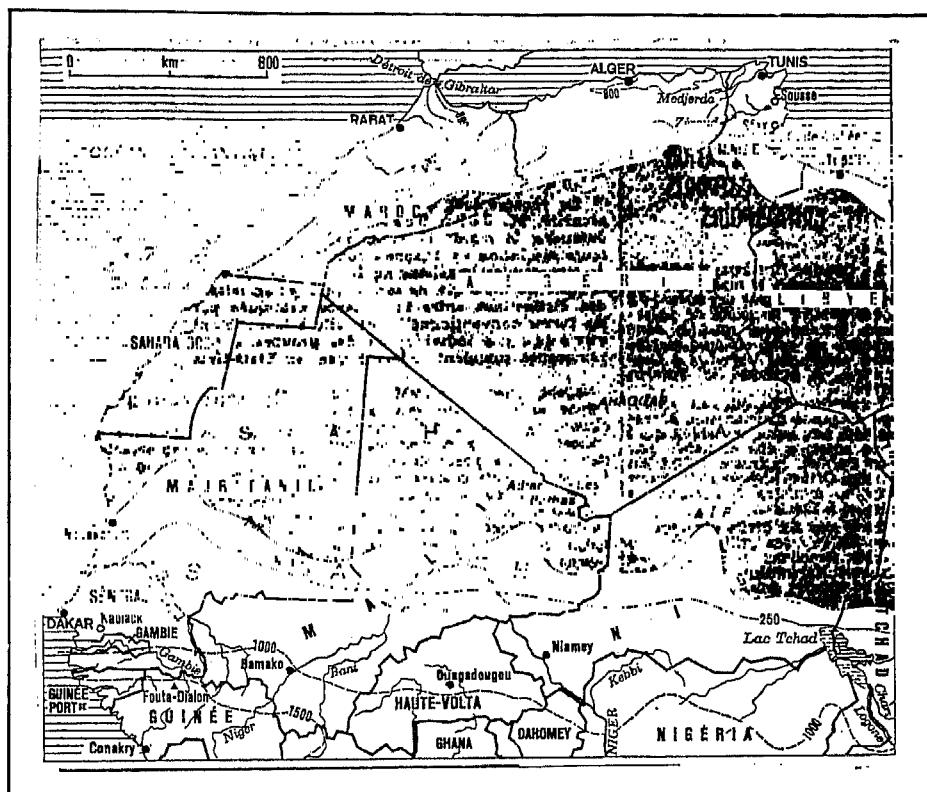
شكل (٤) يشير اللون الرمادي إلى الصحراء الكبرى
والأرقام إلى كمية المطر بالمليمترات.

الجزائرية الغربية (في شرق عرق شاش) ٥,٨ ملم. أما أسوان في مصر فتكتفي بـ ٢ ملم فقط في العام مقابل في دمشق ٢٠٠ ملم في العام. ويستفحل الجفاف بسبب شدة الرياح الشمالية الشرقية واستمرار هبوب وعنف الرياح الرملية التي تؤدي إلى ضلال المسافرين أو إلى إتلاف القطعان، وقد أدت عاصفة رملية هبت في نيسان عام ١٩٤٧ إلى إتلاف ١٥٠٠ رأس ماعز و ٢٠٠٠ رأس غنم قرب بلدة الواد الجزائرية، وإلى الشمال من درجة العرض ٢٨° تتخذ الأمطار طابعاً رومياً أي مناخ البحر المتوسط فتسقط بشكل خاص في الخريف، أما في جنوب خط العرض ٢٠ فتهطل الأمطار حسب النظام المداري

أي تكون صيفية، ففي قلب الصحراء الكبرى كما في منطقة واحة الكفرة التي تنتسب للنظام الصحراوي، يسود نظام مطري صحراوي محروم من أي نسق، فيمكن أن يمر ١٢ شهراً متتالية دون أن تهطل نقطة ماء وقد مر على واحدة الكفرة في ليبية /٨/ أعوام دون قطرة ماء، وفي بلدة تنومر الواقعة على درجة عرض ٢٢,٥٥ شمالاً و ١٠,٢٤ شرقاً مرت ١٢ سنة بلا مطر. ومع أن متوسط المطر في بلدة تامنراست ٤٠ ملم في العام فقد مر عام ١٩١٠ دون سقوط قطرة ماء.

وتكون منطقة الصحراء الكبرى صحراوية المناخ لأسباب عدة: ذلك أن الضغوط العليا تهيمن عليها، فالهواء الهابط يتسخن ويتجفف، وهذه الضغوط تتعلق بدرجات العرض، ذلك أن تيارات الجتستريم Jetstream شبه المدارية (التيار المنطلق) التي تهب من الغرب في أعالي الجو تخلق هنا ـ أي على يمينها ـ تراكماً هوائياً يسود فيه استقرار قليل الملاءمة لحركات الحملان التي تخلق السحاب، وبالتالي المطر، كما أن الصحراء الكبرى لا تتعرض للاضطرابات الجوية الغربية التي تكثر في النطاق المعتدل، كما لا تتعرض للتيارات الرطبة الموسمية التي تهب على جنوب السودان. وإذا ما انخفضت الضغوط قرب سطح الأرض فهي لا تحدث المطر ذلك أن الضغط العالي والوضع الأنتسكلوني يستمر في الأعلى أي يكون تطبق الهواء الجوي عبارة عن هواء أكثر حرارة وجفافاً في الأسفل وفوقه هواء أبرد نسبياً، وهذا الانقلاب الحراري يحول دون صعود حركات الحملان في المستوى الذي يزيد على ١٠٠٠م مما يمنع تشكل الأمطار.

وهناك سبب إضافي هو شدة اتساع الصحراء الكبرى ذلك أن هذه الصحراء ليس لها ساحل شرقي أو محيط شرقي يستطيع تكوين وضع ملائم لهطول المطر، لأن الحافة الشرقية للصحراء الكبرى تقع فعلاً في الهند حيث يظهر مجال مطري يمتد من الصين.

وأخيراً تكون التضاريس منبسطة وقليلة الارتفاع في الصحراء الكبرى، مثل قمة ايمي قوسّي في كتلة تبستي (جنوب ليبيا) التي ترتفع ٣٤١٥ م، وجبل شايب في شرق مصر الذي يرتفع إلى ٢١٨٧ م وهي عبارة عن بقاع قاحلة جداً.

هذا ويكون النبات بالتالي مفقوداً تماماً فوق مساحات واسعة كما في منطقة تانزروفت وفي حمادة تينغرت (الحمادة: هي أراض منبسطة حصوية).

وفي منطقة بيلما في شمال تشاد وفي بعض مناطق العروق (وهي مناطق كثبان رملية على شكل أشرطة متطاولة ويمتد العرق على مسافة مئات الكيلومترات) وفي الرق أيضاً (وهي الأراضي الصخرية المفتتة المكشوفة) نفتقد النباتات على مئات الكيلومترات، غير أن بعض المواقع تحوي بعض النبات، فنجد شجيرات قميئة وأوراقاً ضامرة ذات جذور طويلة جداً، فشجرة السنط الصمغي لها جذور تمتد حتى ٤٢ م أفقية و٨ م عمودية.

التضاريس: تبدو الصحراء الكبرى رتيبة بتضاريسها. فإلى الغرب من خط الطول الذي يمر من مدينة الجزائر نجد أن أعلى نقطة هي كدية الجل (٩١٧م) في موريتانيا الشمالية، وإلى الشرق من هذا الخط الطولي نجد كتلاً منعزلة قليلة الرقعة بالنسبة للمساحة العامة فترتفع كتلة الهقّار إلى ٢٩١٨ م (شكل ٥)، كما ترتفع كتلة تبستي إلى ٣٤١٥م، وجبل العوينات في الزاوية الجنوبية الغربية من اقليم مصر إلى ١٨٥٢ م، وجبل شايب شرق النيل إلى ٢١٨٧ م، أي أن الصحراء لا تحوي سلاسلَ جبلية. فمرتفعاتها عبارة عن تقببات في الركيزة (السيال) كما في جبل شايب وتكون أحياناً متوجة بمقذوفات تتكشّف على نطاق واسع في الغرب (ظهرة الرقيبات في موريتانيا) أو تختفي في مناطق أخرى تحت رسوبات قارية غالباً، غير أن هناك تقببات من

شكل (٥)

الصخور المتبلورة تنبثق حتى سطح الأرض وتثقب الصخور الرسوبية حولها، وتكون محاطة بهالات من الكويستات والمنخفضات الطولانية، فنجد حول كتلة الهقّار هالات من الصخور الرملية تدعى تاسيلي كما تتجهه الكويستات نحو قلب الكتلة الجبلية.

ونظراً لعدم تجانس الصخور ببنيتها كالغرانيت، فإنها تتعرض للتفسخ بسرعة بسبب التبدلات الشديدة في الحرارة وبسبب تعدد ألوان حبيبات الصخر من بيضاء وسوداء.

وفي شمال غرب الخرطوم لوحظ أن جحور ثعلب الفنك تكون محفورة في صخر الغرانيت المتفتت، كما أن الصخور الفلدسباتية تكون حساسة بفعل الرطوبة المحلّلة للملح. ولهذا تكون الصخور الرملية مقاومة أكثر من الغرانيت، وهذا ما يفسره بقاء معابد أبي سمبل وتماثيلها منذ قرابة ٤٠ قرناً. كما أن

تعاقب الأوقات المطيرة والأوقات الجافة القاحلة الطويلة تكون مسؤولة عن تشكل الجزر الجبلية أو ما يدعى اينسلبرغ Inselberg كما في منطقة الأقلاب الموريتانية، وعن تفسخ الصخور المتبلورة على شكل جلاميد فوضوية، وعن انعزال هذه الجلاميد بعد أن تقوم الرياح بكنس الحبيبات الصغيرة، وعن وجود سطوح فسيحة شبه أفقيه يظهر فيها الصخر المحلي وكأنه البلاط.

هذا ويحمل تضريس الصحراء الكبرى ملامح تدل على مرور مناخات مطيرة عليها، وليس من المستغرب على من يطير فوق الصحراء أن يرى شبكة من الأودية المتشعبة وكأنها عروق في ظهر يد الإنسان. غير أن الوديان تكون مملوءة بالرمال فاتحة اللون، في وسط رقع صخرية قاتمة، غير أن الوديان تكون أقل قحولة من السفوح الصخرية العالية، وعند هطول المطر الاستثنائي نجدها تغص بالماء الذي يغذي الأغشية المائية الباطنية ويسمح بظهور العشب، غير أن بعض الأجزاء من الصحراء الكبرى تكون فقيرة بمثل هذه الشبكة من الأودية مما يجعلها موحشة جداً كمنطقة تانزروفت الجزائرية، ويماثلها في الوحشة الحمادات، وهي هضاب صخرية عارية والمناطق التي تسمى تاسّيلي كالمنطقة الواقعة في شمال شرق الهقّار، أو الهضاب الكلسية الثلاثية (الدور الجيولوجي الثالث)، وفي منطقة الحمادة الحمراء (جنوب طرابلس الغرب)، أو في جبل السوداء في جنوب بلدة سرت الليبية. هذا وهناك مناطق تدعى السرير وهي مناطق رمال متحركة موحشة جداً (شكل ٦) كما في المنطقة الممتدة بين كتلة تبستي وإقليم مِرْزُق في ليبيا.

أما ما يدعي بالرق (وهي بقاع فسيحة من تربة هشة مختفية تحت غطاء حصوي) فتكون مخيفة أيضاً كما في اقليم تانزروفت (غرب الهقّار) في الجزائر. ولا يقوم الريح المحمل بالرمل بحت عنيف، إذ تنحصر مهمته في غربلة المجروفات الرخوة وبالتالي حملها. وهذه الرمال التي حركتها الرياح
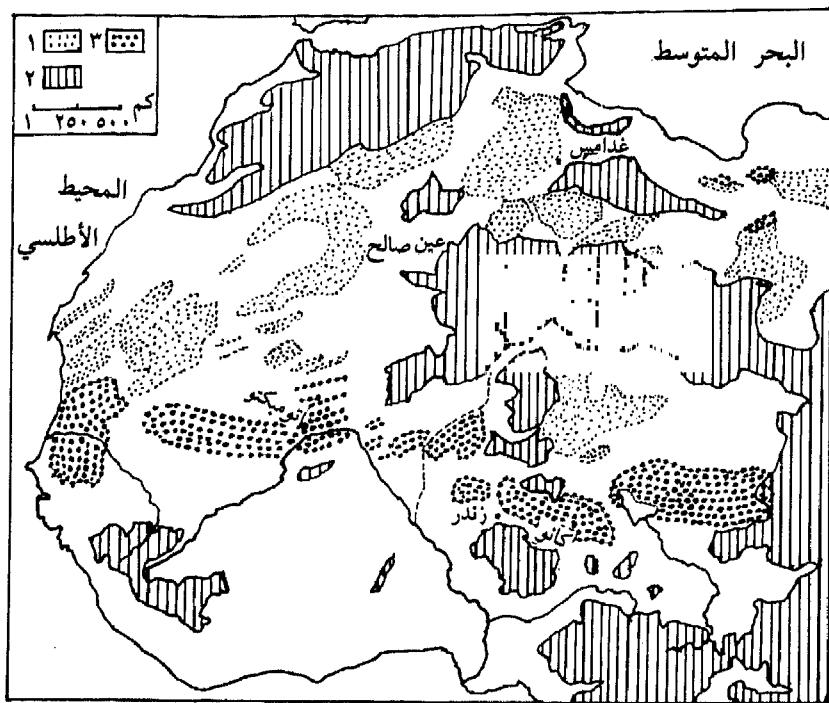
توزع العروق الرملية

المقياس ـــ ١ ٤٠٠٠٠٠٠٠

١ ـ كثبان حية (طعوس) ٢ ـ كثبان ميتة (قوز) ٣ ـ ارتفاعات تزيد عن ٥٠٠ م.

شكل ـ ٦ ـ

تتكدس على شكل عروق تحتل ٢٠٪ من مساحة الصحراء الكبرى، وهذه العروق تكون ثابتة نسبياً كالعرق الشرقي والغربي في الجزائر أو العرق الليبي، ومعظم هذه العروق عبارة عن حبال رملية هائلة تتجه من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي، أي حسب اتجاه رياح الأليزة. وهكذا تبدو العروق الصحراوية الكبرى مؤلفة من كثبان طولانية موازية لأشد المحصلات الريحية وهذا الوضع يوائم الإنسان كثيراً ذلك لأن الممرات بين العروق تكون نظيفة من الرمال وتؤلف طرقاً طبيعية من أرض صلبة كما لا يكون الماء فيها عميقاً جداً.

مشاكل الجغرافية البشرية في الصحراء الكبرى:

إن حصيلة الصفات الطبيعية للصحراء الكبرى تبدو جلية، فهي منطقة نابذة للإنسان، غير أن رقعة هذه الصحراء التي تمتد من المحيط الأطلنطي حتى البحر الأحمر- والتي تبلغ مساحتها ٨,١ مليون كم٢ - تنال أقل من ١٠٠ ملم وسطياً من الأمطار في العام. ولكن الغريب أن هذه المساحة القفراء لا تكون خالية من السكان: فوادي النيل الذي يحتوي على قرابة ٦٠ مليون من السكان يجب أن نتركه جانباً كي نجد أن بقية المساحة لا تحوى أكثر من ١,٥ مليون من السكان نصفهم من البدو. فمنطقة التبستي تضم عشرة آلاف شخص على مساحة قدرها ١٠٠ ألف كم٢، أما منطقة بيليما في جنوب تبستي فتحوي ٦٢٠٠ شخص على مساحة تقدر ٣٥٠ ألف كم٢، أي أنهم أناس ارتضوا لنفسهم العيش في هذه الصحراء الجدباء، ويبدو أنهم ينحدرون من السكان الذين أقاموا في هذه المنطقة عندما كان المناخ أكثر رطوبة ولكنهم تشبّثوا بمواطنهم رغم الشرائط العسيرة التي أدت إلى تحول المنطقة إلى صحراء (شكل ٧).

وهكذا نزح السكان القدامى من المناطق الآخذة بالتجفف كي يلتجئوا بجوار الينابيع ويمارسوا فيها الزراعة المرواة، بيد أن العلماء لا يرون أن سكان الواحات يعودون إلى هذا الأصل، فالحاجة لا تكفي وحدها لاختراع التقنيات للزراعة المرواة، ويرجح أن هذه التقنية قد وفدت إلى المنطقة من الخارج. ترى هل علينا أن نرى في سكان الصحراء الكبرى لاجئين؟.. لاجئين قبلوا الصحراء وارتضوا بها مقابل سلامتهم.

هذه الحالة تصح بالنسبة للمزابيين، وهم من أتباع المذهب الأباضي، في الصحراء الكبرى (شكل ٨).

سكان الصحراء

١ ـ لهجات بربرية ٢ ـ لهجات سودانية ٣ ـ لهجات عربية

شكل ـ ٧ ـ
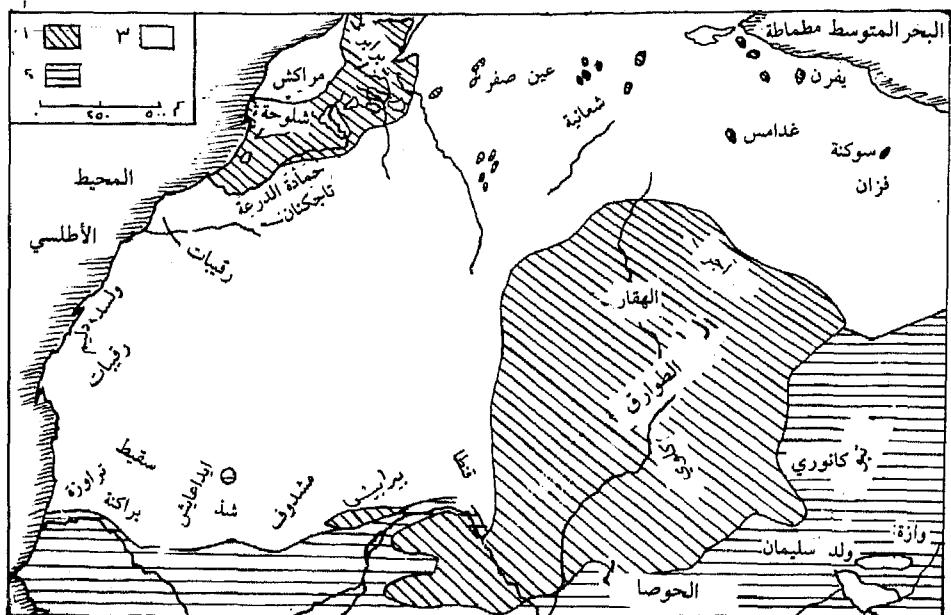
أما البدو فليسوا لاجئين على الوجه الصحيح ولا يمكن عدّهم هاربين ذلك أنهم يجنحون بالأحرى نحو الهيمنة والفتح، غير أننا نستطيع أن نضمهم إلى زمرة اللاجئين لأنهم يحبون أن يجدوا في الصحراء وفي هوامشها السهبية (البادية) أوضاعاً تجعل المؤسسات الحضرية والحكومية تزهد في الاستيطان فيها أي أنهم أحبوا الصحراء وأحبوا الحرية وكرهوا دفع الضريبة.

فالبدوي يتمتع بميزة أنه لا يكون مقسوراً على عمل منتظم، لأن البدوي يحتقر العمل اليدوي، وأكبر مسبّة أو شتيمة في الصحراء يطلقها البدوي هي (يا ابن الصانع) ولهذا تكون العقلية البدوية معادية للتصنيع.

كما أن البدوي يحب الآفاق العالية وبالتالي لا يحب الأشجار إذ لا يستطيع العيش في مكان يرتد طرفه فيه حسيراً.
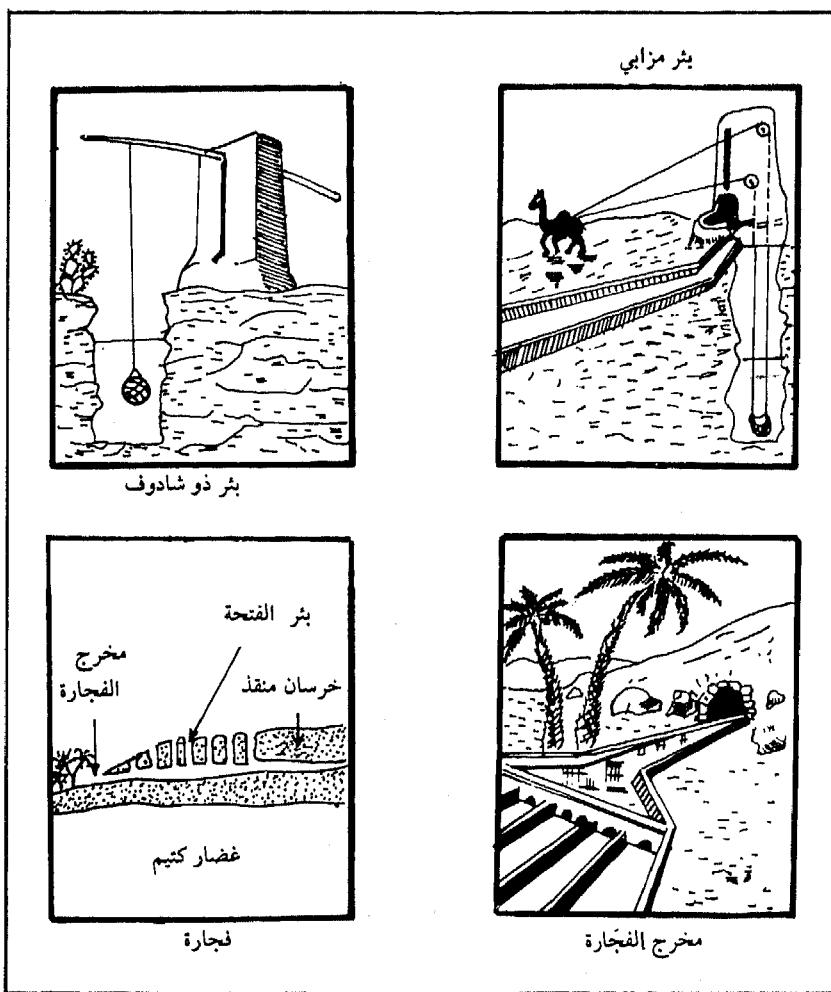
شكل (٨)

والواقع استقبلت الصحراء رجالها وتقنيتها من عالم البحر المتوسط ولا سيما من بلدان آسيا الغربية، حيث جاءها القمح والشعير، والفجّارات وكذلك الجمل، ثم استقبلت الإسلام والعرب البداة وبخاصة في صحاري ليبيا وموريتانيا، ويعتقد أن النخيل دخل المنطقة أيضاً من آسيا الغربية.

ويبدو أن جغرافية الصحراء الكبرى البشرية ستكون مختلفة عما هي

عليه اليوم، لو لم تكن هذه الصحراء على تماس مع أقدم بؤر الحضارة، وأكبر مراكز الكثافة البشرية في العالم القديم، بيد أن أصل عشائر التبو Tebbos وعشائر الجالا Galla في الحبشة، والبهل في السنغال لا يزال غامضاً.

وعلى الإنسان أن يتحمل في الصحراء الكبرى شرائط قاسية من الحرارة والجفاف، وفي قلب الصيف الصحراوي يفقد الإنسان عن طريق التبخر لتراً واحداً في الساعة، فإذا لم يعوض هذا الماء فالنتيجة كارثة، فإذا فقد الإنسان ٥٪ من وزنه هبطت قدرته على الفهم والمحاكمة بمقدار ١٠٪ وإذا فقد ١٠٪ من الماء أصيب بالصمم والتخدر والهذيان. أما إذا وصلت الخسارة إلى ١٢٪ فالموت المفاجىء، ذلك أن الدم المجفف يصبح سميك القوام لزجاً، كما يعجز القلب عن تأمين جريان دموي كافٍ، كما أن الحرارة الداخلية التي لا تنفد وتصرف نحو الخارج، وترتفع إلى الدرجة القاضية، غير أن نتيجة كهذه يمكن تحاشيها إذا شرب الإنسان ما يكفي، إذ يحتاج في الفصل الحار إلى قرابة ٦ ليترات ماء يومياً.

غير أن الإنسان يستطيع أن يمارس العمل في الصحراء، ذلك أن الفلاحين النوبيين الذين يعيشون في شرائط صحراوية مناخية بحتة يُعدّون فلاحين أقوياء، يُعتمد عليهم في مصر في الأعمال التي تتطلب جهداً كبيراً أكثر من أبناء الدلتا، كذلك يكون من المرغوب فيه في مدينة تونس استخدام سكان جبل مطماطة وجبل نفوسة بصفتهم يقومون بأعمال قاسية يتردد أمامها سواهم.

غير أن الصحراء ليست كريمة بالنسبة لمنتجات القطف والصيد ومع ذلك توجد قبيلة في موريتانيا تدعى (النمادي) تعيش من الصيد فقط ويماثلها في بادية الشام عشيرة (الصليب)، وهؤلاء البدو النمادي لا يمتلكون حيوانات للنقل بل يحملون أبناءهم وأثاثهم على أكتافهم عند الانتقال من مكان لآخر.

فهؤلاء البدو يصطادون نوعاً من البقر الوحشي يدعى (الودّان) يأكلون لحمه، كما أن أفراد عشيرة (التدّا) وهي فرع من البدو من تبستي يقطفون من صحرائهم سنابل نبات يدعى بلغة التبو (الكريب). كما أن بدو الهقّار يقطفون سنابل نبات تدعى (التاويث) في مناطقهم، والواقع لا يمكن أن تكون الزراعة وتربية الماشية ـ وهما وسيلتان حقيقيتان للمعيشة ـ إلا في حالة مترابطة، ولولا الواحات المتناثرة في الصحاري والتي يسميها ابن حوقل (الجزر) لافتقر البدو إلى التمور والحبوب ولولا البدوي لما استطاع الحضري أن يؤمن مواصلاته الخارجية، وقد استفاد البدو بوضعهم كوسطاء كي يستغلوا سكان الواحات.

ـ البدو:

إن لهؤلاء البدو عـلى العموم قاعدة يرتكزون عليها ويقيمون فيها معظم أيام السنة كجبال الهقّار أو جبال آيير في قلب الصحراء الكبرى بالنسبة للطوارق، وآبار الشتاء بالنسبة لعرب الكبابيش، ومنطقة آزمّور بالنسبة لعرب موريتانيا من عشيرة الرقيبات. ويربي البدو الأغنام والماعز وبعض الحمير والخيل، غير أن الجمل هو الذي يسمح له بحركة سريعة وجريئة في تنقلاتهم (شكل ٩)، فهذا الحيوان يستطيع أن يظل تسعة أيام دون أن يشرب الماء في أكثر فصول السنة جفافاً، مما يسمح له بالتالي أن يجتاز مسافات طويلة تفصل بين موارد الماء. وعلى هذا الأساس يستطيع الجمل العادي الذي يقطع ٤٠ كم باليوم أن يصل بين بئرين يبتعدان عن بعضهما مسافة ٣٥٠ كم. أما إبل الطراد من نوع المهاري الذي يستعمل في عمليات الغزو ولدى جنود الهجّانة فيقطع مسافة ١٠٠ كم في ٢٤ ساعة وذلك خلال بضعة أيام متتالية، فهذا الجمل مفيد جداً في حياة البدو، وقد انتشر في الصحراء الكبرى في مطلع القرن الثاني الميلادي فقط، أي قبل الفتح العربي بزمن قليل.

وقد سمح الجمل للطوارق ـ وهم بربر وكانوا في تخوم المغرب ـ أن

شكل (٩) طارقي راكب جمله

يبلغوا جبال الهقّار وآيير، كما سمح لقبائل بربرية أخرى وللعرب بالوصول إلى موريتانيا.

وحصل البدو الصحراويون على قدر عظيم من المعرفة في تربية الجمل ويدل على ذلك غنى مفرداتهم بتعابير متعلقة بهذا الحيوان، فلدى قبيلة الحسّانية الموريتانية ٦٧٧ كلمة متعلقة بالجمل منها ٢٩ كلمة تتعلق بأعمار الجمل، و٤٢ كلمة حول طباعه ومزاجه.

ويتحمل الجمل العيش في الصحراء بسهولة غير أنه حساس جداً بالنسبة لبعض الأمراض القاضية التي تعتريه عندما يدخل في سهوب الساحل المداري، أو حينما يدخل في سهوب الشمال، إذ يصاب بأمراض تنقلها الحشرات. وهكذا يعمل الجمل الذي لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة للبدوي على ربط البدوي بالصحراء طالما أن البدوي يهتم بصحة ماشيته، ورغم قناعة الإبل يظل البدوي مرتبطاً بشكل وثيق بنقاط الماء (الآبار). وهكذا تظل مناطق شاسعة من المراعي في الصحراء الغربية مهجورة لانعدام الماء. هذا وتكون الينابيع نادرة غير أن الآبار المحفورة في مجاري الوديان والتي تدعى (قلطة) أو غديراً عند العرب وتدعى (آغلمام) عند الطوارق تكون أكثر عدداً من الينابيع بكثير. أما الأبار الصناعية فتكون غالباً مهملة وتعطي ماءً ملوثاً. ولا تقل الجرعة من الماء قيمة في نظر البدوي عن حفنة من التمر، وهناك مناطق في الصحراء الكبرى معروفة بقلة مياهها مثل صحراء تانـزروفت والتينيري Ténéré في جنوب تونس والصحراء الليبيـة بين عوينات ووادي النيل، ولهذا يقول المثل الصحراوي عن الماء «أرخص موجود وأغلى مفقود».

. أنماط معيشة البدو المختلفة:

يتجول البداة الشماليون الصحراويون شمالاً حيث تهطل الأمطار من الطراز الرومي ويندفعون نحو المغرب العربي. أما بدو جنوب الصحراء

فيتجولون في البادية في الصيف أثناء هطول الأمطار المدارية، ويقصدون الساحل في الشتاء. وهناك بدو لا يخرجون من الصحراء الكبرى، كما أن بعضهم يقيمون بعض الوقت خارج صحرائهم، كما أن بعضهم الآخر يحرث بعض الأراضي مثلما كان يعمل الآخرون على قهر الفلاحين وتحويلهم إلى ما يشبه الرقيق، فقبيلة الكبابيش في السودان عبارة عن بدو أقحاح لا يمارسون زراعة أو تجارة.

أما التبو فلهم في جنوب ليبيا وضع خاص ولونهم قاتم لا يكفي لوضعهم بين الزنوج، كما أن لسانهم الذي يختلف كثيراً عن العربية أو البربرية ينتسب لأصل زنجي أفريقي قديم، وإذا كانوا مسلمين فليس لديهم النظم السياسية الناجمة عن الإسلام، لأنهم فوضويون إلى حدّ بعيد، ويقومون باستغلال الواحات مثل واحة (أونيانغا) و(فايا) الفقيرة التي لا يعود فقرها لسوء الأوضاع الطبيعية بقدر ما يعود لضعف سويتهم التكنولوجية. ولهم مراع متنوعة ومتكاملة مثل مراعي منخفض جورا، أو في كتلة جبال تبستي وفي أطرافها، ولكنهم على العموم عبارة عن بدو قصيري النجعة، غير أنهم يعتمدون على الإبل كثيراً، وقادرون على حملات الغزو البعيدة، وعلى الثأر والتجارة. فقد كانوا في الماضي يهيمنون على الطريق التجارية المتجهة بين الجنوب والشمال، أي بين تشاد وطرابلس الغرب عن طريق واحة مِرزُق أو واحة الكفرة، كما يقومون برحلات تجارية حتى جبل العوينات الواقع على التخوم الليبية المصرية والسودانية، وإلى الغرب من مجال التبو ندخل عالم الطوارق لأن مجال هؤلاء في الصحراء يمتد على ١,٢ مليون كم٢ مع أن عددهم لا يزيد على ١٥ ألف شخص و ٩٠٪ منهم يتكلمون لغة الطوارق ويعيشون في منطقة الساحل، أي في شمال مالي والنيجر. ويبلغ عدد طوارق الهقّار ٢٣ ألف نسمة فوق مساحة تعادل ٥٠٠ ألف كم٢ ونصفهم من البدو. وهؤلاء

الطوارق من العرق الأبيض ولغتهم البربرية، إذن ينتسب هؤلاء إلى الكتلة البشرية المغربية ويُعدّون البقية الباقية من العالم البربري في الصحراء الكبرى، وتنتسب لهجتهم إلى فرع (تاماشك).

أما طوارق الهقّار فهم بدو على مدى قصير، ذلك أن العائلات تنقل مخيماتها على مسافات صغيرة، كما يمارسون من ناحية أخرى نجعة كبيرة إذ يستطيعون في فصل جاف الاحتفاظ بقطعانهم من الإبل تحت حراسة الرعاة على مسافة ١٠٠ كم في السهول الساحلية، وهم تجار قوافل من الطراز الأول، إذ يصدرون الملح الصخري من موقع آمادرور وبيلما وتوديني باتجاه بلاد الساحل على شكل قوافل كبرى تدعى آزالائي، فقد كانت إحدى هذه القوافل المنطلقة من شمال تشاد تضم ١٦٣٣٤ جملاً نقلت ٢١٩ طناً من الدخن وصدرت ٣٩٣ طناً من التمور و ١١٧٥ طناً من الملح. أما طوارق منطقة آيير وهقّار وآجر، فقد كانوا مجتمعاً قائماً على أساس من الحق الأبوي، فهناك طبقة حاكمة نبيلة ورجال أحرار وعبيد من الفلاحين، غير أن العصر الذهبي للطوارق قد ولّى فأصبحوا بحالة متأخرة بالنسبة للمقيمين الحضر، واضطروا لتحرير رقيقهم كما خسروا دورهم كتجار قوافل بعد ظهور نقل ميكانيكي، فأصبحت الشاحنات تخترق الصحراء، ولكن السواقين ليسوا من الطوارق، كما أن الدول الجديدة المختلفة التي أصبح هؤلاء الطوارق تابعين لها أهملتهم واحتقرتهم.

«على أثر جفاف عام ١٩٧٤ ترك الآلاف من الطوارق مواطنهم هرباً من المجاعة، وتدفقوا على الجزائر ولا سيما إلى بلدة تامنراست حيث كان يجري استقبالهم. واستمرت الحركة ذاتها في ١٩٨٤. فقررت الجزائر وضع حد لهذا التيار من المنكوبين في منطقة الساحل عند الحدود وأقامت مواقع للإقامة في عين قزّام، تيم

زاواتن، وبرج مختار، حيث أخذتهم السلطات المحلية على عاتقها. واستناداً إلى أرقام الهلال الأحمر الجزائري فإن هذه المخيمات الثلاثة ضمّت ٤٠٤٧٨ لاجئاً في آخر شهر آذار.

غير أن الطوارق يرفضون الإقامة في معسكرات ويقصدون خلسة مدينة جانت أو تامنراست، وينضمون إلى حي تاهاقّارت حيث يجدون الذين سبقوهم. ويندفع بعضهم نحو المهن الصغرى كالزراعة والصناعة الحرفية أو الحدادة، ويذهب بعضهم نحو ليبيا انطلاقاً من جانت Djanet، ويتابعون طريقهم سيراً على الأقدام حتى الحدود. وعند وصولهم إلى غات، دون عفش، يندفعون نحو العمل ليوفروا بعض المال لتوزيعه على ذويهم الباقين بالجزائر أو يرسلونه لأهلهم الباقين في مواطنهم.

وتنطلق من الجزائر منتجات ضرورية مدعومة من الدولة مثل السميذ والسكر أو الزيت بالشاحنات أو بالقوافل نحو النيجر ومالي، ويستورد في الاتجاه المعاكس الأغنام والإبل. وتسمح هذه التجارة بتموين هذه المناطق الفقيرة مثل آرليت، آغادير وآيير في النيجر، وتسّاليت وتومبكتو وغاءو وادرار الايفوغاس في مالي. وهكذا توفر اللحم لجنوب الجزائر الذي يفتقر إليه ويساعد الطوارق على أمور الحياة.

ولكن مع موجات الجفاف الجديدة أصبحت الأغنام نادرة كما أن الجزائر تعرضت لصدى هبوط أسعار النفط، وأخذت البلاد تفكر في تهريب هذه المواد الغذائية المدعومة من الدولة. وعمدت حكومة الجزائر إلى توقيف تجارة التهريب من البلاد فضلاً عن أن

تدفق البؤساء إلى تامنراست أدى لانتشار الأمراض الجنسية بسبب البؤس، مثلما تعمل حكومة مالي والنيجر على طردهم لأن لون بشرتهم ليس أسود اللون.

وهكذا أصبح المجال الحيوي للطوارق والمؤلف من مراعيهم مقسماً بين عدة دول مفصولة بحدود رسمية. فاضطروا مواءمة نمط حياتهم مع مفهوم الحدود. فكان من عاداتهم الانتقال جماعياً نحو المناطق الخصيبة هرباً من الجفاف والقحط، وكانت القبائل المضيفة تفتح مراعيها للمنكوبين. ففي عام ١٩٠٠ استقبلت قبيلة كل آجّر قبيلة كل آهقّار وفي عام ١٩١٢ نزحت قبيلة كل دنّيك هجرة جماعية نحو نيجيريا... وكان بمقدورهم دوماً العودة إلى مواطنهم على خلاف أيامنا هذه. فقد سبق أن هلك ٣٠ طارقياً من العطش بسبب عدم قبولهم كلاجئين، وهكذا تقضي الشمس والريح والجوع والعطش على كل أولئك القابعين في الأودية دون أية إغاثة في حين يخيم آخرون عند نقاط الحدود. ففي موقع تينزاواتن يوجد ماء ولكن دون غذاء. أما في تيمياوين فيمكن العثور على السميذ ولكن الماء غير كاف».

(مجلة أفريقيا الفتاة عدد ١٣٢٥ ـ ٢٨ أيار ١٩٨٦)

فلدى حكومة الجزائر مشاكل تتطلب الحل أكثر من مشكلة قبائل الطوارق التي تعيش في الهقار أو الآجّر، كما أن زنوج مالي ـ وهم الأكثرية الساحقة ـ لا يحبون الطوارق، لأن لهم ماضياً كبيراً في عصر الرقيق، وحتى في جمهورية النيجر التي تعامل الطوارق معاملة أحسن نسبياً، فلم تزل مشكلة المراعي دون حل مناسب كما كانت في الماضي.

كما أن النزاعات بين الرعاة البهل Peuhls الذين يسكنون التخوم

الجنوبية لموريتانيا والسنغال وبين مزارعي القبائل (الهوسا) شمال نيجيريا قد تؤدي لانعدام المجال الرعوي بالنسبة للطوارق وذلك بحرمانهم من المراعي في الفصل الجاف.

وهناك عرب (بدو) الكنتة، الذين يقتربون من الطوارق ويجاورونهم وتقع مواطنهم الأصلية في جنوب شرق موريتانيا ولا سيما في إقليم (عين عوكر) ويقوم عبيدهم القدامى، أي الحّراطون، بزراعة الدخن في الواحات، في حين يسرحون مع قطعانهم، وقد اتجه نشاط هؤلاء نحو التجارة فيربون الماشية بقصد تحقيق فائض للبيع، فيبيعون الأغنام والإبل والحمير والجبن واللحم المقدد وجلود الماعز والأكياس الجلدية (غرارات) ويتجولون بين واحة غرداية وبين سوكوتو في إفريقيا الغربية، أي على مسافة ألفي كيلومتر، ويتاجرون بكل المنتجات التي يبيعها أو يشتريها أبناء الصحراء الكبرى. وقد اختصت قبيلة الكنتة بتجارة الأقمشة القطنية التي تشتريها من نيجيريا وتبيعها في سائر أنحاء الصحراء الكبرى، ويتميز أفرادها بجودة معرفتهم بالمواقع وبحسن تنظيمهم كما يعتمدون على شبكة من السماسرة وأصحاب المضافات.

أما قبيلتا الرقيبات والقواسم اللتان يتكلم أفرادها اللغة العربية الفصحى فقد اختلطوا بالبربر ويتجولون بين جبل باني - في أقصى الجنوب المغربي - ومنطقة الأدرار- في موريتانيا - وبين اقليم تيريس وعرق الشاش في جنوب الجزائر شرقاً، أي على مسافة قدرها ٢٠٠٠ كم^{٢} في كل من الاتجاهين.. وهكذا تبلغ مساحة مراعيهم قرابة ٦٠٠,٠٠٠ كم^{٢}، مع أن عددهم ١٩ ألف نسمة، كانوا يملكون قرابة ٤٠,٠٠٠ بعير في عام ١٩٧٠، وبالواقع يتجول الرقيبات في الصحراء الغربية وفي المملكة المغربية وفي مالي وفي موريتانيا، ولا يبتعد الرقيبات كثيراً من ناحية الجنوب الشرقي، أي لا يدخلون إقليم

تانزروفت ولا منطقة (المجابة الكبرى)، ومركزهم الرئيس يقع عند جرف (زمور) في موريتانيا الذي ينال بعض الأمطار بسبب الارتفاع الذي يزيد على ٥٠٠ متر، كما يمكن أن تنجح بعض المزروعات في قيعان الوديان بعد فيضانها وهنا لا يخجل الرقيبات كثيراً من استعمال المحراث. أما نجعتهم نحو الشمال فتكون بسبب الأمطار الشتوية على جبال باني في جنوب المملكة المغربية. أما في بقية المناطق التي يتجولون فيها فليس هناك من نسق لنجعاتهم، فهم يبحثون عن المراعي المتولدة عن الأمطار المحلية وغير المنتظمة، ويعسكرون على شكل مجموعات تتألف من ٤ أو ٥ خيام في الشتاء بعيدة نوعاً ما عن الآبار، فالنوق لا تشرب عادة إذا كانت المراعي طيبة. أما البدو فيقتصرون في شرابهم على لبن الناقة ويستعمل الحليب في الطبخ بدلاً من الماء.

أما في الصيف فلا تبتعد المخيمات أكثر من ٣٠ كم عن موارد الماء، وتقوم الحمير بنقل المياه للمضارب، هذا كما أن للرقيبات خبرة تقنية رائعة بالنسبة لصحرائهم، فلهم ذاكرة واضحة جداً عن الطرق، كما أنهم يعدّون رعاةً مهرة قادرين على التعرف على أثر جمل تائه كما يعرفون جيداً طرائق تغذية حيواناتهم فيقودون قطعانهم نحو المراعي الملحة في الوقت المناسب، وتكون حاجاتهم ضئيلة وحياتهم متقشفة إذ تقتصر على صحون من الخشب أو القش وقدر فخار، وظروف (جمع ظرف) أي قُرَب وحصر وبيت شعر، ويشترون قليلاً من التمور والشعير والدخن والسكر والشاي بعد المقايضة عليها بالماشية، وقد كان الرقيبات في الماضي يمارسون الغزو بشكل مخيف، ويعانون الآن صعوبة في تقبل التطور الحديث لأنهم يعيشون منعزلين بعيدين عن المدارس وبالتالي متأخرين.

أما في الصحراء الشمالية فينتقلون بين الصحراء ـ حيث يقيمون شتاءً

ويحصدون بعض الحبوب في الضيّات (جمع ضيّة) ـ وبين منطقة التل (الجبال الساحلية في المغرب). فقبيلة سعيد عتبة التي كان أفرادها ينتجعون باتجاه واحة ورقله الجزائرية، أصبحوا الآن يقطعون مسافة ٧٠٠ كم كي يساعدوا في حصاد الزروع في سهول سرسو الجزائرية، ويظهر أن الماضي لا يعود للوراء فاضطرت قبيلة سعيد عتبة إلى الاستيطان والاستقرار بالأرض وكذلك الحال بالنسبة لقبيلة (الشعامبة) التي كانت من أهم القبائل الخبيرة بالصحراء ولا تقل عن الطوارق، غير أن سهول التل الجزائري لم تعد بحاجة للبدو للمساعدة في الحصاد ولا في النقل، وما إن يستوطن البدوي حتى يفقد كل صفاته السابقة، وهكذا نجد أن سكان الواحات الشمالية في موريتانيا (أي واحات القوارة) كانوا في الماضي بدواً بربراً من قبيلة زناتة، كما أن الشعامبة استوطنوا حول الآبار الارتوازية في واحدة الجولية في الصحراء الجزائرية.

ـ المزارعون الحضر المستقرون:

الزراعة المرواة هي الزراعة الوحيدة الممكنة في الصحراء حيث تقل الأمطار حتى الصفر أحياناً، كما أن التبخر يكون رهيباً إذ يبلغ تحت السقف مقدار ٦٥٠٠ ملم في السنة كما في كدية الجل في موريتانيا. كما أن التبخر يبلغ ٥٦٢٠ ملم في واحة والّه جنوب الجزائر، ونحتاج إلى مقدار يتراوح بين ٢٠٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ م^{٣} من الماء في العام لري هكتار واحد من حدائق النخيل (مقابل ١٤٠٠٠ م^{٣} في سورية). ولهذا تكون الرقعة المزروعة ضئيلة جداً، فمنطقة الهقّار التي تبلغ مساحتها ٣٨٠,٠٠٠ كم^{٢} لا تزيد المساحة المزروعة فيها على ٥ كم^{٢}، كما تصل إلى ٣٠٠ هكتار في منطقة الواد في الجزائر الجنوبية، مع أن مساحة المنطقة تبلغ ٨٠,٠٠٠ كم^{٢}، وما إن يحصل المزارع على الماء هنا بجهد شديد حتى يضطر إلى بـذل جهود أكبر، إذ يجب عليه أن يحسب حساب الرياح المحرقة وأسراب الجراد القادرة على التهام

خضرة واحة بكاملها في بضع ساعات، كما في شتاء ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨، فلا تترك من أشجار النخيل سوى أغصان مجردة وجذوع. كما أن هناك مشكلة إغناء التراب الفقيرة بالمواد العضوية.

غير أن سكان الواحات لا يستطيعون تأمين الغذاء الكثير للماشية، وغالباً ما تقتصر الماشية في غذائها على نوى التمر المجروشة، كما أن علف الواحة المؤلف من أصناف البرسيم يعدّ ممتازاً ولكنه قليل جداً، كما يلجأ بعض سكان الواحات مثل سكان واحة مزاب في جنوب الجزائر إلى استعمال السماد العضوي المنزلي مثلما أن ملوحة التربة تكافح بريّ مضاعف، ويعد ظهور ملح النطرون حتى سطح الأرض قاضياً على إمكانات التربة الزراعية.

غير أن جهد الفلاح في ازدهار الواحات له دور أكبر من دور توافر المياه، فالصحراء الجزائرية الواقعة بين العرق الشرقي ومنطقة (توات) التي تقع فيها واحة مزاب وواحات تيديكلت تعد فقيرة في مصادر المياه التي تستغل بشكل حثيث بوساطة الآبار أو الفجارات (جمع فجارة ـ الفجارة هي القطارة في المغرب ونسميها نحن قناة رومانية وفي ايران كهريز أو قناة، وفي شمال شرق حلب يسميها الأهلون سَرَبْ وجمعها سَرَبات، وفلج وجمعها أفلاج في عمان ونجد).

وعلى العكس نجد أن إمكانات الصحراء في بلاد التبوّ في شمال تشاد سيئة الاستغلال إذ نجد أن النخيل يؤلف هنا غلات لا يمكن اختزانها وقليلة المردود، وتعيش فوق الأماكن الرطبة فيأتي البدو من قبائل التبوّ لجني التمور لكن دون أن يبذلوا أي جهد، هذه الأماكن يمكن تحويلها إلى واحات ممتازة ولكن بعد بذل بعض الجهد.

نماذج الواحات المختلفة:

إن أوسع الواحات تستقي مياهها من اشتقاقات الأنهار أي من فروعها

(والواحة تقابل بالعربية الجزيرة أو الروضة أو غاط ومعناها Oasis الاغريقية) ويقدم الجنوب المغربي أكبر الإمكانات لظهور هذا النوع من الواحات بعد وادي النيل. فلوادي (الدرعة) صبيب وسطي مقداره ١٠ م^{٣} بالثانية عند بلدة (زاكوره)، ولكن نجد في شرق إقليم (تافيلالت) جنوب مراكش نهراً مماثلاً وقادراً على ري واحة كبيرة عن طريق الاشتقاق. وعندما نصل إلى جبال أوراس تخلق المياه هناك واحات الزيبان، وتكون واحات الاشتقاق مصحوبة بمساحات قابلة للزراعة بعد الفيضان الشديد، فتسمى الأراضي الفيضية (معادر)، أو تسمى (غراره) في موريتانيا، أو (ضيّة) في جنوب الجزائر.

وتكون الينابيع نادرة في الصحراء الكبرى نذكر منها (عين الفرس) في غدامس غرب ليبيا وتروي ٤٠ هكتاراً، كما أن بعض العيون تكفي لري النخيل، كما في منطقة (الشاطىء) في إقليم فزّان، وواحات (جانت) في الجنوب الجزائري، وواحات قابس والجريد ونفزاوة في الجنوب التونسي. وهناك آبار ارتوازية طبيعية تغذي واحات الصحراء المصرية الشمالية الغربية مثل واحة سيوه، وهي آخر واحة باتجاه الشرق يتكلم أهلها البربرية، والخارجة والداخلة والفرافرة في مصر، وهنا استطاع الحت الريحي أن يقتلع الطبقات الصخرية الموجودة فوق غشاء مائي ارتوازي واقع في صخور الخرسان النوبي، فبعد انجراف هذه الطبقات بوساطة الريح انبثق الماء فتشكلت تلال صغيرة حول مكان تفجّر العيون بسبب الرواسب الموجودة في المياه. أما الآبار التقليدية قليلة العمق، فكانت تستغل بوساطة الدلو، أو بوساطة شادوف، أما الدلو فهو عبارة عن بئر ووعاء كبير من الجلد وبَكَرة ودرب مائل وحيوان جر، وفي سورية كان يسمى (نصبة) على شط الفرات قبل ١٩٥٤.

أما الشادوف فهو عبارة عن قطعة خشب كبيرة مربوطة بحبل، متصلة بدلو يهبط في البئر كي يمتلىء ثم يصعد ليتم تفريغه في حوض يقود إلى السواقي

التي تسكب مياهها لري السواني (جمع سانية) وهي البساتين في منطقة طرابلس الغرب.

ولكن النواعير أو دواليب الريح قليلة الاستعمال، رغم أن الطاقة الريحية لا تنعدم بهذه الأماكن، علماً بأن دواليب الريح معروفة في بعض أنحاء سورية كالقلمون، وهكذا لا تنتشر المكائن (جمع ماكينة) على نطاق واسع في الصحراء الكبرى، وحتى واحة مزاب في الجزائر فإنها تقوم على الري بوساطة الآبار وقد قامت واحة مزاب في القرن الحادي عشر بعد أن التجأ إليها الخوارج أو الأباضيون الذين هربوا بعقيدتهم من منطقة التل الجزائري وحفروا آباراً تستغل الغشاء المائي الموجود في الصخور الكلسية التوروني (من عمر صخور كلس جبل قاسيون بدمشق) وقد حفرت هذه الآبار في الوديان التي تنتشر فوق هضبة مزاب. وهكذا كانت قلة كمية المياه وعمق الآبار الذي قد تصل إلى ٥٠ م، عالية الكلفة بالنسبة لقيام هذه الواحات. ولهذا يوظّف المزابيون فيها أرباح تجارتهم في مختلف أنحاء الجزائر، وهكذا كانت هذه الواحات عبارة عن مؤسسات فخمة تستهلك رؤوس أموال حقيقية تحقيقاً لغرض ديني. وتعدّ واحة غرادية قلب هذه المنجزات. وهناك الفجارات التي تغوص في أعماق الطبقات الرسوبية كي تدرك أغشية المياه الباطنية ومن ثم كي تحولها نحو المنطقة المنخفضة، وحفّار البئر يجب أن يكون على درجة عالية من فهم الطبوغرافية كي يكون انحدار الماء ليس بالشديد جداً ولا بالضعيف جداً كما قد يتعرض لانهيار سقف النفق فوقه، وعلى هذا المبدأ تم حفر فجارات في واحة توات في الجزائر تمتد على ١٥٠٠ م ويمكن أن يصل صبيب الفجارة كما في واحة تيميون إلى ٥٠ م^{٣} في اليوم وهو ما يكفي لري ٧٠ آراً من النخيل، ويجب بذل عناية خاصة لضيانة الفجارة إذ يجب تجنيبها خطر انهيار السقف مثلما يجب تنظيف الأعشاب والأتربة فيها، وتجديدها بين آن وآخر لزيادة صبيب المياه فيها. أما اليوم فقد أهملت بعض هذه الفجارات، لأن من المعتقد أن العبيد هم الذين حفروها ولا يوجد في الوقت

الحاضر أيد عاملة مأجورة ترتضي العمل الشاق في الفجارات، وظهر استعمال المحركات التي تعمل على سرعة استنزاف المخزون المائي وتملّح الأرض.

هذا وتروى أشجار النخيل في فزان من غشاء مائي، لهذا لا تحتاج إلى الري لأن جذورها تمتد في الغشاء المائي ذاته.

أما فلاحو واحة الصوف في منطقة الواد الجزائرية فيحفرون في الرمال أقماعاً بعمق ٢٠ م يدعى مفردها غوط (أغواط)[١] تتعمق حتى مسافة مترين أو ثلاثة أمتار من الغشاء المائي، ويزرع في قاع القمع نحو ١٠٠ شتلة نخيل يملكها عدة ملاكين وتطرح مشكلة صيانة الأقماع قضية عسيرة وعالية الكلفة، ويتطلب الأمر غرس سعف النخيل بحيث تتمكن من انحراف الريح وبالتالي تمنع اختناق الواحة الاصطناعية بالرمال، وقد استدعى التكنيك الزراعي في واحة الصوف ايجاد تشريع عقاري ماهر ينظم المسافة التي يجب تركها بين قمع وآخر ومدى بعد أشجار النخيل عن بعضها والواجبات التعاونية بين مستغلي القمع الواحد، ونجد مثيلاً لهذه الأقماع إلى الشمال الشرقي من بنغازي وتزرع بالخضار.

وقد ازدهرت الزراعة في الأقماع بعد النجاح الذي حققه تصدير التمور من نوع (دقلة النور) وهكذا تزايد عدد سكان واحات منطقة الواد خمس مرات على عام ١٨٨٠ (شكل ١٠)، وأصبحت مدينة الواد تضم حالياً أكثر من ١٦ ألف نسمة وتبدو ذات أصالة بمنظر قبابها نصف الدائري والمبنيّة بحجارة من القشرة الجصية أو الكلسية أو ما يسمى بحجر الخرش في القلمون وتفكْرْت في الجزائر.

كما ازدهرت واحات منطقة ورقلة في الجزائر ومنطقة ريغ منذ عهد قريب بفضل الأغشية المائية الارتوازية، إذ عثر على غشاء مائي علوي في الصخور الثلاثية (الإيوسين) وفي صخور الكريتاسية (الابثيانية)، هذا ويبلغ عمق الطبقة

---

(١) منها غاط في نجد، وغيط وغيطان في مصر وغوطة دمشق.

شكل (١٠) تمثل مدينة «الواد» رمز الظفر الذي أحرزه الانسان على الرمل. حيث انقلبت الأكثام الرملية التي كانت تشكل خطراً عليها إلى حصن منيع يحميها ويرعاها.

السفلى الكريتاسية ١٦٠٠م، وقد تم الوصول إلى هذه المياه بوساطة آلات الحفر الحديثة.

هذا وقد اتسعت واحات وادي ريغ في منطقة طوقّورت وواحات الصوف في منطقة الواد، وواحات الزيبان (قرب بسكرة) وواحات الجريد (بالجنوب التونسي قرب مدينة توزر) اتساعاً كبيراً بعد تعرف أسواق أوروبا على تمور دقلة النور ولكن يبدو أن استغلال أشجار النخيل قليل الأرباح، وتعد هذه الشجرة أساس حياة سكان الواحة، فالتمور هي غذاء الأهالي كما تقدم النواة بعد جرشها كعلف للإبل والماعز، وتعطي الجذوع دعائم للسقف، كما أن الأغصان تستخدم في صنع الأبواب والحصير المصنوع من أوراق النخيل يصنع منه السقف والحواجز بين الغرف أو تصنع منه السلال والحبال، غير أن النخلة لا تدخل حيز الانتاج قبل أن يبلغ عمرها ثمانية أعوام. وفيما عدا تمور دقلة النور تعد باقي الأنواع خاصة للاستهلاك المحلي وذات سعر منخفض، ويمكن أن تذهب أشجار النخيل ضحية عفن من فئة خفيات الالقاح كعفن البيّوض. ويزرع سكان الواحات تحت أشجار النخيل الحبوب والأشجار المثمرة والتبغ والحنّة والخضار والبرسيم ويكون مردود الزراعة هزيلاً والرقع المزروعة ضئيلة لقلة موارد المياه. ففي واحة تيديكلت لوحظ أن عائلة مؤلفة من ٧ أشخاص أربعة من البالغين تستهلك سنوياً ١٢٥٠ كغ تمراً و٧٥٠ كغ حبوباً وعليها أن تبيع ٣٦٠٠ كغ تمراً كي تستطيع شراء ما تحتاجه. وتعطي النخلة البالغة ٢٥ كغ من التمر في العام ومعنى ذلك أن هذه الأسرة المذكورة تحتاج إلى ٢٠٠ شجرة نخل منتجة لكي تؤمن عيشها أي ما يعادل هكتارين مزروعين تماماً بهذه الأشجار، بالإضافة إلى ١٠٠ شجرة ينتظر منها أن تتحول إلى منتجة، وهكذا نجد أن عائلة تملك هكتارين منتجين من النخيل تعيش بشكل فقير، علماً بأن مزرعة مساحتها هكتاران تعد مستغلّة ممتازة، ولكن من النادر أن يكون المستغل مالكاً إذ كثيراً ما نجد أن مالك الأرض غير مالك الماء، أي يجب عليه أن يدفع قسماً من

المحصول مقابل الماء. وهناك مشاكل اجتماعية واقتصادية فيما إذا كانت الواحة مستغلة من قبل الحرّاطين وهم عبارة عن عبيد من أصل سوداني، فبعد عتق هؤلاء وتحريرهم أصبحوا عبارة عن عمال مياومين أو خمّاسين أي ينالون خمس المحصول دون أن يكون لهم أي حق في الأرض المرواة.

غير أن استغلال البترول في الصحراء الكبرى وفّر للسكان هناك أجوراً عالية، ولكن ما إن تتم عملية الاستخراج والنقل المنظّم بوساطة الأنابيب حتى يتم تسريح هؤلاء العمال، ذلك أن استغلال حقول النفط لا يؤمن مجالات عمل واسعة، لأن العملية ميكانيكية بحتة (شكل ١١). وهكذا تكون أرباح البترول خاصة بالحكومات الصحراوية كالجزائر أو تونس أو ليبيا، ولكن ليست لسكان الصحراء الذين تقدم أرضهم هذه الثروة الهائلة، وقد كان من المنتظر أن تؤدي الثروات البترولية إلى تحديث قسم الصحراء الكبرى، ولكن لم يحدث شيء من
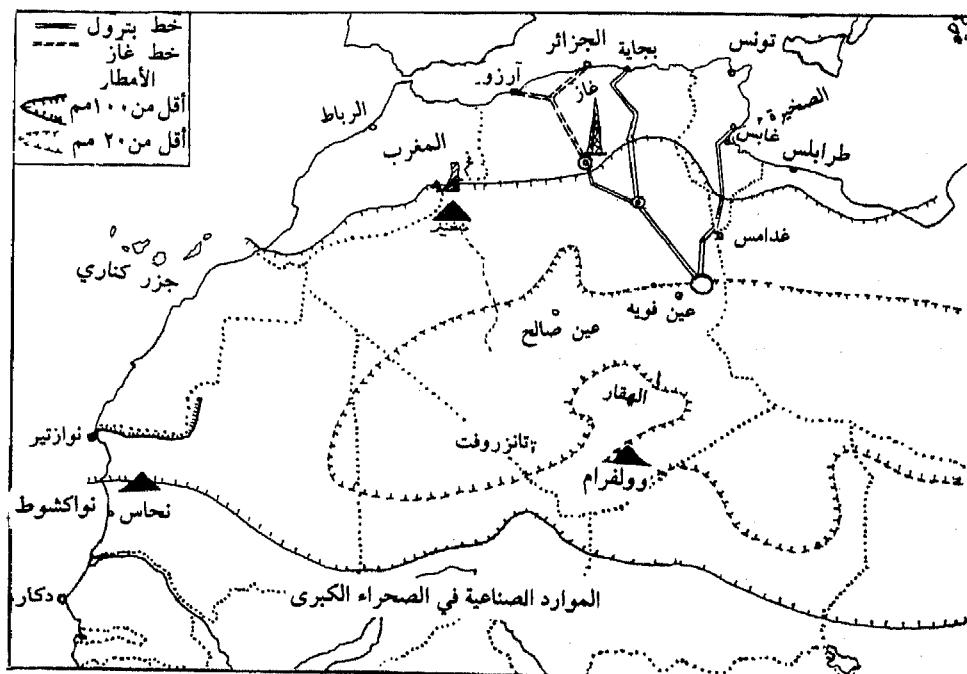
شكل - ١١ -
الموارد الصناعية في الصحراء الكبرى

هذا القبيل، ولسكان الصحراء مستقبل غير براق كما يبدو، وفضلاً عن ذلك يكون الوضع بالنسبة للبدو مأساوياً إذا أصبحت مناطقهم تحت حكم مباشر يقوم به الموظفون الذين لا يحبون الصحراء ولا أهلها. كما أن البدو فقدوا سلطتهم على السكان المستقرين التي كانت الأرض لهم بالماضي وخسروا عبيدهم بعد تحريرهم، وخسروا أيضاً موارد قوافلهم، ذلك أنهم يجهلون تكنيك العصر الحديث، لأن الشاحنات وسائقي السيارات من أبناء المدن قضوا على النقل بوساطة القوافل، والقضاء على حياة البداوة الرعوية سيقضي على أجزاء فسيحة قيمة من الصحراء كان يستغلها البدو بوساطة قطعانهم. كما يبدو أن مستقبل الجمل كحيوان نقل قد ذهب لغير رجعة، وكذلك الحال بالنسبة للجمل ذاته كحيوان للذبح. كما أن سكان الواحات لا يعيشون في شروط أفضل، إذ ليس لديهم ما يصدرونه سوى التمور من نوع دقلة النور، فلا يزالون يعيشون حياة كلها شظف أو يضطرون للهجرة بسبب ضغط السكان لسبب شدة الكثافة.
وسيكون الوضع مختلفاً لو كانت الصحراء داخلة في مجال المدنيّة الأوروبية، إذ يمكن إيجاد مواقع فخمة ورائعة في الصحراء تجتذب السياحة الشتوية بفضل المواصلات السهلة التي تحققها الطائرة، وستكون هذه السياحة جزيلة الفائدة لو استطاع أبناء الصحراء تقديم الجهاز اللازم من الموظفين والعمال في المؤسسات السياحية، ولكن لا يزال هذا الأمل بعيد التحقيق، ذلك أن أبناء الصحراء يعانون كثيراً من التأخر قبل أن يتمثّلوا تكنيك الصناعة الفندقية.

الدول الصحراوية

١ ـ ليبيا

ملامح تاريخية

ـ القرنان ١٣ و١٢ ق. م. اشترك الليبيون في اجتياح شعوب البحر لأرض مصر.

ـ تشكلت بين القرنين التاسع والسابع قبل الميلاد مجموعة المدن الخمس المؤلفة من مستوطنات اغريقية (شحات).

ـ في القرن الخامس قبل الميلاد: سيطرة قرطاج على الموانىء الفينيقية (لبتيس ماغنا «الخمس»).

ـ القرن الرابع قبل الميلاد: تلحق برقة بمصر التي كان يحكمها اللاجيون من خلفاء الاسكندر (البطالمة).

ـ ١٠٦ ـ ١٩ ق. م. الفتح الروماني.

ـ ٦٤٢ ـ ٦٤٣. الفتح العربي الإسلامي.

ـ القرن السابع إلى السادس عشر: تناوب الأسر الحاكمة العربية والمغربية على حكم البلاد.

ـ ١٥١٠ سقوط طرابلس بأيدي الإسبان.

ـ ١٥٥١ القائد البحري التركي دارغوث يسترد طرابلس لحساب العثمانيين.

ـ ١٧١٤ يعلن أحمد باشا القرمانلي استقلاله عن الباب العالي على اقليمي طرابلس وبرقة.

- ١٨٣٥ عودة السلطة العثمانية باستثناء جزء من برقة حيث استقر أتباع الطريقة السنوسية.

- ١٩١١ - ١٢ نشوب الحرب الايطالية التركية وتحولت ليبيا إلى مستعمرة إيطالية.

- ١٩٤٠ - ١٩٤٣ أصبحت البلاد مسرح عمليات حربية بين قوات المحور وبين البريطانيين.

- ١٩٤٣ فرنسا تستحوذ على إقليم فزانْ وبريطانيا تحكم منطقة طرابلس وبرقة.

- ١٩٤٩ استقلال ليبيا على شكل دولة اتحادية.

- ١٩٥٠ تشكيل مجلس وطني يمثل المناطق الثلاث.

- ١٩٥١ ادريس الأول ملكاً على ليبيا.

- ١٩٥٩ اكتشاف النفط.

- ١٩٦٣ إنهاء البنية الاتحادية.

- ١٩٦٩ ثورة يقوم بها معمر القذافي في الأول من أيلولْ ويعلن الجمهورية ويصبح رائد العروبة والإسلام وتشكيل مجلس قيادة الثورة.

١٩٧٤ يتنازل القذافي عن بعض سلطاته. ويصبح عبدالسلام جلّود الوزير الأول.

- ١٩٧٤ وحدة مع تونس دامت يوماً واحداً تحت اسم الجمهورية العربية الإسلامية.

- ١٩٨٠ - ٨١ تدخل عسكري في النزعات الداخلية في تشاد.

جغرافية ليبيا:

مساحتها مليون وثلاثة أرباع المليون كم² مقابل ١,٨٥٠,٥٠٠ نسمة في ١٩٧٠ و٣,٨ ملايين في ١٩٨٧، أي أن الكثافة تقارب ٢,٢ شخص/كم². غير أن الكثافة تصل إلى شخص/ ١٠ كم² في إقليم فزان وهذا يعطي فكرة عن معظم أرجاء ليبيا الخالية من السكان، وقد كان غرب ليبيا مشجراً من قبل الفينيقيين الذين بنوا مدينة أويا oea (طرابلس) في حين كان القسم الشرقي قد عمره الاغريق الذين أسسوا مدينة Cyrèna (شحات الحالية ـ في الجبل الأخضر) ثم أصبحت منطقة برقة تابعة للامبراطورية البيزنطية، في حين أصبح القسم الغربي تابعاً للامبراطورية الرومانية. وبعد الفتح العربي استوطنت ليبيا قبائل بدوية عربية أضيفت للقبائل البدوية البربرية ولا سيما قبائل زناته التي كانت تقيم في المنطقة مما اضطر الحضر إلى تقليص رقعتهم. وقد منحت التجارة الصحراوية إشعاعاً اقتصادياً لمدينة طرابلس مثلما منحت نوعاً من النفوذ للسلطة السياسية القائمة، ذلك أن البدو بقيامهم بمهمة النقل عبر الصحراء كانوا يعملون بصورة غير مباشرة على دعم سلطة المدن والقوة السياسية، مما سمح للسكان الحضر قرب الساحل بمقاومة طغيان البدو. وكان حكم الأتراك لهذه المنطقة عبارة عن حماية لها من غزو القراصنة الاسبان والأوروبيين عموماً. ولم يعمل الاستعمار الإيطالي الكثير من أجل تحسين أوضاع السكان بل صرف عنايته لتوطين المعمّرين الطليان وحصر

السكان الأصليين في مناطق معينة فقيرة جداً، غير أن موارد النفط الهائلة سمحت للمملكة السنوسية التي تأسست عام ١٩٥١ والتي أطيح بها في شهر أيلول (ثورة الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩) ببناء عاصمة جديدة اسمها البيضاء في الجبل الأخضر، وعندما تأسست المملكة الليبية عام ١٩٥١ كانت البلاد مقسمة إلى ثلاث مناطق مرتبطة مع بعضها فيدرالياً وهي: برقة مساحتها ٨٥٠,٠٠٠ كم٢ وكان فيها مليون نسمة وعاصمتها بنغازي، وفزان مساحتها ٥٥٠,٠٠٠ كم٢ وفيها ٦٠,٠٠٠ نسمة وعاصمتها سبها، ومنطقة طرابلس ومساحتها ٤٥٠٥٠٠ كم٢. وفي عام ١٩٦٣ ألغي هذا الاتحاد وقسمت المملكة إلى ١٠ مقاطعات.

وهناك وضع جغرافي يلفت النظر وهو أن النواتيْن الشماليتين تنالان أكثر الأمطار الناجمة عن وجودهما في درجات عرض مرتفعة نسبياً، مما يسمح لهما بالاستفادة من الأمطار الرومية (أمطار البحر المتوسط). أما بالنسبة للجبل الأخضر فارتفاعه البالغ ٨٦٨م يجعل أمطاره تصل في أعالي هذا الجبل إلى ٦٥٠ ملم.

وفي ضواحي طرابلس يكون التضريس أقل عنفاً فينال جبل نفوسه ٢٥٠ ملم مقابل ٣٥٠ ملم في طرابلس أي أن ٥٪ من مساحة ليبيا تنال وسطياً أكثر من ١٠٠ ملم مطر في العام. وإذا كانت النسبة بين ١٠٠ ـ ٢٠٠ فلا زراعة (مراعي) و ٢٠٠ ـ ٣٠٠ تزرع شعيراً وأكثر من ٣٠٠ مم تقوم زراعة بعلية وشجرية كالكرمة والزيتون (شكل (١).

وهناك تباين شديد في مقادير المطر إذ تنال مدينة شحات ٦٠٠ ملم وهو أعلى رقم في ليبيا، في حين تنال قرية المخيلي الواقعة على مساحة ٨٥ كم إلى الجنوب منها ٥٠ ملم فقط (شكل٢).

غير أن ليبيا تحوى لحسن حظها جبالاً قرب ساحل البحر ولو كانت
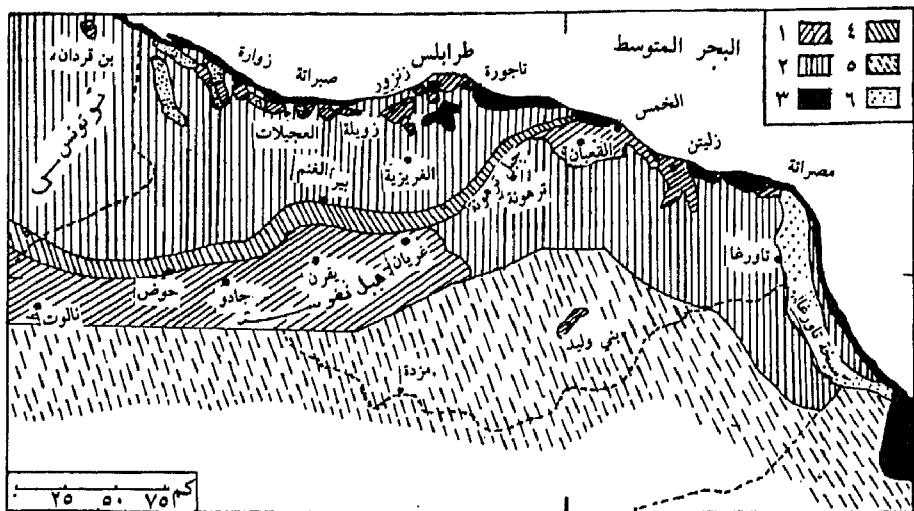
شكل (١)

١ ـ واحات (نخيل، زيتون، تين)
٢ ـ سهب شبه شوكي (مراعي، حبوب غير مستمرة)
٣ ـ كثبان ومناطق رملية
٤ ـ أراضي صخرية (جرف الجبل)
٥ ـ نطاق شبه صحراوي أو صحراوي
٦ ـ أراضي مالحة أو ممالح

السهول المنخفضة الجنوبية تمتد حتى البحر لما كان في ليبيا أية بقعة تنال ما يكفي من الأمطار، فالجبل الطرابلسي الذي يرتفع إلى ٧٢٨ م في جبل نفوسة هو البقية الباقية من التواء محدب يمتد حتى جبال مطماطة التونسية، وينحدر ظهره بميل خفيف باتجاه الجنوب (شكل ٣).

وقد تحطم محور الأنتيكلينال في صدوع نجمت عنها جروف تتجه نحو الشمال (شكل ٤)، وهناك وديان عميقة تقطع هذا الجبل إلى أجزاء متميزة، مثل جبل ترهونة وغريان ويفرن ونفوسة وهي عبارة عن قلاع طبيعية أيضاً. أما الجبل الأخضر الذي يرتفع إلى ٨٦٨ م فهو عبارة عن محدب ناهض من الكلس الثلاثي (الدور الثالث) الذي تنبثق عنه قطع من الكريتاسي في القسم الأوسط. أما بقية ليبيا فهي عبارة عن هضاب من رسوبات تعود إلى الدورين
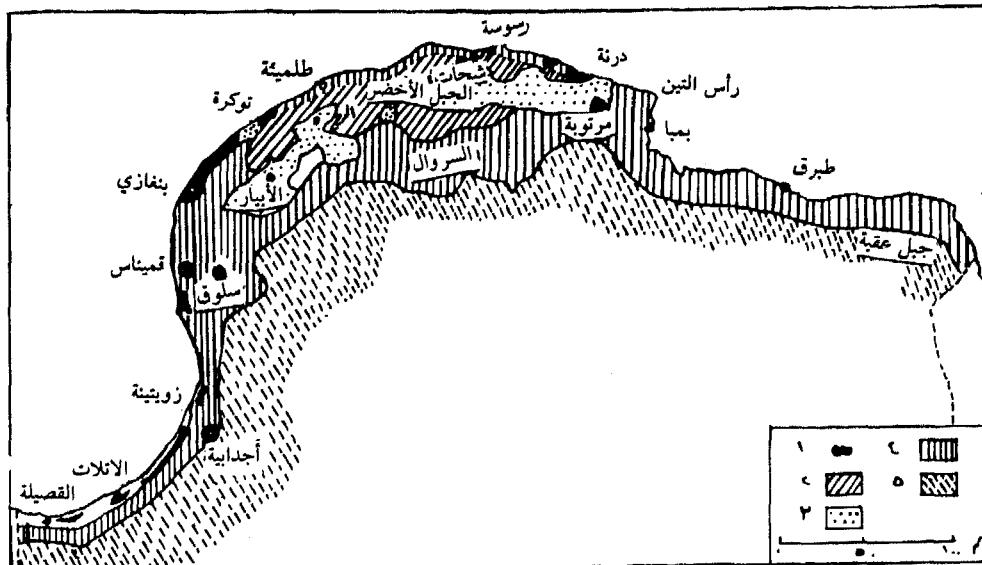
منطقة برقة

شكل (٢)

١ ـ واحات وأراضي مروية
٢ ـ أحراج وغابات ومراعي صالحة جزئياً للزراعة
٣ ـ أشجار مثمرة وحبوب
٤ ـ سهوب ومراعي (حبوب أحياناً)
٥ ـ النطاق شبه الصحراوي.
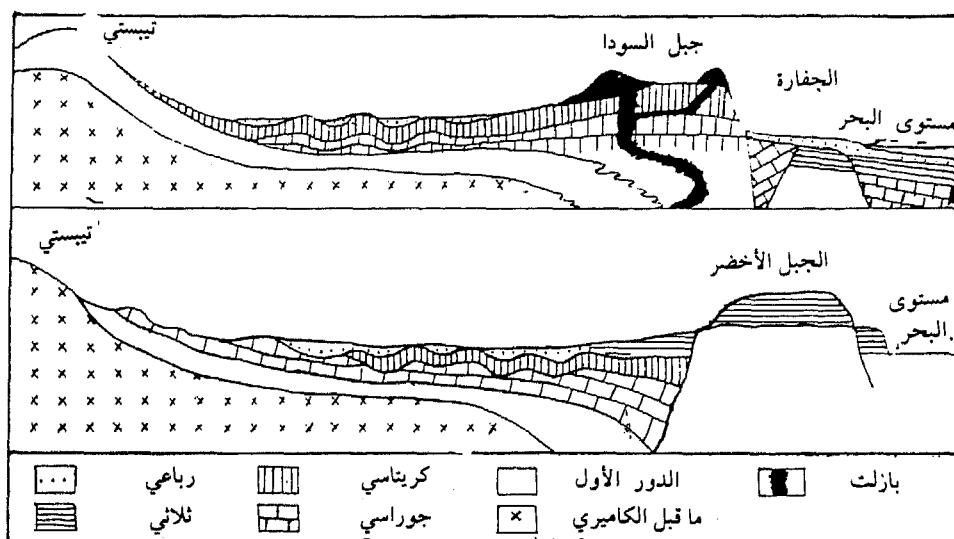
عناصر البنية في ليبيا

شكل (٣)
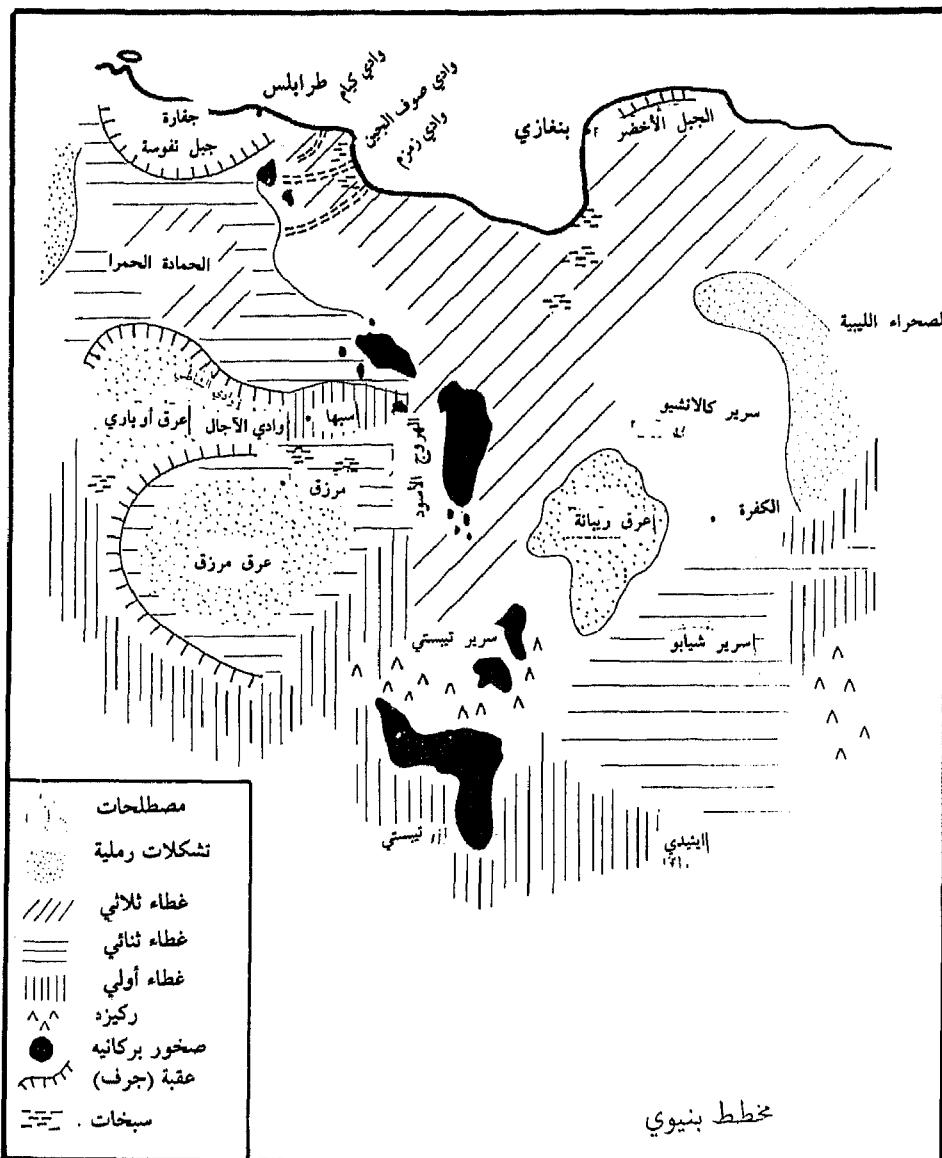
شكل (٤) مخطط بنيوي

الثاني والثالث تحجب الركيزة الصلدة الافريقية (شكل ٥). فإلى الغرب تظهر الحمادة الحمراء في جنوب الجبل الطرابلسي وهي من الكلس الإيوسين، وإلى الجنوب من ذلك تظهر رسوبات كريتاسية وجوراسية يتغطى قسم منها

شكل (٥)

مصور ليبيا الجيولوجي
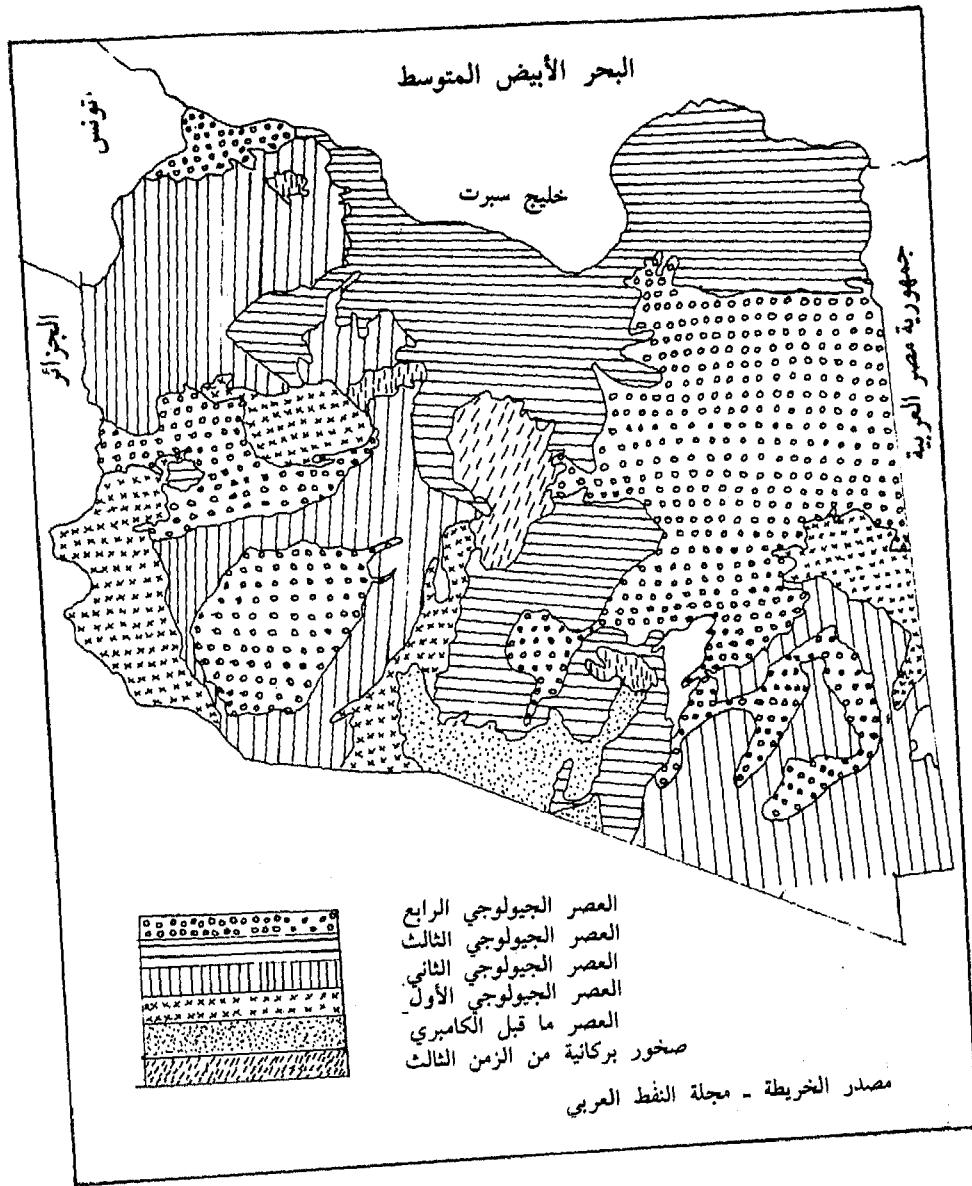
تحت عرقي أوباري ومِرزُق اللذين يفصلهما عن بعضهما واحات فزان، هـذا وتنفصل الهضاب الطرابلسية عندما يصل ارتفاعها ٥٠٠م في الشرق أمام منخفض شمالي جنوبي كان يشغله بحر سيرته القديم، الذي كان يمتد حتى تبستي، والذي يضم الآن أهم احتياطات البترول الليبية، ونجد على طرفي هذا المنخفض الممتد من شمال الشمال الغربي إلى جنوب الجنوب الشرقي صدوعاً عديدة، ولابات بازلتية كما في جبل السودة والهروج الأسود، هذا ويختفي المنخفض الذي كان يشغله بحر سيرته القديم تحت رمال سرير كلنشيو (اسم عالم إيطالي) وعرق الربيانة، وإلى الشرق من ذلك ندخل في فيافٍ شديدة الانبساط مؤلفة من هضاب كلسية ميوسينية في الشمال، ومن العرق الليبي الكبير في الجنوب، ولكي نجد مرتفعات يتشبث بها البصر علينا أن نتقدم نحو الجنوب حتى نصل إلى جبل اركانو وارتفاعه ١٤٣٦م وجبل العوينات وارتفاعه ١٨٥٢م والواقع قرب الزاوية الجنوبية الغربية من مصر.

ليبيا الصحراوية:

تغطي ٩٥٪ من مساحة البلاد، وتحوي القليل من البدو في قسمها الجنوبي، ذلك أن قبائل التبو وهم من البداة الذين يتجولون على مساحة تعادل ٦٠,٠٠٠كم[٢] إلى جنوب خط عرض ٢٦° لا يزيد عددهم على ٣٦,٠٠٠ ألف نسمة. أما العرق Erg الليبي فهو أكثر فراغاً أيضاً. أما البدو الليبيون الحقيقيون فنجدهم في الشمال حيث يتوغلون في الصحراء شتاء، ويقتربون من الساحل والجبال في الصيف.

أما نسق الانتقالات بين المراعي الغربية في الصيف فيتشوش قليلاً بسبب بذار حقول القمح وحصادها في الوديان الشمالية، كما هو الحال بالنسبة لقبيلة العبيدات في برقة، ونجد أجمل الواحات في الغرب، واحة غـدامس التي يتكلم أهلها لهجة بربرية، ولا زالوا يستعملون حتى اليوم كلمات فينيقية

وحتى لاتينية، وكذلك الحال بالنسبة لواحات فزان الجميلة التي تقع بين درجتي عرض ٢٤، ٢٨° شمالاً، والتي لا تنال من المطر أكثر من ٥ ملم في العام، غير أن هذه الواحات غنية بالمياه نظراً لأن بنيتها تلائم انبجاس الأغشية المائية الواقعة في الرسوبات الحاوية الأغشية المائية. ففي واحة الشاطىء تنبثق المياه الارتوازية من خلال صخور الغريـه (الحث)، بعد أن تخترق طبقة من غريه متبلور وقاس. أما في المناطق الأخرى فيكون الري من الآبار ضرورياً مع أنها قليلة العمق. وهناك زمر من الواحات الممتدة من الشمال إلى الجنوب، فواحة الشاطىء تقع عند الحافة الجنوبية من هضبة قرقاف المؤلفة من الغريه العائد للعصر الفحمي، وتضم واحات براك وواحة زلاف الغنية بالمياه، وهناك وادي الآجال الذي يحوي واحتي أوباري وسبها ويقع بينها عرق باري، وبين الجرف التابع لحمادة مِرزُق والمتجه نحو الشمال والمؤلف من الغريه (خرسان، حث) النـوبي العائد للكريتاسي، وهناك خط واحات مِرزُق.
أما واحة فزان فهي خرائب يباب، ونجد فيها أطلالاً من قصور وقرى وبقايا نخيل وفجارات وآبار مهجورة، غير أن المياه الوفيرة لا تستعمل كما يجب، فهذه المنطقة يمكن أن تكون مزدهرة، ولكنها اليوم فقيرة وتخسر سكانها، وتأخذ الهجرة الريفية شكل نزوح أو هرب جماعي، إذ هبط عدد الذين يشتغلون بزراعة النخيل من ١٠,٠٠٠ عام ١٩٣٦ إلى ٢٠٠٠ عام ١٩٦٠ كما تأخذ المساحة المزروعة بالانكماش، وقد كانت فزان منطقة ناشطة جداً عندما كانت خاضعة لسلطة مستقرة كما حدث في أيام مملكة (كانم) ممّا سمح لها أن تستفيد كثيراً من وضعها على أقصر طريق بين السودان والبحر المتوسط، إذ كانت تمر منها تجارة الذهب وريش النعام ولا سيما الرقيق. غير أن انحطاط التجارة الإفريقية بسبب ظهور الأساطيل الأوروبية على سواحل إفريقيا الغربية وانعدام السلطات المركزية الحكومية، أدى لوقوع فزان تحت هيمنة البدو، ولسوء حظ هذه المنطقة فإنها تقع عند التقاء ثلاثة أقوام من بدو

الصحراء الكبرى هم الطوارق والتبو والبدو العرب.

هذا وتتقدم الواحات في منخفض بحر سيرته القديم، وإلى الشرق من ذلك تكون الواحات نادرة وفقيرة جداً، فهناك مجموعة من الواحات الشمالية الصغيرة ولا سيما واحات أوجله وجالو، وجغبوب، وتمتد في مصر بوساطة واحة سيوه ومنخفض القطارة، وإلى الجنوب من ذلك نجد واحات أقل رقعة أيضاً مثل واحات تازربو وزيغن والكفرة والجوف والتي تكون شديدة الانعزال. وفي هذه الواحات تمارس الزراعة على الرمال النقية التي لا تحوي دبالاً ولا غضاراً لكن الحرّاطين هنا يسقون الأرض مرتين في اليوم مما يمكنهم من الحصول على محاصيل مرضية من الذرة البيضاء والبندورة والثمار، وانعدام الغضار يحول دون تثبت الملح عند سطح الأرض لأنه يغسل بمياه الري ذاتها. غير أن اكتشاف طبقة مياه مستحاثة في واحة الكفرة سمح بنشوء مزارع خضار وحبوب (شكل ٦) وتربية أغنام حديثة للغاية وهناك مشروع لجر هذه المياه العذبة نحو مدن الساحل المفتقرة للمياه العذبة وهو مشروع النهر الصناعي العظيم.
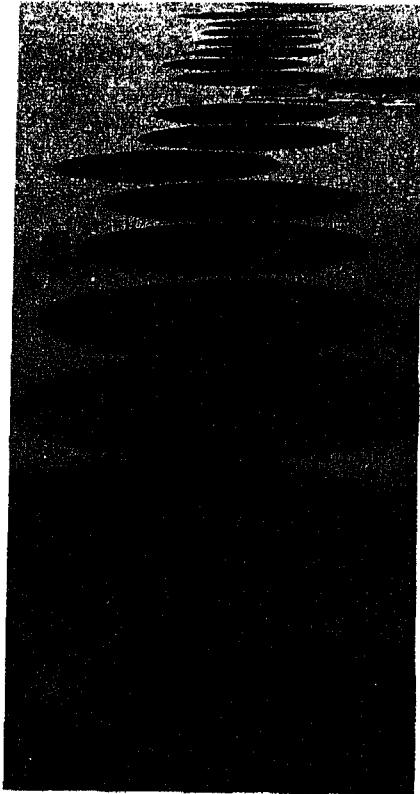
شكل (٦) مزارع حديثة للغاية في واحة الكفرة، ري محوري، كما في نجد بالمملكة العربية السعودية.

ليبيا المتوسطية:

لا تكون هذه المنطقة بمنجى من تأثير الصحراء، فتكون أمطارها شديدة الاضطراب كماً مثلما تتعرض لريح الصحراء. وتسبب الجبال الطرابلسية أمطاراً سمحت بقيام قرى دفاعية يسكنها فلاحون نشيطون من أصل بربري، ولهذا ظل سكان جبل نفوسة الراغبون في الحفاظ على استقلالهم ضد البدو أوفياء لمذهبهم الأباضي أي الخارجي كما في مزاب وفي جزيرة جربة وفي عُمان، وتستغل المياه هنا بعناية فائقة بوساطة السدود والاشتقاقات، فيزرعون قيعان الوديان التي تروى بمياه السيول كالحبوب، في حين تكتسي السفوح بأشجار التين والزيتون، بينما تظهر أشجار النخيل قرب الينابيع. وتتشبث القرى المحصنة في الأماكن المرتفعة حتى أن بعض القرى تكون عبارة عن كهوف وهي مساكن محفورة في خاصرة الأودية، أو بدءاً من بئر على شكل باحة تحفر حوله الغرف المتعددة. أما الحبوب والأشياء الثمينة فتوضع بأماكن مغطاة بقباب تدعى القصر وتكون تحت الحراسة المشددة، ونظراً لأن قيعان الأودية لا تنتج ما يكفي من حبوب بالنسبة للسكان في هذه الجبال فيضطرون لزراعة بعض المناطق كسهل الجفارة أو فوق الهضبة الجبلية التي تسمى الظهرة، أو في الوديان المنحدرة من الجبل. هذا ويزرع سهل الجفارة ذو الترب الخفيفة زراعة بعلية تكتفي بأمطار تتراوح بين ٢٠٠ ـ ٢٥٠ ملم وبخاصة الشعير. ويمكن للزيتون أن يزدهر في هذه الأوضاع تماماً كما حدث في صفاقس التونسية، ونجد أن الجفارة مجال مراع وزراعة واسعة نحو الجنوب.

أما الساحل الممتد بين زوارة ومصراته، فهو عبارة عن سبحة من الواحات أو البساتين (السواني) المرواة بوساطة المضخات أو الدلو، وهي عبارة عن حقول رباعية الأضلاع محمية بأسوار من تين الصبار، ويزرع فيها الحبوب والصبار والخضار، هذا ويزرع الفلاح أيضاً الشعير فوق المناطق التي تنساح عليها مياه السيول القادمة من الجبل.

أما سكان الجفارة فهم عبارة عن بدو أكثر من حضر رغم معاناتهم الزراعة، فيعيشون تحت الخيمة كي يتبعوا أغنامهم وماعزهم رغم اعتنائهم بالشعير المزروع على مياه الفيضان.

أما برقة الأكثر أمطاراً فتحوي على أراضٍ حمراء طيبة لا سيما في سهل برقة أو المرج وفي العديد من الدولينات (الدولين أو الجوبة ـ البولييه أو الدارة) وهي عبارة عن سهول منبسطة أفقية حيث تكون الزراعة ممكنة بلا ري (شكل ٧).
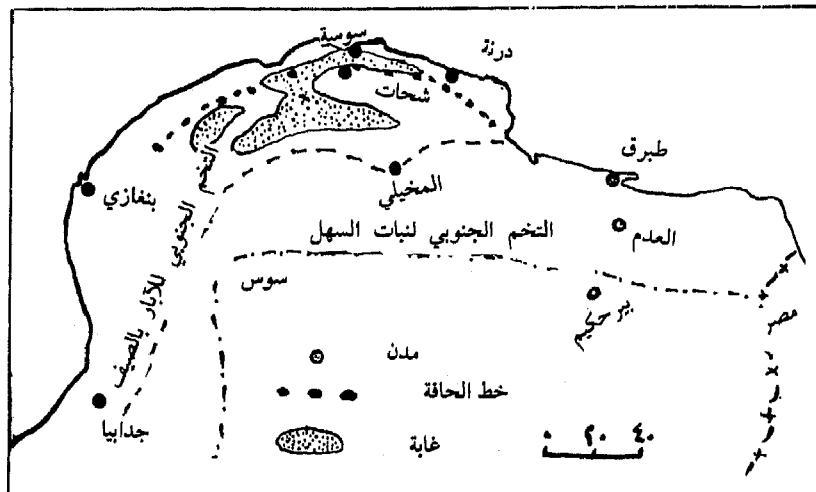
شكل (٧)

هذا وتكون البنية موائمة لتشكل أغشية مائية تخرج على شكل ينابيع ممتازة فوق الطبقات الكتيمة مثل المارنيات بالنسبة لعين شحات أو ميوسينية بالنسبة لعين القبة، وهكذا تبدو المساحات الصالحة للزراعة البعلية مثلما تبدو الينابيع المائية ناقصة الاستغلال بسبب تأثير هيمنة البدو المثبطة للهمم، وهكذا يجد السكان الزراعيون أنفسهم في أوضاع طبيعية أفضل من منطقة طرابلس ولكن في أوضاع اقتصادية رديئة، ففي بنغازي تبلغ كثافة الريفيين

٧٠/كم[٢]، كما أن الأمطار لا تكون دائماً كافية لزراعة بعلية، كما أن الترب الغضارية جداً سرعان ما تتشبع بالملوحة، ولهذا تحتاج للري ولكن يجب تحاشي حفر الآبار العميقة لأن مياه البحر سرعان ما تتسرب لهذه الآبار.

ولا تفتقر منطقة برقة للمناطق الزراعية الجيدة، ومع ذلك يمكن تفسير كثافة السكان بجوار بنغازي لأسباب بشرية، إذ قامت فيها ثكنة تركية لحماية المنطقة والميناء من غارات البدو، فتشكلت نواة مدينة تضم الآن أكثر من ٣٥٠ ألف نسمة وقد استوطن الطليان منطقة برقة ولا سيما سهل المرج على شكل مزارع مستقلة سرعان ما أخلوها في أواسط الحرب العالمية الثانية، ويبدو أن الزراعة في هذه المنطقة لم تصل بعد لما كانت عليه في أيام الرومان، إذ كانت تنتشر على مساحة ٥٠ ألف كم[٢] وبخاصة في الهامش الصحراوي جنوب الجبل الأخضر.

ولا تزال آثار خزانات مائية تشهد على ازدهار المنطقة الغابر، هذا ويمكن طبعاً إعادة هذا الازدهار، ولكن إذا تخلصت المنطقة من الحياة الرعوية التي كانت مستفحلة فيها حتى مطلع السبعينات حين انتشرت زراعة الأشجار المثمرة الأكثر ضماناً من الزراعة البعلية التي يسمّيها الأستاذ «بيرو» زراعة اليانصيب.

إمكانات ليبيا ومصاعبها:

من المستغرب أن تنتظر ليبيا حتى عام ١٩٥٥ كي تبدأ فيها أعمال بحث جدية عن النفط في المنخفض الواقع جنوب خليج سرته (سدره) وتبدو احتياطات النفط في المحدبات الكلسية الكريتاسية والإيوسينية ضخمة وقليلة العمق نسبياً فضلاً عن قربها من البحر، وتكون شروط استغلال النفط بشكل عام أفضل من أوضاع استغلال النفط من الصحراء الجزائرية، فالإنتاج الليبي

يتقدم بسرعة إذا ارتفع إلى ٦٠ مليون طن عام ١٩٦٥ وإلى ١٢٥ مليون طن عام ١٩٦٨ وهبط إلى ٧٣ مليون في عام ١٩٧٤ و٥٣ مليون في عام ١٩٨٣ و٨,٥٠ في عام ١٩٨٦. ولكن الثروة البترولية على ضخامتها لا تستطيع أن تزيل كل المصاعب الاقتصادية والاجتماعية، فالنفط يؤلف وحدة ٩٩,٥٪ من قيمة الصادرات (شكل ٨). أما الباقي فيبدو هزيلاً جداً إذ تصدر ليبيا البندورة على شكل معلبات والفول السوداني وبعض الحمضيات والعنب، أي أن اقتصادها يقوم حالياً على مادة واحدة شأن الكويت وأبو ظبي والسعودية
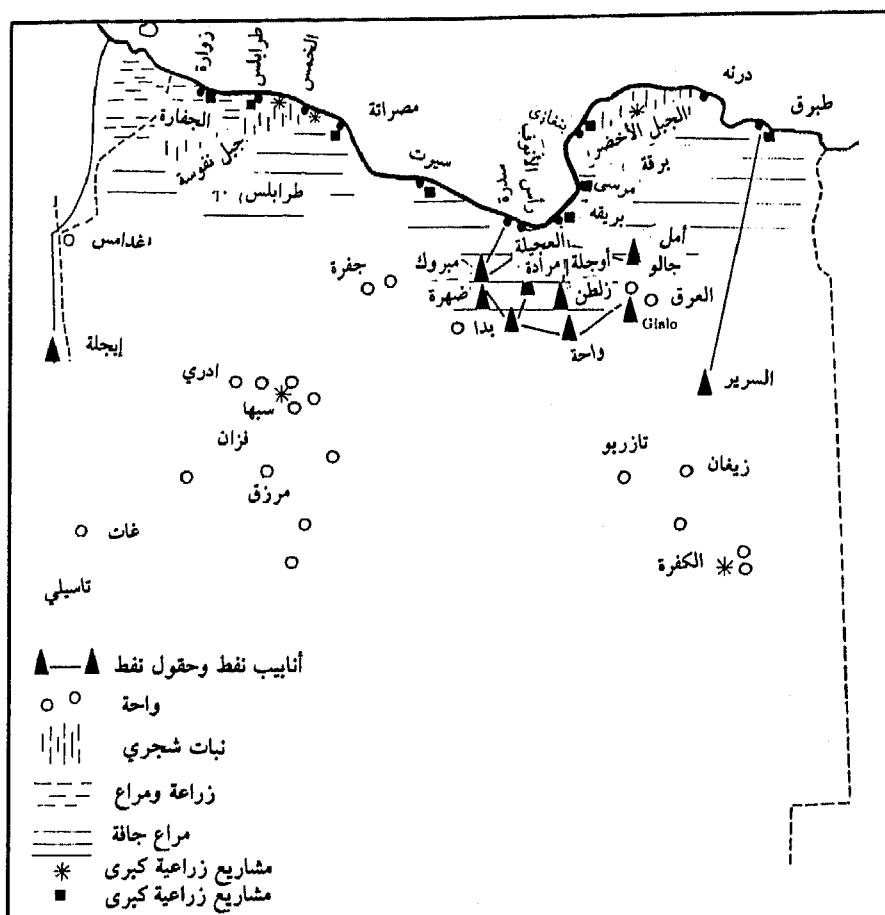
شكل (٨)

وقطر. وهكذا أصبحت ليبيا عاجزة عن إنتاج غذائها فالمساحة المزروعة لا تتجاوز ٢٥٠ ألف هكتار، ويبدو أن الإمكانات الزراعية والرعوية لا تستغل حسب طاقتها وقد برهن الطليان أثناء حكمهم للبلاد على وجود إمكانات كبيرة لتحسين الإنتاج الزراعي ولا سيما في مجال الحبوب واللوز والحمضيات والعنب وزيت الزيتون والباكوريات (الخضار المبكرة).

ويوفر النفط رساميل ضخمة من أجل التوظيف في المجال الصناعي أو الزراعي، ولكن العقبات تظهر على الصعيد الاجتماعي، فبالنسبة لأكثرية الليبيين ـ وهم من أصل وعقلية بدوية ـ تبدو الزراعة في أعينهم غير جذابة. وهكذا ظهرت هجرة شديدة باتجاه المدن فأصبحت طرابلس تحوي أكثر من ٦٠٠ ألف نسمة (شكل ٩)، ويعتقد أن سكان بنغازي يزيدون عن ٣٥٠ ألف نسمة أي أن أكثر من ٤٠٪ من السكان في المدن، ويعيش الخمس من سكان العاصمة في أحياء القصدير (الصرايف ـ العشش) أي أن هناك الكثير من
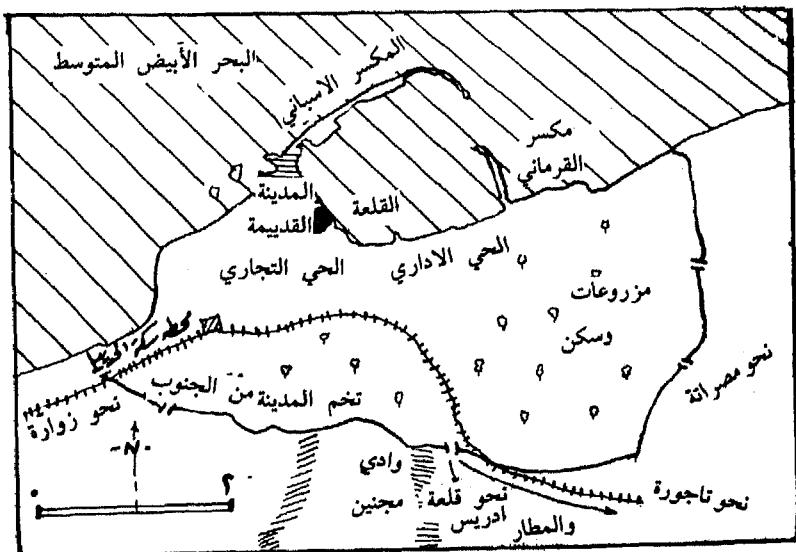
شكل (٩)

موقع مدينة طرابلس ومورفولوجيتها

العاطلين عن العمل. غير أن ليبيا تحتاج لاستقبال الكثير من العمال المختصين أي ذوي المهارات من مختلف العالم، ومنذ عهد قريب، من البلدان العربية بشكل خاص، غير أن البترول لا يستطيع أن يوفر العمل لسكان المدن، لأنه لا يؤمن العمل لأكثر من ٥٪ من القادرين على العمل. ووفرة الأموال الناجمة عن النفط لا تؤدي لغنى الفقير أي أنها تخلق مصادر حقيقية تتعرض لتضخم ناجم عن المرتبات شديدة الارتفاع، وهكذا يبدو أن ليبيا تحوي كثيراً من المتناقضات الناجمة عن قلة السكان من ناحية وكثرة الأموال التي لا تتوظف إلا بصورة جزئية في صناعة البناء أو في التجارة الخارجية القائمة أساساً على استيراد المواد الاستهلاكية.

دور البترول الليبي:

لقد ظلت ليبيا تعد أكثر بلدان العالم الثالث فقراً، فأصبحت في خلال بضعة أعوام إحدى أكثر دول العالم العربي غنى، ويأتي الدخل الفردي المتوسط فيها في الوقت الحاضر بالدرجة الرابعة بعد الكويت، وبعض الإمارات في الخليج كأبي ظبي وقطر، ويكون دخل الفرد في ليبيا أعلى دخل فردي في إفريقيا، وهذا التغير في الوضع يعود للنفط لأن ليبيا عام ١٩٧٠ كانت سادس منتجة عالمية للنفط بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وفنزويلا وإيران والسعودية. ورابع مصدر عالمي، ويبدو تاريخ الإنتاج النفطي الليبي موجزاً جداً ومتسارعاً جداً، وأكثر ما يدهش هو سرعة الوصول لأوائل النتائج الطيبة. وكذلك السرعة المذهلة في تزايد الإنتاج ومن صحيح القول إن ليبيا استفادت من أوضاع جغرافية ممتازة ومن ظرف سياسي دولي موائم جداً.

فالظروف الجغرافية المشجعة هي أهمية الاحتياطات من البترول لأنها تعادل ٦,٦٪ من مخزونات النفط العربي في عام ١٩٦٩، أو قرابة ٥ مليارات

طن، بالإضافة إلى الإنتاجية العالية في أكثر الآبار، فمثلاً في عام ١٩٦٨ كان الإنتاج اليومي في الآبار المنتجة للنفط بالأطنان كما يلي في الأقطار التالية:

الولايات المتحدة	٢,٣٥	طناً يومياً
أمريكا الشمالية	٩,٣	طناً يومياً
أمريكا اللاتينية	٢٣	طناً يومياً
أوروبا الغربية	٨,٢	طناً يومياً
أوروبا الشرقية	١١,٨	طناً يومياً
أفريقيا الشمالية	٢٧٠	طناً يومياً
أفريقيا الغربية	١١٣	طناً يومياً
الشرق الأقصى	٢١	طناً يومياً
أوقيانوسيا	٣٢	طناً يومياً
الشرق الأوسط	٦٤٠	طناً يومياً

وكذلك وقوع مكامن النفط بقرب ساحل البحر مما يجعل أرباحها أكثر من المكامن الصحراوية في الجزائر البعيدة عن موانىء التصدير، ولا سيما قرب السوق الأوروبي المستهلك بالموازنة مع نفط بلدان الخليج، وهذه ميزة قد ازدادت كثيراً بعد حرب حزيران ١٩٦٧ وإغلاق قناة السويس، مما برهن على ضعف موقف الشرق الأوسط من الناحية النفطية، وجعل البترول الليبي منافساً خطيراً في السوق الأوروبية بالنسبة لبترول الخليج وأدى تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ إلى تهافت الشركات الأجنبية للحصول على أرخص تنقيب عن النفط في ليبيا، مثلما حدث في أعقاب تأميم بترول إيران بين عامي ١٩٥١ - ١٩٥٥ ذلك التأميم الذي كان برداً وسلاماً على الكويت، وهكذا استفادت ليبيا من التوتر الذي ساد الشرق الأوسط.

وهكذا تحتل ليبيا منذ بضعة أعوام مكاناً فريداً في جغرافية بترول الشرق

الأوسط، وظهور البترول الخام الليبي بصورة كثيفة وفجائية على سوق المحروقات السائدة أدى لانقلاب في المعطيات التقليدية للانتاج النفطي في بلدان البحر المتوسط والشرق الأوسط، ويبدو اليوم أن السياسة التي تتبعها حكومة طرابلس تؤثر أكثر من الإنتاج الليبي في موقف الدول المنتجة الأخرى، فليبيا قليلة السكان، لأن سكانها في العام (١٩٨٧) كانوا ٣,٨ ملايين نسمة يتمتعون بمداخيل نفطية عالية كانت تزيد على مليار دولار في عام ١٩٧٠ وعلى ٦ مليارات دولار في ١٩٨٦ بعد أن كانت ١٢ ملياراً في عام ١٩٨٠، مثلما تملك ليبيا مخزونات واحتياطات كبيرة من القطع النادر، مما يسمح لها بتخفيض انتاجها وإقامة صناعة تحويلية على أساس متين، كما تستطيع أن تهدد الشركات العاملة في بلادها بإغلاق بعض الآبار فيما إذا لم تستجب هذه الشركات لمطالبها، ويبدو الموقف الليبي ثورياً وقد تتأثر بهذه دول أخرى منتجة للنفط أقل ثورية بكثير مثل إمارات الخليج، وقد أصبحت ليبيا في عام ١٩٧٠ تتقاضى ٣,١٠ دولارات عن كل برميل يصدر من البلاد.

هذا وتعاني ليبيا من أزمة اقتصادية خطيرة بسبب انخفاض سعر النفط. وعمد العقيد معمر القذافي لتعديل حكومته في مطلع آذار ١٩٨٧ وذلك بتعيين تقنوقراطيين مجرّبين، كما خفّف من لا مركزية الادارة في كل البلاد والتي ستكون مصحوبة بتشييد عاصمة جديدة هي الجُفْرُ في الصحراء بين سيرت وسبها والتي يقوم البناء فيها على قدم وساق. ويحاول فضلاً عن ذلك التقارب من الجزائر. فعقد اجتماعات عديدة مع الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد منذ ١٩٨٦/١٢/٤ وبعد إقامة امتدت بالعاصمة الجزائرية من ١٤ إلى ١٦ حزيران ١٩٨٧ وتنوي ليبيا تحقيق «عمل وحدوي في كل المجالات» ولكن لا تُعرف الأشكال التي ستتخذها هذه العلاقات. وإذا كانت العقوبات الإقتصادية التي فرضتها الولايات المتحدة بدءاً من عام ١٩٧٩ قد أوقفت فعلاً

لوحة اقتصادية عن ليبيا (آلاف الأطنان)

المادة	١٩٧٤	١٩٨٥	١٩٨٦
القمح	٤٩	١٤٩	—
الشعير	١١٢	٨٠	٩٠
الليمون	٢	٢٠	٢١
برتقال ويوسفي	٢٦	٧٣	٧٨
زيتون	٩٠	١٢٨	١٢٠
زيت زيتون	١٦	٢٦	٢٢
تمور	٦٢	١٠٠	١٠٥
فستق عبيد	١٣	١٤	—
تبغ	١,١	١	—
الأبقار	١٢١٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	—
الأغنام	٣,٢ ملايين	٥,٥ ملايين	—
الصوف	٤,٩	٩	٩
كهرباء	٨٤٤ م.ك وس	٨١٧٠ م.ك وس	—
بترول	٧٣,٣ م. ط	٥٠,٦	٥١,١
غاز طبيعي	٢٨٠٠ م م٣	٥٢٠٠	٤٣٠٠
اسمنت	٥٠٠	٦٥٩	—
اسطول	١٦٠	٨٥٣,٨	٨٢٥,٢
الاستيراد بالدينار ملايين	٨١٧,٧٩	٢١٢٤	—
التصدير بالدينار ملايين	٢٤٤٥,٧١	٣٢٠٩	—

أي تجارة بين القطرين، فقد كان لها نتائج اقتصادية ضعيفة لأنه إذا كانت فرنسا وألمانيا الغربية واليونان قد خفضت مشترياتها من النفط الليبي في ١٩٨٥ و١٩٨٦، فإن إيطاليا (التي أصبحت ليبيا ثاني مصدّر للبترول لها بعد السعودية) وإسبانيا التي زادت كثيراً من مشترياتها من الغاز الطبيعي بدءاً من عام ١٩٨٦، قد ساهمتا في تخفيف حدة هذه المقاطعة: فقد تراجعت الصادرات نحو الولايات المتحدة من ٥٥٣ مليون دولار في ١٩٨٢ إلى مليونين في عام ١٩٨٦ مثلما هبطت مبيعات الولايـات المتحدة إلى ليبيا من ٣٠١ مليون دولار إلى ٤٦ مليون دولار. أما مبيعات البترول فلم تزد على ٦ مليارات دولار في عام ١٩٨٦ أي بتراجع بلغ النصف. غير أن زيادة الانتاج

بتراجع بنسبة ١٠٪ وتحديداً شديداً للاستيراد المخصص للمنتجات الضرورية الأولى: منتجات غذائية، وصيدلية وقطع تبديل قد سمحا بتحديد النتائج، ذلك أن احتياطيات العملة الصعبة قد زادت كما أن ميزانية الاستثمارات ظلت على مستوى مماثل لمستوى عام ١٩٨٥. ولكن الميزانية العامة للدولة قد انخفضت بمعدل ١٢٪، ووجدت ليبيا في عام ١٩٨٧ صعوبة في العثور على زبائن لشراء بترولها الخام حسب الأسعار الجديدة مما أدّى لانخفاض الانتاج بنحو ١٢ ـ ١٥٪. وقد باعت ليبيا حصتها في شركة فيات وهي ١٥٪ بمبلغ ٣ مليارات دولار. ولكن تستمر ليبيا في مجهودها العسكري الذي يمتص ٢٠٪ من الميزانية العامة أو ١٣٪ من الناتج القومي الخام. ويعمل ١٧٪ من السكان بالزراعة (٤٪ من الناتج القومي الخام) و٢٪ بالبترول (٤٠٪) و٧٪ بالصناعة (٩٪) ويعمل ٢٦٪ بصناعة البناء (١١٪) و٤٨٪ في الخدمات (٣٦٪) وتظل السوق الأوربية المشتركة رغم كل التقلبات الحالية أول زبون وأول مصدّر إلى ليبيا.

«الجمهورية الموريتانية الاسلامية»

تاريخ موريتانيا في سطور:

- بين القرن الثامن والتاسع انتشار الإسلام.
- في القرن الحادي عشر استقـرا مرابطون محاربون في سائر مدن بلاد الشنقيط.
- في حوالي ١٤٠٠ قدوم العرب الحسانية واستيطانهم في المناطق القريبة من الساحل.
- ١٦٧٤ الحسانيون يصبحون سادة البلاد.
- ١٩٠٢ بداية التدخل الاستعماري الفرنسي.
- ١٩٢٠ موريتانيا تصبح مستعمرة ضمن أفريقيا الغربية الفرنسية.
- ١٩٣٤ نهاية الفتح الفرنسي.
- ١٩٤٦ موريتانيا أرض ملحقة بفرنسا ما وراء البحار.
- ١٩٥٧ إنشاء العاصمة نواكشوط.
- ١٩٥٨ إعلان جمهورية موريتانيا الإسلامية.
- ١٩٦٠ استقلال البلاد.
- ١٩٦٤ مختار ولد داده يصبح رئيساً للجمهورية وينشيء حزباً وحيداً.
- ١٩٧٦ تحتل موريتانيا الجزء الجنوبي من الصحراء الغربية وبداية النزاع مع

الصحراويين من جبهة بوليزاريو.

- ١٩٧٨ انقلاب على مختار ولد داده.
- ١٩٧٩ موريتانيا تتنازل عن منطقة الصحراء الغربية التي كانت تحتلها.
- ١٩٨٠ اللواء ولد هيدله يصبح رئيس الدولة.
- ١٩٨٥ ولد طايع يقوم بانقلاب.

موريتانيا:

كانت هذه البلاد تدعى بلاد شنقيط. واشتق اسم موريتانيا من كلمة مور الأجنبية التي يقصد بها الأوروبيون مسلمي المغرب بشكل خاص من عرب وبربر.

لقد قسمت حدود هذه الدولة بصورة عشوائية، ضمن الصحراء الكبرى على أيدي المفاوضين الفرنسيين والاسبان والحكام الفرنسيين الإداريين في الجزائر وإفريقيا الغربية الفرنسية في الماضي والمغرب الأقصى، فتمتد هذه الدولة من الشمال بدءاً من إقليم تندوف الواقع على ٢٧° عرض شمالاً إلى درجة عرض ١٥ على ضفاف نهر السنغال ويقع ثلاثة أرباعها في الصحراء الكبرى الإفريقية (شكل ١)، غير أن برودة المياه البحرية الناجمة عن تيار كناري تخلق في المنطقة الساحلية جواً رطباً بلا أمطار لأن ميناء نوازيبو ينال أمطاراً لا تزيد على ٢٩ ملم في العام، وإن كان موائماً للغاية لحياة الأسماك لوجود تيار بارد في مياه دافئة.

وتسمح الرطوبة والضباب والندى بوجود بعض الحياة النباتية، مثل أشجار (السنط) وأشجار الصمغ السوداني، وهو نبات يمتد من جنوب المغرب حتى ضفاف السنغال، وتكون الصحراء سهلة العبور نسبياً أكثر من المناطق الأخرى، مما سمح للبدو القادمين من جنوب المغرب أن يستوطنوا بسهولة في
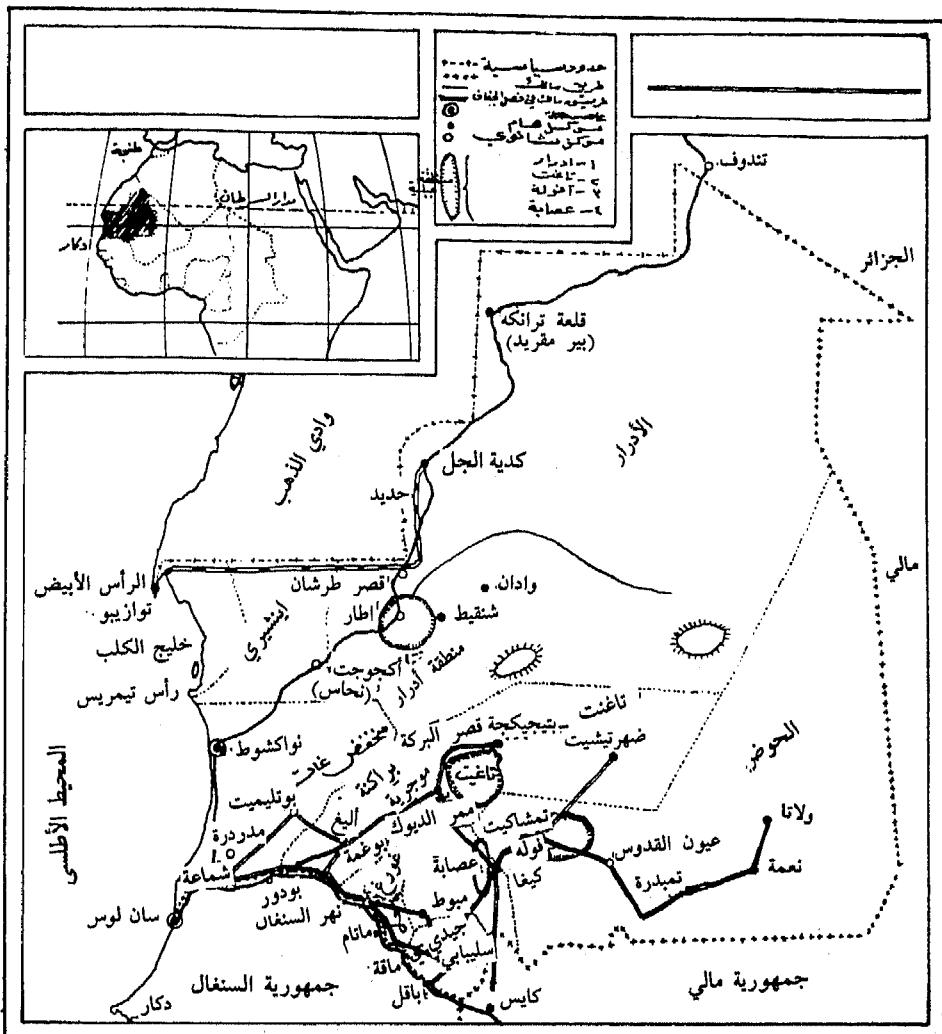
شكل (١)

مناطق الساحل الموريتاني. والساحل هنا لا نقصد به ساحل بحر إنما الساحل الجنوبي للصحراء الكبرى، على اعتبار أن الصحراء هي بحر والمناطق المطيرة هي ساحلها، وهكذا قدم البربر ولا سيما قبيلة صنهاجة ومن بعدهم قبيلة لمتونة التي استقرت في القرن ١١ على ضفاف نهر السنغال واجتاحت بلاد غانا وأسست عائلة حاكمة دعيت فيما بعد بالمرابطين، التي استولت على

المغرب والأندلس، وجاء من بعدهم عرب من قبيلة (بني معقل وبني هلال وبني حسان) في القرن السادس عشر وهم أصل سكان موريتانيا الذين يدعون بالحسّانيين، ولهجتهم هي الحسّانية، وهي من أفصح اللهجات العربية. وأخيراً قدم عرب آخرون من أولاد (بوسباع)، وعندما وصلوا إلى موريتانيا الساحلية توقفت الهجرة القادمة من الشمال تماماً، لأنه إلى الجنوب من ذلك تظهر بلاد الزنوج وحيث تموت الجمال. ولا نجد في موريتانيا تضاريس ذات بال تقف أمام الهجرات، فالصحراء هنا منبسطة رغم تنوع بنيتها، فالركيزة المؤلفة من الصخور المتبلورة تظهر أحياناً عارية، كما في ظهرة الرقيبات في الشمال، كما تكون في بعض المناطق مغطاة بطبقات من الدور الأول على شكل مقعرات عريضة كما في إقليم تاقنت، وأدرار، أو على شكل محدبات تكثر فيها الجروف كما في منطقة الحوض أو من صخور حديثة كما في إقليم الترارزة، ونجد فيها جذور سلسلة هرسينية تمتد من الجنوب نحو الشمال.

البدو والحضر:

هناك مجتمع متسلسل في هذه البقعة من عالمنا العربي، فهناك طبقة المحاربين النبلاء وهم الحسّانيون من أحفاد قبيلة معقل العربية، وهناك النبلاء المرابطون أي من أصحاب الزوايا، وينحدرون من قبائل بربرية، ولكن اللهجة البربرية لم تصمد إلا في منطقة الترارزة، وهناك طبقة الرجال الأحرار من محاسيب النبلاء. وهناك الحرّاطون في الواحات وهم أحفاد أسرى الحرب أو من أتباع المرابطين (الفقهاء والمحاربين) وهناك جماعات خارج الطبقات مثل الحدادين وأرباب المهن الصغرى وهؤلاء هم المنبوذون. ويعيش في موريتانيا نحو مليوني نسمة على مساحة قدرها مليون وخمسون ألف كيلو متر مربع وتحوي موريتانيا من بين هؤلاء أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ بدوي وأكبر عدد من السكان يعيش جنوب خط المطر ٢٠٠ ملم، مثل قبيلة الترارزة وسكان منطقة

الحوض وقبيلة البراكنة. وهنا يتجول السكان على مسافات قصيرة بين الشمال والجنوب، وفضلاً عن هؤلاء البدو الساحليين هناك فلاحون زنوج يعيشون على الضفة الشمالية لنهر السنغال، ويزرعون الدخن في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من خط المطر ٥٠٠ ملم، أي يعيش في هذه المنطقة التي لا تزيد مساحتها على خمس مساحة البلاد أكثر من ٨٣٪ من السكان. أما الباقون وهم صحراويون حقيقيون فينقسمون إلى بدو وحضر وهم سكان الواحات.

وتتأرجح نجعة الموريتانيين الجمّالة بين منطقة الأدرار، وتاقنت وشمال الترارزة وذلك بين الجنوب والشمال حسب هطول الأمطار المدارية (شكل ٢)، ويعدّ البدو ملاكين للنخيل ولهذا يسيطرون على أتباعهم أي من الفلاحين الذين يزرعون الواحات، فواحة أطار تعد واحة جميلة المنظر بالمقارنة مع الحمادة التي تطيف بها، ذلك أنها عبارة عن شريط من النخيل والخضرة في
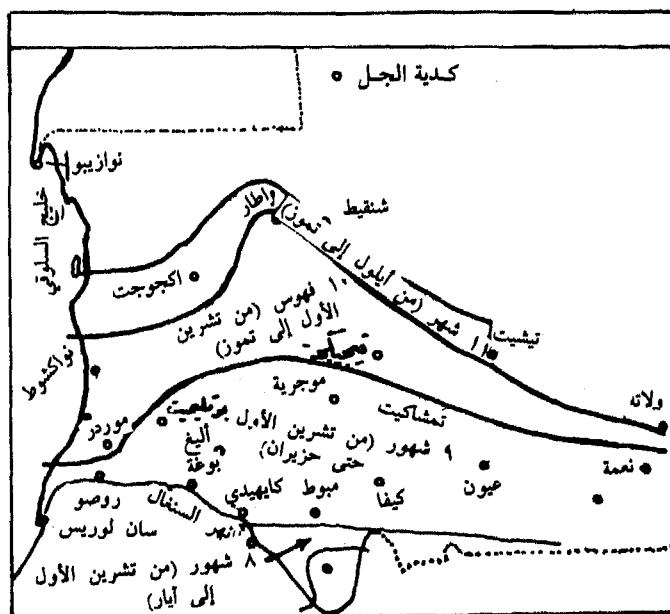
شكل (٢) مخطط القحولة ـ طول الفصل الجاف

وسط منطقة صحراوية موحشة. ولكن إذا ما اقتربنا من الواحة نجدها هزيلة لقلة الماء ولبدائية طرائق استخراج هذا الماء بوساطة الآبار ذات الميزان أو الشادوف.

كما أن الكثير من النخيل يتم إلقاحه عن طريق الصدفة كما تقوم زراعات ضئيلة جداً تحت أشجار النخيل مما يؤدي بالتالي إلى بؤس المزارعين الشركاء.

ومع هذا تعد واحة أطار أكثر الواحات ازدهاراً ذلك لأن واحة الشنقيط التي اشتهرت في الماضي بصفتها مركز دراسات إسلامية شهيراً أصبحت اليوم معرضة للغمر بالرمال شأن ولاّته، كما أن واحة تشيت أصبحت متقهقرة جداً بسبب تصاعد الأملاح وزحف الرمال (شكل ٣) وهكذا يغادر الكثير من الحرّاطين أراضيهم كي يعملوا في المناجم، ولو استغل الملاكون مباشرة أراضيهم لكان الوضع أفضل من ذلك، وربما سيكون لدخول الآلات الحديثة في الري تأثير يؤدي إلى رد الاعتبار إلى العمل اليدوي وتقديره أكثر من الماضي ولكن الاحتياطيات المائية ليست كبيرة وقد تستنزف بسرعة والاهتمام بتوفير الماء للمدن يفوق تأمين حاجة الري.

التحديث:

يتقدم المجتمع الموريتاني نحو التحديث مع احتفاظه بشخصيته الإسلامية. مما يدل على ذلك اسم الدولة، ذلك أن التحديث يبدو أمراً لا محيد عنه، بعد أن تحرر العبيد والأتباع (المحاسيب)، بعد الاستقلال وعلى الأخص بعد موجة الجفاف في أواسط السبعينات. ولهذا سيضطر البدو للاعتماد على أنفسهم بالعناية بمواشيهم وبزراعتهم وازداد التقدم تسارعاً في أعقاب استغلال الحديد (مناجم كدية الجل)، هذه المناجم التي استطاعت أن تجتذب إليها عام ١٩٦٩ ١٥ ألف شخص كانت أجورهم ومداخيلهم أعلى
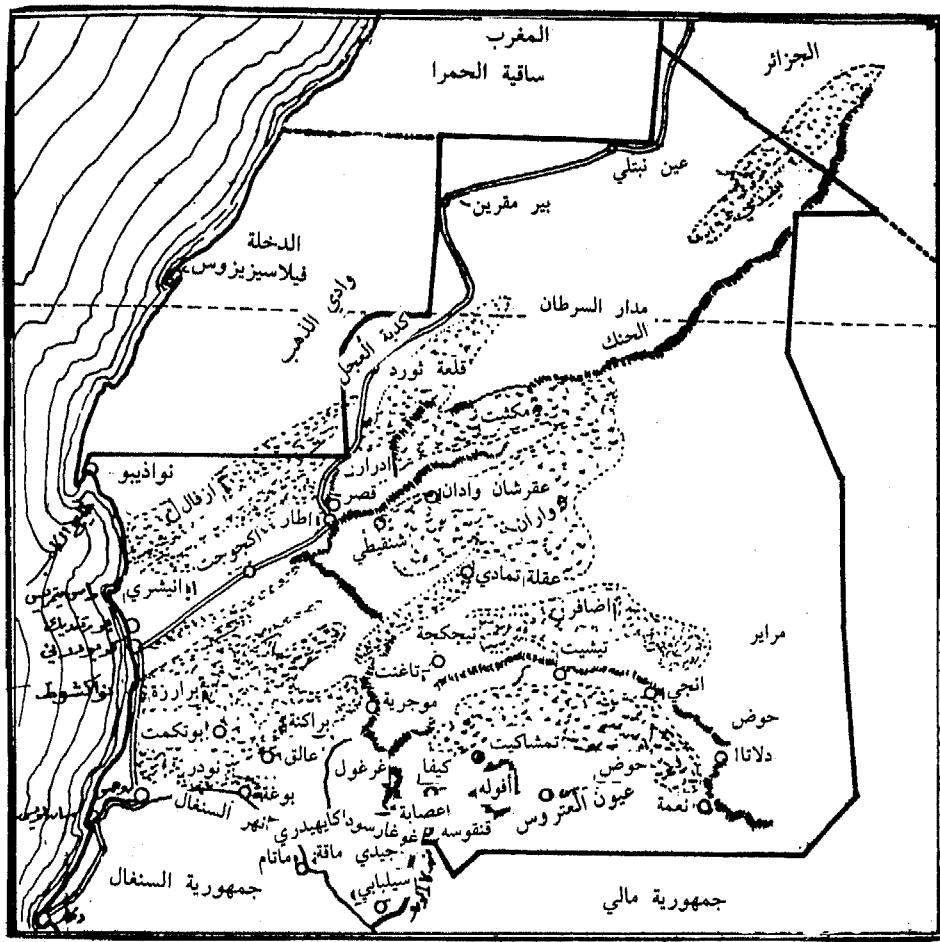
شكل (٣)

بكثير من دخل البدو والفلاحين، وتعد فلزات الهيماتيت في هذه المناجم نقية جداً، لأن نسبة الحديد تصل إلى ٦٣٪ مع انعدام الفوسفور، ويتجاوز مقدار الحديد الذي يمكن استغلاله بصورة مكشوفة تحت السماء ١٠٠ مليون طن وتقدر الاحتياطات بنحو ٢٠٠ مليون طن، وقد أنتجت موريتانيا في عام ١٩٧٠ ٩,١ مليون طن كي يهبط إلى ٥,٨ ملايين في ١٩٨٦، ولكن نظراً لوجود الصحراء الغربية التي ألحقت بالمغرب في غرب المناجم فقد اضطرت الشركات أن تحفر نفقاً عالي الكلفة طوله ٢ كم في جبل من صخور غرانيتية فضلاً عن التفاف الخط الحديدي حول الحدود مع الصحراء المذكورة.

الوضع الاقتصادي الحالي:

لما كانت موريتانيا قطراً فقيراً واقعاً في شروط طبيعية قاسية، فإنه يعد بسبب ديونه البالغة ١,٦ مليار دولار أحد أكثر أقطار العالم مديونية بالموازنة مع الناتج القومي الخام. ولا يساعد الطلب العالمي الضعيف على مادة التصدير الأولى، وهي خامات الحديد، على القيام بانتعاش اقتصادي حقيقي. وهناك برنامج تكيّف شجع عليه قرض من البنك العالمي يرمي خلال ثلاثة أعوام لتمويل إصلاحات اقتصادية تنموية تعتمد على تطوير مصائد الأسماك وتهيئة القطاع الزراعي. وقد أدى بناء جدار سادس ضمن إطار النزاع بين المغرب والقوى الصحراوية، للحيلولة دون عبور فرق البوليزاريو لبلوغ الواجهة الأطلنطية، لخلق مصاعب جديدة: ذلك أن هذا الجدار سيصل لمسافة ٤٠٠ م من مخفر إينال، الواقع على الخط الحديدي الذي ينقل خامات الحديد من زويرات إلى ميناء نواذيبو. وتم عقد اتفاقات مع الجزائر ستسمح بتنمية الصيد البحري بوساطة شركة مشتركة قامت في نواذيبو، والتي أعادت الجزائر تشغيل مصفاة نفطها من جديد. كما عقد اتفاق مع فرنسا وبمساعدتها لتطوير المجال المروي في منطقة بوغيه على نهر السنغال واستغلاله وتنظيم إنتاج مائي زراعي في وادي غرقول. وللكفاح ضد التصحير، هناك برنامج خاص يجري تنفيذه لمساعدة السكان الريفيين في الأدرار. وبعد سنوات جفاف عجاف متكررة، فإن هطول أمطار خريفية طيبة سمحت بعودة بضعة الاف من الفلاحين واستئناف الزراعة الشجرية وتربية الماشية، كما أن حفر ميناء بالمياه العميقة قرب نواكشوط سيعمل على تحسين الاتصالات البحرية.

ولكن المصيبة الكبرى هي أن سنوات القحط جعلت ثلث سكان البلاد يقطنون العاصمة على شكل مخيمات بائسة بعد فناء قطعانهم فانحلت عرى المجتمع السابق، وتحول السكان إلى لاجئين يعيشون على المساعدات

الخارجية والحكومية وتدهورت القيم الأخلاقية بعد أن كانت نسبة المستقرين لا تتجاوز ١٥٪.

وفي عام ١٩٨٦ كانت رقعة الأراضي الصالحة للزراعة في موريتانيا ٥٪ وكانت نسبة ٩٠٪ من المواد الغذائية مستوردة. ففي ١٩٨٤ كان إنتاجها الزراعي ٢٠٠٠٠ طن وصعد في ١٩٨٧ إلى ١٠٠٠٠٠ طن، وفي ١٩٨٥ ولأول مرة تفوقت صادرات السمك الموريتاني من حيث القيمة على صادرات خام الحديد، إذ أقيمت في ميناء الصيد في نواذيبو مدرسة للصيد ولتدريس الميكانيك، ويقارب مقدار ديون موريتانيا الخارجية ١,٦ مليار دولار، ووسطياً يبلغ دين كل مواطن عربي في بلاد العسر العربية، أي الأقطار الفقيرة غير النفطية، ألف دولار لا غير.

ونظراً لتوالي سنوات القحط بين عام ١٩٧٠ و ١٩٨٦ أصبحت العاصمة نواكشوط تضم ثلث سكان موريتانيا، ويعيش ثلث الموريتانيين في فقر مدقع لأن متوسط دخل الفرد في عام ١٩٨٥ لم يتجاوز ٤١٠ دولارات. وفي عام ١٩٨٨ أنجز الصينيون بناء ميناء نواكشوط بعد أن كانت البلاد تعتمد على ميناء دكار وحتى الآن.

وفضلاً عن ذلك لم يطرح تمديد الخط الحديدي الذي يزيد طوله على ٥٠٠ كم مشاكل عويصة باستثناء الرمال المتحركة قرب شبه جزيرة الرأس الأبيض ويفرغ الحديد بوساطة ميناء نواذيبو. هذا الميناء الذي يقع في صدر الخليج هو ميناء طبيعي ممتاز يمكن أن ترسو فيه السفن التي تنقل الفلزات من حمولة ٦٥ ألف طن، وظل هذا الميناء حتى عام ١٩٥٥ يتمون من الماء العذب من فرنسا، ولكن منذ عهد قريب تم بناء معمل لتكرير ماء البحر بالإضافة إلى اكتشاف طبقة مائية عذبة بمحاذاة الخط الحديدي على مسافة ١٠٠ كم من ميناء نواذيبو. ويوفر استغلال الحديد من قبل الشركات الأجنبية

دخلاً للميزانية الموريتانية يقارب ١٠٠ مليون دولار أو نصف نفقات الدولة وتقوم العاصمة نواكشوط ومعناها بالبربري (مكان الريح) فوق منطقةموحشة رملية وتبعد عن الساحل بمسافة ٨ كم وقد أقامت نوعاً من جسر ممتد في البحر لتأمين المواصلات البحرية، وهناك قضية استغلال النحاس التي عثر عليه بكميات كبيرة في موقع «أكجوجت» شمال شرق العاصمة، ولكن الذي يعرقل استغلال هذا المعمل هو قلة المياه ومع ذلك أنتج ٣٨٠٠ طن من النحاس المركّز، وهناك مشاكل سياسية تعاني منها موريتانيا، وهي وجود عدد كبير من السنغاليين في الجنوب، إذن هناك مشكلة التعايش بين الموريتانيين وهؤلاء الوافدين الذين يقدمون الإطارات نظراً لاستفحال الأمية بين عرب موريتانيا وجهلهم باللغات الأجنبية، وربما تؤدي زيادة هجرة الزنوج إلى طرح مشكلة وجود موريتانيا ذاتها وربما كان من أسباب إحجام موريتانيا عن المشاركة في الجهود العربية أو تأخر انتسابها للجامعة العربية، وبعض الموريتانيين يأملون في الوحدة مع المغرب خوفاً من استفحال المشاكل العرقية فيما بعد، وذلك بعد ضم الصحراء الغربية. وقد وقعت أحداث دامية في ١٩٨٩ ومذابح في كل من موريتانيا والسنغال أعقبتها هجرة متبادلة.

جمهورية مصر العربية

تعد أكبر الواحات الصحراوية وأهمها في العالم قاطبة، ففي عام ١٩٦٧ كان في مصر القابلة للسكن ومساحتها ٣٦ ألف كم[٢] نحو ٣٠ مليون نسمة، و ٥٤ مليون نسمة في عام ١٩٨٨، غير أن المساحة المزروعة فعلاً هي ٢٦ ألف كم[٢] وأمكن زيادتها بعد إنجاز السد العالي حتى ٣٥ ألف كم[٢] ولكن الطرق والأبنية تقضم الكثير من رقعة الأرض المنزرعة (شكل ١).

فنهر النيل الذي يمر تحت مناخ صحراوي يعمل على زيادة صبيبه في أكثر الفصول فائدة أي في الصيف، وقد ساهمت الجيولوجيا في جعل مياه النيل ذات فائدة أكبر بكثير من الأنهار المماثلة له كالسند أو الفرات أو دجلة، وهناك فائدة أخرى وهي أن النيل يصلح للملاحة على مسافة ١٢٠٠ كم باتجاه الداخل (إلى الصعيد)، وذلك أن رياح الشمال السائدة عملت وتعمل على دفع الأشرعة في عكس التيار المائي.

ولكن هل كانت هذه الميزات كافية لإعمار مصر للسكان وتحضيرها، وهل كانت هناك ضرورة بالاستعانة بتقنيات إنتاجية متقدمة، وَبتنظيم يتحالف مع الشروط الطبيعية في مصر؟. ولكن آسيا الغربية سبقت مصر في المضمار الزراعي وفي الكتابة وفي معرفة المعادن، إذن هذا يدل على أن مصر استفادت
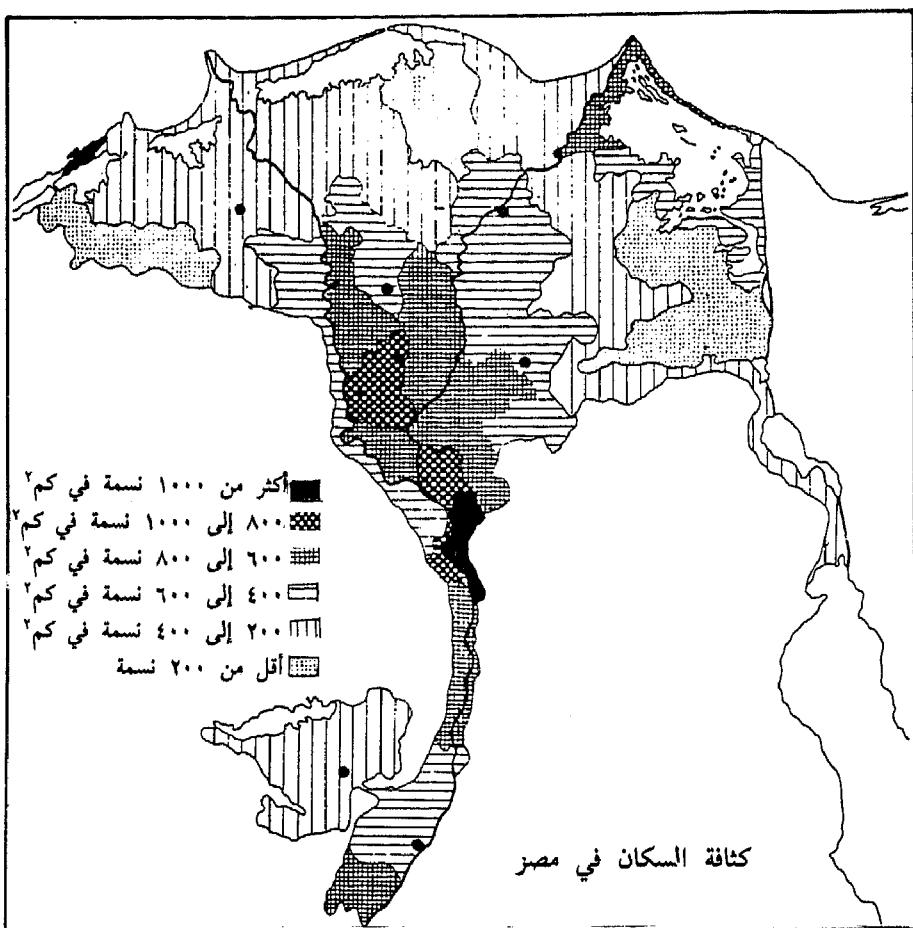
شكل (١)

من ميزة أخرى وهي أنها ملتقى طرق قارية وبحرية لا مثيل لها في العالم من حيث الكمال (شكل ٢).

الشروط الطبيعية:

المناخ: تنال القاهرة في المتوسط ٢٦ ملم من المطر في العام (دمشق ٢٠٠ ملم ـ اللاذقية ٨٥٠ ملم) بينما تكتفي أسوان بـ٣ ملم، وإلى الجنوب من خط العرض ٣٠ قد يمـر عام كامل دون هطول أي شيء من الأمطار، غير

شكل (٢) تماس أفريقيا مع آسيا.

أن الحرارة تتخذ طابعاً رومياً في الشتاء إذ يكون معدل الحرارة في شهر كانون الثاني في القاهرة ١٢,٣° ولكن متوسط أكثر الشهور حرارة هو ٢٧,٧°، أما بالنسبة لأسوان الواقعة على عرض ٢٤,٢ شمالاً فيكون متوسط الحرارة في كانون الثاني ١٥,٥° أي ضعفٍ معدل كانون ثاني في دمشق، ومعدل تموز ٣٣,٢°، بينما يصل ميزان الحرارة إلى ٥١° صيفاً (حداً أقصى) أي أن البرد لا يفرض أي توقف في الحياة النباتية، وهكذا نجد في مصر في كل الفصول

حقولاً خضراء في الزراعة الشتوية تغطي الأرض من تشرين الأول إلى مايس، والصيفية من آذار حتى تشرين أول، وهناك الزراعة النيلية التي كانت تقوم على الفيضان وتروى بوساطة الحياض قبل بناء السد العالي، فكانت تغطي الأرض من آب إلى تشرين الثاني، وتنجح في مصر الزراعات المدارية والمعتدلة. أما على الساحل الرومي فتقترب مصر من الشروط الطبيعية للبحر المتوسط فتنال الاسكندرية وسطياً ١٨٣ ملم من الأمطار، ولكن هذا المعدل قد يهبط في بعض السنوات إلى ٢٣ ملم، وإذا خرجنا من منطقة الدلتا لا تصبح الزراعة ممكنة إلا في الأودية التي تجمع مياه السيلان كحالة الكرمة في مريوط (غرب الاسكندرية)، وبين الاسكندرية والسلوم نجد صهاريج محفورة في الحوار وتحتفظ بالمياه المتسربة من خلال الصخور الكلسية العليا، أي أن لدى مصر إمكان الاستفادة من المناخ يسمح فيما إذا استعملت طرائق تقنية خاصة بقيام زراعة بعلية يمكن من خلالها الاتصال بسهولة مع برقة.

وادي النيل:

هناك سؤال يفرض نفسه وهو ما سبب وجود وادٍ عظيم عميق وعريض كالنيل في هذه المنطقة؟ لماذا يستمد هذا النهر مياه ينابيعه من مسافة ٦٠٠٠ كم جنوباً؟

وللإجابة عن ذلك علينا أن نستعين بالجيولوجيا، فمنذ نهاية ما قبل الكامبري (الدور الأول) تعرضت الركيزة الإفريقية لتسوية وتغطت برمال قارية تدعى بالخرسان النوبي وهو صخر خال من المستحاثات يمتد عمره من الدور الأول حتى الكريتاسي، وقد رسّب البحر الكريتاسي والايوسيني صخوراً كلسية ثم انحسر باتجاه الشمال، في الوقت نفسه الذي تكوّن فيه ميزاب امتد في الاتجاه نفسه، أي أن مصر لم تكن لتخلق لو لم تتجوف الركيزة الإفريقية،

وما عليها من طبقات رسوبية في هذه المنطقة ولو لم تأخذ هذا الميل باتجاه الشمال (شكل ٣).
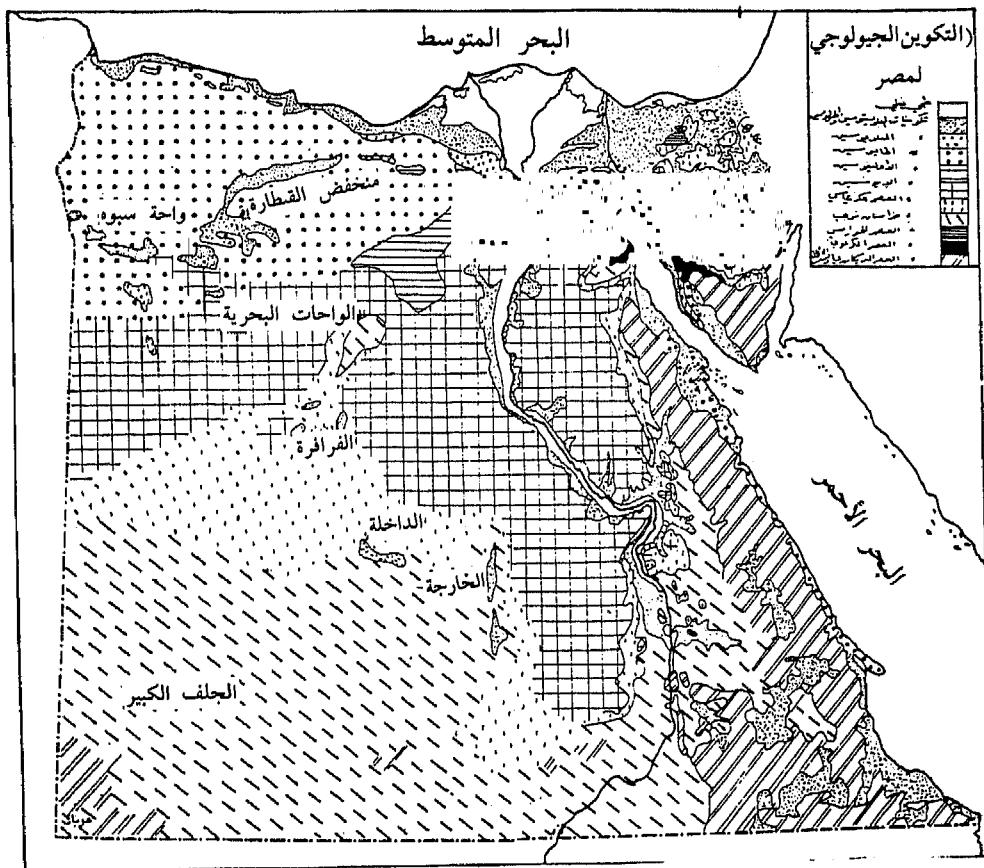
شكل (٣)

وفي الوقت نفسه ـ أي في مطلع الدور الثالث ـ أخذت الركيزة الإفريقية المؤلفة من صخور صلبة، كالغرانيت، تنهض في شرق مصر على شكل تقبب رفع الأغطية الرسوبية باتجاه الأعلى، أي أن كل شيء عمل على تكوين شبكة نهرية. وفي العصر المطير (الأوليغوسيني) كان نهر النيل القديم أي جد النيل الحالي يجري إلى الغرب من مجرى النيل الحاضر وكان يشكل دلتا عند

الفيوم. وكان يتغذى من مياه السلسلة العربية ومن النوبة الشمالية. غير أن النيل الحالي لم يأخذ مكان النيل القديم، ذلك لأن للوادي الحاضر خصائص فريدة، إذ يكون على مسافة ٨٠٠ كم ـ أي من قنا حتى القاهرة ـ متعمقاً بين جدران صخرية كما يكون متجوفاً جداً، ذلك لأن القاع الصخري للوادي يكون على مستوى سطح البحر على مسافة ٧٠٠ كم جنوب القاهرة، أي أن الوادي الحالي نتج عن كسور وعن ثنيات بليوسينية أدت لوجود حفرة جنوبية شمالية وبالتالي سمحت بتكوين خليج بليوسيني غمره البحر في ذلك العصر ووضّع فيه رسوبات كثيرة. هذا الوضع سمح للنيل بأن يتجه نحو البحر عوضاً عن أن ينصب في منخفض الفيوم الواقع على مستوى يقل عن سطح البحر بمقدار ٤٥ متراً، وما بحر يوسف الذي يصل مياه النيل إلى الفيوم سوى قناة حفرت في أيام الامبراطورية الوسطى، وفي البليوسين حدث كسر انتاب القبة العربية الإفريقية، وتولد عنه البحر الأحمر الذي اتصل بالمحيط الهندي. وما جبل شايب شرق النيل الذي يرتفع إلى ٢٢٠٠ م سوى السفح الغربي للقبة المذكورة لأن القنطرة تقع في مكان البحر الأحمر الحالي الانهدامي.

وقد استطاع النيل الجديد أن يأسر نهر عطبرة والنيل الأزرق خلال الحقب الرابع القديم، لأن رسوبات النيل كانت قبل ذلك الوقت خشنة تنقلها روافد شرقية تأتي من الجبال الغربية، وعندما استطاع النيل أن يأسر النهرين المذكورين أصبح يأتي بالغرين الذي يعد العنصر الأساسي في خصب تربة مصر. فيأتي هذا الغرين من الحبشة بفضل الفيضانات الصيفية أي المطابقة لفصل الأمطار، وقد كانت عملية الأسر هذه ضرورية لأن المناخ المصري كان متجهاً نحو الجفاف. أي أن النيل سيكون عبارة عن خيط رفيع من المياه ومتقطّع في واد فضفـاض لولا المياه الحبشية، ولكن أسر النيل الأبيض عمل فيما بعد على دعم نهر النيل في فصل الشتاء، أي لولا النيل الأبيض لكان

النيل الحالي غزير المياه في الصيف وجافاً في الشتاء. ذاك هو تعاقب الأحداث الكبرى التي تضافرت جميعاً بدعم الطبيعة المصرية. وهناك حادث سعيد أخيراً نجم عن انخفاض مستوى النهر، مما سمح لوجود مطاطب قلصت الرقعة المعرضة للفيضانات، مثلما زادت الرقعة القابلة للزراعة. وجاءت الخاتمة بردم الدلتا التي أصبحت أهم منطقة زراعية مصرية لأن مساحتها ٢٢ ألف كم٢ من أصل ٣٦ ألف كم٢ (شكل ٤).
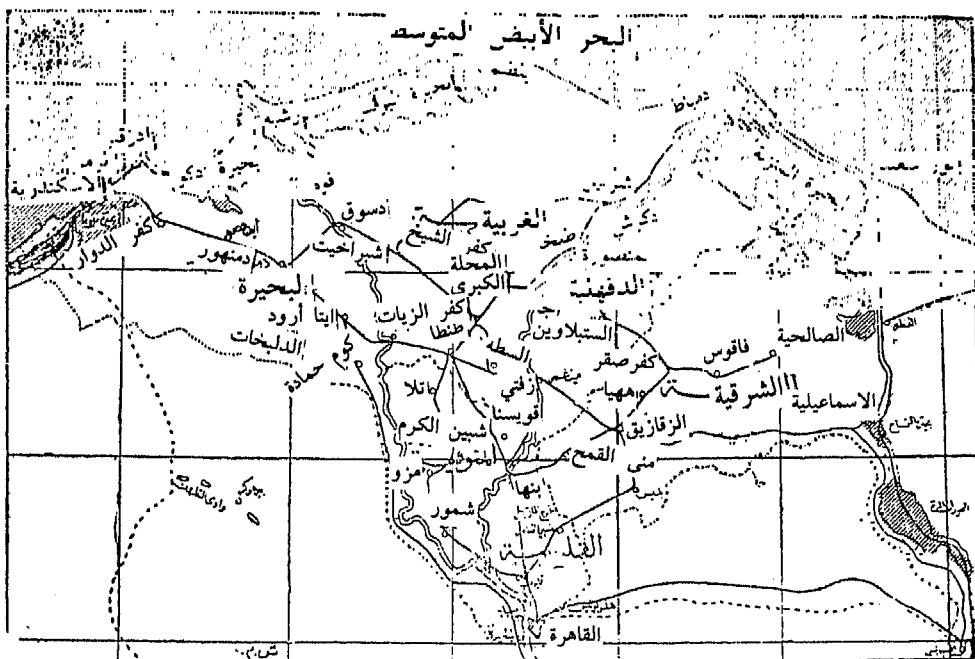
شكل (٤)

وهذا الردم كان مبكراً بحيث أصبحت الدلتا مأهولة بالسكان قبل نشوء الأسر الفرعونية، فكانت مدينة سايس أو صالحجر في الدلتا مركزاً سياسياً ودينياً مزدهراً منذ ذلك العصر.

ترى هل تبدو ملحمة النيل ذات أصالة، ذلك أن النيل الأدنى أسر النيل

الأزرق والأبيض بسبب السهولات التي وفرها التضريس، فقد كانت هناك أحواض ضحلة سمحت لتحقيق انتصارات كهذه، فالنيجر الأسفل استطاع أن يأسر النيجر الأوسط، كما أن نهر الزامبيز استولى على شبكة نهر نغامي. غير أن أصالة النيل تعود لتلك التطورات الهيدروغرافية التي سمحت لنهر استوائي ومداري أن يعبر الصحراء الكبرى ويخلق أجمل واحات العالم. ذلك أن النيجر يصب في البحر تحت سماء مطيرة جداً مما لا يؤهله لتفجير ثورة جغرافية كالتي حققها النيل.

النهر... النيل:

لـوادي النيل منظر قاهر هو أنه يوحي لساكنيه بأنهم يعيشون في واحة ضيقة وفي واد رفيع وتحت سماء دائمة الصحو، أي هنا يتجاور النهر المعطاء مع خضرة الحقول وهامش الصحراء القاحلة والجرداء.

هذه الصحراء تفرض الاحساس بوجودها الأول، ولكن عندما يصبح الإنسان في قلب الدلتا يستطيع أن ينسى فقر البيئة المصرية. هذا الشعورالذي يصبح مستحيلاً في الوادي الممتد على شكل شريط بطول يقارب ١٥٠٠ كم والمنخفض تحت صحراء تشرف عليه.

إن نهر النيل الذي يُصِبّ ٣٧٠٠ م^{٣} وسطياً في الثانية (٨٤ مليار م^{٣}/ عام) لا يمثل سوى قيمة متواضعة جداً في تصنيف الأنهار الكبرى في العالم. فإذا كان طوله يمتد على ٦٧٠٠ كم وهو رقم قياسي في العالم، وعلى حوض مساحته ٣ مليون كم^{٢} فهو لا يفرغ سوى ٠,٩٤ ل/ثا كم، في حين أن الدانوب الذي يمتد حوضه على ٨٠٠٠٠٠ كم^{٢} يقذف ٦٢٠٠ م^{٣}/ثا، أي ما يعادل ٧,٧ ل/ ثا كم. وفي وقت التحاريق (شهر مايس) ـ وتسمى بالعراق (الصيهود ـ الشح) ـ ينخفض الصبيب المتوسط للنيل إلى ٣٩٠ م^{٣}/ثا، غير أن مياهه تأخذ بالصعود تدريجياً حتى منتصف تموز، ثم تأخذ بالإحمرار فجأة عند

قدوم الطمي القادم من الحبشة، فيصعد صبيب النهر في تموز وحتى أيلول وسطياً إلى ٨٢٠٠ م^{٣}/ثا ثم يأخذ بالانخفاض بهدوء حتى آخر كانون الثاني وبهدوء أكثر من شباط إلى مايس. أما في الخريف أي ـ عندما ينخفض مستوى النيل الأزرق ـ فتأخذ مياه النيل الأبيض الرائقة على عاتقها بتأمين استمرار جريان الماء. وهكذا يكون للنيل المصري زود في مياهه في الصيف وشح في الشتاء والربيع، وهو نظام فريد في نهر يخترق مناطق مدارية في نصف الكرة الشمالي مثلما يأتي من مناطق استوائية. والواقع أن نهر النيل يستمد ينابيعه الجنوبية أكثر من ذلك، ذلك لأنه يبدأ منابعه في دولة (بورندي) على درجة عرض ٣,٥٥ جنوباً.

والسؤال الذي يفرض نفسه هو أنه لماذا لا يقدم الحوض الاستوائي كمية من المياه تعادل ما يقدمه الحوض الحبشي المداري؟ الواقع هو أن المياه الحبشية التي يقدمها نهر عطبره والنيل الأزرق والسوباط تمنح النيل عند أسوان ٨٥٪ من مياهه أي ٧٢ مليار م^{٣} من أصل المجموع ٨٤ مليار م^{٣}، أي أن حصة المياه الاستوائية تبلغ ١٥٪ من الصبيب أو ١٢ مليار م^{٣}، علماً بأن رقعة الحوض الحبشي تبلغ ٥٧٠ ألف كم^{٢} مقابل ٧٨٠ ألف كم^{٢} بالنسبة للحوض الاستوائي، هذا إذا لم نأخذ بالحسبان في كلتا الحالتين سوى المساحات التي تتلقى أكثر من ٦٠٠ ملم في العام، وهكذا نجد أن كل كم^{٢} واحد من الحوض الحبشي يقدم ١٣٠ ألف م^{٣} في حين أن الكيلومتر مربع من الحوض الاستوائي لا يقدم أكثر من ١٥ ألف م^{٣} هذا علماً بأن كمية الأمطار في هذين الحوضين متقاربة، ويعود هذا إلى التبخر الشديد وكثرة المستنقعات لاستواء الأرض الشديد في بحر الجبل والنيل الأبيض أي في منطقة السدود والأعشاب المستنقعية، ولو لم يكن الحوض الحبشي قادراً على تقديم عشرة أمثال ما يقدمه الحوض الاستوائي من المياه لكان النيل المصري لا يقل انخفاضاً في في فصل الصيف عمّا هو عليه في فصل الشتاء، وفي هذه الحالة لما كان

هناك قطر ذو حضارة عريقة كمصر.

استغلال النيل:

الطريقة القديمة: لقد كان فن الري الزراعي في مصر التاريخية يستغل النسق الطبيعي للنهر عن طريق مزروعات شتوية تبذر في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) أي بعد انحسار المياه كي يتم جني المحصول في مايس، وكانت المهارة تقتصر على تنظيم هذه الزراعة القائمة على ري الفيضان، وذلك بتعريض الحقول لمياه الفيضان التي ترسب فوقها الطمي النيلي ومن ثم تجفيف هذه الحقول في الوقت المناسب لإعدادها للبذار، هذا الأمر يستدعي التحكم في النهر، وكانت أول ظاهرة لترويضه هي بناء حواجز فوق العصيبات اللحقية الطبيعية التي تواكب النهر من جانبيه.

وكان العنصر الثاني في فن الري القديم هو (المسكبة = الحوضة) المحاطة بحواجز صغيرة. ففي أيام الفيضان كانت المسكبة تغمر بالمياه وتظل على هذه الحال قرابة شهرين، ثم كانت تفرغ مياه المساكب الزائدة باتجاه النهر أي كان وادي النيل والدلتا خلال شهري آب وايلول عبارة عن حقول شطرنجية مغمورة بالمياه. وقد بنيت حواجز طولانية أي مواكبة للنهر منذ ٥٠٠٠ سنة قبل المسيح، كما ظل نظام المساكب معمولاً به على مساحة قدرها ٤٠٠ ألف هكتار في منطقة ري الأحواض بالصعيد، وكان هناك بور غير مزروع بعد جني المحصول في مايس. وبتأثير الحرارة كانت التربة تتشقق بشبكة عريضة وعميقة من الأخاديد الصغيرة، وكان الملح يظهر في هذه الشقوق، غير أن مياه الغمر كانت تغسله، والواقع كان البور يعمل على تهوية التربة وعلى تخفيف ملوحتها، أي أن فن الري الزراعي القديم كان يتطلب دائماً إدارة مستمرة وصحيحة، فكان يتطلب في الواقع وجود دولة قوية لصيانة هذه الإدارة. وكان فن الري المصري القديم الذي لم تبتدعه الجماعات

الريفية المنعزلة يفترض وجود طرائق متقنة جداً ولا سيما في منطقة الدلتا حيث كان اتساع الأراضي والبعد عن الفروع النهرية وضعف الانحدار يعمل على جعل تنظيم الحياض وصيانها أكثر صعوبة.

وهناك شواهد تاريخية تشير إلى أنه في القرن الثاني عشر ميلادي خلت منطقة الدلتا من معظم سكانها بسبب تشوش نظام الري في أيام حكم المماليك، إذ أهملت الأقنية والحواجز، فأصبح الفيضان فوضوياً وتصريف المياه مضطرباً، ولم يعد نظام الري في الدلتا إلى حاله إلا في أيام محمد علي الذي تخلص من المماليك. وهناك برهان آخر يشير إلى أن الدلتا الشمالية التي تعرضت للإهمال في العهد المملوكي ظلت فيها القرى قائمة فوق العصيبات العريضة المواكبة لفرعي رشيد ودمياط، فهنا لم تكن حاجة كبيرة لتنظيم الري بشكل عام ذلك أن كل قرية كانت قادرة على حل مشاكلها، فارتفاع العصيبة كان يحمي الحقول من الفيضان. كما أن انحدارها يسمح لرفع المياه من النيل وتحقيق الري الصيفي.

تحديث الري: تلاشى في القرن التاسع عشر نظام الحياض المغمورة والزراعة الشتوية أمام الري الدائم والزراعة في كل الفصول. وهذه الثورة الزراعية إنما تحققت تحت ضغط حاجات محمد علي للمال، إذ كان عليه أن يحصل على عائدات كبيرة من الضرائب المفروضة على السكر ولا سيما على القطن، ذلك أن القطن وهو زراعة صيفية يزرع في آذار ويقطف في تشرين الثاني أي أنه لا يتلاءم مع نظام الحياض «المساكب»، كما يتطلب رياً في آذار، أي عندما يكون النيل بأشد انخفاضه. وأول وسيلة كانت هي إنشاء قناة تأتي بالماء من العالية وتوزعها في السافلة بفضل ميل أقل من ميل النيل ذاته، أي اتباع نظام معروف على نهر بردى مثلاً، إذ تؤخذ فروع منه قبل دخوله دمشق لري المناطق الأكثر ارتفاعاً من مجرى النهر ذاته، وقد كانت هذه الطريقة غير كافية إذ أنشئت قنوات عميقة صعبة الصيانة، وكانت تستدعي

مئات الألوف من العمال الذين يبعثرون جهودهم في صيانتها، وكان الحل هو في بناء السدود لتستطيع رفع سوية الماء في النهر مما سيسمح ببناء قنوات أقل طولاً وعمقاً فبنيت القناطر الخيرية شمال القاهرة، ومن بعدها قناطر عديدة في نجع حمادي وأسيوط. . . وغيرهما على النيل. والواقع لو استعملت مياه النيل في الري وفي الصرف (غسل ملوحة التربة) فإن نهر النيل لن يقذف أية قطرة في البحر بين شباط وتموز.

وقد ظهر أن المياه المحجوزة خلف السدود الصغيرة في مصر السفلى والوسطى كانت هزيلة، إذ مكنت من تحقيق زراعة مرواة في الشتاء على قسم صغير من المساحة الحالية مما استدعى بناء خزانات حقيقية في عالية النهر، أي في القطاعات الجنوبية منه. وبين كانون الثاني وتموز يقذف نهر النيل في سافلة نهر عطبرة مقدار ١٥ مليار م٣ وكانت حاجة مصر والسودان من المياه تقدر بـ ٢٨ مليار م٣ أي أن الباقي كان يأتي من سد أسوان القديم وسد سنار في السودان وسد جبل الأولياء على النيل الأبيض قرب الخرطوم. وكانت قدرة هذه السدود التخزينية ١٠ مليارات م٣ أي أن التوسع في الزراعات الشتوية كان يستدعي زيادة المخزونات المائية مما استدعى اللجوء لبناء السد العالي.

ولا يمارس الري على الراحة أو متوسطة الثقالة وذلك خوفاً من صعود الغشاء المائي الباطني وعرقلة أعمال الصرف. وفي أغلب الأحيان يستمد الماء من القناة بوساطة (الطنبور) أو لولب أرخميدس أو الشادوف أو الناعورة الغرافة (الساقية). أما أصحاب المزارع الميسورون نوعاً ما فيستخدمون نواعير تعمل بمحرك أو المضخات مباشرة. وهذه الأجهزة المختلفة لا ترفع مياه النهر أو القنوات مباشرة، بل كثيراً ما تستمد الماء من آلاف الآبار التي تعتمد على المياه الباطنية التي تجري باتجاه الشمال وتتخذ المياه الباطنية في الدلتا طابعاً ارتوازياً إذا كانت محصورة بين سافات (طبقات رقيقة) من الغضار..

غير أن الـري الحديث والزراعة الدائمة لا يمكن أن يكونا خاليين من نتائج ضارة، ذلك أن تصاعد الغشاء المائي الباطني يقلل من غلة القطن وجودته، كذلك يؤدي إلى جعل التربة قلوية لتكاثر أملاحها، ولهذا يجب تخفيف مستوى الغشاء المائي الباطني عن طريق خلق شبكة لصرف المياه الملحة مستقلة من الشبكة الإروائية، وفي بعض الحالات تعمل المضخات على تصريف مياه قنوات الصرف نحو البحيرات الساحلية مثل البحيرة المرة أو نحو البحر. هذا ويمكن استصلاح البحيرات الساحلية وتحويلها إلى مزارع خصيبة نظراً لأن قاعها لا يهبط إلى أكثر من ٣ أمتار دون مستوى سطح البحر، وذلك ببناء حاجز صخري يحميها من طغيان البحر المتوسط، وتفريغ مياهها بوساطة الضخ. وهكذا يمكن اكتساب ١١٠ آلاف هكتار على حساب البحر وتحويلها إلى حقول بولْدر كمعظم المزارع الهولندية والتي يمكن استغلالها على خير وجه.

الأرياف المصرية:

منذ أن ظهر التاريخ كانت مصر مأهولة بشكل كثيف، غير أن العدد الاجمالي لسكانها تعرض لتبدلات لكن دون أن يهبط إلى دون حد أدنى يعد بحد ذاته كبيراً. ويعتقد أن مصر كانت تشتمل في العهد الهللنستي على قرابة خمسة ملايين نسمة ويحتمل أن عدد سكان مصر هبط لأدنى حد أثناء حملة نابليون إذ قدّر حينذاك بـ ٢,٥ مليون نسمة.

تعداد السكان:

لقد تضاعف سكان مصر أكثر من سبع مرات بين عامي ١٨٨٢ ـ ١٩٨٨ إذ ارتفع من ٦,٨ مليون إلى ٥٥ مليوناً بعد أن كان ٣٠ مليوناً في عام ١٩٦٧، ويقدر الفائض السنوي ـ أي الفارق بين المواليد والوفيات ـ بحدود

١,٥ مليون. فإذا ظلت نسبة التكاثر على حالها فمعنى ذلك أن سكان مصر العربية سيتضاعف خلال ٣٠ عاماً فقط. أي أن التوالد لا زال من حيث النسبة كما كان في القرون الوسطى، ويعتقد أن نسبة التوالد ترتفع إلى ٣٧,٨ بالألف في ١٩٨٦ بينما هبطت هذه النسبة إلى نحو ١٥,٧ بالألف في الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وإلى ١٢,٧ بألألف في اليابان بعد أن كانت ٣٨ بالألف قبل الحرب العالمية الثانية، وكثرة التوالد هو أمر منتظر ومتوقع لأن الزواج مبكر. كما أن العقم عار ويؤدي حتماً إلى الطلاق كما يستغل الطفل منذ سن الخامسة في جمع دودة القطن أي أن سكان مصر راحوا يتزايدون بسرعة كبيرة منذ مطلع القرن العشرين بسبب واحد رئيس هو تناقص نسبة الوفيات بسرعة رغم أنها لا تزال عالية نسبياً بالموازنة مع الأقطار المتقدمة، لأن نسبة الوفيات كانت تبلغ ١١ بالألف عام ١٩٨٦ بينما هي ٨,٢ بآلاف في البلاد المتقدمة مثل هولندا. كما أن وفيات الأطفال كانت ٨٠ بالألف في ١٩٨٣. في حين لا تتجاوز هذه النسبة في البلاد الراقية كاليابان ٦ بالألف.

كما أن الأمراض الماضية لم تختف تماماً غير أنها تمارس تخريباً جسمياً. ففي عام ١٩٥٠ كانت التراخوما تصيب ٩٠٪ من السكان، كما أن البلهارسيا كانت تصيب ٥٥٪، كما كانت دودة الانكيلستوما تصيب ٣٠٪ والملاريا ١٥٪ والسيفلس ٨٪ والبلاغرا ٦٪ والسل ٢٪ والجذام ٠,٣٪ ويقدر الآن أن هذه الأمراض المذكورة قد هبطت نسبتها بحدود ٥٠٪ لكن المشكلة المطروحة لا تزال رهيبة لأن بعض الناس يحملون أكثر من مرض واحد.

والواقع تصيب البلهارسيا الأكثرية الساحقة من الفلاحين أو ٦٠٪ من سكان مصر وقد ظهرت آخر موجة للكوليرا في مصر عام ١٩٤٧.

وتكون الكثافة الحالية في مصر بحدود ١٤٤٤ شخص بالكم٢، بالوادي والدلتا، وهي أعلى نسبة في العالم. أما النسبة الخام أي توزيع السكان على

المساحة العامة وهي ٥٢نسمة/كم٢، فعبارة سفسطائية لا مدلول لها، لأن ٩٧٪ من المساحة العامة صحراء ولا يمكن اخضاعها للزراعة إلا بعد تحلية ماء البحر بأسعار زهيدة وهذا من المحال ضمن المنظورات الحالية لأن كلفة تحلية المتر المكعب الواحد في الامارات العربية المتحدة يبلغ ٣ دولارات.

وأكثر المحافظات ازدحاماً بالسكان هي القريبة من القاهرة مثل الجيزة والقليوبية والمنوفية، حيث ترتفع الكثافة إلى أكثر من ١٦٠٠ نسمة بالكم٢. أما المحافظات الصغرى في مصر العليا أي المحافظات المحصورة في الوادي فتحوي أيضاً بدورها كثافات كبيرة مثل أسيوط التي ترتفع فيها الكثافة إلى ١٠٠٠. أما شمال الدلتا فيعد نسبياً أقل حمولة من السكان، ذلك أن محافظة البحيرة والشرقية تحوي كثافة مقدارها ٥٢٠ والغربية /٦٠٠/.

الزراعة

يعيش ٤٥٪ من المصريين من الزراعة مباشرة، مقابل ٤٪ الولايات المتحدة و٧٪ في بريطانيا و١٠٪ في فرنسا، أي أن نسبة هؤلاء في مصر تعادل نسبة ما هو موجود في بقية الأقطار العربية باستثناء البلاد المنتجة للنفط، وكثرة التعداد ـ أي تعداد العاملين في الزراعة ـ يدل على ضعف انتاجيتهم، إذ دلّت إحصائيات عام ١٩٧٠ على أن المزارع الامريكي ينتج ما يكفي لتغذية ٤٠ شخصاً والفرنسي ١٢ شخصاً والسوفياتي ٦ أشخاص، بينما في البلاد المتخلفة (العالم الثالث) يطعم الفلاح وسطياً بين شخصين وشخصين ونصف الشخص. وتزرع مصر كل الأرض باستثناء المساكن والطرق والقنوات والمعامل كما أن النباتات القديمة قد تلاشت مثل البابيروس واللوتس الوردي، ومن الطبيعي أن تكون المزارع صغيرة للغاية ذلك أن العائلات التي تملك بين هكتار وهكتارين هي العائلات غير المحتاجة.

ويبذل الفلاحون الكثير من الجهود في حقولهم، فيكثرون من عمليات

العزق لقلة المكائن الزراعية كما أنهم يستعينون قليلاً بالحيوانات، ولكن على خلاف أقطار افريقيا السوداء، تستعمل الثيران والجواميس في جر المحراث وفي عمليات الدراس، أي تجر (النورج)، كما أنها تعمل في تحريك نواعير المياه، في حين أن الحمير تعد حيوانات نقل. والأداة الزراعية الرئيسة هي الفأس العريض، ويتم الحصاد بوساطة المنجل، وهكذا يتطلب القمح جهداً يعادل ٣٠ مرة من الساعات التي تبذل في الولايات المتحدة، وبالمقادير من الإنتاج، وبعبارةً أخرى تحتاج إلى ٣٠ عاملاً في إنتاج الكمية نفسها من القمح التي ينتجها عامل أمريكي واحد، كما أن مزارع الرز في ولاية لويزيانا الأمريكية تنتج ما يعادل انتاج ٢٥٠ عاملاً في فيتنام.

وبفضل الري الدائم أصبحت الزراعة المصرية منذ القرن الماضي تحصل على أكثر من موسم واحد من المحصول في العام، فالدورة الزراعية السنوية تؤمن ٣ محاصيل في عامين فضلاً عن محصول إضافي من البرسيم الذي يستخدم كعلف وسماد أخضر بعد قلب الأرض. أما الأراضي الفقيرة فتخضع لدورة ثلاثية ينتج عنها ٣ محاصيل في ٣ أعوام فضلاً عن محصول من البرسيم الذي يستخدم نصفه كعلف.

غير أن مردود الأرض ـ أي المقدار الذي يعطيه الهكتار ـ لا يكون عالياً كما نتوقع من مثل هذه الجهود، فمردود القمح المتوسط في سنة طيبة يعادل ٢٢٠٠ كغ/ هكتار، مقابل ٦٢٠٠ كغ/ هكتار في الدانمارك و٧٥٠ كغ/ هـ وسطياً في سوريا، ولا يمكن الحصول على أعلى من ذلك لأن القمح يتعرض لرياح محرقة تدعى (اللفحة) وتعطي الذرة بنوعيها مردوداً مماثلاً بيد أن القصب السكري يعطي ١٠ أطنان من السكر في الهكتار، وهو رقم مرتفع نسبياً، وللرز مردود ممتاز يبلغ ٣٨٠٠ كغ/ هكتار، علماً بأنه يندر أن يشتل كما يحدث في اليابان، كما أنه لا يحتل أجود الأراضي، وفي أحسن الشروط

يمكن الحصول على خمسة أطنان رز في الهكتار.

وتعد زراعة القمح تقليدية، ذلك لأنه يمتاز بكونه زراعة شتوية، غير أن للرز مزايا في مصر لم تصل أهدافها بعد. أما بالنسبة للقطن فيعد أجود مردود في العالم، لأن الهكتار يعطي ٦٠٠ كغ من الألياف أو التيلة مما يبرز هيمنته على الزراعة المصرية. وتعد أرض مصر خصبة طبعاً، لأن أراضيها السوداء عبارة عن طمي غضاري غني بالكلس والبوتاس والمانيزيا والحامض الفسفوري، ولكنها فقيرة بالآزوت، مما يستدعي استعمال السماد الأخضر أي طمر البرسيم والأسمدة الآزوتية. أما مياه النيل فلم تعد تساهم كالماضي في إغناء الترب ، لأن الشطر الأكبر من الطمي أصبح يتراكم خلف السدود، ويهتم الفلاح دوماً بإغناء أراضيه، غير أن سماد الحقل قليل جداً، إذ ليس من العادة استعمال الفراش من القش في الاسطبلات. كما أن القش يقدّم كعلف للحيوانات، والقسم الأعظم من الروث يستخدم كوقود (الجّلة)، كما أن الحمير تنقل أحياناً ترب الحقول إلى باحة البيوت كي تعيدها لمكانها بعد إغنائها بفضلات منزلية، كما يستعمل الفلاح كسماد (زرق الحمام) ووحول الأقنية، والتراب المقتلع من أطلال القرى القديمة التي تدعى (بالأكوام) - كوم: تل أطلال قرية - مما أدى إلى تلف الكثير من الأماكن الأثرية ذات القيمة الكبيرة مثل أطلال بلدة (سايس Säıs صالحجر) في الدلتا، كما أن الأسمدة الخضراء غير كافية وهناك ضرورة إلى اللجوء للأسمدة التجارية الكيماوية التي يتزايد استعمالها باستمرار ولاسيما بعد بناء السد العالي.

فقر الفلاح:

كانت كتلة الفلاحين فقيرة كما يدل على ذلك وضعها في عام ١٩٥٢، فكان هناك ٢,٦ مليوناً من الملاكين الصغار الذين تقل مساحة حقولهم عن ٢,١ هكتار، وكانوا يملكون ١/٣ المساحة المزروعة، ومتوسط ملكيتهم ٣٣

آر (آر = ١٠٠ م٢)، وكان عليهم أن يؤجروا أذرعتهم كعمال يوميين، وكان في ذلك الوقت في مصر ١,٤ مليون عامل مياوم بلا أرض، وكان بعضهم يحصلون عن طريق المشاركة أو عن طريق الآجار على بعض الأراضي من الملاكين المتوسطين الذين كان عددهم ١٤٩ ألف، والذين كانوا يملكون ١/٣ الأراضي المزروعة ومتوسط ملكية الواحد ١,٥ هكتار، أو من كبار الملاكين وكان عددهم ١٢ ألف يملكون ١/٣ المساحة المزروعة أو ٧٢ هكتاراً لكل مالك. وكانت شروط التأجير تترك للمستأجر ١/٥ المحصول فقط، كما أن المستأجرين كانوا معرضين لابتزاز الوسطاء (السماسرة).

وقد عملت قوانين الإصلاح الزراعي التي صدرت عام ١٩٥٢ على القضاء على الملكيات الكبرى، وقلّصت مساحة الملاك المتوسطين وباعت الأراضي للفلاحين، وحدّت من حصة المالك في الإيجار، وأصبح الفلاحون أو قسم منهم يعمل ضمن منظمات زراعية لم تكن دائماً ناجحة، غير أن قوانين الاصلاح الزراعي أعجز من أن تستطيع وحدها الانتصار على الفقر الريفي، ذلك لأن أسرة مؤلفة من ثمانية أشخاص لا تستطيع أن تعيش بشكل لائق على مساحة تقل عن خمسة فدادين (٢,١ هكتاراً)، أي أن الكثافة يجب أن تكون ٤٨٠ شخصاً فوق كل كم٢، غير أن الكثافة الريفية الزراعية الوسطى تزيد حالياً على ٨٠٠ شخص. والفارق بين الرقمين يعطي فكرة عن تكدس السكان وعن الفقر. ففي عام ١٩٥٦ ورغم قانون الإصلاح الزراعي الصادر عام ١٩٥٢ كانت الإجرة اليومية لعمال التراحيل ١٢ قرشاً مصرياً للرجل الواحد. وهذه الأجور المتواضعة كانت تجذب عمالاً فصليين (التراحيل) من الصعيد باتجاه مصر الشمالية كي يعملوا هناك في أقسى الأعمال، ويحققوا وفراً يكفيهم إلى بقية العام. ففي عام ١٩٦٧ كان ٧٤٪ من الفلاحين البالغ عددهم ١٩ مليون بلا أرض أي أن كراء الجاموسة (الأجر) ليوم واحد تبلغ رقماً أعلى من أجرة عامل التراحيل.

ويتجلى الفقر الفلاحي في الغذاء ويعد غذاؤهم عادة غنياً بالحريرات، غير أنه قليل الكلفة، لأنه يعتمد أساساً على النبات. فالفلاح يستهلك القليل من اللحم أو السمك، ذلك لأن الصيد ضعيف جداً في الماء العذب وأكثر نشاطاً في البحيرات الساحلية والبحر، ويقدر إنتاج مصر من الصيد سنوياً بحدود ١٨٠ ألف طن أو ٣,٤ كـغ لكل مواطن مصري مقابل ٦ ملايين طن في البيرو و١١,٩ مليون طن في اليابان عام ١٩٨٧، ويستهلك الفرد الياباني ٦٥ كـغ من السمك بالعام و٢٥ كـغ من اللحم الأحمر. كما أن الإسلام يحرم تربية الخنزير الذي لا يربى إلا بإعداد قليلة عند الأقباط. غير أن حليب الجاموس والماعز يستهلك برغبة شديدة، ولكن بمقادير هزيلة جداً. ويقوم خبز الذرة الصفراء وحده بتقديم ٨٠٪ من السعرات، وتخبز أقراصه في التنور المنزلي مرة في الأسبوع ، وتهيىء ربة العائلة فوق موقد الكاز جرة من الفول تكفي لبضع وجبات، وفي بعض الأحيان شورباء من الملوخية. ويعد استهلاك الخضار والفواكه ضعيفاً. وأصبح موقد الكاز والغاز من الضرورات المنزلية لتحضير الشاي الذي أصبح ضرورة مصرية من الدرجة الأولى، أي أن الفلاحين يصرفون كثيراً من ميزانيتهم على الشاي والسكر. إذ تتجاوز كلفتهما أحياناً الغذاء العادي، لدرجة أن السكر والشاي يستحوذان أحياناً على ثلث الأجرة اليومية، وهكذا تحتفظ سيدة المنزل بكيس الشاي الأسود الناعم التي تغليه مدة طويلة، وأصبح الشاي يحل مكان الحلبة المغلية في الماضي.

غير أن ميزانية الفلاح تضطرب بنفقات استثنائية كالمناسبات الزراعية أو الحفلات، كالختان والجنازات والزواج الذي قد يكلف أحياناً دخل عام كامل، وتضطر بعض الأسر لمواجهة هذه النفقات إلى الاستدانة بفائدة مرتفعة من المرابين، وتكون واردات الفلاح زراعية بحته وليس هناك من صناعة ريفية في القرى، كما تجهل النسوة الخياطة، وليس هناك من صناعة خزف بحيث أصبحت أدوات (الشينكو) أو الألمنيوم هي الأدوات المنزلية الرئيسة.

القطن : تضطر مصر لاستيراد الذرة الصفراء والقمح، إذ استوردت بين سنتي ٦٦/٥٦ ما قيمته ٨٨٠ مليون دولار من القمح من الولايات المتحدة دفعت ثمنه بالعملة المحلية، أي أن ستة أعشار الخبز المصري كان يعود لأصل أمريكي في تلك المدة وفي سنة ١٩٨٧ ثلاثة أرباعه، مثلما تستورد المواد الدسمة رغم أن ٦٠٪ من المصريين يعملون في الأرض، وقد اختارت مصر تركيز جهدها حتى مطلع السبعينيات على القطن وعلى دفع قيمة استيرادها من مبيعات القطن[١]. والواقع أن هكتاراً من القطن يسمح بشراء مقادير من الحبوب أكبر بكثير مما ينتجه الهكتار المذكور من القمح أو الذرة. وهناك أسباب لهذا الوضع الذي يعود إلى ارتفاع المردود ولغلاء ثمن القطن المصري في الأسواق العالمية لطول تيلته التي لا تقل عن ٣٠ ملم، وبعض الأصناف تتجاوز ٣٨ ملم، ولبياض لونه اللامع ولنظافته وتعود هذه المميزات إلى المناخ، فليس هناك من أمطار تضر بنوعية القطن، كما أن رطوبة الهواء فوق الدلتا تمنح الألياف المزيد من الجودة، ولهذا كان القطن من اختصاص مصر السفلى الشمالية، ويعود تفوق القطن المصري أيضاً لإتقان عملية الأرض واستخدام الأيدي العاملة الماهرة بلا حساب. وقد بلغ انتاج مصر من القطن عام ١٩٥٢ ٤٥٠ ألف طن من الألياف (المحلوج) فوق مساحة بلغت ٨٠٠ ألف هكتار مقابل ٤٣٤٠٠٠ طن في عام ١٩٨٦. وهكذا يؤلف القطن ٥٠٪ من قيمة الانتاج الزراعي، وبين ٧٠ ـ ٨٠٪ من قيمة الصادرات، ولا تبيع مصر الشيء ...ير فيما عدا القطن ومنسوجاته ذلك لأن للكتان قيمة منخفضة، كما تصدر مصر سنوياً نحو ٢٠٠ ألف طن من البصل الذي يستحصل عليه من مساحة

(١) في عام ١٩٨٠ كان مصدر الدخل الأول في مصر هو من تحويلات المغتربين المصريين والذين كان يزيد عددهم على المليونين وبالدرجة الثانية من مبيعات النفط وبالدرجة الثالثة من قناة السويس، وبالدرجة الرابعة من السياحة وكان القطن يحتل المرتبة الخامسة.

قدرها ٢٠ ألف هكتار في مصر الوسطى والعليا، كما أصبحت تصدر منذ عهد قريب الموالح (الحمضيات) من الأراضي المستصلحة في مديرية التحرير والباكوريات (الخضار المبكرة) بالإضافة إلى الزهور مثلما تصدر منذ مطلع الثمانينات ثلث إنتاجها من النفط البالغ ٤٩ مليون طن في ١٩٨٦.

الاحصائيات الزراعية المصرية (ألف طن)

المادة	١٩٧٤	١٩٨٥	١٩٨٦
القمح	١٨٨٤	١٨٧٢	١٩٢٩
الذرة الصفراء	٢٦٤١	٣٩٨٢	٣٨٠١
الذرة البيضاء	٨٢٤	٥٤٧	٦٠٠
الشعير	٨٩	١٤٥	١٥٣
الرز	٢٢٤٢	٢٣١٠	٢٤٥٠
قصب السكر	٧٠١٨	٩١٤٠	٩٤٥٠
السكر	٦١١	٩٠٢	٩٥٩
الفول السوداني	٢٧	٢٣	٢٤
القطن	٤٤١	٤٣٥	٤٣٤
الياف الكتان	١٦,١	١٥	-
بذر الكتان	٢٣	١٨	١٩
الحمضيات	٩٧٨	١٤٢٤	١٤٣٢
الأبقار	٢,١ مليون	٢,٨	-
الأغنام	١,٩ مليون	٢,٥	٢,٥
الصيد المائي	-	١٣٨,٨	١٣٨,٨

القرى:

تشتمل القرى في محافظة المنوفية (قرب القاهرة) على عدد من السكان يتراوح بين ٤ آلاف إلى ٥ آلاف نسمة فوق مساحة تقارب ٥ كم^{٢}، واحدى القرى وهي قرية المناوحة تضم ٥٥٠٠ نسمة فوق مساحة تبلغ ٤٤٦ هـ منها ٣٦٨ هـ حقول، أي أن الكثافة الريفية العامة تبلغ هنا ١٢٥٠ شخصاً في الكيلومتر المربع، ولكن الكثافة الريفية الزراعية ترتفع إلى ١٤٨٦ نسمة فوق

كيلومتر مربع مزروع وهي أعلى كثافات العالم، ففي أرض مصر التي كيّفها الري الزراعي التقليدي يجب أن يكون المسكن الريفي متمركزاً في قرى فوق مواقع لا تطالها مياه الفيضان، كما عملت غارات البدو في الماضي على قسر السكان على التجمع خلف جدران عديمة الفتحات في البيوت الهامشية من القرية. غير أن إتقان الري وتحديثه وإخضاع البدو واستصلاح الأراضي البور أدى إلى ظهور جيل جديد من التجمعات الريفية في خلال الشبكة القديمة من القرى، وهكذا ظهرت العزب (جمع عزبه) وهي قرى صغيرة وتقل تكاثفاً وحيوية عن القرى التقليدية. وتحوي كل قرية على بركة عامة للمياه وغالباً على مصدر وحيد للماء فضلاً عن أرض البيدر والقرافة (مقبرة) ومستودع عام (الشونة)، ويطيف بالقرية من الخارج سور تثقبه أبواب قليلة تؤدي لدروب ضيقة ومتعرجة، وكان كل درب في الماضي يؤدي لطريق مسدود يغلق ليلاً، وتبنى الجدران من الطوب الطري (اللبن) وتسقف بجذوع مستورة بالطين، والكثير من بيوت مصر العليا تكون عديمة السقف بل يكتفى بسقف من القش للحماية من أشعة الشمس ويتألف المخطط المنزلي من ثلاثة عناصر على خط واحد أي هناك دهليز يستخدم كغرفة استقبال، ثم غرفة مشتركة أي أنها غرفة ومطبخ في آن واحد تزدان بوابور الكاز أو فرن الغاز، وأخيراً الباحة التي تستعمل كزريبة (أسطبل) وهكذا تضطر الحيوانات لاختراق المنزل قبل الوصول إلى الزريبة. أما السقف أو السطح فيخصص للوقود الخشبي وللنوم في أكثر أيام السنة. مع أن هذا الوضع يجعل البيوت معرضة للاحتراق تحت شمس لاهبة وتزحف النار من سطح لآخر بسرعة مذهلة.

وليس للقرية شخصية سياسية لأن العمدة هو الذي يحكمها، والذي تسميه السلطة العليا، فهو يقوم بوظيفة مدير ناحية وحاكم وجاب ومفوض شرطة، ويعاونه الغفير وأحياناً الخبير الزراعي، ويقوم بفرض المخطط الرسمي

للدورة الزراعية على الفلاحين، غير أن للقرية شخصيتها لأن هناك قرى متلاصقة تنفصل عن بعضها بدروب ضيقة، وتشعر كل واحدة منها باختلاف عن الأخرى مثل قريتي «برهيم» و«بلميشت» في محافظة المنوفية، وبعض القرى مثل «فـلاتة»، تنقسم إلى أحياء لكل منها قاعة اجتماعات (دوار) والمسجد، والطاحون وأكثر الأماكن حيوية في القرية هو دكان البقال، حيث يتبادل الناس الأخبار ويتناقلون الإشاعات، وقد يكون الحي عبارة عن أسرة أبوية تعيش حياتها الجماعية، وفي هذه الحالة يتناول الرجال وجبات غذائهم في الدوار بعد أن تجلبها لهم النسوة، أما قرية «فيشا» فهي مقسمة إلى عشائر منفصلة، ولاجتياز حي إلى آخر يجب المرور من باب واطىء يضطر الإنسان للانحناء كي يجتازه، كما يتجمع القرويون في طرائق دينية أو تجمعات مذهبية كي يتعاونوا لبناء مسجد أو لجمع الصدقات أو لتعليم القرآن، وتقع بين أسرة وأخرى، أو بين حي وآخر في قرية واحدة حوادث ثأر لا متناهية واغتيالات متبادلة يعيش بفضلها الكثير من المحامين.

الفعاليات غير الريفية

الصناعات:

لا تفتقر مصر إلى المواد الأولية المعدنية، فبعد أن كانت تستخرج ٧ ملايين طن من النفط عام ١٩٦٥ من ضفتي خليج السويس والبحر الأحمر، وبشكل خاص من سيناء ـ التي تنتج حالياً ٥ ملايين طن ـ أصبحت مصر تنتج حالياً بفضل الأحواض الجديدة المكتشفة في صحراء مصر الغربية ٢٠ مليون طن لعام ١٩٧١، و٤٦ مليون في ١٩٨٧ مقابل ٥٢ مليون طن في ليبيا، و٢٠ مليـون طـن في عمان، و١٦,٥ مليـون في دبـي و٣٦ مليون طن في أبو ظبي، ١٨,٨ مليون طن في قطر، ٢,٢ مليون في البحرين، و٥٨ مليون طن في الكويت، ١٠٩ مليون طن في إيران، و٥٨ مليون طن في العراق،

و ۲۲۹ مليون طن في السعودية، و ۹ مليون طن في سوريا. ويبدو أن منطقة الدلتا غنية بالغاز الطبيعي..

وتنتج سيناء قرابة ربع مليون طن في فلزات المنغنيز الثمينة (المنطقة الوسطى والجنوبية) وكما أن مناجم الفوسفات التي تنتج سنوياً في شرق النيل نحو ربع مليون طن لا تخشى النفاد القريب، وتنتج البحيرات الساحلية الواقعة على هامش الدلتا ما بين ۳۰۰ ألف و٤٠٠ ألف طن من الملح. كما تشتمل أرض مصر على الحديد ذلك أن المكامن الواقعة قرب أسوان تحتوى على ذخر مقداره ۳۰۰ مليون طن من الفلزات الممتازة، كما أن منطقة القصير شرق النيل أكثر غنى بالحديد أيضاً، غير أن الصناعات التحويلية تبدو متواضعة أمام هذه الإمكانات وإن كانت تتقدم من حيث الرقم المطلق.

وكان الاستهلاك السنوي من الكهرباء للفرد في عام ١٩٦٤، ١٧٠ ك و س مقابل ۲۱۰۰ في فرنسا ولكن عشرة فقط في السودان و۹ في الحبشة، ٤٠٠٠ في كندا، وتستخدم المؤسسات الصناعية التي يعمل فيها أكثر من خمسة عمال ٣٤٢ ألف عامل في عام ١٩٥٤ وضعف هذا الرقم حالياً. ففي مصر يعمل ٨٪ من السكان في الصناعة ولكن في بريطانيا ٤٠٪ من السكان يعملون في الصناعة. وتستحوذ صناعة الغزل والنسيج والألبسة الجاهزة وصناعة الأحذية على نصف الأيدي العاملة في الصناعة الحديثة، غير أن الصناعة الحرفية النسيجية يعمل فيها قرابة ١٠٠٠٠٠ شخص، ويعمل في الصناعة المعدنية أي في الورشات التي تقوم بالتصليح الميكانيكي عدد أقل من العمال، أما المعامل الحقيقية فقليلة في مصر - أي المعامل المهتمة بالصناعة الثقيلة - فهي معمل للفولاذ في حلوان وآخر غرب الاسكندرية ينتج نحو مليون طن فولاذاً في العام. أي رقماً يقارب الإنتاج الجزائري وأكثر من ضعف الإنتاج التونسي، هذا مقابل ١٥٤ مليون طن فولاذاً في الاتحـاد السوفييتي و٨٢ مليوناً

في الولايات المتحدة و٤٣ مليون طن في الصين الشعبية، (اليابان الدولة الثانية في العالم في إنتاج الفولاذ). وينتج أكبر معمل كيماوي في السويس الأسمدة الآزوتية بحدود ٣٠٠ ألف طن بالإضافة إلى نحو ٥ ملايين طن من الاسمنت في العام. وقد اغتنت الصناعة التحويلية بمعامل جديدة تنتج حالياً السيارات الصغيرة السياحية بمحركات فيات والباصات من ماركة نصر، بالإضافة إلى معمل للبرادات من ماركة إيديال وصناعة حربية متقدمة نسبياً.

إحصائيات صناعية مصرية

المادة	١٩٧٤	١٩٨٠	١٩٨٦
مجموع: الكهرباء	٨٢٠٠ مليون ك و س	١٨٥٢٠ مليون ك و س	-
منها كهرمائية	٥٢٠٠	٩٦٠٠	-
بترول	٧,٤٧٢ مليون طن	٤٥	٤١
غاز طبيعي	-	٤,٠٦٠ مليون م٣	-
المنيوم	-	١٧٨,٥	١٧٦,٩ الف طن
خامات الحديد	٦٥١ ألف طن	١ مليون طن	١ مليون طن
الحديد الصب (فونت)	٢٧٥ ألف طن	٩٥٠ الف طن	-
الفولاذ	٤٠٠ الف طن	٨٥٠ ألف طن	-
بناء السفن	٩,٣ الف طنة	٤٥,٢ ألف طنة	١٦,٦الف طنة
الحامض الكبريتي	٣١ ألف طن	٤٤,٤ الف طن	-
خيوط القطن	١٧٩الف طن	٢٥١ ألف طن	-
خيوط تركيبية	٠,٧ الف طن	٣٣,٢ الف طن	٣٥,٤ ألف طن
اسمنت	٣٢٦٣ ألف طن	٥٣٦٤ الف طن	-
الاسطول	٢٤٩ ألف طنة	٩٥٢,٦الف طنة	١٠٦٣ ألف طنة
الاستيراد	٩٢٠ مليون جنية مصري	٦٩٧٣ مليون جنية	—
الصادرات	٥٩٢ مليون جنية مصري	٢٦٠٠ مليون جنية	

المدن:

ترى كيف نستطيع أن نفسر وجود مدن كضخامة القاهرة

والاسكندرية في قطر يحوي صناعة متواضعة؟ فإذا كان عدد السكان الحضر يبلغ اجمالاً ١١ مليون نسمة من أصل ٣٠ مليون نسمة في عام ١٩٦٧ و١٣ مليون نسمة من أصل ٥٤ مليون نسمة في ١٩٨٨ فإن مدينتي القاهرة والاسكندرية تحويان وحدهما حوالي ٨ مليون نسمة منها ١٤ مليون بالنسبة للقاهرة. وليس هناك من مدن وسيطة باستثناء الاسكندرية، أي ليس هناك انتقالية من ناحية الحجم بين هاتين العاصمتين وبين المدن الصغرى التي تعمل في تجارة المنتجات الزراعية مثل: فاقوس وبلبيس ودسوق وغيرهـا من مدن الدلتا، أو عبارة عن مدن إدارية مثل المنيا في جنوب القاهرة أو مدن تستمد أهميتها من مواسم الزيارات للأضرحة المحلية والمعارض مثل طنطا، أو تعيش من الصناعة الحرفية أو الآلية مثل المحلة الكبرى، أو من الصناعة الحديثة مثل حلج القطن في كفر الزيات، أو غزله مثل الزقازيق. وتفسر جاذبية المدن الكبرى بالأجور التي تعادل مرتين أو ثلاث مرات الأجور في الريف. وعلى الرغم من غلاء أسعار المعيشة وتهديد البطالة فإن أجور المدن تلعب دوراً سحرياً بالنسبة للفلاحين. كما تشتمل المدن المصرية على رواسب إقطاعية وإن لم يعد فيها إقطاع وذلك لكثرة الخدم. فبين كل مئة شغيل في القاهرة نجد بينهم عشرة خدم، ثم ستة عاملين في المقاهي أو حمّالين أو موصّلين، كما تحوى القاهرة قرابة ٢٠ ألف مكوجي ولا غرابة في ذلك، ففي الهند يتجاوز عدد الخدم عدد أفراد الجيش والموظفين.

وتعد القاهرة وريثة ممفيس، وإن كانت مبنية في موقع قريب من موقع المدينة القديمة المذكورة، أي أنها تقع عند تلاحم الوادي بالدلتا عند نقطة تفرع النيل، أي أنها تقع في موضع غني جداً بالإمكانات السياسية والاقتصادية والثقافية، فإلى الشرق منها تنخفض السلسلة الغربية فجأة كي لا تؤلف أي عائق في وجه المواصلات مع السويس والبحر الأحمر وآسيا. وقد أنشأ الفاتحون العرب الذين سلكوا هذا الطريق مدينة الفسطاط التي تولدت منها

مدينة القاهرة التي مضى على تأسيسها أكثر من عشرة قرون، والواقع يؤمن موقعها الشروط الممتازة للبناء ذلك أنها تقوم على مصاطب خلفها النيل في منجى من الفيضانات.

وهناك أكمة سمحت ببناء قلعة القاهرة الشهيرة، ويتجلى وضع القاهرة وتاريخها في القسم القديم، وذلك بدروبها الضيقة المتعرجة. وهنا تبلغ الكثافة السكانية ١١٢ ألف نسمة/ كم٢. أما بقية المدينة فلا تختلف كثيراً عن المدن الحديثة الأوروبية في شوارعها المتعامدة أو الدائرية، كما في ضاحية المعادي (جنوب القاهرة).

أما الصناعة فلها ضاحية في شمال القاهرة هي شبرا، وأخرى في الجنوب قرب حلوان، حيث توجد الحمامات المعدنية التي يقصدها الكثيرون للاستشفاء.

وتعد القاهرة عاصمة مركزية مفرطة بالنسبة لمصر، فهي عاصمة مالية وتجارية وصناعية، غير أنها أيضاً عاصمة ثقافية ليس لمصر فحسب بل للعالم العربي وحتى الإسلامي، فجامعة الأزهر هي مركز للتعليم الديني بالنسبة للاسلام الحنيف، كما أن جامعة القاهرة تعد أهم مركز مصري وعربي بالنسبة للدراسات الحديثة. وتحتكر القاهرة أكثر الصحف في بلدان العالم العربي وأكثر المجلات انتشاراً، وأكثر دور النشر أهمية وأكبر شهرة، فضلاً عن أهم المطربين الشعبيين وتعد القاهرة بالنسبة للعالم العربي والاسلامي بؤرة الحفاظ على التقاليد الدينية المتمثلة بالأزهر، مثلما هي بؤرة الحياة العصرية، سواء بالنسبة لمرونة اللغة العربية أو للتفكير الأوروبي الحديث، فهذه العاصمة الكاسحة بالنسبة لمصر تكتسب أيضاً أهمية عالمية.

فالقاهرة هي تجسيد لمصر لأن السكان المحليين يقصدون غالباً بكلمة مصر مدينة القاهرة.

أما الاسكندرية فهي وإن كانت بالأحرى مدينة إقليمية وأكثر انفتاحاً على الخارج، فمصر الفرعونية كانت تستخدم في مواصلاتها البحرية موانىء نهرية مثل ميناء نوكراتيس. أما الاسكندر المكدوني فقد أراد إنشاء قاعدة سهلة المواصلات مع بقية مصر، ويمكن الدفاع عنها بسهولة، أي أن مزايا الاسكندرية كانت جلية بالنسبة لأجنبي يتحكم في البحر، ففيها ميناء محمي فضلاً عن حبل رملي وحصوي ساحلي تحميه بحيرة مريوط، وينفتح على الصحراء والدلتا. وقد أنشأت كليوبترا قناة تيسر المواصلات مع النيل. وعند إنشاء الاسكندرية كانت مياه بحيرة مريوط عذبه تؤمن حاجات المدينة، ولكن عندما تحولت إلى ملحة اعتمدت الاسكندرية في شربها على القناة النيلية، وظلت خلال قرون عديدة تختزن المياه العذبة من أجل الشتاء في خزانات فسيحة ذلك لأن قناة النيل كانت تتملح في فصل التحاريق، وقد انحطت المدينة وانكمشت في مدة الحكم التركي أي بدءاً من القرن السادس عشر إذ كانت تضم ٨ آلاف نسمة فقط عند حملة نابليون بونابرت، غير أن نهضتها تعود جزئياً لازدهار زراعة القطن وتصديره كما تحوي على بورصة للقطن، وتؤمن تمويل المحاصيل مثلما تغزل القطن وتنسجه، وظلت الاسكندرية حتى عام ١٩٥٤ مدينة ذات طابع رومي وكأنها مدينة من مدن البحر المتوسط حاوية كل نماذج شعوبه، فكان فيها آنئذ ٧٠ ألف يوناني و٢٠ ألف إيطالي والعديد من المالطيين والفرنسيين والكثير من أبناء المشرق العربي من لبنانيين وسوريين، أي كان فيها نسبة عالية من غير المصريين أو من غير المسلمين، إذ كانت تضم ٤٠ ألف يهودي. وفي عام ١٩٦٠ تغير هذا الوضع فلم تعد الاسكندرية عاصمة متنوعة الأجناس والقوميات، وأصبحت التجارة الخارجية تدار مباشرة من مكاتب في القاهرة وانحصرت وظيفة الاسكندرية في تأمين الاتصال البحري الخارجي، أي كميناء رئيس وعادت مدينة إقليمية، زادت أهميتها بفعل السياحة الصيفية أي لكثرة البلاجات الموجودة بجوارها.

قناة السويس:

لقد كانت قناة السويس مصدر عائدات مباشرة زادت كثيراً عما كانت عليه وقت تأميمها عام ١٩٥٦، أي كان دخلها السنوي يؤمن لمصر ١٠٠ مليون دولار في العام مقابل مليار دولار في عام ١٩٨٥ (شكل ٥). وقد نتجت القناة عن عملية جراحية جغرافية وكان شقها متيسراً في الشروط الطبيعية المناسبة. فقد كان هناك برزخ ضيق يفصل البحر الأحمر عن البحر المتوسط لأن طول القناة ١٦٨ كم كما كان هذا البرزخ منخفضاً لأن أعلى نقطة فيه ٩ م فوق سطح البحر كما كان في بعض مناطقة على درجة من الانخفاض، مما أدى للاستغناء عن الحفر كما في بحيرة المنزلة وبحيرة التمساح والبحيرات المرة، أي كانت مسافة ٣٣ كم من البرزخ غارقة تحت سوية الماء. ويعد تكون هذا البرزخ حديثاً ففي مطلع الدور الرابع وحتى في منتصفه كان البحر الأحمر يتصل مع البحر المتوسط بيد أن تقبباً حديثاً خفيفاً أنتج البرزخ المؤلف من صخور حديثة جداً على شكل توضعات بحرية في الشمال والجنوب أو توضعات نيليه في القسم الأوسط. ولم يعثر الذين حفروها على صخور أكثر قدماً إلا في الجنوب على شكل صخور كلسية إيوسينية.

وقد عمل الفرعون سيتي الأول على حفر قناة تصل الفرع الشرقي للنيل بالبحر الأحمر سرعان ما انطمرت، فأعاد حفرها عمرو بن العاص ودعيت قناة الخليفة عمر بن الخطاب. وقد عادت فكرة مشروع حفر قناة بين البحر المتوسط والبحر الأحمر لجماعة من تلامذة سان سيمون الذين أقاموا في مصر بين عامي ١٨٣٣ - ١٨٣٧. وقد تفوقت حماسة هؤلاء على مخاوف الاقتصاديين أو السياسيين من أمثال بالمرستون الذي عدّ المشروع عبارة عن فخ منصوب لغباء الرأسماليين المحدثين، مثلما تفوقت على ريبة المهندسين،
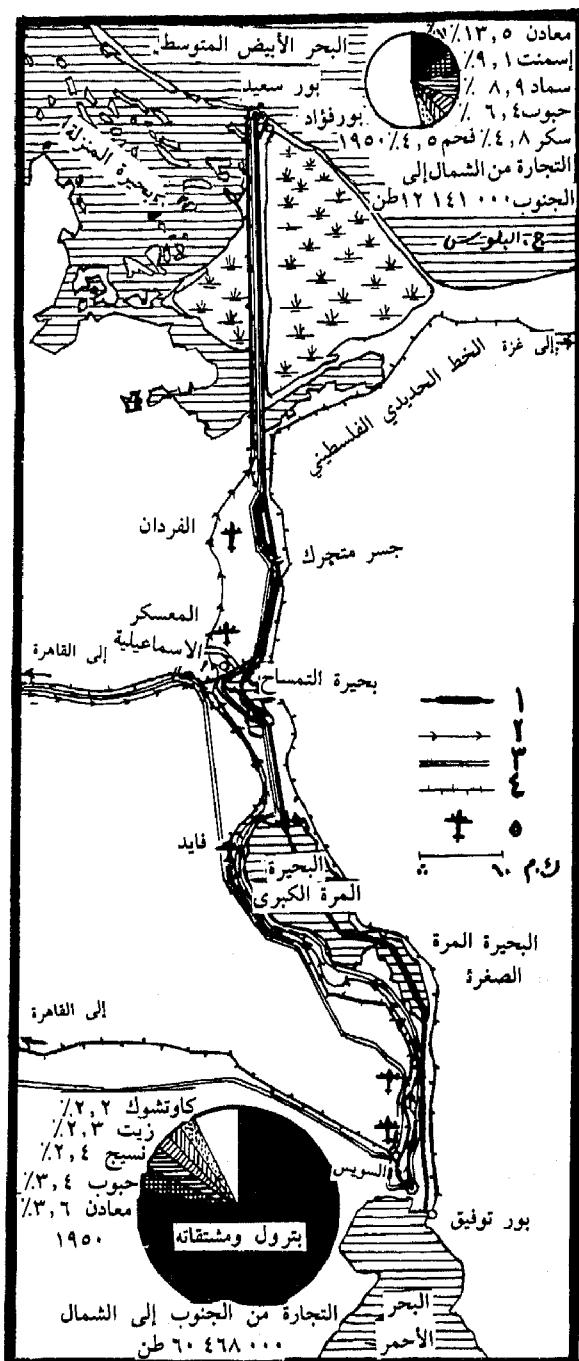
بترول ٣٢٪
١٩٥٣
سماد ٩٪
آلات ٥٪
معادن ٨,٨٪ اسمنت ٧٪
التجارة من الشمال إلى الجنوب
٢٢٥١٨٠٠٠ طن
معادن ١٣,٥ ٪
إسمنت ٩,١ ٪
سماد ٨,٩ ٪
حبوب ٦,٤ ٪
سكر ٤,٨ ٪ فحم ٤,٥ ٪ ١٩٥٠
التجارة من الشمال إلى الجنوب ١٢١٤١٠٠٠ طن
البحر الأبيض المتوسط
بور سعيد
بورفؤاد
بحيرة المنزلة
ع. البلوسن
إلى غزة
الخط الحديدي الفلسطيني
قناة السويس
التجارة في عامي
١٩٥٠ و ١٩٥٣
الفردان
جسر متجرك
المعسكر
الاسماعيلية
إلى القاهرة
بحيرة التمساح
١ - القناة: عرضها من ٦٠ - ١٠٠ م
٢ - قنواة مياه عذبة
٣ - طرقات
٤ - خط حديدي
٥ - المطارات ومراكز الطيران.
فايد
البحيرة المرة الكبرى
البحيرة المرة الصغرى
إلى القاهرة
كاوتشوك ٢,٢ ٪
زيت ٢,٣ ٪
نسيج ٢,٤ ٪
حبوب ٣,٤ ٪
معادن ٣,٦ ٪
١٩٥٠
بترول ومشتقاته
السويس
بور توفيق
البحر الأحمر
التجارة من الجنوب إلى الشمال
٦٠٤٦٨٠٠٠ طن
معادن ٧,٤ ٪
١٩٥٣
بترول
٧٢,٨ ٪
التجارة من الجنوب إلى الشمال
٦٧٨٨١٠٠٠ طن.
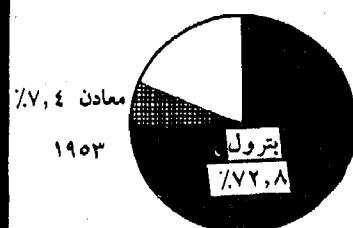
إذ كان الشائع في عام ١٧٩٩، وحتى عام ١٨٤٧، أن البحر الأحمر يرتفع عن سوية البحر المتوسط بمقدار ١٠ م؛ غير أن الواقع أثبت بطلان هذه المزاعم، ولا تعود أهمية فرديناند دليسبس إلى فكرته أو إلى دراساته بقدر ما تعود لإنجازة، فعناده كان سيؤول حتماً إلى الفشل لولا الدعم الذي ناله من نابليون الثالث الذي تغلب على المعارضة البريطانية. وقد تحسنت القناة وتعمقت أكثر من مرة حتى بلغت بعمقها الحالي ١٣ م بحيث أصبحت قادرة على استقبال سفن حمولتها ٦٠ ألف طن، وقد استدعت حاجات القناة ولادة مدينتين هامتين هما: بور سعيد وفيها نحو نصف مليون نسمة والاسماعيلية، كما ساعدت على نمو مدينة السويس.

وتعود أهمية القناة إلى اختصارها الطريق البحري بنسبة ٥٨٪ بين مرسيليا وبومباي، وبنسبة ٤٨٪ بين لندن وبومباي، وبمقدار ٣٩٪ بين نيويورك وبومباي. كما عملت على تشجيع الإمكانات الاقتصادية واستغلالها في جنوب آسيا. غير أن التوسع في إنتاج النفط في الخليج العربي منحها نشاطاً جديداً، ففي عام ١٩٥٣ بلغت الحمولة التي عبرتها من الجنوب إلى الشمال ٦٨ مليون طن منها ٧٣٪ منها نفط خام. وكان نشاطها بمعدل الثلث وقد نجحت مصر نجاحاً رائعاً في إدارة القناة وتسارعت عملية الإصلاحات الضرورية، بيد أن نشاط القناة في تمرير النفط فقد الكثير من أهميته النسبية نظراً لتكاثر السفن الشاحنة الضخمة، لاسيما السفن التي تزيد حمولتها على ٢٠٠ ألف طن لأن هناك ناقلات نفط حالياً تصل حمولتها ٥٠٠ ألف طن.

وقد أوضحت إحصائية نشرت في القاهرة أن نحو ٢١٢٠٠٠ سفينة عبرت قناة السويس بالاتجاهين منذ إعادة افتتاحها للملاحة الدولية حتى عام ١٩٧٥. وأشارت الإحصائية إلى أن ١٩٧٩١ سفينة عبرت القناة خلال عام ١٩٨٥، منها ٣٣٧ ناقلة بترول بلغت حمولة السفن الإجمالية ٣٥٢,٦ مليون

طن، تقدر رسومها بنحو ٩٢٠ مليون دولار. ويشكل هذا الرقم انخفاضاً في إيراد عام ١٩٨٤ نحو ٢٥ مليون دولار. وأشارت الإحصائية إلى أن انخفاض العائدات يرجع إلى انخفاض استهلاك البترول وإنتاجه بالعالم واستمرار حرب الخليج وضرب ناقلات البترول في الخليج العربي.

وتقدر بعض الأوساط مجموع مداخيل مصر من قناة السويس منذ تأميمها وحتى اليوم بنحو ١٥ مليار دولار ولا تفكر مصر حالياً بتعميق. القناة بسبب ارتفاع الكلفة كما أن هبوط أسعار النفط والفحم والمحروقات الأخرى جعل من المجدي اقتصادياً أن تدور الناقلات العملاقة حول رأس الرجاء الصالح.

ملامح المستقبل:

كان في مصر عام ١٨٢٢، ١,٩٨٠,٠٠٠ هكتاراً مزروعاً مقابل ٦,٨ مليون نسمة، وفي عام ١٩٦٧ أصبح في مصر ٢,٦ مليون هكتار مع ٣٠ مليون نسمة وحالياً ٥٤ مليون نسمة. فالمساحة المزروعة (محصولان في السنة على الكهتار نفسه) قد زادت، وفي قرن واحد ارتفعت الكثافة في الكم^2 المزروع من ٣٤٠ شخصاً في عام ١٨٨٢ إلى ١٠٠١ في عام ١٩٦٧ وإلى ١٥٠٠ في ١٩٨٦، وبما أن ٤٠٪ من القادرين على العمل يعملون في الزراعة، فمن المؤكد تقريباً أن تزايد السكان قد أدّى لهبوط في الدخل الفردي.

فبعد أن كان الدخل الفردي بالدولار الأمريكي في ١٩١٣ يعادل ٦٢ دولاراً هبط إلى ٤٥ دولاراً في عام ١٩٥٠، وارتفع إلى ٧٠٠ في ١٩٨٤ ويبلغ الدخل نصف هذا الرقم بالنسبة للفلاح أي أن الفرد المصري زاد فقراً بين ١٩١٣ ـ ١٩٥٠ رغم تزايد الدخل القومي من حيث الرقم المطلق وفي ذلك ظاهرة متميزة عن السكان. ولا يزال المستقبل مشحوناً بالتهديد بأن عدد السكان يتضاعف في كل ٣٠ سنة، وحتى إذا استطاعت الجهود الحكومية

الرامية إلى تحديد عدد المواليد وتقبلتها عقلية الجماهير فإن كبح جماح النمو الديموغرافي سيظل مع هذا بطيئاً جداً لأن أكثرية السكان من صغار السن والشبان، أي أن معظمهم أو نحو ٤٥٪ دون العشرين أي أن التخطيط العائلي لا يزال بعيداً عن عقلية أكثرية السكان.

التوسع الزراعي:

من الممكن زيادة الانتاج الزراعي فوق الرقعة الحالية المزروعة عن طريق الاصطفاء العلمي وتدريب الفلاح وتحسين المردود في الإنتاج، وذلك في إطار زراعة كثيفة تستخدم الأيدي العاملة الوفيرة بلا حساب، كما أن تبني نباتات جديدة قد يبدو كطريق آخر للتقدم، فالرز المشتول يمكنه أن يعطي مصر مردوداً أعلى بمرتين أو ثلاث من القمح. كما أن النباتات الدرنية لا تحتل مساحة كبيرة في الزراعة ولا في الغذاء رغم المردود العالي الذي تقدمه، وهناك آمال عراض تعلق على توسيع الرقعة المزروعة أي المرواة كاقتصاد في الري بالنسبة للهكتار المزروع يؤدي لري مساحات إضافية، إذ يمكن زيادة الرقعة المزروعة حالياً بنحو العشر، وذلك بالاستعاضة عن الأقنية المكشوفة بأنابيب باطنية، صحيح أن النفقات تكون كبيرة ولكنها ستعوض بسرعة بفضل قيمة الأرض المكتسبة وما تعطيه من محاصيل، كما أن الري بوساطة الرش لا يستهلك من الماء مثل ما تستهلكه السواقي التقليدية. هذا ولم يستفد كما لم يمكن الاستفادة من النيل الباطني رغم كثرة عدد الآبار، لأن شطراً كبيراً من الماء المتسرب يجري تحت الدلتا، وتتزايد ملوحته كلما اقترب من الشمال، أي أن من المستطاع استخدام هذه المياه على نطاق أوسع قبل أن يفسدها التملح. فهذا الماء الإضافي يمكن أن يستخدم من أجل الصرف (تنقيص الملوحة)، ولري البحيرات الساحلية بعد تجفيفها والتي تبلغ مساحتها ٢٨٠ ألف هكتار ذلك أن تجفيف البحيرات الساحلية وإخضاعها

للزراعة عبارة عن عملية ميسورة أسهل بكثير مما فعله الهولنديون في خليج زويدرسي Zuydersee.

فالقضاء على القنوات والاستيلاء على البحيرات الساحلية وإخضاعها للزراعة سيضيف ٤٠٠ ألف هكتار من الأراضي الجديدة ضمن الحدود الحالية للوادي والدلتا، وكل توسع آخر في الزراعة سيتم بعد ذلك على حساب الصحراء. فبعد أن كانت المساحة المزروعة ٢٦ ألف كم٢ عام ١٩٥٨ ارتفعت إلى ٣٠ ألف في الستينات، وستبلغ ٤٠ ألف بعد استخدام كل الإمكانات المتوافرة من السد العالي أي سيتم الاستيلاء على أراض جديدة من الصحراء، وهذا أقصى ما يمكن أن يقدمه العلم والتكنيك بالنسبة للزراعة المصرية، لأن أي توسع جديد آخر سيكون بلا شك عن طريق تحلية ماء البحر واستعمالها في مضمار الري، وهذا لن يحدث قبل مضي وقت طويل أي أن كل إمكانات السد العالي ستجعل المساحة تزيد نحو ٥٣٪ فقط عما كانت عليه قبل ربع قرن مضى، ولكن عدد السكان في هذه المدة تضاعف أي أن توسيع الرقعة المزروعة بالإضافة لكل التحسينات في المردود المتوقعة لا تؤلف جميعاً الترياق الشافي أمام التوسع الديموغرافي الذي جعل عدد سكان مصر يربو على الخمسين مليون نسمة.

معلومات عن الوضع السكاني في مصر في عام ١٩٨٥ عن صندوق الأمم المتحدة للأنشطة السكانية.

كان عدد السكان في ذلك العام ٤٦,٨ مليون نسمة والمعدل السنوي لنمو السكان ٢,٥٢٪ سنوياً خلال المدة (١٩٨٠ ـ ٨٥). وتبلغ الكثافة الخام ٤٧ نسمة/ كم٢ وتصعد إلى ١٥٠٠ نسمة/ كم٢ في الوادي والدلتا ولكن الكثافة الزراعية تبلغ ٨٠٠ نسمة/ كم٢.

وكان معدل المواليد لكل ١٠٠٠ نسمة ٣٨,٤. وأمل الحياة عند الولادة هو ٥٦,٤ سنة للذكور و٥٨,٢ سنة للإناث. معدل الوفيات الخام لكل ١٠٠٠ نسمة ١٢,٥. وفيات الأطفال لكل ١٠٠٠ مولد حي ١١٣ مقابل ٢١ بالسويد. وكان الدخل الفردي المتوسط السنوي ٦٩٠ دولاراً (١٩٨٢) مقابل ١٢٠٠٠ باليابان.

كما أن توسيع الرقعة المزروعة لا يؤدي إلى تخفيف الضغط الكافي في

الأرياف المصرية، ذلك لأن الأراضي الجديدة لن تستطيع استقبال عدد كبير من الفلاحين الذين تغص بهم الأراضي المزروعة سابقاً. ولنضرب مثالاً على ذلك أول قرية أنشئت في عام ١٩٥٤ في مديرية التحرير الجديدة غرب الدلتا، كانت تحوى ١٤٠٠ نسمة فوق مساحة مزروعة مقدارها ٦,٣ كم مزروعة أي أن الكثافة الريفية كانت ٢٢٢ نسمة في الكم² مقابل ٧٠٠ نسمة في بقية الأرياف، وعلى هذا الأساس نجد أن ١٠٠٠ كم² مزروع مجدداً لن يمتص أكثر من ٢٢٢ ألف نسمة مما سيخفض فوراً عدد سكان الريف المصري ولكن بكمية منخفضة جداً، وبما أن تزايد السكان في الأرياف يبلغ سنوياً ٤٠٠ ألف نسمة فيجب إذا أرادت مصر تحاشي ارتفاع الكثافة الزراعية أن توطن نحو ٤٠٠ ألف نسمة فوق الأراضي الجديدة، وعلى أساس كثافة مقدارها ٢٢٢ شخصاً في الكم²، ويلزمها كل عام الاستيلاء على ١٦٠٠ كم² من جديد، غير أن الحد الأقصى لتوسيع الأراضي الزراعية لا يمكن أن يتجاوز بأي حال من الأحوال ١٤ ألف كم². وهكذا نجد على الرغم من أن توسيع الرقعة المزروعة لا يؤلف الحل الناجح، إن مصر لا تستطيع حل مشاكلها دون اللجوء لتحديد النسل ودون التصنيع فإن إخضاع آلاف الكيلومترات المربعة من الأراضي الصحراوية يبدو أمراً ذا ضرورة ملحّة ولكن بشرط توفير الماء الكثير. ترى كيف يمكن تحقيق هذه المطاليب في وقت تستحوذ فيه مصر على ١٥٪ من المساعدات الأميركية الغذائية أو يشكل القمح والذرة المستوردان أكثر من نصف خبز المصريين؟..

السد العالي:

كانت هنالك مشروعات منذ القديم يحلم بها سكان مصر أقدمها الأشراف الكلي على النيل وترويضه وأحدثها السد العالي. ولكن في آخر عام ١٩٥٨ ظهر مشروع ثالث هو استغلال زمرة من المنخفضات الممتدة في غرب النيل، أي حول واحات الخارجة والداخلة والفرافرة والبحرية. وكان المشروع

يرمي لإرواء مساحات كبيرة قدرت بحوالي ٤ آلاف وحتى ١٢ ألف كم٢، وذلك عن طريق الاستفادة من الغشاء المائي الارتوازي الذي تحتوي عليه الصخور الرملية النوبية وقد حفرت آبار في واحة الخارجة حتى عمق ٦٠٠م ولكن التساؤل هو عن إمكانات هذا الغشاء المائي وفيما إذا كان قادراً على ري مساحات كبيرة كالتي ذكرت آنفاً، ذلك لأن ري ١٠٠٠ كم٢ يحتاج سنوياً إلى ٢ مليار م٣ من الماء. وقد ظهر في عام ١٩٦٧ أن آبار واحة الخارجة كانت تقدم ٣٠٠م٣ في اليوم أي ما يكفي لري ٥٥٠ هكتاراً بمعدل ٢م٣ من الماء لكل ١م٢ في السنة، غير أن اهتمام الشعب المصري انصرف قبل كل شيء نحو سد أسوان الكبير رغم ارتفاع كلفته نظراً لأنه أكثر بساطة وضماناً، فهو بسيط لأنه يتحمل محظورين اثنين كان الاشراف على النيل في الماضي يحاول تحاشيهما، أولهما: التبخر ذلك أن خزاناً مساحته ٣ آلاف كم٢ (بحيرة ناصر) يخسر مقدار ٣ آلاف ملم من الماء في العام بتأثير شمس الصحراء المحرقة، أي ما يعادل ٩ مليارات م٣ أو ما يكفي لري ٤٥٠٠ كم٢ خلال عام كامل. وثانيهما: الإطماء ذلك أن الخزان سيردم تماماً بالطمي في خلال ٥ قرون أي يمتلىء بمواد صلبة حجمها ٣٠ مليار م٣، ولكن هناك نتيجة مؤسفة أيضاً ذلك أن الغرين الذي يحمله نهر النيل والذي يعد مادة مخصبة للتربة سيظل من الآن فصاعداً في الخزان، وبعد أن كان النيل يترك فوق الأراضي الزراعية طمياً مقداره ١٣ مليون طن فهو لن يترك بعد الآن أكثر من ٣ ملايين طن. وبعد عرض هذه المحاذير أمكن بناء السد بحيث ارتفعت سوية ماء النيل من ٩٠ م فوق سطح البحر إلى ١٨٢ م فوق سطح البحر وبناء السد من الأتربة أصبح كتيماً بفضل طبقات الغضار المحقونة فيه، وقد استدعى ذلك جيشاً حقيقياً من المكائن التي نقلت ٢٠٠ مليون م٣ من الأتربة والرمال والغضار من الصحراء المجاورة، وهكذا يستطيع السد أن يختزن على سوية ١٧٥ م مقدار ٧٠ كم٣ من الماء، مما سيحقق هيمنة حقيقية على النيل. وفي

عام ١٩٧٩ كان مخزون بحيرة ناصر ١١١ مليار م^{3} أو ١١١ كم^{3} من الماء. وعلى كل يتوقف إنتاج الكهرباء من السد العالي إذا هبط مستوى البحيرة إلى ١٤٤ متراً. كما أن الكمية الوفيرة من المياه ستضيف لحقول المزروعات الشتوية ٢٠٠ ألف هكتار جديد كانت تزرع قبل ذلك بطريقة ري الحياض، وإذا ارتفعت سوية المياه عن طريق التعلية إلى ١٨٢ م، فإن الخزان سيستطيع تخزين كمية ٢٠ كم^{3} إضافية، هذا وستعطي المعامل الكهربائية المقامة عند السد ١٠ مليارات ك و س في السنة أي ما يعادل ٤ أمثال ما سيعطيه سد الفرات السوري، وستقدم الكهرباء المحلية الطاقة اللازمة لصناعة الأسمدة الآزوتية التي ستعوض خسارة الخصب الناجمة عن فقدان الغرين، كما ستنقل القدرة الكهربائية باتجاه الشمال ولا سيما نحو القاهرة، وقد بلغت كلفة السد رقماً هائلاً بلغ مليار جنيه مصري لم تستطع مصر بإمكاناتها الخاصة توفيره مما استدعى اللجوء إلى العون الأجنبي، وكان ذلك عن طريق الاتحاد السوفيتي (شكل ٦).

التصنيع:

بعد أن تم بناء السد فإن كل التحسينات الزراعية والتوسع في الأراضي لن تكون جميعاً قادرة على حل كل المشاكل، فسيظل النمو السكاني شبحاً مهدِّداً، كما سيبقى الفقر من نصيب القسم الأعظم من السكان، ولهذا يتطلب الأمر تنويع الاقتصاد وقبل كل شيء اللجوء إلى التصنيع.

غير أن مصر لا تفتقر للمواد الخام فقد أصبح السد العالي يوفر لها الطاقة في سعر زهيد جداً، كما أن فتح قناة تصل البحر المتوسط بمنخفض القطارة الذي ينخفض قعره إلى سوية ١٣٤ م تحت سطح البحر سيولد شلالاً يعطي فيما إذا تمت كهربته ٣ مليار ك و س، غير أن المصدر الرئيس للطاقة يكمن في البترول أيضاً (شكل ٧) الذي أنتجت منه مصرُ في عام ١٩٨٥، ٢٥
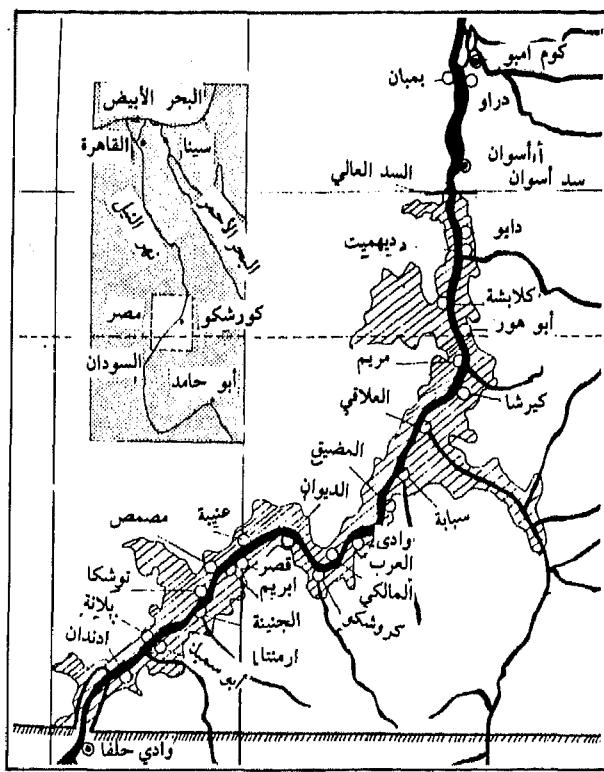
● النوبة . . القديمة والجديدة . . وموقع السد العالي وبحيرة ناصر . (شكل ٦) .

مليون طن ثلثه للتصدير وكان يعادل ٧٠٪ من قيمة الصادرات الاجمالية بعد أن كان الانتاج ٤٢ مليون طن في عام ١٩٨٣ وفي العام (١٩٨٦) ٤٠ مليون طن ويبلغ احتياطها من النفط ٣٤١٣ مليون برميل في عام ١٩٨٥، .

كما أن موانىء قناة السويس تتمتع بموقع فريد من أجل استيراد المواد الخام وتصدير المواد المصنوعة، وهكذا تملك مصر مصادر الطاقة والوضع الجغرافي والأيدي العاملة، لأن سكان مصر الذين كان عددهم ٣٣,٥ مليون نسمة عام ١٩٦٩ أصبح ٥٢ مليون في ١٩٨٦ ويتزايدون بمعدل مليون ونصف مليون كل سنة، يعمل منهم نحو ١١ مليون نسمة في شطر محدود من السنة فقط، أي أن مصر تشكو من البطالة المقنعة ونقص الاستخدام، لأن مصر

حقول نفط شكل (٧)

مقطع لجيوب النفط في خليج السويس
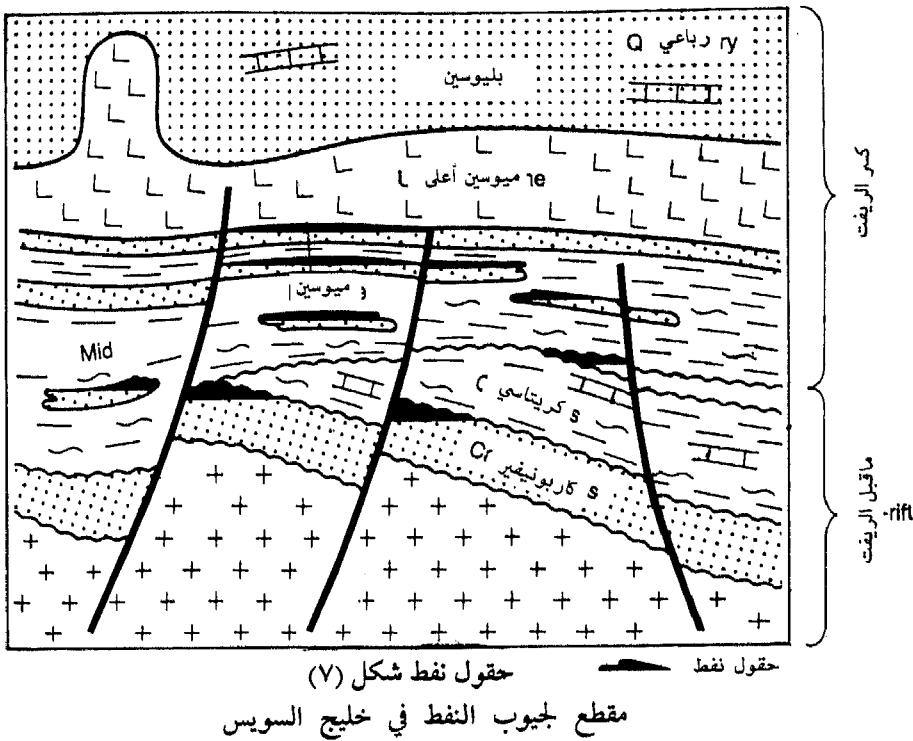
بحاجة لتوفير ٤٥٠,٠٠٠ فرصة عمل جديدة كل سنة. كما أن رؤوس الأموال هي أهم ما تفتقر إليه مصر ذلك من أجل رفع الدخل القومي بمقدار ٤٪ سنوياً ولمواجهة تزايد السكان البالغ ٢,٦٪ في السنة، ولرفع سوية حياة الجماهير قليلاً ينبغي توظيف أكثر من ١٢٪ من الدخل القومي في العام، ونظراً لأن التوفير الوطني لا يبلغ هذا المستوى كان طلب عون رؤوس الأموال الأجنبية أمرٌ لا محيد عنه. غير أن مصر لحسن حظها، تملك خبراء أكفاء فالإطارات المصرية تنظم وتدير وتستغل حقول النفط ومصافيه والبنوك والخطوط الجوية ومعامل الصناعة الكيماوية، ولدى مصر كليات هندسة جيدة، وإذا قارناها بأقطار أخرى تقف على عتبة التصنيع وجدناها تتمتع بوضع طيب.

وبعد كل حساب يظل مستقبل مصر الاقتصادي مفتوحاً، ولكن الخطر

يأتي من عدم تكريس كل قوى التنمية والتخلص من المشاكل السياسية، غير أن الوضع الجغرافي المصري غني جداً بالمغريات، فمصر دولة من دول المتوسط، وهي إفريقية وآسيوية وسيدة الطريق الواصل بين البحر الأحمر والمتوسط، كما أن مصر هي أكثر الدول العربية سكاناً، وتحوى أكثر بؤر التفكير الإسلامي نشاطاً، أي أن مصر لديها إمكانات لتتزعم العالم العربي وحتى العالم الإسلامي وتوسيع نفوذها في أفريقيا أيضاً.

ونظراً لكثرة عدد السكان وتميزهم بالدماثة والتفوق الذي تملكه على سائر المناطق العربية في المشرق، تستطيع أن تؤكد ذاتها وأن تلعب دور المعلم المدرب للعالم العربي، كما أن عليها أن تكثر من عدد المتخصصين المؤهلين فيها، فعن طريق خبرائها تستطيع دعم إشعاعها ونفوذها، ففي مصر سبع جامعات تحوي ١٨٠ ألف طالب منهم ١٠ آلاف من غير المصريين، ويعمل نحو مليوني ونصف مليون مصري في الخارج كمدرسين وخبراء وعمال.

وفي عام ١٩٨٥ كان العمال المصريون العاملون في آسيا العربية موزعين على الشكل التالي:

١,٥	مليون عامل في العراق
٨٠٠,٠٠٠	في المملكة العربية السعودية
١٠٠,٠٠٠	في الكويت
٢٠,٠٠٠	اتحاد الامارات العربية وقطر
٥٠٠٠	في البحرين

أما في ليبيا فيعمل قرابة ٧٥٠٠٠ عامل مصري.

وكانت خريطة المصريين في الخارج كما يلي: ٢٠٠,٠٠٠ في الولايات المتحدة، ٦٠,٠٠٠ في كندا، ٥٠,٠٠٠ في استراليا، ٧٠,٠٠٠

في بريطانيا، ٩٠٠٠ في فرنسا، ٩٠٠٠ في ألمانيا الغربية، ٣٠,٠٠٠ في ايطاليا، ٢٧,٠٠٠ في اليونان، ٦٠٠٠ في النمسا، ٢٥٠٠ في سويسرا، ١٠٠٠ في السويد.

وتكمن مصلحة مصر في تحقيق نوع من وحدة مع الأقطار العربية الشقيقة. أي أنها ستظل مفترق طرق عالمياً، وعليها أن تحقق كفايتها الغذائية وأن تستفيد من كل الظروف اللازمة لتحقيق رسالتها السلمية والمشروعة في آسيا العربية وحتى في سواحل إفريقيا الشرقية، كأن تقدم الإطارات العلمية والخبراء وتصدر السلع المصنوعة. غير أن أحداث عام ١٩٦٧ أظهرت مع الأسف ضعف الموقع الجغرافي المصري إذ تعطلت قناة السويس وتعرضت القاهرة ذاتها للضرب وشلت الكثير من المشاريع التي كانت تستطيع مصر أن تقوم بها لانتشال جماهيرها من وهدة التخلف لا سيما أن ٦٠٪ من سكان ريف مصر مصابون بالبلهارسيا، ويتزايد المصريون بمعدل ١,٥ مليون بالعام.

هذا وتظل مصر دوماً في وضعٍ حرج. ففي الداخل نجد هيجاناً إسلامياً أصولياً في مصر العليا ومؤخراً في الدلتا، والذي جرى قمعه بشدة ولكنه وجد صدىً له في مجلس الشعب على إثر الانتخابات المسبقة التي دعا إليها الرئيس مبارك في ٦ نيسان ١٩٨٧. أما في الخارج فتكون السياسة «مرهقة» بين مختلف الأتجاهات العربية والحضور الاسرائيلي. ونعثر في المجال الاقتصادي على ظلال وأنوار. ففي خلال المخطط الخماسي الأول ١٩٨٢ ـ ١٩٨٧ بلغت الاستثمارات ٣٧,٢ مليار جنيه مصري. وقد تم تنفيذ مركّب صناعة الحديد بمعونة يابانية في الدخيلة إلى الغرب من الاسكندرية بمسافة ١٥ كم وينتج المصنع المذكور ٧٥٠,٠٠٠ طن من حديد التسليح إضافة إلى الاسلاك الحديدية.

كما زاد انتاج بعض سلع الاستهلاك كالثلاجات تحقيقاً لشعار «ثلاجات

للجميع ولكن فارغة» والغسّالات والملبوسات ومنتجات الألبان. كما تحقق توسّع في استصلاح الأراضي وجري تجديد ١٠٠٠ كم من الخطوط الحديدية وتضاعف جهاز الهاتف بالبلاد. وفي المجال الطاقي حصلت زيادة في إنتاج البترول ولكن هناك تفكير جدي بتخفيض الانتاج خلال السنوات القادمة لتجنب استنزاف الاحتياطيات وستزيد مشتريات النفط الخام من ١,٧ مليون طن حالياً إلى ٩,١ في نهاية المخطط الثاني الخماسي في ١٩٩٠ في حين يزيد إنتاج الغاز الطبيعي ويصدر. ويقدّر الخبراء أن الميزان النفطي سيحقق ربحاً مقداره مليار دولار في عام ١٩٨٨، وعجزاً مقداره ١,٤ مليار دولار في عام ١٩٩٢، وهذا حسب الموارد الاحتياطية الحالية المعروفة. وهناك برنامج اقتصادي جديد يجري تنفيذه مع موافقة صندوق النقد الدولي يرمي إلى زيادة الانتاج الغذائي، وإلى إيجاد نظام جديد للصرف. ويبلغ حجم الدين الكلي الخارجي ٤٠ مليار دولار وتمثل الأقساط السنوية ٥,٥ مليارات دولار. والواقع لقد توقفت مصر عن التسديد منذ كانون الأول في ١٩٨٥ ولكنها حصلت من نادي باريس على جدولة ديونها. ويشير إحصاء تشرين الثاني ١٩٨٦ إلى أن عدد السكان يبلغ ٥٠٤٥٥٠٤٩ نسمة، أو ١٢ مليون أكثر من ١٩٧٦، ونسبة تزايد سنوية وسطى تبلغ ٢,٨٪ مقابل ٣,٨٪ في سورية. وعلى هذا الأساس سيبلغ عدد سكان مصر ٧٥ مليون نسمة في نهاية القرن. وتبلغ نسبة الذكور ٥١٪. وزاد عدد سكان القاهرة بمقدار مليونين خلال ١٠ أعوام ويبلغ حالياً ١٠ ملايين نسمة أو خمس سكان البلاد، إذا أضفنا إليهم منطقة الجيزة العمرانية بلغ المجموع ١٣ مليون نسمة أو ما يعادل عدد سكان سورية. غير أن نسبة السكان العاملين انخفضت خلال عشرة الأعوام الأخيرة فهبطت من ٣٠٪ إلى ٢٨,٤٪ من المجموع. ويكون الذكور أسوأ حظاً (من ٥٣ إلى ٤٧٪)، في حين أن نسبة العاملات ارتفعت من ٥ إلى ٩٪ من مجموع الإناث. وعلى الرغم من النسق المتزايد في صناعة البناء فإن الوضع الاسكاني يبدو بائساً

فكل غرفة يقطنها ١,٥ شخص. وتحسنت أوضاع السياحة الشتوية.

وسجلت قناة السويس انخفاضاً مقداره ١٠٪ في حركة السفن بسبب حرب الخليج وتناقص مقادير النفط القادمة من تلك المنطقة باتجاه أوروبا، وانخفاض سعر النفط مما يساعد أرباب ناقلات النفط لسلوك طريق رأس الرجاء الصالح. هذا علماً بأن تيار ناقلات النفط يؤلف ربع حركة القناة. ولكن رفع رسوم عبور القناة في حزيران ١٩٨٦ سمح بالحصول على فائض إيجابي يقارب مليار دولار كما سيرتفع بدءاً من مطلع ١٩٩٠.

وأول دخل مصري يتألف من تحويلات المغتربين البالغ عددهم ٣ ملايين والذين يحولون لبلدهم قرابة ٢,٥ مليار دولار ثم يأتي دخل قناة السويس ثم البترول (٢,٣ مليار دولار) ثم دخل السياحة وبعد ذلك يأتي القطن. ولكن تعاقب سنوات القحط في الحبشة أدى إلى استنزاف خمس احتياطي بحيرة ناصر وهبوط إنتاج الكهرباء من السد العالي بمقدار ٤٠٪. وتجدر الإشارة إلى قيام مصنع لصهر الألمنيوم في عام ١٩٨٧ ينتج ١٣٠,٠٠٠ طن بالعام، ولكن تبلغ المساعدات الأمريكية السنوية نحو ٣ مليارات دولار. وفي ١٩٨٧ أصبحت مصر تستورد ثلثي استهلاكها من الحبوب وتنال ١٥٪ من المساعدات الغذائية الأمريكية الخارجية، هذا وبلغت ديون مصر الخارجية ٤١ مليار دولار في ١٩٨٨.

المغرب العربي

ينتسب هذا الشطر الغربي من العالم العربي بتضريسه ومناخه وسكانه إلى عالم البحر المتوسط. والمغرب أصغر رقعة مما توحيه لنا المساحات السياسية. فإذا كانت المسافة بين الدار البيضاء وتونس تبلغ على خط مستقيم ٧٠٠ كم، فإن المسافة حسب خطوط الطول بين مدينة الجزائر والسهب جنوباً، لا تتجاوز ١٠٠ كم، كما تبعد الصحراء عن البحر ١٠٠ كم فقط (شكل ١). والواقع يساير خط الأمطار المتساوي الدال على ٢٠٠ ملم السفح الجنوبي للأطلس الأعلى والأطلس الصحراوي ويغلف مساحة تبلغ ٩٠٠ ألف كم٢. ولكن الحقيقة هي أن أجزاء المغرب التي تتحمل سكاناً كثيفين، هي المناطق التي تنال أكثر من ٤٠٠ ملم، وهكذا نجد أن ٩/١٠ المغاربة البالغ عددهم ٥٥,٥ مليون نسمة في عام ١٩٨٧ يعيشون فوق مساحة تبلغ ٣٠٠ ألف كم٢ أي حيث تتجاوز كمية الأمطار ٤٠٠ ملم، وحيث تبلغ الكثافة ١٧٥ نسمة/كم٢ مقابل ١٠١ نسمة/كم٢ في فرنسا مع حفظ الفارق الفيزيولوجي والتكنولوجي (شكل ٢).

كثافة سكان المغرب في الثمانينات

شكل (٢)

المغرب الكبير
معطيات الأرقام لعام ١٩٨٧

المؤشر	الوحدة	الحزائر	المغرب	تونس	ليبيا	موريتانيا
العاصمة		الجزائر	الرباط	تونس	الجفر	نواكشوط
المساحة	كيلومتر مربع	٢٣٨١٧٤١	٤٥٠٠٠٠	١٦٣٦١٠	١٧٥٩٤٥٠	١٠٣٠٧٠٠
السكان	مليون	٢٢,٤١	٢٢,٥	٧,٤٥	٣,٦	١,٩٥
كثافة	نسمة/ كم٢	٩,٤١	٥٠,٤	٤٥,٥	٢	١,٩
النمو السنوي	٪	٣,١	٢,٥	٢,٦	-	٣
سكان المدن	٪	٦٦,٦	٤٣,٩	٥٦,٨	٦٤,٥	٣٤,٦
الناتج القومي الخام	مليار دولار	٥٥,٢	١٣,٤	٨,٩	٢٧	٠,٧٠٠
النمو السنوي	٪	٢,٩	٥,٧	١-	-	-
دخل الفرد	دولار	٢٥٢٦	٥٦٧	١٢٠١	٧٥٠٠	٣٩٠
الدين الخارجي	مليار دولار	١٧,٥	١٤,١	٥,٢٥	٢,٨	١٤,٧٧
نسبة التضخم	٪	١٨	٤,٤	٦,٤	-	-
نفقات التربية	٪ من الناتج القومي	٤,٧	٧,٤	٤,٥	٣,٧	٧,٤
الدفاع	٪ من الناتج القومي	١,٧	٤,٤	٥,٨	-	٥,٧
الاستيراد	ملايين الدولار	٨٤٤٨	٣٨٠١	٢٩٨٠	٥٥٥٠	٢٣٤
الصادرات	ملايين الدولار	٨٦٧٧	٢٤٣٧	١٧٦٠	٥٠٠٠	٣٧٤

التضريس:

هناك تضاريس عنيفة تجزىء المغرب إلى وحدات صغيرة تعرقل المواصلات بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب، فجبال الأطلس الساحلية عبارة عن جبال متوسطة الارتفاع تصل في الريف إلى ٢٤٥٠م، وإلى ٢٣٠٠م في الأطلس التلي الجزائري، وإلى ١٢٠٠م في جبال الخمير في شمال تونس، ولكن عنف هذه التضاريس واستمرارها قد أدى لكثرة العوائق فيها كما كثرت فيها الملاجىء، والممرات الوحيدة السهلة والتي تصل بين البحر المتوسط والداخل هي «وادي الملوية» في المملكة المغربية، ووادي المينا في جنوبي مستغانم. وهكذا نجد أن مليلة والجزائر وعنابة وطبرقة تتصل جميعاً بصعوبة مع الداخل، وينطبق الأمر على بجاية رغم وجود وادي الصّمام خلفها.

وتتألف إفريقيا العربية من صخور قديمة وتدين بوجودها لحركات الجبال التي اعترت أطراف المتوسط، والتي أدت للالتواء ونهوض جبال الأطلس، مثلما أنهضت جبال الأندلس والأبنين في إيطاليا (شكل ٣). وقد حدثت هذه الحقب المولدة للجبال في فترتين رئيستين أي في الايوسين وفي الميوسين. واعترت هذه الحركات الأطلس الساحلي المؤلف من فسيفساء مستمرة من عناصر مختلفة، إذ نجد فيها بقايا كتلة (التيريني) التي كانت تحتل الحوض الغربي من البحر المتوسط، فنجد الصخور من الدور الأول كما في جبل (أدوغ) وجبال القبائل، وفي جزء من الريف، لكن القسم الأعظم من المواد المشكلة لهذه الجبال تتألف من رسوبات ثنائية وثلاثية ملتوية أو مطوية على بعضها البعض، فالأطلس التلي نهض في زمن الإيوسين، لأننا نجد الصخور البليوسونية على ارتفاع ٨٠٠ م في منطقة وهران، وقد حفرت الأنهار فيها خوانق تؤلف عقبات أمام المواصلات مثل وادي (بوسلام) أو وادي (الشفة). فهذا الوادي الأخير يتولد في جبال أطلس، ويجتاز منخفض (المتيجة) ثم تلال الساحل قرب مدينة الجزائر، كما لو لم تكن هناك تضاريس في وجهه، وقد نجم عن الحركات البليوسنية ظهور براكين على شكل جزر مثل جزيرة «جالطة» شمال تونس، والزعفران شرق سبتة، والبوران في جوارها، أو على شكل رؤوس ساحلية مثل رأس بوقارون، أو تتجلى هذه الحركات على شكل زلازل فجائية كما حدث في بليدة، وفي مدينة الأصنام الجزائرية في ١٩٥٤ وفي ١٩٧٨ مما أدى لنقلها إلى الشمال قليلاً من مكانها السابق وأصبح اسمها (الشلف) وبجوار العاصمة عام ١٩٨٩ فحركات النمو والكسور الحديثة تفسر لنا انتصاب السواحل ورهبتها بالنسبة للقادم من البحر، فالجبال تسقط رأساً على البحر والخلجان تكون عبارة عن أهّلة (جمع هلال) مما يجعل الموانىء الطبيعية قليلة، وبالتالي تصعب المواصلات مع الداخل.

وإلى الجنوب من الأطلس الساحلي تبدو السهول العليا مغلقة عن البحر
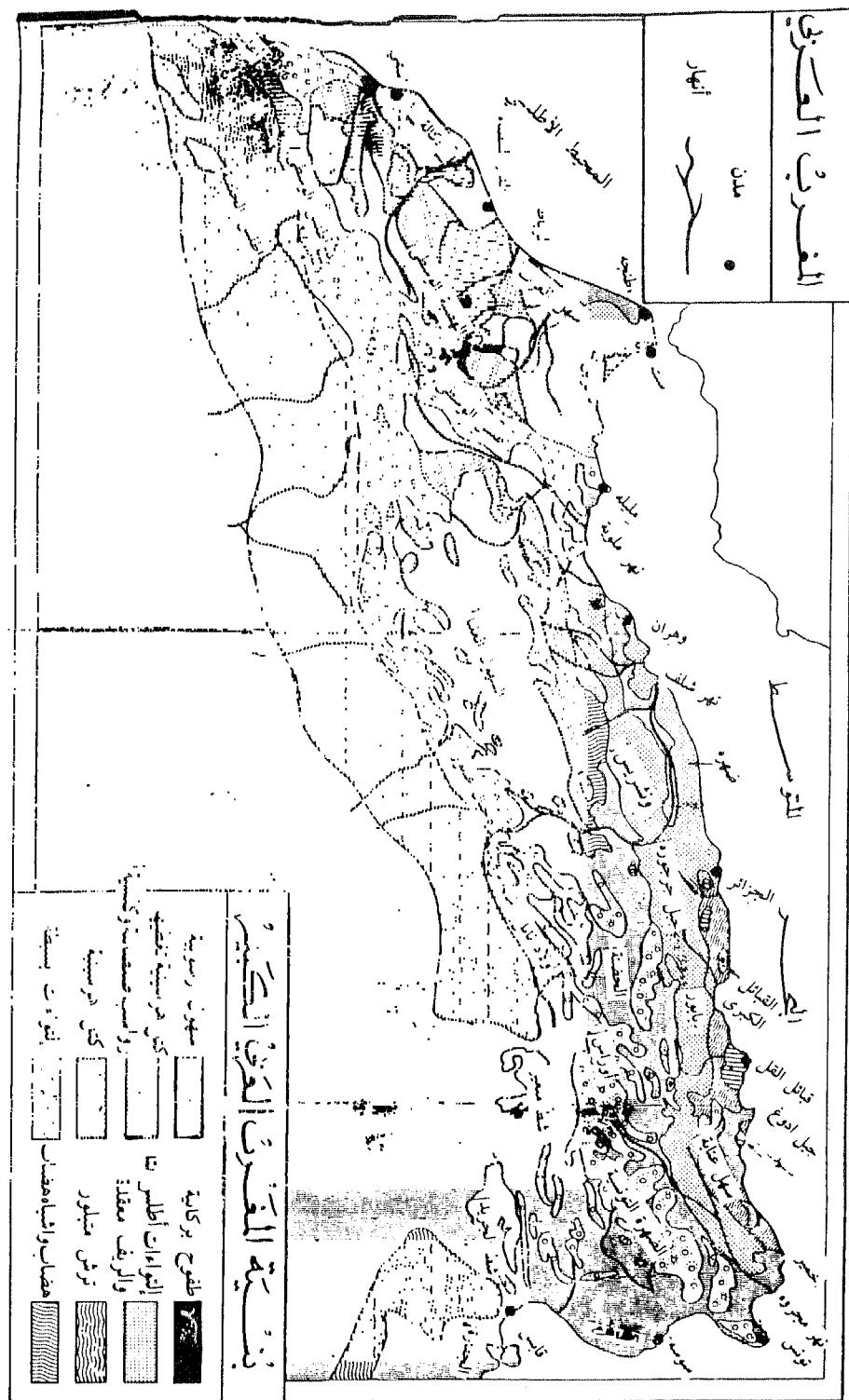
من الغرب والشرق. وإلى الغرب منها يقوم الأطلس الأوسط المغربي ـ وارتفاعه ٣٣٥٠م ـ بعزل هذه السهول العليا عن المغرب الأطلنطي، كما تغلق هذه السهول من الشرق بجبال قسنطينة. أما البلاد التونسية التي تدير ظهورها للغرب فتنفتح على البحر المتوسط الشرقي، وهكذا تتألف السهول العليا من مساحات هادئة يسهل التجول فيها بسبب قحولتها أيضاً. فالأنهار هنا ـ التي يسميها المغاربة أودية ـ تجري بشكل غير منتظم ضمن ممرات ضحلة، ونادراً ما تصل حتى البحر مما أدى لتشكل أحواض مغلقة مليئة بالرسوبات الملحية، وحيث يتراءى من فوقها السراب، مثل شط تيغري والشط الشرقي وشط الحضنة، وتنفتح هذه السهول العليا على نطاق واسع باتجاه الجنوب لهذا كانت مجال البدو. ويبدأ الأطلس الجنوبي بشكل مهيب بوساطة الأطلس الكبير المغربي، وهو أعلى سلاسل المغرب بصورة عامة، فعلى مسافة ٦٠٠ كم لا ينخفض أبداً إلى ما دون ١٨٠٠م. فجبل طوبقال أو (الأقرع) يسمو إلى ارتفاع ٤١٦٥ م، وجبل «مجون» إلى ٤٠٧١م، وجبل عياشي إلى ٣٧٨١م، ولكن إلى الجنوب من نهر الملوية الأوسط يقل ارتفاع الأطلس الكبير فجأة لأنه يتمدّد باتجاه الشرق بالأطلس الصحراوي الأقل ارتفاعاً، والمؤلف من قوافل من طيات (التواءات) غير متصلة كما في جبال القصور وجبال العمور وأولاد نائل وجبال الأوراس والنمامشة، وأخيراً بوساطة الضهرة التونسية. وأبرز هذه الجبال بالارتفاع والتكتل هي جبال الأوراس التي تصل إلى ٢٣٢٨م. أما بقية عناصر الأطلس الصحراوي فعبارة عن زمر من محدبات ومقعرات متراخية. ويتجول البدو بين هذه الجبال المتناثرة، وبينما تظل اللهجات البربرية حية في الأوراس وفي الأطلس الكبير نجدها قد تلاشت فيما بين هاتين الكتلتين.

ونجد في المغرب مثلما نجد في المناطق الأخرى أن الترياس يتخذ لوناً قانياً فكثير من طبقاته تتألف من غضار ترياسي غنية بالملح، هذه الأملاح التي

انضغطت بفعل الالتواءات تحت ثقل الصخور العليا جعلت الغضار ينبثق منها حتى السطح ويشكل طيات ثاقبة «ديابير Diapir».

أما في المناخ الرطب أي في الشمال، فتتحلل صخور الجبس (كبريتات الكالسيوم) والملح كي تؤلف أقماعاً أي حفراً ذات قعر ضيق كمنخفض الملاحة قرب بلدة منزل بورقيبة (فيريفيل).

وحيثما يكون المناخ جافاً تعطي هذه الصخور مناظر عجيبة مثل صخرات الملح في جبل جلفا، أو في جبل الملح. أما الصخور الأحدث فتكون حمراء إذا كانت ناجمة عن ترسب قاري تحت شروط مناخية شبه قاحلة، كحال الصخور الرملية الكريتاسية في المغرب الشرقي، وهي رسوبات سميكة من صخور ثلاثية تتألف من حصى متماسك ومن غضاريات ومن جبس. وفيما بين ذلك نجد توضعات بحرية كالصخور الجوراسية الكلسية في جبال الأطلس الأوسط وسعيدة وجرجرة وزغوان أو تكون كريتاسية كما في الأطلس الصحراوي أو كلسية حاوية الفوسفات كما في الإيوسين الأسفل أو غضاريات رخوة ميوسينية، ويتم الاتصال بين الركيزة الإفريقية الصحراوية والمغرب بصورة فجائية بدءاً من جبال الأطلس الجنوبية، ولكن نجد في المغرب أن هذه الركيزة ذاتها تكون ناهضة في جبال الأطلس الخلفي، الذي ينهض إلى ٢٥٣١ م والذي ينفصل عن الأطلس الأعلى بمنخفض السوس، وتبدأ الصحراء الحقيقية عند جبل باني شمال وادي درعة الذي يصب في المحيط الأطلنطي، وبين منطقة تافيلالت وجبل عمور الجزائري يكون التماس بين الركيزة الإفريقية الصحراوية وبين الأطلس الصحراوي محجوباً تحت الركامات، وإلى الشرق من واحة الأغواط نجد منخفضاً طبوغرافياً يفصل الأطلس الصحراوي عن الركيزة الإفريقية، والتي يقع فيها وادي الجدي وشط الملغير الذي ينخفض إلى - ٣٣ م أو شط الغرسة وأكبرها شط الجريد.

المناخ: المناخ السائد هو مناخ البحر المتوسط الذي يمتد بين درجتي عرض ٣٧° و ٣٠°. ونظراً لأن المغرب الكبير يمتد بشكل عام من غرب الجنوب الغربي نحو شمال الشمال الشرقي، لهذا يكون لدرجات العرض مفهوم مختلف بين نهايتي المغرب الشرقية والغربية. فعلى درجة ٣٠° تقع مدينة آغادير ولكن على درجة العرض نفسها نجد واحة غدامس الليبية والقاهرة وكلتاها صحراويتان، كما أن مراكش وواحة ورقله تقعان على خط العرض ٣٢°، كما أن الرباط وقابس التونسية الجافة تقعان على خط العرض ٣٤° وعلى خط العرض ٣٦° تقع طنجة وسوسة التونسية التي تنال أمطاراً لا تزيد على نصف ما تناله طنجة، ويكون النظام الحراري معتدلاً نظراً لعدم وقوع أشعة الشمس عمودية في الانقلاب الصيفي، فإن للتعرض نحو الشمس مفعولاً هاماً، ففي جبال القبائل الكبرى الواقعة على عرض ٣٥° شمالاً يميز الفلاح بين السفح الجنوبي المعرض للشمس والسفح الشمالي الذي يدعى آمالو.

وللمغرب أجمل سماء في العالم، ذلك أن التغيم لا يحجب السماء وسطياً في تمـوز في الجزائر أكثر من ثلاثة أعشارها، والعشـر في مدينة جلفا، غير أن المغرب الغني بالحرارة والشمس يشكو من قلة الأمطار ومن شدة التبخر. فخارطة الأمطار السنوية الوسطى كما نجدها في الأطلس تبين لنا ضعف المساحة التي تنال أكثر من ٤٠٠ ملم والتي رأينا أن مساحتها تبلغ ٣٠٠ ــ كم٢، فتشمل شمال المغرب الأطلنطي وجبال الريف وجبال التل الساحلي والجبال التونسية الشمالية. أما النطاق التي تتراوح أمطاره بين ٤٠٠ - ٢٠٠ ملم فهو نطاق التنافس بين الزراعة التي تكون غير مضمونة في كل السنوات والحياة الرعوية، أما في المنطقة التي تقل أمطارها عن ٢٠٠ ملم فإن تربية الماشية البدوية هي وحدها التي تكون ممكنة. هذا وتكون الجبال أكثر أمطاراً من المنخفضات، كما أن السفوح المعرضة للرياح المطيرة أكثر رطوبة

من السفوح المعاكسة. فمنطقة الريف الغربية تتلقى ١٨٠٠ ملم وسطياً في العام، كما تتلقى مدينة عين دراهم في جبال الخمير التونسية ١٥٧٥ ملم، وهناك مناطق قريبة من البحر وقليلة الأمطار مثل وادي الملوية، ومنطقة وهران لوقوعها في ظل جبال بطيقا الأندلسية، وهكذا تنحصر الأمطار في الفصل البارد والجفاف في الفصل الحار.

القحولة:

هناك انعدام في انتظام الأمطار يعتري المجموع السنوي مثلما يعتري التوزع الفصلي. فحتى في المناطق المزروعة تكون الأمطار المتوسطة كافية تقريباً. وكل عجز في كمية الأمطار يتحول إلى كارثة. فزراعة الحبوب بحاجة ماسة إلى أمطار شهري تشرين الأول وتشرين الثاني من أجل الحراثة والبذار كما هو الحال في آذار ونيسان كي تنجز النباتات دورتها الحياتية، فسنة أمطارها متوسطة ظاهرياً تكون سنة كارثية إذا كان التوزع الفصلي للأمطار غير موائم. فالأمطار السيلية التي تتحول إلى فيضانات تجري في التربة وتفيض الأنهار بشكل خطير فلا تستفيد منها الزراعة، مثلما حدث في مدينة صفاقس التي نالت ١٣٦ ملم في ٤٠ دقيقة من شهر تشرين الأول سنة ١٩١٢ في حين أن متوسطها السنوي من الأمطار هو ٢١١ ملم.

وللمغرب أنهار فقيرة ذلك أن أطول الأنهار وهو نهر الشلف يهبط صبيبه الصيفي حتى ١٠٠٠ لتر أو متر مكعب واحد في الثانية بينما فيضانه يصل أحياناً إلى ٤٢٠٠ م³/ثا أي يعادل فيضان الفرات، وفي عام ١٩٢٧ صب نهر الشلف في البحر ٦٠ مليون م³ أي ما يقارب المياه المخزونة في سد محردة بسوريا، بينما لم يقدم في عام ١٩٣٤ سوى مليون ونصف متر مكعب، ويصرّف هذا النهر بصورة متوسطة ٧٧٪ من الأمطار التي تهطل على حوضه. أما نهر المجردة فيتراوح بين ٣ م³/ثا في الصيف وبين ٢٥٠٠ م³/ثا في الشتاء. أما

نهر الزرود المار من القيراون فيتأرجح بين صفر و ٢٠٠٠ م٣/ثا. فأنهار كهذه لا يمكن الاستفادة منها بسهولة، ولكي نستغلها كما يجب، يجب تخزين كل مياه السنوات الطيبة. أما المغرب الأطلنطي فهو أحسن حظاً، لأن مياه نهر أم الربيع لا تقل مطلقاً عن ٢٩ م٣/ثا، وذلك بفضل الثلوج والصخور الكلسية الخازنة في الأطلس الأوسط كما أنه لا يتجاوز أبداً ٢٠٠٠ م٣/ثا.

والطقس العادي في المغرب هو الطقس المشمس الجاف شتاءً وصيفاً نظراً لوجود الضغوط العليا، أي أن إفريقيا الشمالية تقع على هامش الصحراء الكبرى، وإذا ما أمطرت السماء في الشتاء فمعنى هذا أن الطقس العادي قد تخلى عن مكانه وتزحزح نحو الجنوب أمام المناخ المعتدل السائد في أوروبا. فاجتياح الهواء الرطب للمغرب أي الهواء القادم من المحيط يوفر له الأمطار، فهذه الأمطار الاستثنائية من حيث المبدأ لا يمكن أن تكون منتظمة. أما الصيف فهو أكثر استقراراً من الشتاء، وإذا اضطرب فمعنى ذلك أن رياحاً قادمة من الجنوب قد حلت مكان الرياح القادمة من الشمال الشرقي عادة. ووجود الضغط المنخفض فوق حوض البحر المتوسط هو الذي يستدعي تلك الرياح الجنوبية التي سماها الأوروبيون «سيروكو» وتسمى رياح الشهيلي عند المغاربة وأحياناً القبلي، وهي رياح حارة محرقة مشحونة بالغبار تماثل الخماسين في مصر. فقد سجلت درجة حرارة في الظل بتأثير هذه الرياح بلغت ٥٢° م في مدينة سوق الأربعاء التونسية، مثلما سجل الرقم القياسي بصعود الحرارة في العالم في بلدة العزيزية القريبة من طرابلس حيث بلغت ٥٨° م في الظل فكانت قطب الحر ـ مقابل ٨٨ تحت الصفر في قطب البرد في القطب الجنوبي على ارتفاع ٢٠٠٠ م ـ وهذه الرياح إذا قدمت بصورة مبكرة تؤدي إلى تلف محصول القمح إذ ستكون السنابل فارغة تماماً.

وتكون المشاهد النباتية ذات طابع رومي، فنجد الغابات والأحراش

المؤلفة من السنديان وبلوط الخفاف في الغابات الكبرى، في حين نجد صنوبر حلب والعرعر والطويا في الغابات المنخفضة المتخلخلة فوق السفوح قليلة الأمطار، حيث نصادف أيضاً البطم والقطلب والزيتون الوحشي، وأخيراً النخيل القزم. وعندما تقل الأمطار حتى ٣٠٠ ملم يأخذ المشهد النباتي منظر دغلات العناب، ثم تظهر نباتات الحلفا التي تنمو تحت باقاتها أعشاب أكثر طراوة تتغذى بها الأغنام. أما في المرتفعات فنجد غابات البلوط الزيني والأرز كما في جبال أوراس وثنية الحد في الجزائر ولا سيما في الأطلس الأوسط المغربي[١]. ونجد أنواعاً أوروبية أيضاً مثل الشوح كما في جبال بابور الجزائرية وفي الريف والصنوبر في كتلة الريف أيضاً وفي جرجرة الجزائرية وتنفرد المملكة المغربية بغابة فريدة من نوعها في العالم هي غابة الأرجان في الجنوب الغربي وهي ذات أوراق قليلة وثمار لوزية الشكل تعطي زيتاً يصلح للأكل، كما أن أشجارها تؤلف مراعي حقيقية بالنسبة للماعز الذي يتسلق أشجارها. ولا تفتقر أقطار المغرب للترب الصالحة للزراعة بيد أن اتساع الرقعة القابلة للزراعة يتحدد بكمية الماء وليس بمساحة الأرض، والأراضي الجيدة هي التي تنبت بصورة عفوية الزيتون البري والبطم، غير أن ترب المغرب تقع تحت تهديد ظاهرة التملح، ولا سيما إذا كانت الأمطار قليلة، وعندما تكون الأمطار كافية تفضل الترب الرملية والخفيفة على الترب الغضارية التي تحتفظ بالأملاح، والتي تكون حراثتها عسيرة، كما لا تستقطب الندى.

ولا يبدو أن مناخ المغرب قد تعرض لتحوير في الحقبة التاريخية، فالأطلال الرومانية في المناطق السهبية لا تدل على أن المناخ قد تغير، بل

---

(١) كانت غابات المغرب غنية بعالمها الحيواني ولا سيما الأسود. فبين ١٨٧٣ و١٨٨٣ قتل الصيادون الفرنسيون ٢٠٢ أسداً في الجزائر، وتم قتل آخر أسد في المملكة المغربية في عام ١٩٢٧ في غابة الأطلس الأوسط.

تشير فقط إلى أن التقنيات الرومانية قد تركت في الأزمنة الأخيرة.

سكان المغرب واستيطانهم:

البربر :

استوطن البربر بلاد المغرب منذ مطلع تاريخه. فقد استوطنوا كل البلاد، غير أنهم كانوا عاجزين عن اقتباس تقنيات عليا في التنظيم رغم بقائهم حريصين على لغتهم. فاللغة البربرية غير مكتوبة، فتبنّوا اللغات والحضارات من الأمم التي دخلت بلادهم. وهذا ما يدل على النجاح الجزئي الذي عرفته قرطاجة وروما لا سيما العرب أخيراً الذين نقلوا للبربر لغتهم وحضارتهم القادمة من الشرق، كما عملوا على تقهقر اللغة البربرية باتجاه الغرب. وهكذا نجد اللهجات البربرية على شكل جزر كما في واحة سيوة وفي جبال نفوسة الطرابلسية ومطماطة التونسية، وأول كتلة بربرية كثيفة هي كتلة الأوراس (الشاوية). غير أن الكتل الكبرى البربرية هي التي نجدها في المملكة المغربية. وقد اعتصمت البربرية في جبال المغرب الجنوبية الرطبة أكثر من السهول التي تلائم الزراعة بصورة أفضل، كما كانت الجبال الشمالية صحية بالنسبة لهم لأنهم كانوا يتحاشون السهول المستنقعية وخيمة المناخ.

وقد قدمت قرطاجة وروما حضارتيهما ولكن مع القليل من المهاجرين على خلاف الفاتحين العرب الذين جاءوا بأعداد كبيرة. أما اليهود فسكنوا البلاد منذ أيام روما أو قرطاجة وتكاثروا بعد طردهم من إسبانيا، كما جاءت مئات الآلاف من الأندلسيين المسلمين كلاجئين بعد سقوط غرناطة، مثلما قطن المغرب جماعات من المرتدين المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام والانكشاريين الأتراك الذين أقاموا في المدن. وكان الرقيق الأسود عامل تهجين إذ تظهر الدماء السوداء في المدن وبشكل خاص في المملكة المغربية.

الفتوح المتعاقبة:

لقد استقر الكنعانيون الذين يطلق عليهم اسم (الفينيقيين) في قرطاجة مثلما هيمنوا على كل السهل الواقع في جنوبها وأطلقوا على المنطقة اسم «إفريقيا» أي بلاد تونس الحالية. ولكن قرطاجة لم تحاول الاستيلاء على (نوميديا أي بلاد الجزائر الحالية). وقد أراد الرومان إخضاع المغرب حتى الأطلنطي وحاولوا اجتياح نوميديا من الشرق أو عن طريق البحر ولكنهم اصطدموا بتضاريس عاتية، ورغم طول مدة الحكم الروماني، فقد ظلت بلاد القبائل بين قسنطينة ومدينة الجزائر وجبال الأوراس وجبال الريف والأطلس الأوسط والأعلى بمنجى عن الاحتلال الروماني.

أما العرب فقد قاموا عن طريق ليبيا وكان معظمهم من البدو وقد ساعد على ذلك عوامل جغرافية، فالجزائر تنفتح على مصراعيها بالنسبة للرعاة القادمين من الجنوب، وليس هناك من عوائق تضاريسية تمنع من يدخل المغرب عن طريق منخفض الجريد التونسي، أو منخفضات زيباني، التي تسمح بدخول السهول العليا الجزائرية عن طريق ممر الحضنة، أو من الممرات السهلة الأخرى. فعوضاً عن أن يدخلوا المغرب من ضلعه الجبلي الشمالي ومن خلال أكثر مناطقه سكاناً وأكثرها قدرة على المقاومة، فقد دخل العرب المغرب من الفواصل السهلة الجنوبية وهي ثغرات قليلة السكان. وهكذا استطاعوا استيطان السهول الجافة في تونس الشرقية وفي الجزائر الداخلية، دون أن يهتموا كثيراً بإخضاع بربر الجبال، لأن العرب لم يهتموا كثيراً بذلك، بل قصروا اهتمامهم على السهول الرعوية وعلى طرق المواصلات. وهناك فائدة أخرى من دخول المغرب بدءاً من الجنوب، فبالنسبة للأجانب القادمين من البحر يجدون شروطاً مناخية تتزايد سوءاً كلما تقدموا نحو الجنوب مما يثبط همتهم، أما الرعاة القادمون من الجنوب فيستمتعون أثناء زحفهم نحو

الشمال بمناخ يتزايد رخاؤه، إذ يوفر لهم مراعي أجود فأجود ولا سيما المراعي الصيفية. أما الفاتحون القادمون من الشمال من رجال بحر أو من فلاحين فإنهم يشعرون أثناء تقدمهم نحو الجنوب بشعور مخيب للآمال، لأنهم سيحسّون بأنهم إنما يتعمّقون في قارة يتزايد شحّها باتجاه الجنوب، وهكذا نجح العرب حيث فشلت روما، وكان لذلك أثر في المناظر الطبيعية المغربية. فظروف الفتح أعطت العرب تسهيلات في الإقامة لم يعرفها الرومان الذين ظلوا يحكمون المنطقة خلال ٨٥٠ عاماً. فقد احتلت روما إفريقيا الشمالية عام ١٤٦ ق. م، في حين استولى العرب على قرطاجة عام ٦٩٨ م. غير أن طابع روما قد انمحى بسرعة فاختفى اللسان اللاتيني كلياً، كما تلاشت الأنظمة الرومانية والمسيحية لأن ما قدمته روما كان سطحياً ومحدوداً في المكان فلم تصل روما للكتل الجبلية رغم أن النفوذ الروماني طوّق جبال الأوراس الذي ظل بربرياً وثائراً.

وقد اعترف ديوقلسيان بفشله، فتخلى تحت ضغط البربر الثائرين عن مئة ألف كم٢ من الأراضي الساحلية الواقعة إلى الغرب من وهران. كما أن تأثير قرطاجة ظل باقياً في العهد الروماني، ذلك أن عبادة بعل آمون ظلت معروفة في القطر التونسي حتى نهاية القرن الأول الميلادي. ومن المتفق عليه أن اللغة الفينيقية وهي لغة سامية ظلت معروفة في أرياف القطر التونسي حتى مجيء العرب الذين لم يكن من الصعب عليهم التحدث مع الفلاحين. أما المدن وكبار الملاكين والكنيسة فكانوا يتكلمون اللاتينية غير أن جماهير الشعب في الأرياف كانت تتكلم الفينيقية أو البربرية، أما سكان الجبال فلم يعرفوا غير البربرية وكل هذا لم يساعد على استمرار النفوذ اللاتيني.

المغرب العربي المسلم:

يبدو من المؤكد أن تونس الوسطى كانت مزدهرة ومأهولة بسكان

يمارسون الزراعة لدى قدوم العرب، غير أن الوضع لم يستمر طويلاً، ففي القرن العاشر أتلفت مزارع الزيتون كي تحل محلها المراعي البدوية. ويعزى هذا التقهقر الاقتصادي ليس إلى التخريب الذي قام به بنو هلال في القرن الحادي عشر بل إلى فترة الاضطرابات والفوضى التي كانت ضربة قاضية على الزراعة، مثلما عملت على استفحال البداوة ولا سيما في زمن انهيار المملكة الزيرية البربرية في القيروان في القرن الحادي عشر الميلادي . وهكذا أصبحت الإدارة في المغرب إسلامية بعمق وأكثر نجاعة من الإدارة السطحية الرومانية، وفي أواسط القرن التاسع عشر كانت السهول الخصبة والمطيرة قليلة السكان ووخيمة بسبب مستنقعاتها، وكانت تستغل من قبل أنصاف بدو يعيشون تحت الخيام أو في الأكواخ، وكانت المنطقة تفتقر إلى الطرق وكانت الحيوانات هي الوسيلة الوحيدة للنقل على ظهورها، باستثناء تونس الشرقية التي ظلت تستعمل العربات ذات العجلتين.

وكان للمغرب في القرن التاسع عشر زراعة رومية الطراز، مع خصائص ونواقص ناجمة عن العزلة، فكانت الحبوب الأساس التقليدي للزراعة وللغذاء أما الدورة الزراعية فكانت زوجية، أي سنة بور لتأمين الرعي وسنة تزرع الأرض فيها. أما الحراثة فكانت بوساطة المحراث البلدي الروماني. وعملية البذار كانت تتم قبل الحراثة التي كانت لا تستأصل الباقات النباتية الغريبة. وحيثما قلت الأمطار كانت زراعة الشعير هي المتفوقة.

أما فلاحو الجبال شبه القاحلة فقد عملوا على تأمين المياه لحقولهم عن طريق بناء سدود تحويلية تقود الماء النهري نحو المصاطب الجانبية ـ شأن نظام الري في بردى ـ فكانت هناك سواق محفورة على السفوح تجر المياه نحو حقول الزيتون المزروعة في قيعان الأودية، ولكن النظام الهيدروليكي ظل محصوراً على نطاق ضيق. فالمغرب وهو منطقة شبه قاحلة حتى في أجود

مناطقه، كان له نظام ري عاجز أدنى من مستوى الري الروماني الذي كانت له وسائل أكثر اتساعاً ونجاعة. أما في منطقة القبائل الكثيرة السكان فكان الري معدوماً رغم كثرة ازدحام السكان، وإذا كانت هذه المنطقة ممطرة فإن الري يستطيع أن يوفر محاصيل متكررة أكثر وزناً وانتظاماً، مثلما نستغرب في منطقة القبائل وفي الجبال الساحلية ندرة المصاطب بالنسبة للزراعة البعلية التي تنتشر بكثرة في أقطار أوروبا المطلة على البحر المتوسط. ومن المحتمل أن جبال القبائل قد استوطنت ببربر قدموا لها من السهول المجاورة، أي من مناطق تجهل ممارسة الري وبناء المصاطب. وكان كل الفلاحين يربون الماشية الصغيرة وأحياناً بعض الثيران والبقرات، ولكن تربية الخنزير غير معروفة، علماً بأن تربيته كانت موجودة في العهد الروماني، ذلك أن لدى البربر وحتى قبل اعتناقهم الإسلام تعاليم لا تحبذ تربية هذا الحيوان، وينتجع القطيع من الجبال نحو السهول في الشتاء وفي اتجاه معاكس في الصيف فكان البدو وأنصاف البدو ممن يهتمون بالماشية أكثر من الزراعة يلعبون دوراً جغرافياً حاسماً لأنهم ضيقوا الخناق على المستقرين في السهول الصالحة للزراعة.

المشاكل المتشابهة في الدول الثلاث:

لقد منحت قرطاجة وروما المغرب نصيباً كبيراً من العمران والمدن، غير أن المدن القديمة والمدن التي قامت في العهد العربي ظلت إجمالاً صغيرة. مثلما كانت تنفصل عن الأرياف المجاورة بأسوار منيعة، كما كانت تختلف عن العالم الريفي بثقافتها وأحياناً بأصل سكانها. وإذا لم تستطع مدة الحكم الفرنسي أن تطور الزراعة وتربية الماشية بشكل جذري لأنهما ظلتا تقليديتين، فقد ضاعفت عدد سكان المدن والمدن نحو عشرين مرة، هذا ولم يقل الفارق بين المدن والأرياف من وجه آخر. فقد أصبحت هذه المدن تستقطب مكاسب الحضارة الغربية، في حين ظلت الأرياف تعيش في أساليب باليه. وإذا كان

الاستقلال قد قضى أو خفف من تأثير وجود الطبقة الاجتماعية الأوروبية، فهو لم ينجح بعد تماماً في تقليص الفروقات الفاصلة بين المدينة والريف. وهناك المشاكل نفسها التي تطرح على دول المغرب الثلاث، ولا سيما التزايد السريع في السكان، ذلك أن سكان المملكة المغربية يتزايدون سنوياً بمعدل ٣٪ والجزائر ٣,٢٪ وتونس ٢,٥٪. كما تعاني هذه الأقطار نقص الاستخدام في الأرياف، ومن الفقر ومن البطالة في المدن ومن البؤس في أحياء القصدير (التنك). ومن الضروري تقليص حجم نقص الاستخدام في الأرياف باللجوء لزراعة أكثر مردوداً تمتص عدداً أكبر من الأيدي العاملة، كما أن الأقطار الثلاثة تشكو من نقص التغذية بالنسبة للمواد النباتية الصناعية، لأن ما يستهلكه الفرد المغربي وسطياً من السعرات (كالوري) في اليوم لا يزيد كثيراً على ٢٠٠٠ حريرة بينما الحد الضروري الأدنى ٢٥٠٠ حريرة، ويستهلك الأمريكي ٣٦٥٠ حريرة، أي تشكو هذه البلاد من نقص التغذية وسوء التغذية في آن واحد. كما أن هناك ضرورة عاجلة لإكثار مجالات العمل في الصناعة لامتصاص البطالة في المدن، ومع الأسف فإن المعامل الحديثة تتطلب توظيفات مالية لا يكون بمقدور السكان أن يوفروها، ذلك أن الدخل المتوسط السنوي للفرد المغربي يكون في حدود ٦٠٠ دولار والجزائري ٢٤٠٠ دولار (١٩٨٣) وهبط إلى النصف (١٩٨٧) بسبب هبوط انتاج النفط وأسعاره، والتونسي ١١٩٠ دولار - هذا مقابل ١٧٠٠٠ للفرد الياباني - غير أن جميعهم لا يصلون إلى هذا الرقم المتوسط كما أن علينا من أجل تأمين الشغل لعامل واحد في معمل حديث توظيف مبلغ يتراوح بين٦٠٠٠ - ١٠٠٠٠ دولار حسب نوعية الصناعة أي ما يعادل دخل ١٠٠ فرد مغربي في عام واحد.

ويعود التجانس المغربي إلى وجود حضارة مشتركة وإلى تماثل المشاكل، ولكن يبدو أن التجزئة السياسية القديمة في المغرب ستستمر مع

الأسف، فأقطار المغرب تبدو عبارة عن شريط طويل ضيق من الأراضي الجيدة وغير المناسبة للتمركز، كما أن المواصلات الداخلية عسيرة، ويبدو أن التفاهم بين أقطار المغرب هو أمر ممكن بسبب وحدة الحضارة كما أنه مرغوب جداً لتقليص النفقات العسكرية.

كما أن هذه الدول المتماثلة والمتوازية لا يمكن أن تساعد بعضها في تصريف بضائعها فتضطر كل منها لحل مشاكلها الخاصة على حساب تقدمها.

ومن المفيد أن نقارن المغرب بكاليفورنيا، ذلك أن المساحات والمناخات تسمح لنا بملاحظة نوع من توازن بينهما. بيد أن الموارد المائية الكاليفورنية تبدو متفوقة، ذلك لأن المناخ مطير جداً في قسمه الشمالي فضلاً عن ما يقدمه نهر كولمبيا من مياه إضافية. كما أن كاليفورنيا حولت قسماً من مياه نهر كلورادو، كما تستطيع جر المياه العذبة من كندا البعيدة وهي منجزات وإمكانات لا تتوافر لأقطار المغرب، غير أن هذه الميزات الكاليفورنية لا تستطيع أن تفسر لنا سبب كون المواطن الكاليفورني غنياً جداً، وكون مواطن المغرب فقيراً جداً والحضارة وحدها هي القادرة على توضيح هذا الاختلاف، فالمغرب الذي ورث تاريخاً طويلاً يبدو وكأنه ينوء تحت وطأة سكانه الكثيفين من فلاحين ورعاة الذين يشتغلون بوسائل تقنية قليلة الانتاجية، وفي قطع صغيرة من الأرض وقطعات صغيرة أيضاً. فالحضارة المغربية وما فيها من بربر وعرب، ومن حواجز بين سكان الجبال والسهول، وبين الحضر والريفيين والمغاربة، تندمج بصعوبة في الحضارة الحديثة، ومع التطور السريع الذي تفرضه هذه الحضارة على كل المستويات التقنية. أما بالنسبة لكاليفورنيا فقد استطاع السكان الذين يعودون لأصل مهاجر كلياً بعد أن أبادوا الهنود وقضوا على السيطرة الإسبانية أقول استطاعوا أن يندمجوا كلياً دون كوابح الماضي في حضارة غربية ذات طابع أمريكي.

١ ـ المغرب
(المملكة المغربية)

إن انفتاح المغرب على المحيط الأطلنطي منحه أمطاراً وفيرة وأنهاراً غزيرة وهواءً رطباً بجوار السواحل. وهكذا ساهمت السهول المطلة على المحيط بجعل المملكة المغربية أكثر دول المغرب سكاناً، فقد بلغ عدد سكانها ١٥,٥ مليون نسمة في أواخر عام ١٩٧١ و ٢٥ مليون في ١٩٨٨ منهم ٢٠٠٠٠ يهودي أو ٨٠٪ من يهود الوطن العربي، وإذا استثنينا مدينتي وجدة، وتطوان، نجد المدن الكبرى واقعة في هذه السهول الغربية، التي لا تؤلف سوى شطر بسيط من رقعة المغرب. والواقع تتفوق هذه المنطقة على بقية أرجاء القطر بتنوع مشاهدها (شكل ١).

الريف:

يتألف الريف من قوس التوائي ومن تكدس أغشية رسوبية اندفعت من الشمال، فنجد صخور الدور الأول ترقد بشكل متنافر تحت صخور الدور الثاني، وقد نهضت هذه الكتلة الجبلية كلياً في الفترة الميوسينية والبليوسينية، والقسم الأعظم من هذه السلسلة يبدو ثقيلاً أي قليل التقطع وأعلى نقطة فيه تصل إلى ٢٤٥٢ م، وتكون الأعراف الجبلية غير متناظرة تلتفت جبهتها الوعرة نحو الجنوب، وتكون المواصلات عسيرة في هذه المنطقة بسبب هذا الحاجز الطبوغرافي الكبير، كما أن الوديان تكون عميقة ومحفورة في صخور رخوة

طبغرافية المغرب

جبال الريف والأطلس

عروق الصحراء الكبرى الشمالية
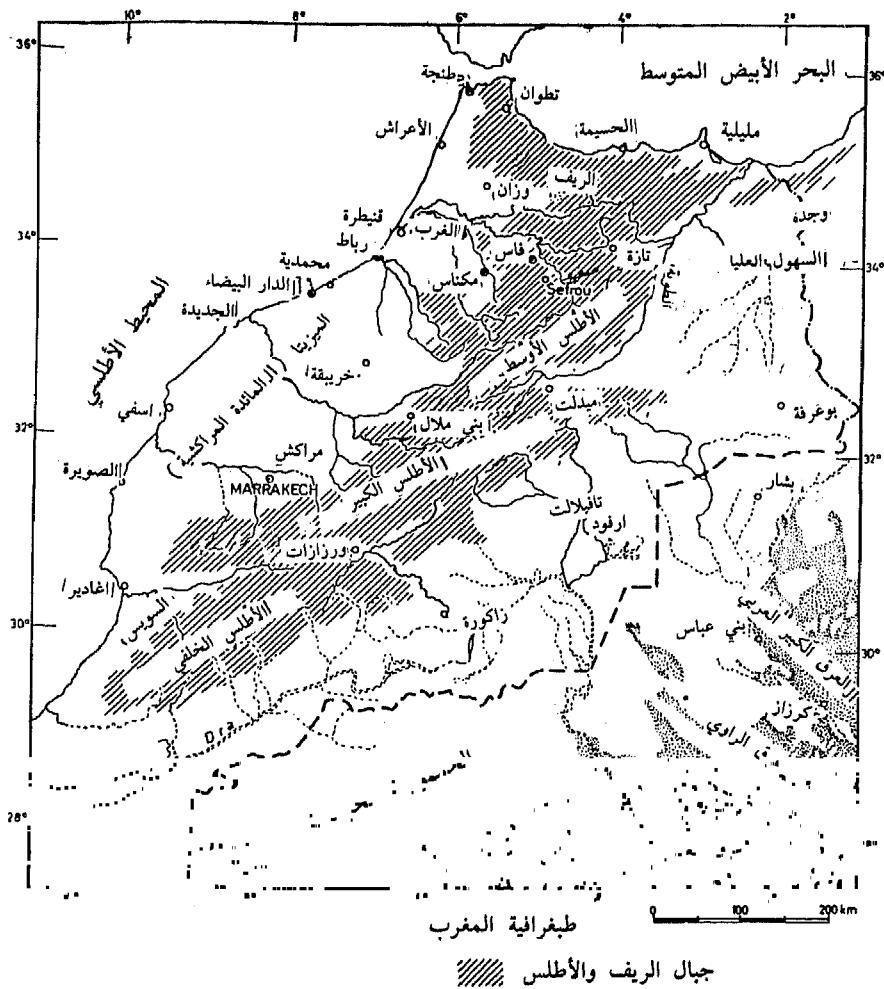
شكل (١)

تستدعي طرقها اصلاحاً مستمراً. أما الأمطار فشديدة، تزيد في عديد من المواقع على ١٥٠٠ ملم كما أن الثلج يتساقط بغزارة ابتداء من ارتفاع ١٥٠٠ م. وإجمالاً يبدو الريف كجبل رطب حاوٍ غابات لا زالت طبيعية، رغم أن الفلاحين يقتطعون منها أجزاء متفاوتة وتسود هنا أشجار بلوط الخفاف (الفلين) والأرز والشوح.

ويصلح الريف لتربية ماشية من الأبقار الحلوبة، ذلك أن المرتفعات توفر مراعي ندية (رطبة)، غير أن السكان يتألفون من فلاحين، إذ لم يستطع البدو أن يستقروا في هذه الجبال الرطبة والموحشة، وإذا كان بعض البربر قد تعربوا كما في منطقة جبالا في شرق طنجة، فإن البدو لم يستطيعوا النفوذ إلى أي جزء آخر من الريف، وأكثر المناطق ارتفاعاً تحوي كثافات تصل إلى ٦٠ نسمة/ كم[٢] ولكن في منطقة جبالا تصعد الكثافة إلى أكثر من ١٥٠ نسمة/ كم[٢]، وتكون الزراعة متقنة حثيثة تقوم على حبوب الخريف والربيع وعلى الزيتون والتين والجوز وتربية الماعز والأغنام والأبقار. أما الري فيستعمل من أجل الحصول على منتوج عالي القيمة، ولكنه يباع خفية وهو الحشيش. وقد كانت جبال الريف دوماً بؤرة هجرة، فمدة الحكم الاسباني أدت لهجرة كثير من الريفيين إلى بلاد الأندلس وإلى جنوب البرتغال، وذلك لأنه ليس لدى الريفيين مناطق هجرة قريبة.

السهول الأطلنطية:

تربط هذه السهول دون حواجز جدية بين عواصم المغرب السياسية والاقتصادية مثل فاس، مكناس، الرباط، الدار البيضاء، ومراكش، فهذه المنطقة هي بلاد (المخزن)، أي الخاضعة للسلطة الحكومية المركزية في الماضي بينما كانت المناطق الجبلية دوماً منطقة عصاة وتمرد (بلاد السبا).

منخفض السبو:

يكون هذا المنخفض واسعاً متمتعاً بمناخ مطير، ويقود شرقاً حتى ممر تازة وهو الممر الوحيد الميسور باتجاه الشرق، وكانت هذه المنطقة تابعة لمنطقة طنجة أيام الرومان الذين استقروا في مدينة وليلي، كما قامت المملكة الادريسية في فاس. وتعد هذه المنطقة غنية تعادل سهل الأندلس في شبه

جزيرة إيبيريا، غير أن منخفض السبو لم ينجز بعد كل الإمكانات الاقتصادية، ويعود ذلك لحياة شبه يدوية سادت في هذه المنطقة المتمتعة بأفضل مناخ زراعي في المغرب، وهكذا عرقلت البداوة كل التطلعات بالتقدم في سهل السايس (بين فاس ومكناس) وسهل الغرب وسهول الجنوب الواقعة بعد الرباط، ذلك لأن قبائل (الجيش) التي أقامت قرب العواصم، حصلت على إقطاعات واسعة مقابل العون العسكري الذي كانت تقدمه لملوك المغرب فهؤلاء الرعاة الذين حصلوا على أراض ملكوها بصورة جماعية لم يكن لديهم احترام كبير للزراعة وكانوا يستغلون الأراضي بصورة مهملة. هذا وينفتح منخفض السبو بين سلسلة الريف الألبية والكتلة القديمة في بلاد زعير وزمّور التي تربط هذه المنطقة شرقاً بالهضاب وبالالتواءات الكلسية. أما القسم الشمالي من هذا المنخفض فيتألف من تلال ترتصف في مقدمة جبال الريف، وتتألف من صخور كتيمة تقطنها جماعات من الفلاحين تستغل هذه المنطقة التلالية بحيث نجد المزارع الجيدة في قيعان الوديان، وتبرز من زمرة التلال الرتيبة بعض المرتفعات الكلسية كجبل «زرهون» الذي تقوم بجواره بلدة مولاي إدريس، وهي مدينة واقعة على سفح عال وسط مزارع الزيتون والينابيع. أما مدينة فاس التي تحوي قرابة ٣٧٥,٠٠٠ نسمة ومكناس وفيها ٤٢٥,٠٠٠ نسمة فهما عبارة عن عاصمتين واقعتين في أسفل هضبة السايس، ونجد في جوار المدن مزارع زيتون بديعة تملكها فئة من بورجوازية المدن. أما بقية سهل سايس فهو عبارة عن مزارع جماعية يملكها أنصاف البدو من أهالي جبال الأطلس الأوسط وقد استطاع المعمرون الأوروبيون أن يقيموا في المنطقة زراعات متقدمة جداً قائمة على الحبوب والكرمة ولاسيما الحمضيات (القوارص).

السهول الساحلية:

تحوى منطقة الغرب أي وادي السبو الأسفل أراضي طيبة جداً تحت مناخ عذب، فضلاً عن وفرة في المياه التي تتحول في أعقاب فيضان نهر السبو إلى كوارث، ولقد تعوّق استغلال هذه المنطقة ذات الميزات الفريدة بسبب وجود البدو الذين أوجدوا الفوضى في هذه المنطقة في القرن الثامن عشر، ولكن بعد فرض الحماية الأجنبية في عام ١٩١٢، قامت مزارع واسعة حديثة على أيدي الأجانب اعتمدت على زراعة الحبوب الميكانيكية وعلى إنتاج غزير من الحمضيات (القوارص)، فامتدت على عشرين ألف هكتار قرب مصب نهر البهت رافد السبو الأيسر. وهناك ميزة فريدة في المغرب وهي أن القسم الأسفل من نهر السبو يصلح لتحمل السفن بشرط أن تحدث عمليات جرف بين وقت وآخر، وهكذا قام ميناء القنيطرة التي تفسر فعاليته الصناعية وجود قرابة ١٧٥ ألف نسمة في هذه المدينة. أما الرباط فلها موقع هامشي بالنسبة لمنخفضات نهر السبو (شكل ٢)، وكانت وظيفتها مراقبة الممر الضيق الذي ينفتح عندها باتجاه الجنوب بين المحيط والهضبة المغربية التي تدعى بلاد زعير، ويفسر اختيارها كعاصمة في أوائل القرن الحالي وجود ٤٥٠,٠٠٠ نسمة في المدينة التوأم أي الرباط وسلا عند مصب نهر ابو الرقراق. وبعد اجتيازنا هضبة زعير نجد سهلاً يمتد على عرض يبلغ بضعة كليومترات بين المحيط وجرف الهضاب الداخلية (شكل ٣)، وهكذا نجد هنا سهل الشاوية وسهل دكّالة، وسهل شياظمة، وسهل حاحا، وعندما لا يكون هذا السهل مستوراً بكثبان قديمة متصلبة يكون صالحاً للزراعة، إذ نجد فيه أجود ترب المغرب السوداء التي تدعى بترب التيرس في الشمال أو نجد تربة حمراء في سهل دكّالة، ويساعد لطف الحرارة ورطوبة الهواء على جودة الزراعة، وهكذا تجود في المنطقة زراعة الحبوب التقليدية قليلة الانتاجية إذ يعطينا الهكتار ٨ كنتالات وسطياً مقابل ٣٥ في الدانمارك. ويفسر انخفاض الإنتاج الزراعي
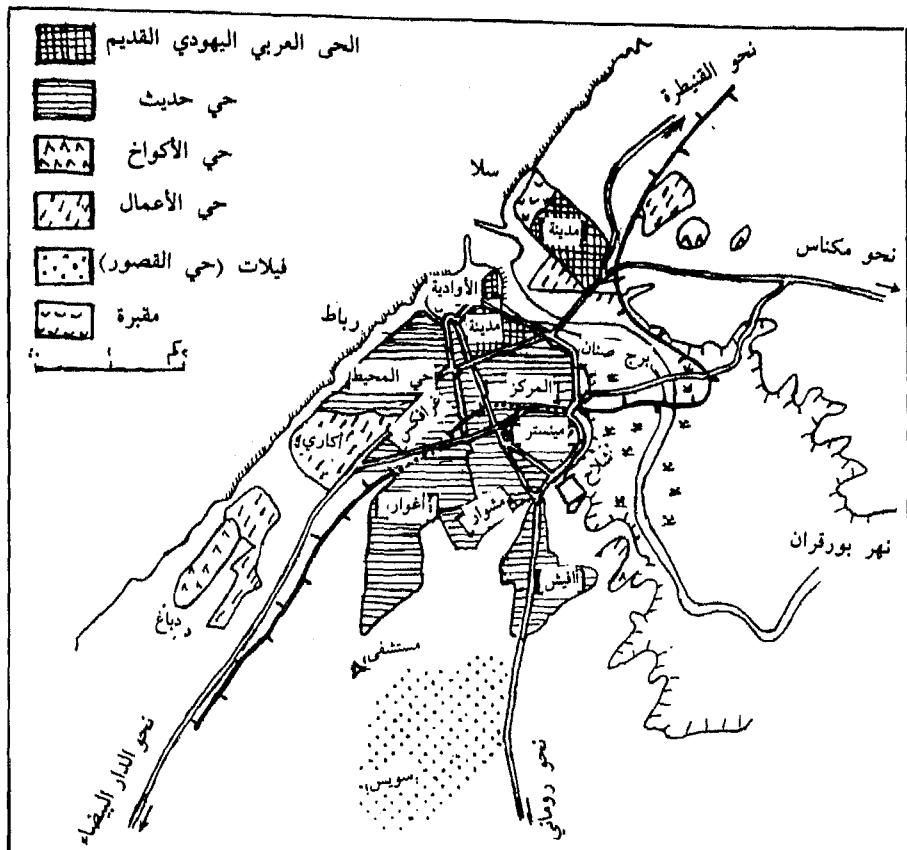
مخطط مدينة الرباط

شكل (١)

وجود جماهير من الفلاحين الفقراء الذين لا زالوا تحت الخيام أو في قرى تدعى (النوالة) وهي أكواخ من قش ذات سقوف مخروطية.

وإلى الجنوب من نهر التنسيفت يتخلى السهل الساحلي البحري عن مكانه، فتظهر تلال كثيرة السكان نسبياً رغم قلة الأمطار التي تتراوح بين ٢٥٠ ـ ٢٨٠ ملم. وفي هذه المنطقة تسود أحراش شجرة الأرجان وهي شجرة متوائمة مع الهواء الرطب ومع قلة الأمطار ولا نجد لها مثيلاً في العالم. وفي شروط كهذه وحيث تبلغ الكثافة ٦٥ نسمة/كم٢ نتوقع أن تكون غالبية السكان
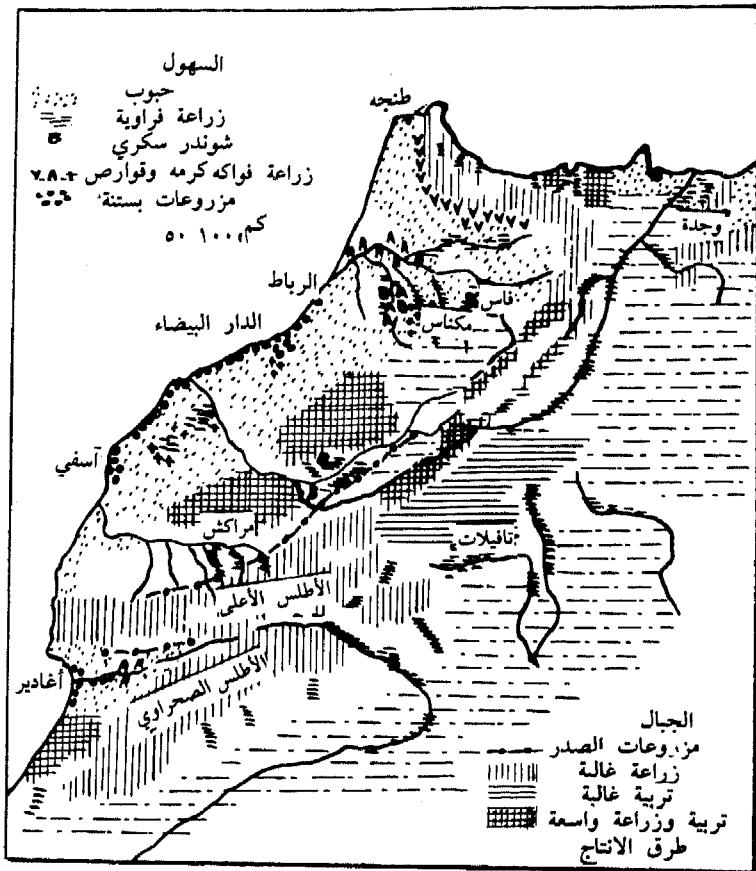
أساليب استخدام الأرض في المغرب

شكل (٢)

الريفيين على مستوى معاشي منخفض جداً، وهذه المنطقة تذكرنا بمنطقة الساحل التونسية، ولكن مع اختلاف فاحش وهو أن السواحل الواقعة في جنوب نهر تنسيفت لم تخلق في الماضي أي نشاط بحري فالبحر هنا كثير الأسماك للغاية، غير أن الساحل المستقيم لا يصلح كثيراً لقيام الموانىء.

فعلى الساحل الأطلنطي الواقع جنوب الرباط كان أقل الموانىء رداءة هو ميناء فضالة (المحمدية حالياً) في حين كانت الدار البيضاء وآزّمور

والجديدة (مازاغان) وآسفي والصويرة (موغادور) جميعاً تعد ملاجىء بحرية هزيلة. وكان الصيد البحري في الماضي قليل الأهمية جداً لفقدان التقاليد البحرية لدى السكان المحليين، ولكنه قام نشاط كبير على الصيد وعلى صناعة التعليب بفعل المبادرات الأجنبية التي ورثتها المملكة المغربية بعد الاستقلال، وكان النجاح كبيراً إذ بلغت الكمية المصادة من الاسماك ١١٠٠٠٠ طن عام ١٩٦٥ و٤٥٠٠٠٠ طن في ١٩٨٦ مقابل ٦ ملايين طن في البيرو و١١,٩ مليون طن في اليابان. وتعد مدينة آسفي أهم ميناء للصيد ولصناعة تعليب الأسماك والخضار وتصدير الفوسفات، كما تقوم فيها صناعة كيماوية ضخمة كصناعة السوبر فوسفات، مما جعل هذه المدينة تضم قرابة ١٦٠,٠٠٠ نسمة.

أما الدار البيضاء فقد اكتسحت سائر المدن المتاخمة، وهي أكبر مدينة في المملكة المغربية وفي المغرب قاطبة، فتحتل الدرجة الثانية بعد القاهرة في القارة الإفريقية، وتتنازع على هذه الدرجة مع الاسكندرية وجوهانسبورغ في جنوب افريقيا، وبعد أن كان سكانها ١,١ مليون عام ١٩٦٦ زاد عام ١٩٨٧ على المليونين ونصف المليون، وليس لموقعها أهمية تلفت النظر سوى أن الدار البيضاء تتصل بسهولة بكل السهول الأطلنطية، وقد كانت هذه المدينة عديمة الأهمية جداً عند فرض الحماية على المغرب عام ١٩١٢، إذ لم يكن يزيد عدد سكانها على ٣٠٠٠٠ نسمة، غير أن الفرنسيين أقاموا فيها ميناء اصطناعياً يحمية مكسران باتجاه الغرب. وأصبحت ميناءً كبيراً تبلغ حركته قرابة ٢١ مليون طن في العام. فهو ميناء يصدر الفوسفات ويحوي ثلثي المعامل في المغرب. غير أن هذه الصناعة أعجز من أن تؤمن العمل لكل القادرين عليه، لأن جاذبية الدار البيضاء تقتلع السكان الريفيين من قراهم، وهكذا تصيب البطالة واحداً من أربعة من السكان ولهذا تكثر فيها أحياء

القصدير بشكل مذهل. وتتصل السهول الساحلية بسهولة مع السهول الداخلية التي تلعب دور الممرات باتجاه جبال أطلس. فسهل (طادلة) هو أفضل هذه السهول شروطاً بسبب مناخه الأقل جفافاً، ونظراً لما يتلقاه من مياه الجبال، وقد ظل هذا السهل مدة طويلة مهملاً بسبب سيطرة القبائل الرعوية ولاتساع الأراضي المشاعة ذات الملكية الجماعية القبلية.

أما منطقة صدر الجبل (الدير) كما في منطقة بني ملّال فقد استغلت استغلالاً متقناً. وقد أصبح سهل طادلة حالياً مروياً حسب الطرائق الحديثة، إذ تزرع فيه الحبوب والقطن والبرسيم والبقوليات، كما أقيمت سدود على روافد أم الربيع ولا سيما على وادي العابد حيث قام سد (بين الويدان) مما يسمح بإرواء قرابة ١٠٠٠٠٠ هكتار من الأراضي الجيدة أو ما يعادل مرتين ونصف المرة من مساحة في الغاب في سوريا. هذا ويقوم المغرب ببناء سد في كل عام تحقيقاً لهدفه الذي يرمي لإرواء مليون هكتار في نهاية القرن العشرين (شكل ٤).

أما سهل «الحوز» حول مدينة مراكش فقد ردمته الأنهار القادمة من جبال الأطلس الأعلى أو الأطلس الكبير، ونظراً لقحولة المناخ هنا تكون معظم التربة مغطاة بالقشرة الصحراوية. فالأمطار ليست كافية لقيام زراعة بعلية، ذلك لأن هذا النوع من الزراعة يتحول إلى زراعة يانصيب. كما تكثر رياح الجنوب التي تحمل طابع (الفوهن)، لهذا تقوم الزراعة على الري بفعل الاشتقاقات من مياه الأنهار الهابطة من الأطلس الأعلى، أي تماماً كما يتم تقسيم نهر بردى قبل دخوله دمشق. ولا سيما في منطقة دير الحوز فتقوم زراعة الزيتون واللوز والحمضيات، وقد قامت زراعة مرواة في السهل بفعل الغطّارات وهي عبارة عن أقنية رومانية ـ تدعى سَرَب في شمال سورية وأفلاج في بلاد عمان وفجّارة في الصحراء الجزائرية ـ، كما قامت سدود حديثة على وادي نفيس الهابط من الأطلس الأعلى.
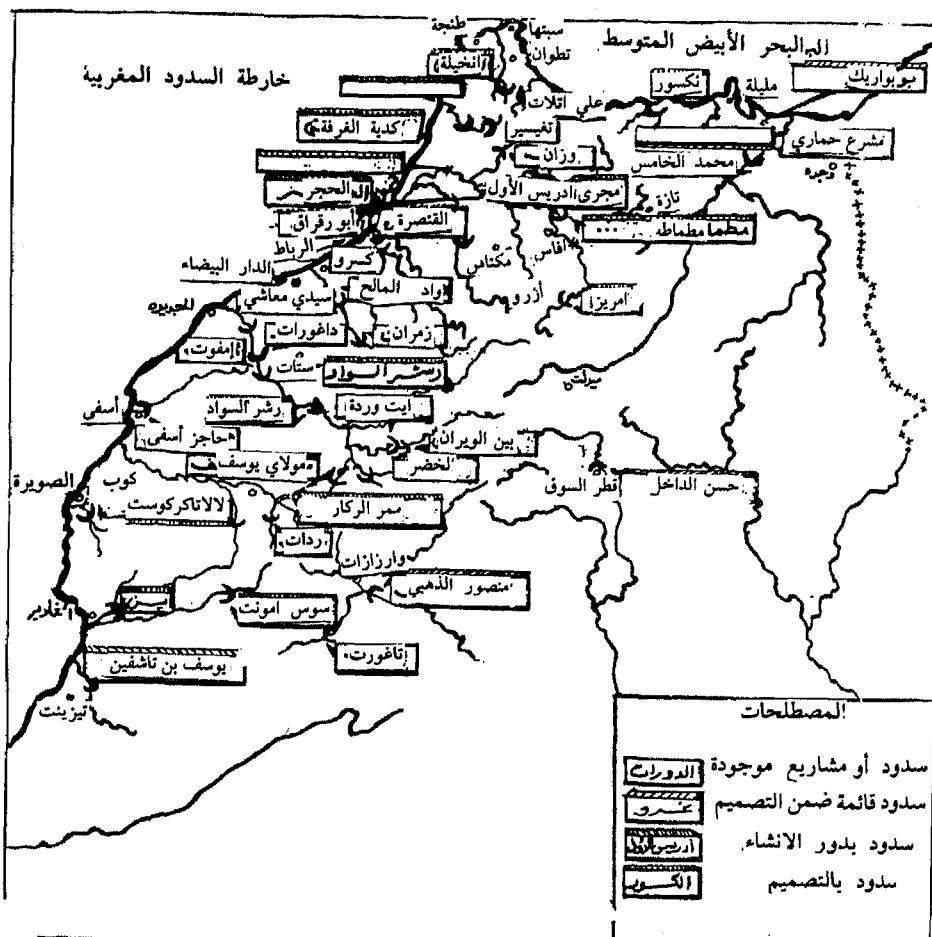
سكل (٤)

وتقوم هنا مدينة مراكش التي تضم قرابة ٣٥٠٠٠٠ نسمة، والتي أسستها أسرة حاكمة قادمة من الصحراء هي الأسرة المرابطية في عام ١٠٦٢ م كي تقوم بوظيفة عقدة مواصلات في الجنوب عبر ممرين (تست وتشكا)، وتظهر هذه المدينة ذات البيوت المبنية بالطين الأحمر ذات طابع صحراوي، كما تقوم حولها حدائق النخيل القليل القيمة الاقتصادية، لأن المناخ لا يوائم كثيراً نضج التمور. غير أن مشهد مدينة مراكش رائع جداً فحولها حدائق النخيل التي توحي بالحرارة، بينما يجد الناظر باتجاه الجنوب جبال الأطلس الأعلى

المعممة بالثلوج، وحيث يمارس الرياضيون رياضة التزلج، مما يمنح هذه المدينة قيمة رياضية كبرى ولاسيما لأثرياء الأوروبيين الذين يقيمون خلال فصل الشتاء فيها.

هضاب الغرب:

تتألف هذه المنطقة من ركيزة مؤلفة من صخور قديمة، تتغطى أحياناً برسوبات أفقية تقريباً وتدعى (المزيتا Meseta) أي المائدة، وتظهر الركيزة حتى بجوار البحر بجنوب مدينة الرباط، وتعد منطقة هضبة (زعير) ذات طبيعة سخية، غير أن استغلالها تعثّر كثيراً بسبب وجود قبيلة زعيّر البدوية رغم توفر كل الشروط الطبيعية الطيبة، كما كانت قبيلة (زمور) البربرية تنتجع بين هذه الهضبة وغابة بلوط الخفاف (الفلين) في منطقة معمورة الواقعة جنوب شرق الرباط، أما هضبة الزّيان فتحوي مشاهد هضبة، لأن الجبال تتألف فيها من مرتفعات متوسطة ومن صخور قاسية تنفصل عن بعضها بصخور طرية تؤلف ودياناً، وقد تعرضت المنطقة لنهوض حديث نجمت عنه تدفقات بازلتية، وهنا لا تفرض الطبيعة الانتجاع، لأن فروق الارتفاع وتنوع الترب والرطوبة تسمح جميعاً بتغذية قطعان كبيرة عن طريق القيام بدورات زراعية وتخزين العلف الأخضر، غير أن بربر زيّان يجهلون هذه الأساليب الحديثة.

وهناك هضبة الفوسفات، وهي عبارة عن هضاب كلسية جافة تكشف عن وجود احتياطي هائل من الفوسفات عالي النسبة، إذ تبلغ نسبة الفوسفات في خاماته ٦٨٪ مقابل ٣٨٪ في سوريا والأردن، بحيث يقارب إنتاج الفوسفات (١٩٨٧) ٢١ مليون طن يصدر بنسبة ٩٥٪ على شكل خام، ولكن أعظم ذخر في العالم ظهر في منطقة الصحراء الغربية التي تدعى «ريودو أورو» أو الساقية الحمراء في موقع بوكراع مع أن سكان المنطقة لا يتجاوزون عن ٥٠٠٠٠ نسمة، وقامت فوق هضبة الفوسفات مدينة خوريبقة على استغلال

مناجم الفوسفات التي تضم أكثر من ٧٥٠٠٠ نسمة، كما قامت مدينة اليوسفية التي دعاها الفرنسيون (لويس جانتيل) وهناك هضبة الرحامنة، وهي هضبة من الدور الأول تتألف من أعراف من صخور قاسية، وتنال أمطاراً قليلة لذا تستغل بزراعة متقطعة تتخذ غالباً لرعي الأغنام والماعز، أما هضبة الجبيلات فتحوى على أهرامات من صخور الغرانيت ومنخفضات فسيحة، ورغم بلوغ بعض القمم هنا ١٠٠٠ م من الارتفاع فهي لا تؤلف عائقاً أمام المواصلات، ونظراً لقلة الأمطار تنحصر الزراعة في المنخفضات.

جبال الأطلس:

إن جبال أطلس الأوسط والأعلى التي تمتد حتى مجرى نهر الملوية الجنوبي، تتصف بارتفاع وبتضاريس تناسب الاحتفاظ بالشخصية البربرية وبتجزئتها القبلية. فقد كان الأطلس الأعلى الشرقي والأوسط مناطق هجرة تدفق منها رعاة البربر الذين قدموا أصلاً من الجنوب ويطلق على البرابر كلمة عامة هي (ايمازيغين) أي الرجال الأحرار ويتكلمون لهجة تدعى (تامازيغت).

الأطلس الأوسط:

إن جبال أطلس الأوسط تماثل إلى حد كبير جبال (الجورا) الفرنسية، أي تكون مائدية في الغرب - أي غير ملتوية - وملتوية في الشرق، ويكون مناخها على قدر من الرطوبة كاف لقيام الغابة والزراعة، بيد أن الأطلس الأوسط كان تحت هيمنة رعاة بدو قدموا من الجنوب إذا احتفظ (بنو مقيلد) بمساكن ذات طابع صحراوي غير متوائم مع مناخ الأطلس الأوسط. كما أن الخيمة لا تحمي من البرد والثلج والمطر المتطاول، فعلى البدوي الذي يقيم تحت الخيمة أن يهرب من المرتفعات في الشتاء، كما أن بناء بيوت ذات سطوح منبسطة ومن اللبن والتي تتناسب مع المناخ الصحراوي سرعان ما تخرب

تحت المطر إذ تميع الجدران والسقف الترابي كما أن بني مقيلد العاجزين عن بناء بيوت من اللبن أو الطوب يستعينون بمعماريين من منطقة تافيلالت.

ويهيمن الأطلس الأوسط الغربي على سهل السايس الواقع بين فاس ومكناس بوساطة جرف يدعى (الحاجب)، وتتألف المنطقة من هضاب كلسية نخرها الحت، ولكنها تحوي أراضي طيبة حمراء تنجح فيها الغابة بفضل المطر الوفير، وهنا تجود غابات السنديان والأرز. وكان يقيم في هضبة الحاجب رعاة بربر من بني مطير الذين قدموا من الصحراء ولا زالوا يعيشون تحت الخيام ويمارسون تربية ماشية منتجعة في هذه المنطقة المناسبة للزراعة لتربية مستقرة، كما كانوا يقصدون شتاء سهل السايس حيث يزرعون القمح في حقول صغيرة، ويهيمنون على مراع واسعة. وفي أثناء غياب بني مطير شتاء كان يأتي رعاة من الأصل نفسه هم بنو مقيلد، فيهبطون من جبالهم الشرقية كي يرعوا قطعانهم في هضبة الحاجب ثم يعودون في الربيع لجبالهم. غير أن السلطات الحكومية في مدة الحماية وبعد الاستقلال منعت بني مطير من دخول السهل وحصرتهم فوق الهضبة، فاضطروا إلى ممارسة الزراعة في حقولهم الصغيرة، مما جعلهم يدخلون في نزاع مع قبيلة مقيلد التي تقصد مناطقهم في الشتاء. أما القسم الشرقي من الأطلس الأوسط، فهو عبارة عن جبال التوائية تصل إلى ٣٣٤٠ م في قمة (بو ناصر)، فالصخور الكلسية هنا قد تجعدت على شكل قباب كبيرة تنفصل عن بعضها بمقعرات فسيحة. هذا ويكون السفح الغربي كثير الأمطار كما تستره الثلوج مدة طويلة في الشتاء. أما السفح الشرقي فيكون قاحلاً لوقوعه في ظل المطر. كما أن بعض البدو أصبحوا الآن مستقرين مثل قبيلة (بني ورائين) الذين يقضون الشتاء في سهل الملوية والصيف في الجبل والذين أصبحوا الآن مستقرين يسكنون القرى ويعتنون بحقول الحبوب ويزرعون اللوز والجوز ويحتفظون بمخزونات الأعلاف لقطعانهم في فصل الشتاء.

الأطلس الأعلى:

يتألف الأطلس الأعلى من سلسلة طويلة تمتد على مسافة ٧٠٠ كم من رأس (غير) حتى شط تيغيري قرب الحدود الجزائرية، ويتميز هذا الجبل بضيقه إذ لا يزيد عرضه على ٥٠ كم بجوار قمة (طبقال)، وبشدة ارتفاعه، إذ نجد فيه بعض القمم الشاهقة مثل (أردوغ) ٣٦١٥ م وطبقال ٤١٦٥ م (مجون) ٤٠٧١ م (وعياشي) ٣٧٥١ م، وفيه ممرات لا تقل عن ٢٠٠٠ م، وكل هذا يفسّره أصل هذه السلسلة، فقد حدث التواء شديد حمل الركيزة القديمة والغطاء إلى ارتفاع شاهق، ولا يزال الصدع الذي يحد الأطلس الأعلى من الجنوب معرضاً للارتجاف، وأكبر مثال على ذلك زلزال آغادير الذي قضى على ٢٠٠٠٠ نسمة في ١٩٦٠. أما الركيزة القديمة فتؤلف سلسلة في أضيق منطقة من هذه الجبال ولاسيما بين ممري (معاشو وتيشكا). أما في الغرب فتكون الصخور الكلسية الجوراسية ملتوية بشكل خفيف، أما جبال الأطلس الأعلى الشرقية فهي عبارة عن منطقة شديدة الالتواء تتألف من محدبات ومقعرات تقطعها خوانق عميقة مثل خانق (دادس). هذا ويقسر السفح الشمالي الغربي الرياح الرطبة على سكب ما فيها من مطر وثلج، بينما يكون السفح الجنوبي قاحلاً بحيث لا تنال أطرافه الجنوبية سوى ١٣٠ ملـم من المطر (دمشق ٢٠٠ ملم). لذا يحوي السفح الشمالي غابات تتألف من السنديان وصنوبر حلب والأرز. أما الجنوب فيحوي غابة متخلخلة تسود فيها أشجار العرعر، كما أن نبات الشيح يغطي الكثير من السفوح، غير أن الارتفاع يجعل الغابة تقف عند مستوى ٢٨٠٠ م، وفوق ذلك لا نجد سوى تضاريس ثقيلة لا تحوي رشاقة جبال الألب، وقد ترك الزحف الجمودي في الدور الرابع بعض الآثار المحدودة على شكل حلبات جمودية وبعض الأودية القصيرة على شكل حرف (U) فضلاً عن سيول من الحصى، كما يؤدي تناوب الانجماد والانفكاك في المرتفعات الكبيرة الى تفلّق الصخور وتهشيمها، ويبدو

هذا الجبل موحشاً وقاسياً، إذ يتخلى باكراً عن الغطاء الثلجي باستثناء بعض الجيوب الثلجية التي تبقى في التجاويف المعرضة نحو الشمال.

قبيلة سكساوة: نمط حياة جبلية.

يكون الغرب والوسط في جبال أطلس الأعلى مأهولاً بقبائل (الشلحة) الذين يسكنون الأطلس الخلفي، فهم يهتمون بتربية الماشية ولكنهم ليسوا عبارة عن بدو، ذلك لأن قطعانهم تنتجع صيفاً نحو الأعالي. أما الموارد الرئيسة فهي زراعة مرواة على السفوح. ومثال قبيلة سكساوة التي تعيش في الوادي الذي يحمل اسمها يعطينا صورة أمينة عن الحياة الجبلية. فطبيعة منطقتهم تشهد على منطقة جبلية عالية. ذلك أن أخفض نقطة في وادي سكساوة هي ٧٤٠ م وأعلى قمة ٣٤٠٠ م وتخترق منطقتهم ممرات تتجه نحو وادي السوس على ارتفاع ٢٠٠٠ م، فسفوح المنطقة شديدة، والجداول سريعة بدون سهول لحقية، كما أن تضاريس المنطقة ثقيلة مؤلفة من صخور الشيست السوداء العائدة للكامبري، وتنبثق من خلالها صخور الغرانيت التي تؤلف الأطلس الأعلى الأوسط وصخور البيرموتيرياسي الحمراء في الغرب. ويبدو وادي سكساوة عسير المواصلات بالنسبة للوديان المجاورة مما قسر هذه القبيلة على العزلة، حتى أنه جعل السلطات المغربية تتردد في قهرهم، لأن المواصلات بين سفوح أطلس الجنوبية والشمالية يمكن أن تتحقق بسهولة بوساطة الأودية المجاورة. وقد لعبت هذه القبيلة دوراً كبيراً في ملحمة الموحدين في القرن الثاني عشر، غير أن هذا المجد لم يدم طويلاً، لأن بني مرين استطاعوا الاستيلاء على مراكش في عام ١٢٦٩، بيد أن رجال سكساوة الذين ظلوا أنصاراً للموحدين ثاروا على الحكام الجدد ومنعوهم من دخول واديهم، غير أن المرينيين قابلوهم بالحصار، فبنوا قلعة قاهرة لتغلق عليهم الوادي. وهكذا أصبحوا أحراراً في سجنهم إذ حرموا من الذهاب شتاء

لاستغلال السهول الجبلية المطلة على مدينة مراكش، بيد أنهم خسروا المراعي والحقول التي كانت ضرورية لهم فاضطروا إلى الاعتماد على موارد جبلهم الخاصة.

غير أن الثلج يستمر على الأرض بدءاً من كانون الثاني حتى نيسان في المرتفعات التي تزيد على ٢٥٠٠ م، كما أن الأمطار التي تتراوح بين ٥٠٠ - ٦٠٠ ملم والتي تهطل في الفصل البارد تنقطع تماماً في الصيف. كما أن الزراعة التي تستفيد من تدرج الارتفاع تشكو من برد الشتاء الذي يعيق دورتها الإنباتية مثلما تشكو من الصيف الجاف الذي يعرقل الحياة النباتية تماماً. وهكذا نرى الشروط القاسية بالنسبة للفلاح بالإضافة إلى شدة انحدار السفوح.

وهذه المنطقة المأهولة منذ أمد طويل أصبحت نباتاتها مؤهلة أو مستغلة من قبل الإنسان. فالارتفاع والتعرض نحو الشمس يؤثر في نوعية النبات الرومي في هذه المنطقة، فحتى ارتفاع ١١٠٠ م ينجح الزيتون والتين والرمان والغار، وكذلك تين الصبار والذي يؤمن شطراً من الغذاء في الصيف، لكن اللوز لا يتجاوز ارتفاعاً يزيد على ١٨٠٠ م كي تستأنف أشجار الجوز نموها بين ارتفاع ١٤٠٠ - ٢٣٥٠ م، ويكون السنديان موجوداً حتى ارتفاع ٢٨٠٠م - أي ما يعادل ارتفاع جبل الشيخ في سوريا - وتختلط بينه أشجار العرعر، بيد أن هناك نوعاً من العرعر يصل حتى ٣١٥٠ م حيث يتخلى عن مكانه للمراعي، كما أن حقول القمح تصعد حتى ارتفاع ٢٠٠٠ م، هذا وتنجح زراعة القمح الأسود (الجاودار) في المرتفعات الشديدة، غير أن حقوله لا تستغل إلا من قبل الأشخاص المتنفذين الذين يصمدون في نزاعاتهم الطويلة مع الرعاة. وإجمالاً نجد الإمكانات الزراعية والرعوية متنوعة ضمن إطار منكمش بسبب شدة الانحدار والمناخ، أي أن الفلاح يستطيع العيش إذا

استطاع تطبيق تقنيات خاصة كبناء المدرجات والمصاطب والري وارتضى لنفسه بمداخيل ضعيفة.

ويتغذى السكساوة بالحبوب كالقمح والشعير والذرة الصفراء والجاودار. وتمثل المساحات المزروعة ٣٥ كم٢ أو ٨٪ من المساحة العامة في الوادي الذي يسكنه أكثر من ١٢ ألف نسمة، أي أن الكثافة الزراعية تبلغ ٣٤٠ شخصاً في الكليومتر المربع المزروع. ويكون المردود هزيلاً بسبب عدم انتظام الأمطار الذي لا يعوضه الري ونظراً لعدم اصطفاء البذور وقلة السماد الطبيعي. ولو تحسنت تقنياتهم لأمكنهم الاستغناء عن شراء بعض الحبوب التي يستهلكونها، هذا ويكملون غذاءهم بالخضار كاللفت والبندورة والباذنجان وبمقادير صغيرة من مشتقات الألبان واللحوم.

هذا وتمتد المدرجات المبنية من الحجر على عرض ٢٥٠م، وتتألف من قطع صغيرة لا تتجاوز وسطياً ١٠٠م٢ (آر) وملكية مقدارها هكتار، أي التي يملكها الفلاح الميسور، تنقسم عادة إلى ١٠٠ قطعة مبعثرة، ذلك أن رجال سكساوة يزرعون حقولهم بالفأس ولا يعرفون المحراث. هذا ويحول ماء الجداول التي تبنى عليها سدود من تراب ومن أغصان نحو الحقول بوساطة السواقي.

غير أن تنظيم الري يتحدى الخيال ذلك لأن الماء لا يتوجه نحو الحقول حسب تسهيلات الطبوغرافية بل حسب صلات القربى. فقطعتان متجاورتان لا تنالان ماءهما من الساقية نفسها إذا كان المالكان من غير العائلة نفسها. وترتبط كل القطع العائدة للعائلة نفسها بسواق خاصة ذات جذع عائلي مشترك كي يمكن إرواؤها جميعاً في اليوم نفسه رغم تباعدها عن بعضها بعضاً مما يؤدي لتعدد السواقي وخسارة شطر كبير من الماء.

ورغم انشغال السكساوة بحقولهم أكثر من تربية المواشي فهم يهتمون

بالماشية أكثر من المحاصيل الزراعية فالقطيع بالنسبة لهم مصدر فخر وفي الوقت نفسه مكان توفير المال وتكديسه غير أن هذا القطيع قليل القيمة الاقتصادية ذلك لأنهم يبيعون أجمل مواشيهم للخارج، ويحتفظون بالإناث المنتجة التي لا تصلح للبيع.

هذا وكانت السكساوة تجهل في بداية القرن الحالي الأقمشة القطنية، إذ كانوا يقتصرون في لباسهم على الصوف كما لم يكونوا يملكون الخيول ولا يعرفون استهلاك الشاي والسكر إذ كانوا يعيشون على أنواع الحساء. ولقراهم منظر جليل لأن بيوتهم مبنية من حجر ومؤلفة من أربعة طوابق يستخدم الأخير منها كعنبر مفتوح. والواقع كانت مساكنهم فقيرة لا تعرف التدفئة ولا الأثاث. وظل السكساوة متوحدين في مقاومتهم للمرينيين وبحبهم لوطنهم الصغير فكان كل من يغترب منهم قبل نصف قرن مضى يحمل معه كيساً صغيراً مملوءاً بتراب وأعشاب القرية بحيث يرشّ منها على غذائه، وكانت السكساوة تعاني دوماً صعوبة في الخضوع لتنظيم فوقي قاهر.

فالسلطة السياسية الحقيقية هي سلطة الجماعة أو جماعة (التقبيلت) أي (الناحية) فكانت الجماعة تتألف من كل الرجال البالغين، ولها محكمة ومجلس سياسي يختار رئيسه الذي يدعى (اقفار) أو المقدم ولم تكن هناك سلطة عند السكساوة فوق سلطة التقبيلت، والواقع كان تنظيمهم قليل النجاعة أي ديموقراطية متميزة بالمساواة، ولكنها راكدة تهتم بمراقبة المواطن ابن القبيلة أكثر مما تهتم بتفتّحه.

وجاءت الحماية الفرنسية لتقضي على عزلة السكساوة بحيث أصبح الآن ما بين ١٥٪ ـ ٢٥٪ في خارج قراهم وبعضهم يذهبون لممارسة الحصاد في السهول الأطلنطية، بينما يقيم الآخرون لمدة طويلة في المدن مع احتفاظهم بممتلكاتهم العقارية، بحيث أصبح أكبر دخل لهم يتحقق من الهجرة.

والآن نتساءل ماذا سيحدث لو وضعت السكساوة كل اهتمامها في سبيل تحقيق الازدهار المادي؟ ترى هل سيجدون في منطقتهم ما يكفي لتحقيق مثل هذا الطموح؟

الواقع هناك صعوبة كبيرة تقف أمام توسيع الرقعة المزروعة، بل على العكس فإن الزراعة القائمة على أساس اقتصادي متين تستدعي حذف بعض الحقول الفقيرة والاستغناء عنها، كما أن العائدية بالهكتار يمكن أن ترتفع ولكن ثمن الكلفة سيظل عالياً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ساعات العمل والكسب المعقول.

أما بالنسبة لتربية الماشية فيمكن أن تكون مصدر غنى لو كانت منطقتهم منظمة بشكل عقلاني، كالانتجاع المنظم والانتاج الكثيف للعلف المروي في المناطق المنخفضة، واصطفاء الأنواع الحيوانية وبناء البرادات، أي يجب تحقيق ثورة في النظام العقاري والمائي، ثورة تقضي على تفتت الملكية وعلى تقاليد توزيع المياه البالية. فالثورة الاقتصادية تتطلب توظيفات ضخمة وتأمين مشترين قادرين على دفع ثمن طيب في منتجات الماشية. كما يجب تخفيف عدد السكان بشكل عنيف، ذلك لأن السكساوة الجبليين يمكنهم أن يتحوّلوا إلى مربي ماشية ميسورين لو كانت كثافتهم أقل كثيراً من ٣٠ شخصاً في الكم٢ من المساحة العامة لأنهم كانوا ١٢ ألف نسمة فوق ٤٠٠ كم٢ عام ١٩٥٠. كما أن الصناعة لا تتمكن من أن تثبت أقدامها في منطقتهم لندرة الموارد الأولية المحلية وعجز الأنهار عن توفير الطاقة لمعامل الكهرباء.

أما الأطلس الأعلى الشرقي فله جغرافية بشرية مختلفة. فهنا نجد البرابر عوضاً عن الشلحة، أي أن هؤلاء البرابر شأنهم شأن سكان الأطلس الأوسط عبارة عن رعاة قبل كل شيء. غير أن استغلال المراعي الجبلية يكون معرقلاً هناك بسبب فقدان الماء الناجم عن نفاذية الصخور الكلسية لهذه الكتل

الجبلية العالية، ولكن قد يعثر هناك على برك مياه بعد الأمطار، ولكن هذا شيء نادر أي أن هناك ضرورة لبناء برك اصطناعية - مثل ما هي موجودة في السويداء في جبل العرب أو في بصرى - أو بناء صهاريج مغشاة بالأسمنت، غير أن هذا ليس من عقلية السكان البدو الذين يجهلون التكنيك الحديث وقد لوحظت ظواهر مماثلة إلى الجنوب من هذه المنطقة أي في منطقة (سيروه) البركانية، إذ يعيش فيها في الشتاء رعاة يوردون مواشيهم من مياه ذوب الثلوج، ولكن هذه المرتفعات تصبح مقفرة في الصيف لانعدام المياه، ذلك لأن المياه المتسربة في اللابات البركانية تظهر في حضيض الجبال حيث ينحدر الناس بمواشيهم.

فالتكنيك الهيدوليكي المتقدم يسمح بتحاشي هذا الانقلاب في الإقامة بين الشتاء والصيف.

الجنوب المغربي:

إلى الجنوب من الأطلس الأعلى ومن طرف المحيط نجد الأطلس الخلفي، الذي هو عبارة عن طية عميقة تبرز فيها صخور الركيزة القديمة التي أنهضت إلى ٢٥٣١م مما يؤدي لهطول أمطار فوق هذه المرتفعات تصل إلى ٥٠٠ ملم . وتعيش في هذه المرتفعات قبائل الشلحة البربرية حياة عسيرة على شكل فلاحين مستقرين، غير أن حفرة السوس الواقعة بين هذين الأطلسين (الأعلى والخلفي) لها مناخ متوسط بين الاثنين وسكان عديدون. أما القسم الساحلي من السهل فقد تطور منذ عام ١٩٤٥ بفضل توسع زراعة البندورة والحمضيات المعدة للتصدير، والتي تستفيد من فقدان حوادث الانجماد، أما ماء الري فليس وفيراً لأن الأغشية الباطنية التي تقدم هذا الماء بوساطة الضخ تجنح نحو النضوب.

أما مدينة آغادير فقد أصبحت ميناء تصدير وميناء صيد بحري، فقد

اصطادت عام ١٩٨٥ مقدار ١٥٠ ألف طن من السردين، غير أن هذه التجديدات الاقتصادية لا تكفي لتأمين حاجة السكان المتكاثرين في منطقة السوس الذين تعوّدوا على الهجرة منذ زمن طويل، وقد اختصوا في امتهان البقالة أو في العمل بالمناجم.

وتغلق حفرة السوس من طرف الشرق بكتلة جبل سيروة البركانية التي ترتفع إلى ٣٣٠٤م. وإلى الشرق من هذا الجبل تظهر الحفرة من جديد في وادي «دادس» الممتد بين الأطلس الأعلى وأواخر استطالات جبال الأطلس الخلفي مثل جبل ساغرو الذي يرتفع إلى ١٧١٢م، والتي تظهر عليه الملامح الصحراوية، وإلى الشرق من ذلك يدخل الأطلس بتماس مع القبة الصحراوية ومع أغطيتها الرسوبية المتجهة نحو الجنوب والتي تدعى (الحمادة). فهناك حمادة من الصخور الكلسية الكريتاسية تدعى (حمادة ككم) وحمادة من صخور كلسية بليوسينية مثل حمادة القير والدرعة. وتسقي مياه الأطلس الأعلى العديد من الواحات عن طريق الاشتقاق، وأهمها واحات الدرعة ودادس وورزازات، وواحات غبس والزير وارفود والرياني وتافيلالت. وأخيراً واحات منطقة وادي الزوزفانا مثل واحة (فيكيك). ويتناقص سحر هذه الواحات وفتنتها مع الإطار الصحراوي الذي يحيط بها، ولكن وراء هذه الظاهرة وهم كبير، وهو أن سكان هذه الواحات الذين يبلغ عددهم ٤٥٠ ألف نسمة هم فقراء في الغالب، ومن الصعب عليهم أن يستمروا على هذا الوضع، فكثافة السكان التي تبلغ ٢٠ نسمة/ هكتار في تافيلالت لا تترك لديهم الكثير من أجل البيع، ذلك أن تمورهم لا تكون مرغوبة في خارج المغرب، ولكنهم يحققون بعض المكاسب عن طريق الأجور التي يحصلون عليها في العمل في المناجم كمناجم الرصاص في (تاووز) ومناجم النحاس في (ساغرو) وعلى كل تبدو هذه المنطقة مؤهلة لجذب السواح بجمالها الطبيعي بيد أن موارد السياحة لن

تكون من نصيب السكان المحليين لعدم تدريبهم على مهنة إدارة الفنادق وأصول الاستقبال.

المغرب الشرقي:

رغم تشابه هذه المنطقة مع البلاد الجزائرية المجاورة فإن للسكان طابعاً مغربياً بحتاً، فهذه المنطقة الواقعة تحت ظل الجبال الأطلسية الوسطى هي قاحلة لأن السهول المحمية من الرياح الغربية لا تنال أمطاراً تزيد على ٢٠٠ ملم في العام على مسافة تبعد ٥٠ كم عن البحر، فبلدة (وطاة الحاج) في حوض نهر الملوية الأعلى تنال فقط ١٤٠ ملم، كما يؤلف وادي الملوية الممتد على شكل محور من الشمال إلى الجنوب طريقاً يقود إلى البحر المتوسط. وهكذا يكون للمغرب الشرقي منفذه الخاص نحو العالم الخارجي بصورة مستقلة عن الجزائر وعن المغرب الغربي، فالأطلس التّلي أي الساحلي يتألف هنا من كتل منعزلة أهمها كتلة جبل «بني سناس» كما تشهد الدفقات البركانية مثل رأس الشوكات الثلاث عن كسور هشمت المرتفعات الساحلية، ويكون الهامش المطل على البحر المتوسط مطيراً لأن السهول تستفيد منه ومن مياه نهر الملوية أيضاً. وتبلغ كثافة السكان هنا نحو ١٥٠ نسمة/ كم^{٢} في سهل طريفة وإلى الجنوب من مليلة (مليلية) وتكون جبال بني سناس كثيفة السكان، وقد برهن الإعمار الأوروبي في الماضي على أهلية هذه المنطقة للزراعات الشجرية مثل الحمضيات والكرمة.

وينتظم المغرب الشرقي حول صليب من المنخفضات هما محور الملوية الشمالي الجنوبي ومحور تازة ـ وجدة الشرقي الغربي، ولا يقع المركز العمراني في المغرب الشرقي عند تصالب هذه المنخفضات أي عند مدينة جرسيف أو (تاوريرت) بل يقع إلى الشرق من ذلك قرب الحدود الشرقية أي في مدينة وجدة التي نمت في عصر كانت تخوم المغرب الإسباني تمتد حتى

وادي الملوية الأدنى وعندما كانت العلاقات المباشرة مع مليلة ـ وهي جيب إسباني منذ ١٤٩٥ ـ غير قائمة، وتلعب وجدة دوراً مركزاً لفعاليات تعدينية متنوعة كمناجم زليجة التي تنتج الرصاص والزنك والتي أغلقت في الوقت الحاضر، ومناجم جرادة المنتجة للفحم ومناجم «بوعرفة» التي تنتج المنغنيز والنحاس وتحوي هذه المدينة سكاناً يقارب عددهم ٢٧٠ ألف نسمة (شكل ٥).

توقعات مستقبل المغرب:

يعد المغرب أغنى أقطار المغرب العربي الثلاثة من ناحية الموارد الطبيعية، وظل على هذه الحال حتى اكتشاف البترول في الصحراء الجزائرية والتونسية، فمن وجهة النظر إلى النفط يبدو أن المغرب متأخر عن شقيقيه لأن إنتاجه لا يزيد على ١٥٠ ألف طن من النفط مقابل ٤٠ مليون طن وسطياً في الجزائر و٥ مليون طن في تونس، ولكن بفضل اتساع المساحات المطيرة فيه، ونظراً لأهمية جباله الثلجية، فإن المغرب في وضع أفضل بالنسبة للزراعة البعلية ولإمكانات الري، بيد أن أبناء الأرياف المغربية يعيشون في مستوى اقتصادي منخفض، وإذا أخذنا بعين الاعتبار الأوضاع القائمة من ناحية عدد السكان ومستواهم التقني، فإن كثافة الريفيين بالنسبة للمساحة المزروعة تبدو مفرطة لأنها تبلغ ٣٠٠ نسمة/ كم^2 المزروع، فهذه القيمة بالنسبة للمردود لا يمكنها أن تؤدي إلا إلى الفقر، ذلك لأن الحبوب وهي المحصول الرئيس في المغرب تنتج في السنة العادية ٢,٨ مليون طن من مساحة تقارب ٤٠ مليون هكتار، بيد أن محصول عام ١٩٤٥ لم يتجاوز ٦٠ ألف طن مما أدّى لمجاعة قضت على قرابة ٣٠٠ ألف نسمة، وبلغ محصول عام ١٩٦١، ١,٢ مليون طن بسبب الجفاف، ويعد الشعير المحصول الرئيس بين الحبوب وهو دليل ساطع على قساوة المناخ. بيد أن تحسين المردود يؤدي بلا شك لتحسين الوضع الاقتصادي للفلاحين دون أن يسمح لهم بالوصول إلى البحبوحة، ذلك لأن
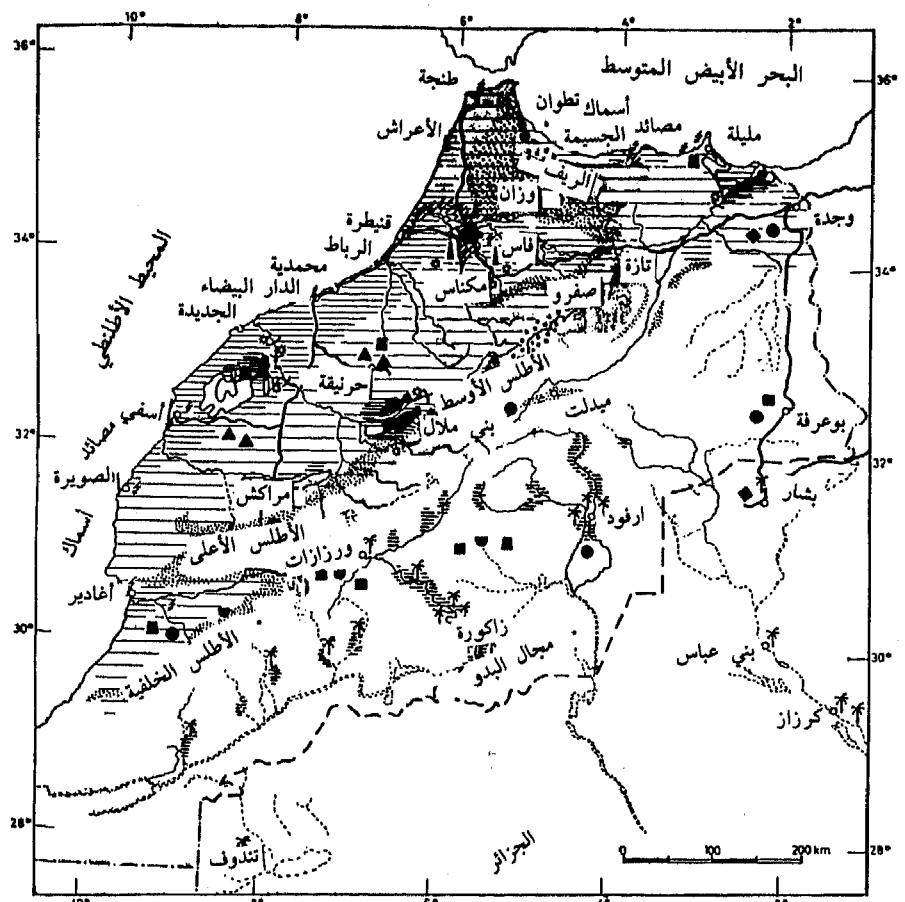
شكل (٥)

بعض المناطق تنوء تحت وطأة سكانها كمنطقة الريف ووديان الأطلس الأعلى والأطلس الأعلى ذاته وواحات تافيلالت.

هذا ولا يفتقر المغرب للأراضي الصالحة للزراعة كما لا يفتقر لمياه الري أو للأيدي العاملة التي يملك منها أكثر من اللازم، كما أنه لا يفتقر للأسواق لتصريف منتجاته لأن الاستهلاك المغربي لم يكتف بعد. ولنضرب مثالاً على ذلك أن استيراد المغرب من السكر بلغ عام ١٩٦٤، ٢٧٠ ألف طن، أي للسكر المغربي أسواقه المحلية المضمونة مثل معامل السكر من الشوندر في سهل الغرب، وفي حوض نهر السبو الأدنى وسهل طادلة. غير أن الصعوبات الخطيرة تأتي من انعدام التجاوب بين سكان الأرياف والتحديث، ذلك أن السكان لم يتخلوا بعد عن مثلهم العليا البدوية، فقبيلة بني عمير في سهل طادلة لم تتعود بعد على تقاليد الزراعة المرواة. وهناك صعوبات ناتجة عن ضعف عدد الكادرات، كما أن الطبقات الوسطى التي لا تميل كثيراً للزراعة الحديثة أو لأعمال بالأرض لا تعطي الكثير من الحوافز من أجل التحديث الريفي، وتكون الدارات التجارية ناقصة التجهيز وقليلة الكفاية، وبعبارة أخرى يكون تحديث الأرياف التي يقطنها ٥٥٪ من المغاربة الريفيين يصطدم بمطالب الانطلاق أو الإقلاع، كما أن استغلال المزارع الأوروبية التي تم الاستيلاء عليها والتي كانت تحقق معظم الصادرات الزراعية من خمور وحمضيات لا تسير بشكل ممتاز، وإذا كان إنتاج الخمر لا ينتظر له مستقبل زاهر في بلد إسلامي فإن إنتاج الحمضيات يزيد على ١,٢ مليون طن عام ١٩٨٦.

أما نمو السكان الذي يبلغ ٣٪ سنوياً ـ مقابل ٠,٩٪ في السويد ـ فيؤلف عبئاً على الأرياف، ويؤدي لهجرة ريفية ينجم عنها تورّم المدن ووجود البطالة واتساع أحياء القصدير، ويمكن أن تتحول الهجرة الريفية إلى سيل خطير إذا حدثت مصيبة طبيعية في الريف كجفاف شديد مثلاً. صحيح أن هناك نجاحات حقيقية قد تحققت، بيد أن الإنتاج الكهربائي ولا سيما إنتاج الطاقة الكهربائية لم تستغل بعد عن طريق أخرى أفضل. وفضلاً عن ذلك هناك

ثروات معدنية قيد الاستغلال، وفضلاً عن البترول هناك مناجم فحم الأنتراسيت في جرادة التي يناهز انتاجها ١/٢ مليون طن والفوسفات ٢١ مليون طن والرصاص ١٠٠ ألف طن والزنك ١٢ ألف طن والمنغنيز ٢٤٠٠٠ ألف طن وفلزات الحديد التي تراجعت الى ١١٥ ألف طن والكوبالت ١,٦ ألف طن. كما أن هناك معامل هامة في الدار البيضاء والتقطير والمركب الكيماوي في آسفي، غير أن الصناعة الحديثة لا تستخدم حتى الآن أكثر من ٣٥٠ ألف عامل أو ما يعادل ٣٪ من مجموعة السكان القادرين على العمل هذا مقابل ٤٠٪ في بريطانيا وبلجيكا، و٣٣٪ في كل من المانيا الغربية والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة.

وفي ١٩٨٥ بلغت معلبات الأسماك ٦١٥٠٠ طن وتركيب السيارات وتجميعها ١٧٠٠٠٠ سيارة وكان عدد سكانه في ١٩٨٧، ٢٤,٤ مليون نسمة، كثافة ٥٤,٦ نسمة/ كم^2. دخل الفرد في ١٩٨٥، ٥٦٠ دولار.

لقد احتفل المغرب عام ١٩٨٧ بجلوس الملك في عامه ٢٦ على عرش المغرب مما يدل على استقراره السياسي مع أنه لا يملك البترول ولم يتعرض لتقلبات أسعاره ولكن يملك زراعة هامة. ولما كان عام ١٩٨٥/١٩٨٦ أكثر رطوبة فقد زاد الانتاج الزراعي بنسبة ٤٧٪ بالنسبة للعام الفائت وبخاصة في مجال الحبوب. ويمكن تفسير هذه النتائج الطيبة بتوسع حقول الحبوب بنسبة ٨,٤٪، وبفضل الجهود المبذولة لتحسين الأوضاع التقنية. هذا كما زاد انتاج الحمضيات ولا سيما اليوسفي بنسبة ٤١٪ ولكن الصادرات تناقصت. وتبذل جهود للتوسع في نوع خاص من العنب الذي يمكن استغلاله في صناعة السكر وللأكل الطازج وللزبيب لأنه يتطلب رطوبة أقل من الشوندر. وتمتد هذه التجربة في سهل البحيرة الوسطى وفي سهول تاساءوت، وذلك بمعونة من الخبراء الطليان. ويملك المغرب ١٣ مصنعاً

لوحة اقتصادية عن المملكة المغربية في ١٩٨٧

المادة	١٩٧٤	١٩٨٥	١٩٨٦
القمح	١,٨ م. ط	٢,٣	٣,٨
الذرة الصفراء	٠,٣٨ م. ط	٠,٣٢	٠,٣
الشعير	٢,٣ م. ط	٢,٥	٣,٥
زيت الزيتون	٢٢٠٠٠ ط	٣١٠٠٠	٣٥٠٠٠
الحمضيات	٠,٩ م. ط	٠,٩	١,٢
السكر	٢٤٤٠٠٠ ط	٤٩٠٠٠٠	٤١٤٠٠٠
الأبقار	٣,٤ ملايين	٢,٦ مليون	-
الأغنام	١٦ مليون	١٢	١٢
الصوف	٢١٠٠٠ طن	١٦٠٠٠	١٦٠٠٠
الأسماك	٢٨٨٠٠٠ طن	٤٧٣٠٠٠	٤٤٤٨٠٠
الفحم الحجري	٠,٥٦ م. ط	٠,٧٧	-
الكهرباء (مجموع)	٢٧٧٥مليونك و س	٦٠٢١مليونكوس	-
الكهرمائية	١٣٣٧مليون ك و س	٤٧٠مليونك وس	-
البترول	٢٤٠٠٠ طن	١٥٠٠٠	٢٠٠٠٠
الغاز الطبيعي	٧٥٠٠٠ م^{3}	٨٦٠٠٠ م^{3}	٨٧٠٠٠ م^{3}
خامات الأثمد	١,٨ مليون طن	٩٩٠٠٠٠ ط	٩٢٨٠٠٠ ط
الكوبالت	١,٦ مليون طن	-	-
خام الحديد	٣٢٤٠٠٠ طن	١٠٤٠٠٠ طن	١١٥٠٠٠ طن
خام المنغيز	٨٩٠٠٠ ط	٢٤٠٠٠ ط	-
خام الرصاص	٨٦٣٠٠٠ ط	١٠٦٨٠٠ط	٧١٨٠٠
معدن الرصاص	-	٦٣٥٠٠ طن	٥٥٣٠٠ طن
خام الزنك	١٤٠٠٠ ط	١٤٧٠٠ ط	١٢٢٠٠ ط
الفوسفات	١٩,٧ م. ط	٢٠,٧ م. ط	٢١,١ م. ط
غزول القطن	١٤٣٠٠ ط	-	-
غزول الصوف	٢٦٠٠ ط	-	-
الأسمنت	١,٩ م. ط	٣,٦ م. ط	-
السواح	١,٥ مليون	-	-
الأسطول	٥٣٠٠٠ طنة	٤٦٠٩٠٠ طنة	٤١٦٥٠٠ طنة
الاستيراد بالدرهم	٨٢٩٢٠٠٠	٣٨٦٧٣٠٠٠	٣٤٦٠٠٠٠٠
الصادرات بالدرهم	٧٤٤٠٠٠٠	٢١٧٤٠٠٠٠	٢٢١٧٥٠٠٠

للسكر تغطي ٦٠٪ من الاستهلاك ويضطر لاستيراد ٢٥٠٠٠٠ طن من السكر.
ويبذل المغرب جهوداً ناجحة في ميدان الري لبلوغ مساحة مرواة قدرها مليون

هكتار في نهاية القرن العشرين مما يسمح بتوسع زراعي، وتبذل الجهود لبناء سدود في حوض السبو الأعلى. وحصل تقدم بسيط في ميدان التصنيع بفضل زيادة استثمارات الدولة. غير أن ركود السوق العالمي للفوسفات لم يساعد على تنمية الصناعة الاستخراجية وكذلك الحال بالنسبة للرصاص والنحاس. ويملك المغرب ٧٠٪ من احتياطي العالم من الفوسفات بعد ضم مناجم بوكراع في الصحراء الغربية. وقد تحسّن الميزان التجاري لأن العجز انخفض بنسبة ٢٦,٦٪ بفضل تخفيض الاستيراد بنسبة ١٠,٥٪ وتزايد بالصادرات بنسبة ٢٪ وارتفعت نسبة تغطية الاستيراد ٥٦,٢٪ إلى ٦٤,١٪. وهناك مليون مغربي يعملون في الخارج منهم ٦٠٠٠٠٠ في فرنسا وحدها وبلغت تحويلاتهم لوطنهم ٣ مليارات درهم في عام ١٩٨٦، أي أكثر من قيمة صادرات الفوسفات. وهناك زيادة سريعة في استثمارات السياحة لتحقيق ١٠٠٠٠٠ سرير بالفنادق. وقد انخفض عدد الزوار العرب ولا سيما الأمريكان، ولكن عدد الأوروبيين في تزايد مع تطاول مدة إقامتهم، وارتفعت عائدات السياحة من العملة الصعبة فزادت عن ١١٪ وتعادل ٢٢٪ من الصادرات وتغطي ٥٤٪ من العجز التجاري، وتناقصت حركة الموانىء. وهناك دراسة لتجهيز ميناء آغادير من أجل الصيد البحري. وتناقصت المبادلات مع فرنسا، وتجري دراسات للاتصال مع أوروبا بحفر نفق تحت مضيق جبل طارق أو بناء جسر فوقه. وأمكن تخفيض عجز الميزانية إلى النصف والتضخم السنوي إلى ٤,٤٪ غير أن الدين الخارجي بلغ ١٤,٦ مليار دولار أو ما يعادل الناتج القومي الخام، ولكنه يتراجع قليلاً منذ عام ١٩٨٥ . ويبدو صندوق النقد الدولي والمنظمات الدولية على قدر من الرضا، بيد أن سوية الحياة لم تتحسّن منذ ١٩٨٠ وهناك استياء اجتماعي ظهر للعيان في عدة مناسبات بسبب البطالة والغلاء لأن الحرب مع الصحراويين تكلف المغرب يومياً مليون دولار، وإن كان على مقياس أصغر من مصيبة حرب الجناح

الشرقي من العالم العربي بين العراق وايران والتي توقفت بعد ثمانية أعوام في صيف ١٩٨٨. وفي عام ١٩٨٧ كان نصف سكان المغرب ريفيين. وبلغ انتاج الحبوب ٤,٢ ملايين طن بسبب القحط مقابل ٧,٧ ملايين في عام ١٩٨٦ ولكن المغرب مضى عليه أكثر من ٢٥ سنة في سياسة بناء السدود أو سد واحد كل عام.

الصحراء الغربية

مساحتها ٢٨٥٠٠٠ كم٢، يحدها المغرب من الشمال، ومن الشمال الشرقي الجزائر، ومن الجنوب والجنوب الشرقي الجمهورية الاسلامية الموريتانية، ومن الغرب المحيط الأطلنطي الذي يمتد ساحله على مسافة ١٣٠٠ كم وتتحدد التقاطيع الاقليمية الصحراوية على الشكل التالى:

الساقية الحمراء في الشمال، زمور في الوسط والمنطقة الشرقية، أدرار ـ سطف في منطقة الوسط الجنوبي، وتيرس في الجنوب الشرقي، ويسود البلاد نوعان من المناخ.

الأول: قاري شبه صحراوي جاف، يتميز بتقلبات مفاجئة في درجة الحرارة بين النهار والليل، وهطول الأمطار غير منتظم، وهذا المناخ خاص بمناطق ادرارسطف وتيرس وزمور.

الثاني: على الساحل وفي الجزء الجنوبي وفي الجزء الغربي من الساقية الحمراء، حيث المناخ أكثر اعتدالاً، فبفضل تأثير تيارات البحر، تكون الحرارة في هذا الجزء أكثر استقراراً واعتدالاً إذ تبلغ وسطياً ١٩ درجة، والرطوبة كبيرة في الندى الصباحي الكثيف.

ولا توجد مياه جارية في البلاد لأن الأمطار تقل عن ٥٠ مم بالعام وأهم هذه الأودية الرطبة هي الساقية الحمراء وروافدها وهناك كثير من الآبار على

عمق يتراوح بين ٣ و٤ أمتار، وقد عثر على حقل مائي جوفي يمتد من أمليلي جنوباً إلى رأس بوجدور شمالاً على مسافة ٥٠٠ كم.

الثروات: تزخر الأراضي العربية الصحراوية بثروة معدنية هائلة وأهمها الفوسفات والغاز الطبيعي واليورانيوم، ويضم حقل بوكراع أكبر احتياطي للفوسفات في كل الشمال الافريقي العربي فضلاً عن جودة نوعه.

ويحتوي الشاطىء الصحراوي على أهم ثروة سمكية على الكرة الأرضية تقريباً يمتد على رقعة ١٥٠٠٠٠ كم² يحوي ٢٠٠ نوع من السمك و٦٠ نوعاً من الرخويات والقشريات، حتى أنه يدعى «بنك السمك» وتستغله أساطيل كل الدول الشهيرة بصيد الأسماك بما في ذلك اليابان والاتحاد السوفييتي وفرنسا واسبانيا وحتى اسرائيل والبرتغال والتي تستفيد من الاضطراب السياسي بالمنطقة والقائم بين الأقطار العربية فتستغل هذا الموطن السمكي بجشع يهدد هذه الثروة بالانقراض، والميناء الرئيس بالمنطقة هو ميناء الداخلة (شكل ٦).
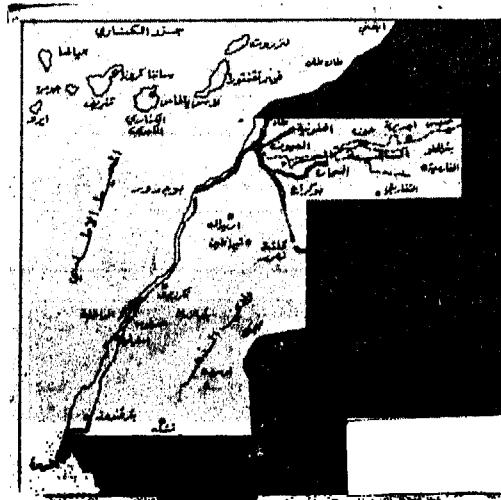
الجزائر

الجزائر

إذا كانت المملكة المغربية ذات مركز ثقل يتألف من السهول المطلة على المحيط الأطلنطي، والتي يطيف بها من الشرق والجنوب إطار جبلي يلعب دور خزان مائي، وإذا كانت منطقة مدينة تونس تدين بجاذبيتها لارتصاف التضريس وللممر القائم بجوارها بين حوض البحر الأبيض الغربي والحوض الشرقي، فإن هذه الشروط الطبيعية ليست مقسورة بل موجودة سلفاً، أما في تشكل القطر الجزائري فإن الظروف التاريخية هي التي لعبت دورها وحدها دون تحالف من الإطار الطبيعي. فليس للتضريس أي نزوع نحو التمركز كما ليس هناك من عقدة مواصلات واحدة، بل هناك أشرطة من التضاريس ومن المناخ متوازية مع الساحل.

وتتمازج في الجبال الساحلية ـ التي تؤلف سوراً مستمراً ـ أغشية الجرف مع التشوهات التكتونية الحديثة (شكل ١). وهناك وسادة جبلية ساحلية مؤلفة من صخور تعود للحقب الأول إلى الشرق من العاصمة مما يزيد من تعقيد الجبال التلّية أي الساحلية. وتبدو السهول العليا الغربية، الغاصة بالرسوبات الهادئة شبه الأفقية، منفتحة على الصحراء بممرات عريضة من خلال جبال الأطلس الصحراوي ذي الطيات المشتتة (شكل ٢). وفي منطقة قسنطينة تقترب سلاسل الشمال الجبلية من سلاسل الجنوب لتشكل جبال الأوراس التي
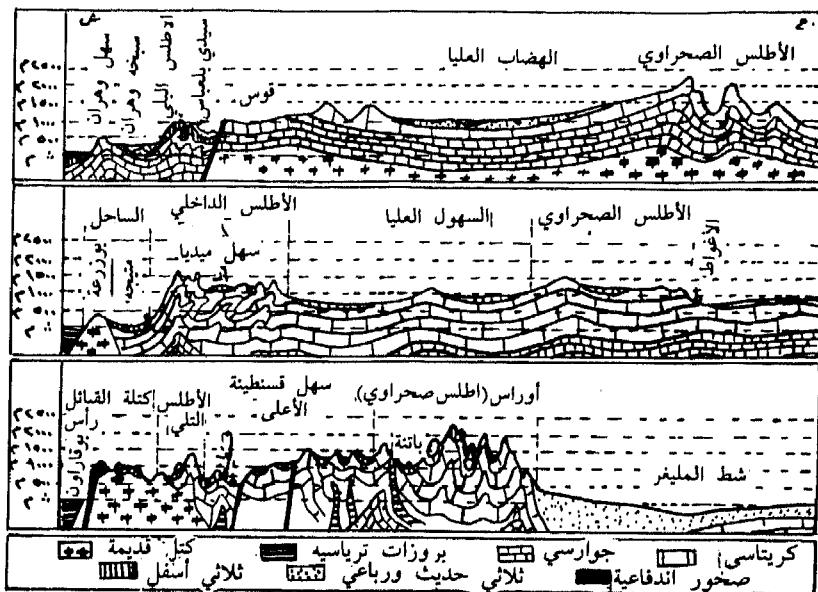
ثلاثة مقاطع عبر الجزائر من الشمال إلى الجنوب

شكل (١)

تحوي أعلى نقطة من المرتفعات الجزائرية ٢٣٢٨م.

وإذا كانت مساحة القطر الجزائري تبلغ ٢,٣٨١,٠٠٠ كيلومتر مربع وتحوي ٢٤ مليوناً في ١٩٨٨ من السكان مقابل ١٢ مليوناً في ١٩٦٦، فإن الرقعة التي تنال أكثر من ٤٠٠ مم سنوياً تضم وحدها ٢٢ مليون نسمة أي تصعد الكثافة فوق الجزائر (المفيدة) - أي غير الصحراوية - ومساحتها ١٤٠٠٠٠كم٢ إلى ١٤٣ نسمة في الكيلومتر المربع مقابل ١٠١ في فرنسا و٩٠ في النمسا و٧٧ في إسبانيا.

هذا وتكثر الأمطار على المرتفعات الساحلية، ذلك لأن الهواء القادم من الشمال الغربي يفرّغ حمولته من الرطوبة فوق التضاريس الشمالية، في حين يكون شحيحاً في تهطالاته فوق السهول العليا الواقعة خلف مدينة الجزائر ومنطقة وهران التي تعد سهبية، ولكن الأطلس الصحراوي يقسر الرياح المطيرة

الجمهورية الجزائرية

شكل (٢)
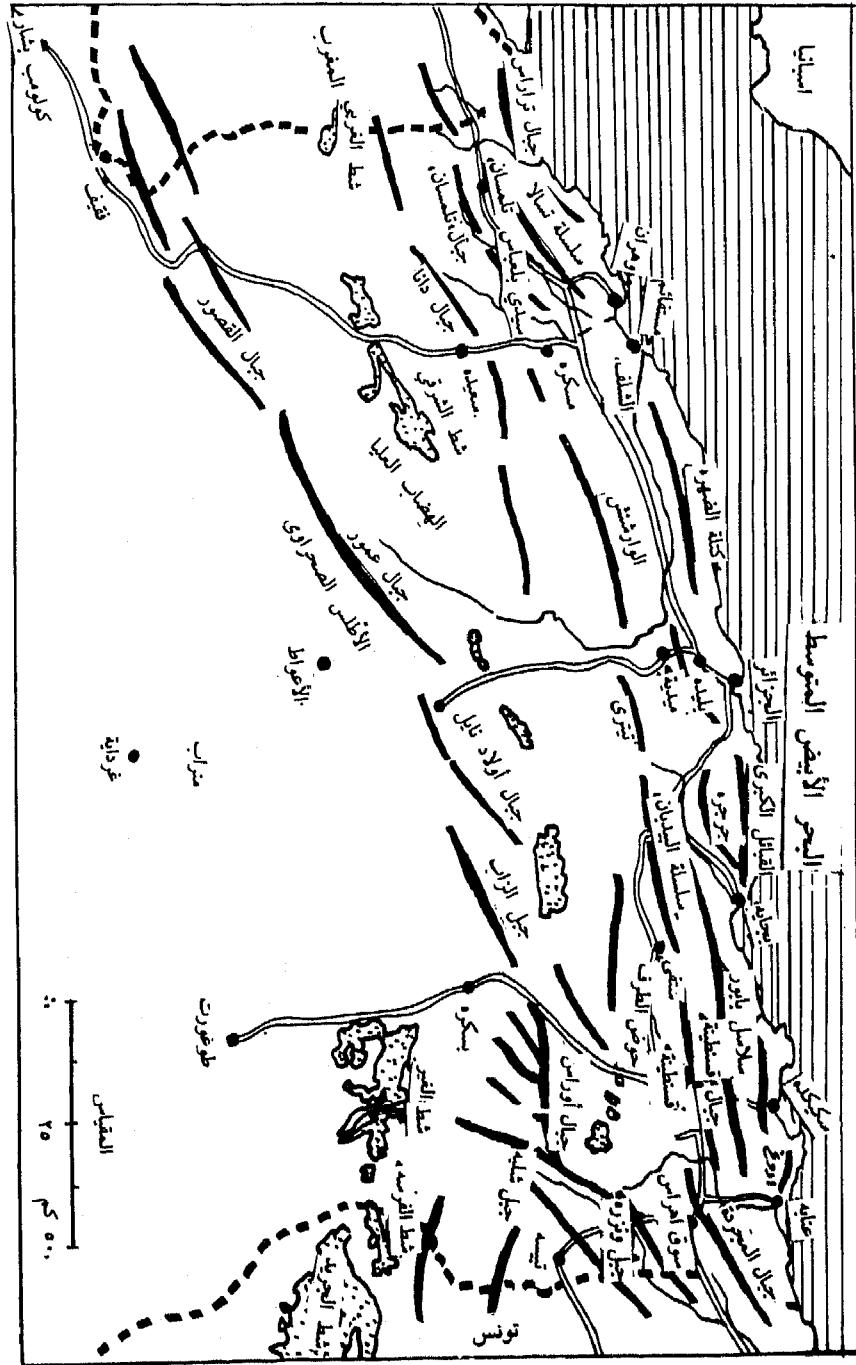
على تكثيف ما تبقى من حمولتها من الرطوبة. وتنجو منطقة قسنطينة من القحولة السائدة في السهول العليا الغربية بفضل جبالها. غير أن عدم انتظام الأمطار الجزائرية يؤلف الطابع المحزن لمناخها، ويكون هذا الاضطراب المطري محسوساً أكثر كلما كان المجموع السنوي للأمطار منخفضاً: فإذا كان متوسط مطر مدينة جلفا السنوي يبلغ ٣٠٨ مم فإن الحد الأقصى يصعد فيها إلى ٧٧٥ مم بينما قد يهبط الحد الأدنى فيها إلى ٩٠ مم. وقد يهبط وابل يبلغ ٧٠ مم خلال يوم واحد مما يؤدي لفيضانات سيلية ذات فائدة ضئيلة وأضرار محسوسة لأن الحت يعمل على تخديد السفوح المحرومة من غطاء نباتي متواصل.

ويتألف القسم الحي في الجزائر من شريط شمالي طوله ٩٠٠ كم يبلغ عرضه ٢٥٠ كم في الشرق و١٠٠كم قرب الحدود المغربية وحيث تكون الأمطار كافية والسكان متكاثفين. غير هذا الشريط (التلّي) كما يسمّى هناك يحوي من الجبال أكثر مما يضم من السهول، بحيث تصعد الكثافة في السهول إلى ٣٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع. وهكذا تبلغ مساحة التل الشرقي ٩٠٠٠٠كم٢ ويضم ١٧ مليون نسمة إلى الشرق من خط طول العاصمة الجزائرية في حين تبلغ مساحة التل الغربي ٥٠٠٠٠ كم٢ ويحوي ٦ ملايين نسمة إلى الغرب من العاصمة، ويكون التل الغربي ذاته أقل أمطاراً من الشرقي[1].

---

(١) تقر المصطلحات العربية التقليدية بوجود مجموعين جغرافيين هما: التل وهو منطقة جبلية، ممطرة، ويعيش فيها السكان المستقرون. والصحراء وهي منبسطة جافة ومقر البدو. وهذا على قدر لا بأس به من الصواب لأن التل يشتمل على الجبال وعلى أحواض منطقة قسنطينة.

التقسيمات الاقليمية

الجزائر الغربية :

يبدو التل الغربي للقادم من المغرب، لأول وهلة ذا بنية مفتوحة مؤلفة من بنية مفتوحة وسهول مستمرة (وهران، مستغانم، الشلف)، ومن تلال معتدلة (طرارة، تسّاله)، ومن حوضات داخلية (تلمسان، سيدي بلعباس، معسكر)، ومن هضاب كلسية (هضبة تلمسان، سعيدة)، ويفتح نهر المينا اتصالاً ميسوراً باتجاه الداخل: وهو ممر سيطر عليه أوائل الفاتحين العرب، ويذكر جفاف السهول، والتي تنال أمطاراً تقل عن ٤٠٠ مم في العام، والسبخات الملحة، البدو بآفاقهم المألوفة، فكانوا يمارسون فيها استغلالاً واسعاً، ولما كانت هذه المنطقة قليلة السكان فقد اجتذبت إليها استيطاناً فرنسياً ـ اسبانياً ولا سيما الكروم الواسعة، وامتدت مدينة وهران التي كانت تضم في عام ١٩٥٤ نسبة من الأوروبيين كانت تشكل ٦٠٪ وفي ١٩٦٦ لم يبق من هؤلاء سوى بضعة آلاف مقابل ٣٢٥ ٠٠٠ جزائري. وكانت وهران مجهزة بميناء اصطناعي كان يقوم بتصدير خمور المنطقة، ويعاني اليوم من ركود نسبي، بينما يتمتع ميناء مرسى الكبير بمزايا طبيعية أكبر بكثير وأصبح قاعدة بحرية، واستأثر ميناء آرزو المجاور بالنشاط البترولي فهو يصدر الغاز السائل والنفط.

ويتألف بقية التل الغربي من جبال ثقيلة متوازية كجبل الضهرة والونشريس اللتين تنفصلان عن بعضهما بمنخفض الشلف السنكلينالي، وهذه التضاريس عبارة عن نتائج التشوهات التي يذكّر بها زلزال مدينة الأصنام في ١٩٥٤ و١٩٨٠، مما دفع إلى نقلها إلى الشمال قليلاً، ودعيت باسم نهر المنطقة أي «الشلف». ويبدو جبل الونشريس شديد الوعورة وشبه مهجور من السكان، في حين يكون جبل الضهرة أكثر ترحيباً وينوء بسكانه الذين تبلغ

كثافتهم ٧٠ وحتى ١٠٠ نسمة/ كم٢. وقد كان سهل الشلف، شأن حوضي تلمسان ومعسكر، مستغلاً بصورة ضعيفة في بداية القرن التاسع عشر، وكان يعيش شطر من سكانه تحت الخيمة. وقد سمح الري بتصحيح نزوات الأمطار فقامت بيارات الحمضيات، والفصّة وزراعة الرز المغمور فوق الأراضي القلوية، هذا وتتشكل السهول العليا ـ التي ترتفع إلى ما بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ م ـ من لحقيات قارية تحجب البنية العميقة. ويكون الجفاف هنا قاسياً مع حر وبرد متطرفين، وتقل إمكانات الري، لأن الأراضي تتشكل من حوضـات مغلقة ومن سبخات ملحة (مثل الشط الشرقي، والشط الغربي، وشط الحضنة) ومن سهوب الحلفا، وتبدو هذه المنطقة قليلة السكان ولا يمكنها أن تكون أحسن من ذلك، ومع أن منطقة سرسو تبدو أكثر مناطق السهول العليا أمطاراً، وقد خصصها المعمرون الفرنسيون في الماضي لزراعة القمح، غير أن ذبذبات الأمطار قادت إلى خيبات أمل عديدة وخسائر، أما الغشاء المائي الغزير الذي عثر عليه بالأعماق فمن الأفضل استغلاله في منطقة التل بدلاً من السهول العليا حيث تفرض الأوضاع الطبيعية تربية الأغنام بصورة عقلانية تجنباً للرعي الجائر[١].

أما الأطلس الصحراوي الممتد من حدود المغرب إلى بسكرة، والمؤلف من جبال القصور والعمور وأولاد نائل، فهو أكثر أمطاراً من السهول العليا، ويستوطنه البداة من ذوي النجعة القصيرة والقليل من سكان القصور المستقرين. وتشهد أطلال القرى على إعمار ريفي أكبر من ذلك بالماضي. وقد اجتاح الرعاة الصحراويون منذ قرون عديدة هذه الجبال بحثاً عن العشب

(١) يقع منخفض الحضنة في شرق السهول العليا، وهي منطقة أكثر جفافاً وتؤلف مدخلاً رائعاً للبدو القادمين من الصحراء الكبرى. وكان النظام البدوي لا يجيد استغلال الأمواه المتدفقة من جبال الحضنة، ويستطيع الري هنا تحقيق إنجازات معتبرة.

خلال الصيف. وكان تسلّلهم ميسورا بتضريس مفتوح مؤلف من مقعرات معلّقة على شكل قوارب، ومن محدبات مفصولة عن بعضها بشدة لوجود منخفضات مبسوطة. وهنا تتفوق الخيام على البيوت المبنية.

مدينة الجزائر:

تصدر قوة هذه المدينة من وظيفتها وهي الوصل بين الجزائر الغربية والجزائر الشرقية عند تماسهما، إذ ليس هناك ما يستحق أن يسمى الجزائر الوسطى، وهذه المدينة التي منحت اسمها لكل البلاد تلخص بنفسها كل القوى المركزية. وبعد أن كانت الجزائر بلدة تركية متواضعة (شكل ٣) منحت اسمها للبلاد ونمت مع الاستعمار الفرنسي الذي جعل منها قاعدة عمله الرئيسة، فأعطاها هذا الدور الفعال الذي لم يسبق لها أن قامت به، ألا وهو دور عاصمة. وهكذا تبدو مركز الجزائر الذي لا منازع لها عليه، فتحوي قرابة
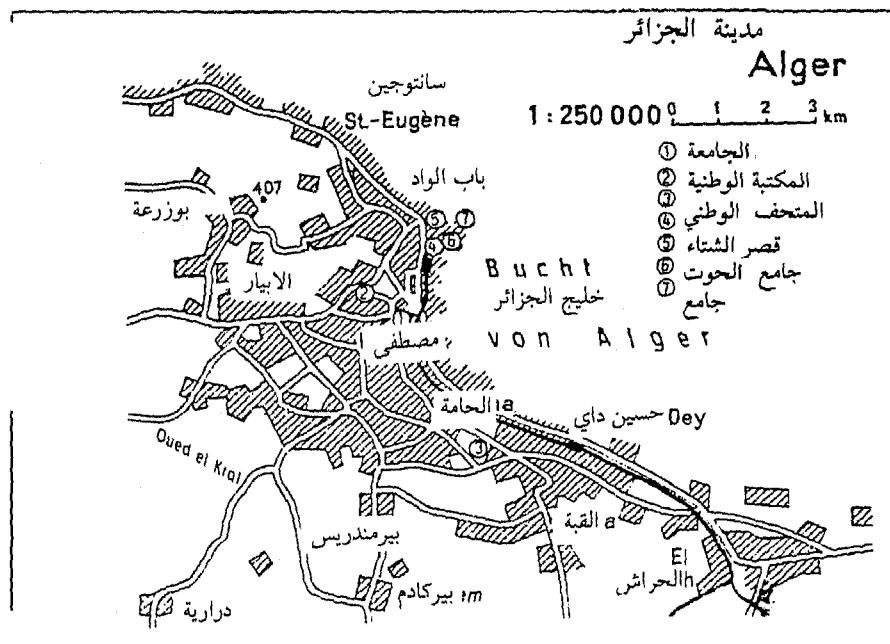
شكل (٣)

٣,٥ مليون نسمة وتضم كل الإدارات الموجهة، بالإضافة لجامعة الجزائر، وأكبر بؤرة صناعية، والمطار الرئيس بالبلاد وهو مطار بومدين.

وموقع المدينة رائع ولكنه غير مريح إذ لا يحوي مرسى طبيعياً، كما أن المساحات صغيرة بسبب شدة ميل التلال. وإجمالاً تكون الشروط الجغرافية العامة هزيلة: كالاتصالات العسيرة مع الداخل. هذا الداخل القابل للاستغلال والمتقلص لأن عرضه لا يزيد على مئة كيلومتر في حين تتمدد الجزائر التلّية على مسافة ٩٠٠كم.

هذا ولمدينة بجاية مزايا الموقع نظراً لوجود جون أفضل حماية، وساحل أقل وعورة، وأوضاع عامة أفضل مثل مصب وادي الصمام الكبير، وعلاقة أكثر سهولة مع الجنوب. غير أن بجاية تقع في قلب بلاد القبايل ولا تناسب إطلاقاً لأن تلعب دور عاصمة اتصال بين الغرب المستعرب كلياً والشرق الذي تقع فيه أكثر البؤر البربرية وتضم قرابة ١٥٠٠٠٠ نسمة.

الجزائر الشرقية :

لما كانت الجزائر الشرقية أكثر سكاناً واستيطاناً من الغرب، فقد كانت أقل جذباً للاستعمار الاستيطاني الأوروبي، الذي حقق نجاحات كبيرة في المناطق النادرة قليلة التضاريس والتي كانت بالواقع قليلة السكان؛ فقد تحولت تلال ساحل الجزائر إلى بساتين الباكوريات على يد بساتنة إسبان وفدوا من جزيرة ماجورقة من جزر البليئار، كما أصبح سهل المتيجة، الذي كان عبارة عن مستنقع وخيم ومرزغي، أرض الثراء والرخاء بعد استصلاحه لانتشار زراعة الكروم والحمضيات والباكوريات المرواة، وتحوي مدينة بليدة وهي من ضواحي العاصمة أكثر من ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة، هذا كما تمّ استغلال سهل عنّابة جزئياً على أيدي المعمرين بسبب زراعة الكروم والقوارص، ولا زال يضم

إمكانات توسيع كبيرة. وليس في الجزائر الشرقية، فيما عدا مدينة الجزائر، مدينة تماثل وهران، لأن عنابة لا تحوي أكثر من ٢٥٠٠٠٠ نسمة، وسكيكدة ١٢٠٠٠٠ وبجاية ١٠٠٠٠٠ وقسنطينة ٤٠٠٠٠٠ نسمة (شكل ٤).
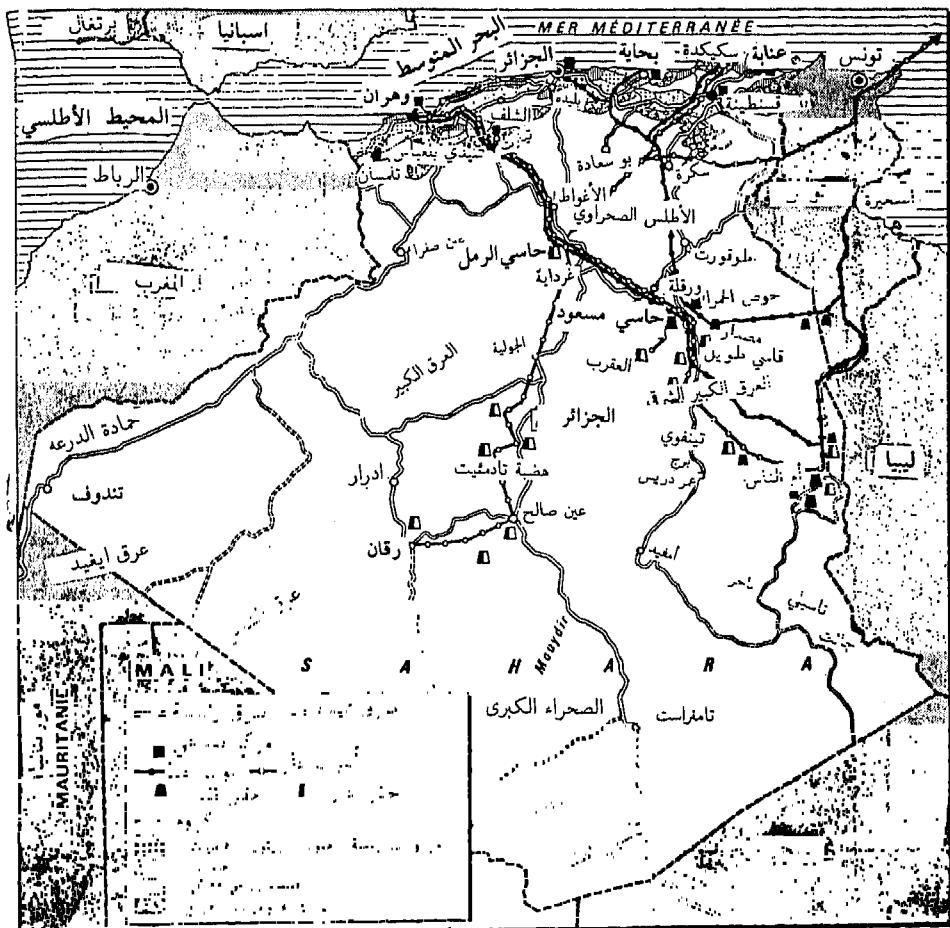
شكل (٤)

وللأطلس التلي، بما في ذلك المدن (باستثناء العاصمة)، كثافة تبلغ ١٢٥ نسمة على مساحة ٥٠٠٠٠ كم٢. ولما كانت السهول نادرة من بحرية مثل سهل المتيجة وسهل عنابة، ومن داخلية كسهل الصّمام، فإن الكثافة

الشديدة تتعلق باستيطان الفلاحين الجبليين والذي شجع عليه مناخ أكثر أمطاراً، وغياب البرداء، والحماية التي يوفرها التضريس تجاه البداة.

وتبدو الجبال التلية، والتي تكون ذات ارتفاع مطلق لطيف لا يزيد على ٢٣٠٥ م كما في قمة لالآ خديجة، أقول تبدو وعرة فتكثر العوائق وبالتالي أماكن العزلة. وتكثر الأعراف الثقيلة، والأودية السحيقة التي تبدو أحياناً مقصوصة على شكل خوانق. وقد عملت الأنهار أثناء مقاومتها لعوامل النهوض على التعمق في رسوبات رخوة وشبه متماثلة كالشيست والمارنيات والحجر الرملي الطري. وهناك صخور نادرة تشكل بروزات مثل سراة جرجرة الكلسية. أما بنية أغشية الجرف المدفوعة باتجاه الجنوب فتتراءى بصورة شبه غامضة فعلاً[1].

وأبرز معالم جبال القبايل (شكل ٥) هو أنها تتألف من صخور غنايس تعود للحقب الأول وذات تضريس عنيف ولكنه رتيب تهيمن عليه سراة جرجرة، ومن حراشف من كلس جوارسي وإيوسيني مدفوعة نحو الجنوب. وقد التجأ البربر الذين ربما كانوا لا يستوطنون هذا الجبل المطير والموائم للغابات بشكل كثيف خلال الفترة الرومانية بل التجأوا إليه بفعل ضغط قبائل البدو العرب وأوجدوا بذلك استيطاناً شديد الكثافة[2]. وتنتشر هنا قرى متراصة

---

(١) لقد عملت كتلية التضريس على نشر الحيرة لدى الجيولوجيين والجغرافيين. وبمقدورنا عند التبسيط التعرف على تسلسل جبلي شمالي يتألف من الأطلس المتيجي، والقبائل الكبرى، بابور، القبائل الشرقية، السلسلة النوميدية، أدوغ، ومنخفض تكتوني غامض جداً يضم أودية الأنهار التالية: الصّمام، بوسلّام، الوادي الكبير، السيبوس، ويمتد من الشمال للجنوب، وعلى تسلسل آخر جنوبي يتألف من جبال تيتري، بيبان، قرقور، فرجيوه، قسنطينة، والمجردة.

(٢) هناك مساحة تبلغ ١٥٠٠كم² تحدها من الجنوب سراة جرجرة ومن الشمال نهر سباعو وتضم مدينة تيزي وزّو والقلعة الوطنية (لربعناث ايراتن)، تحوي ٧٥٠ ٠٠٠ نسمة أو

شكل (٥) جبل جرجرة (بلاد القبائل)

ذات بيوت مسقوفة بالقرميد نصف الاسطواني. ويقوم السكان بزراعة مستميتة تقوم غالباً على زراعة الأشجار المثمرة كالزيتون والتين، ويجففونه كي يلعب

٥٥٠ نسمة بالكيلومتر المربع وأربعة أخماسهم ريفيون. وتبلغ الكثافة فوق الأرض المزروعة نحو ١٠٠٠ نسمة/ كم٢. ويبلغ تفتت الملكية درجة مذهلة، فقد نجد شجرة زيتون يملكها غير مالك الأرض. وقد أشار أحد الجغرافيين إلى حال قرى بني بو عكاش المتشبثة فوق العرف الجبلي والتي تفتقر للمكان بحيث تدفن موتاها تحت الدروب المغطاة بالبلاط. ويعيش السكان فقط بفضل الباعة المتجولين، والبيع المتجول لا زال القبائليون يمارسونه في فرنسا ذاتها.

دور غذاء ومادة للتصدير. ويستعملون محاريث ثقيلة يجرها زوج من الثيران. وتخصص المصاطب المرواة لبساتين صغيرة جداً. غير أن التوسع في المصاطب المرواة سيسمح لسكان هذه الجبال المكتظة بسكانها أن تتغذى بشكل أفضل.

ويتمسك القبائليون بأعرافهم وعاداتهم وبلغتهم، وإذا كان الرجال يتكلمون العربية بسهولة وأحياناً الفرنسية، فإن النساء يمثلن قلاع البربرية. وهناك تشبث رجعي، فالرجال يصنعون الخزف بالدوار بينما تصنعه النسوة دون تدوير. أي هناك ضآلة وفقر في الموارد المحلية، وبالتالي نشوء مدن صغيرة لأن تيزي وزّو عبارة عن بلدة لا يزيد عدد سكانها على ۳۰۰۰۰ نسمة، وليس هناك من مجالات عمل صناعي مع تكاثر في أعداد السكان: فهناك هجرة مؤقتة تصيب الرجال نحو مدينة الجزائر ونحو فرنسا، ونجد في العديد من القرى أن نصف الرجال أو ثلثهم غائبون ويتوفر الدخل الرئيس من ارساليات المهاجرين من المال.

أما سكان القبائل الشرقية الأقل سكاناً عن الغربية فلا يتكلمون البربرية إطلاقاً مع احتفاظهم بالكثير من العادات البربرية، فقد كان الملجأ الجبلي أقل نجاعة. واحتفظت السلسلة النوميدية ـ وهي النهاية الشرقية لجبال القبايل الصغرى هذه ـ بغطاء غابي يتألف من الخفاف (الفلين) ومن السنديان وآفاريس والزيني، ولذا كانت قليلة السكان. فهل يمكن تفسير هذه الخصائص بفقر الترب القائمة فوق صخور الأوليغوسين الرملية؟ ويجب أن تكون هناك ظروف بشرية تفسر ضعف الكثافة واحترام الغابة أكثر من فقر التربة، ذلك أن بمقدور مزايا المناخ المطير أن تغري الفلاحين مثلما كان باستطاعة اقتلاع النباتات الوحشية تصحيح قلة الخصب.

منطقة قسنطينة

وتنتشر هنا جبال منطقة قسنطينة وأحواضها: فنجد محدبات متفرعة عن الأطلس الصحراوي تشرف على ردميات رسوبية تعود للحقب الثالث. وهنا تكفي الأمطار لقيام زراعة المستقرين التي كانت تتمتع في القرن التاسع عشر بالتفوق الذي تستحق، لأنها كانت تتعرض لتنغيص وجود البدو. غير أن الاستعمار الفرنسي شجع ودعم زراعة القمح والشعير فكان حوض سطيف أفضل منطقة جزائرية لإنتاج القمح. وهناك مكامن معدنية هامة في الجبال مثل حديد ونزة وفوسفات العنق. ويقوم خط حديدي بتفريغ الفلزات الخام في عنابة والتي بلغت ١,٨ مليون طن في ١٩٨٦. ولما كانت منطقة قسنطينة ذات مناخ تلّي فقد تأثرت بالمدنية الرومانية كما في أطلال تمجاد ولامبيز. ولم يبق في وسط القرن الماضي من الحياة الحضرية السابقة سوى مدينة قسنطينة، وهو موقع مذهل، فوق عتبة يحميها كوع نهري متعمق أكثر رهبة من خانق طليطلة، وكانت تدعى سيرتا في عصر النوميديين لتصبح قسنطينة في عهد الرومان. وتسيطر المدينة على منطقة واسعة لا يزال اقتصادها ضعيفاً، ذلك أن سكانها الذي يبلغ عددهم ٣٥٠٠٠٠ نسمة يعانون من نقص الاستخدام، وفي عام ١٩٨٧ كانت البطالة الحقيقية تصيب ٤٠٪ من القادرين على العمل. أما سطيف التي تحوي ١٥٠٠٠٠ نسمة فترسل نحو العاصمة الفائض الزراعي من منطقة قسنطينة.

جبال الأوراس

يتكشف الأطلس الصحراوي عن ملامح باسمة في جبال الحضنة التي تنهض إلى ارتفاع ٢٠٩٤م وعلى الخصوص في جبال الأوراس التي تسمو إلى ٢٣٢٨ م. ولما كان هذا الجبل عالياً، ومتكتلاً فهو يعمل على استقرار الفلاحين البربر. وتنتصب هنا مقعرات معلقة ومحدبات من فوق ركيزة مرتفعة

منشورة بخوانق عميقة تشكل أسواراً وخنادق. ونجد هنا تنوعاً في تعرض السفوح للشمس وتنوعاً في الارتفاعات، وتنوعاً في المنتجات: فيجود النخيل في الأودية المنخفضة الجنوبية، وأشجار المشمش، التي تجفف ثمارها لكي تؤكل في الشتاء، فوق المرتفعات الوسطى، وأشجار الجوز بدءاً من ارتفاع ١٨٠٠م. ويتم الحصاد في نيسان في المستويات المنخفضة وفي نهاية حزيران على ارتفاع ١٨٠٠م. وهكذا نجد فروقاً زمنية في الأنشطة الزراعية وفي النجعات الرعوية تجعل فلاح الأوراس يقوم بانتقالات عديدة رغم تعلقه بقريته وذلك لتأمين معيشته الفقيرة.

المشكلات الجزائرية

الخلاص من الاستعمار.

لقد نزح مليون فرنسي كانوا يقيمون بالقطر الجزائري في عام ١٩٦٢ تاركين وراءهم كل ما كانوا يملكونه. والواقع لقد كان الاستعمار الاستيطاني، الذي تباهى به رجال السياسة في فرنسا منذ نهاية القرن الماضي، على أنه أفضل من أي استعمار آخر، أقول كان عبارة عن فشل ذريع، نجم عن خطأ استقرار المعمّرين بين سكان كثيفين وذوي حضارة مختلفة، فالجزائر لم تكن مثل أستراليا، ولا مثل كندا. فلم يستطع السكان المعمرون أن يختلطوا بالسكان المحليين الوطنيين، بل وقفوا موقفاً عدائياً عرقياً. فقد اعتقد المعمرون الأوروبيون أنهم أسمى وأرقى من عرب الجزائر وتجاه ذلك تحفّظ هؤلاء تجاه المجتمع الأوروبي، وكانت الزيجات المختلطة نادرة جداً. وقد أدى التنافر بين الحضارتين إلى الانفجار عندما كفّ العنصر الوطني ـ وهو أكثر عدداً بعشر مرات ـ عن قبول تبعيته.

وقد كان هناك ٢٥٠٠٠ مستغلة زراعية أوروبية تغطي ٢٧٥٠٠٠٠ هكتار، تضم سكاناً ريفيين من أصل أوروبي عددهم ١٠٠٠٠٠ نسمة، لأن

تسعة أعشار الأوروبيين كانوا يقيمون في المدن، هذا في حين كان لدى الوطنيين ٥١٥ ٠٠٠ مستغلة تمتد على ٣ ٢٥٠ ٠٠٠ هكتار، ويعيش فوقها ٧ ملايين نسمة. وهذا الإجحاف الخطير سياسياً كان يتطلب التصحيح قبل عام ١٩٦٢ بكثير عن طريق نزع الملكية التدريجي والتعويض على الأوروبيين، غير أن هؤلاء كانوا أبعد من أن يدركوا الضرورة المطلقة لمثل هذا الإصلاح الزراعي.

ولقد ترك نزوح الفرنسيين جهازاً اقتصادياً مصنوعاً لأجلهم ولأجل العلاقات مع فرنسا، ذلك أن الإطارات الإدارية، والزراعية والصناعية والتجارية اختفت فجأة بما في ذلك اليهود الجزائريون الذين نزحوا كالمعمرين الأوروبيين تماماً. وكان على السلطات الجزائرية أن تكرس كل اهتماماتها لصيانة إدارة ناجعة قبل كل شيء، بعد ارتحال الإطارات الفرنسية. ولم تكن انطلاقة «اقتصاد» جزائري متخلص من الاستعمار دون مصاعب لا سيما أن السلطات الجزائرية أثقلت كاهلها بعدم تركيز مجهوداتها على إعادة الإنتاج وتسريعه، إذ كانت ترغب في الوقت ذاته تشريك الاقتصاد، مما كان يستدعي وجود إطارات قديرة وإقبال حماسي من السكان واستبعاد الرساميل الأجنبية. وأصبحت المزارع الأوروبية السابقة، التي استغلت حسب منظومة التسيير الذاتي، عبارة عن مزارع جماعية. وقد كانت هذه المزارع حسب رأي الخبراء عبارة عن نجاح أو فشل. ولم يكن الاستغلال الزراعي يتمتع برعاية السلطات لأن السياسة الزراعية كانت تصطدم بعوائق عسيرة، وظل تعلق الفلاح بالأرض حياً في العديد من الأرياف المختلفة، وحتى بين أولئك الذين حشرهم الجيش الفرنسي في معسكرات لإبعادهم عن الجبال العاصية ولإسكانهم في سهول يكون من اليسير مراقبتهم، نجد أن الكثيرين منهم لم يرغبوا في العودة لقراهم الأصلية التي ولدوا فيها بل فضّلوا زراعة قطع صغيرة من الأراضي المنتزعة من

المستعمرات الزراعية السابقة. وقد أدركت السلطات الجزائرية خطورة التبعية الغذائية لأنها كانت تنفق خمسي عائدات النفط في عام ١٩٨٢ لشراء ما ينقصها من مواد غذائية ولا سيما القمح والزبدة، فارتأت مؤخراً تمليك أراضي كافية للفلاحين على أن تورث ولكن دون البيع وذلك لتشجيع المبادرة الشخصية والقطاع الخاص.

الزراعة

تعاني الصادرات الزراعية من أزمة، فلم تعد السوق الفرنسية السوق المفضلة للخمور، لأن الكروم تنتشر على مساحة ٣٥٠٠٠٠ هكتار والباكوريات (٤٠٠٠٠ هـ) والحمضيات (٤٠٠٠٠ هـ) وذلك لمنافسة إسبانيا والبرتغال بعد دخولهما السوق الأوروبية المشتركة التي تتمتع بالأفضلية. وليس من اليسير العثور على أسواق جديدة لتصريف هذه المنتجات أو الاتجاه نحو محاصيل جديدة كالقطن أو الشوندر السكري. ولكن قيمة إنتاج الهكتار من هذه المحاصيل البديلة أقل بكثير من قيمة إنتاج الخمر والباكوريات والحمضيات. ويجب إنتاج ما يكفي السكان الذين يعانون من سوء التغذية[١]، وليس هذا من المستحيل رغم النمو الديموغرافي الذي يبلغ ٣,٥٪ سنوياً والمواليد ٥٠ بالألف والوفيات ١٨ بالألف مما سمح بتضاعف سكان الجزائر بين ١٩٦٢ و١٩٨٨ رغم رحيل الأوروبيين واليهود. وبمقدور استغلال كل الموارد المائية في الجزائر تأمين غذاء الجزائريين، إذ أعطت زراعة الرز المغمور في وادي الشلف الأدنى ٤٤٠٠ كغم بالهكتار في عام ١٩٥٩، وقيام زراعة

(١) تعتمد الجزائر في غذائها على الحبوب التي لا تكفي استهلاكها. ويكون مردود الهكتار ضعيفاً وينخفض أحياناً إذا انحبست أمطار الربيع. وتظل نصف الحقول بوراً مرة كل عامين. ويبلغ الإنتاج العادي ١,٨ مليون طن فوق أرض مزروعة مساحتها ٢,٩ مليون هكتار. وتضطر الجزائر لاستيراد قسم من الحبوب لتغطية استهلاكها.

حثيثة تستخدم الشغيلة إلى أقصى حد ممكن يناسب تماماً حال جزائر اليوم. ولكن القطر الجزائري يشكو من نقص في المهندسين الزراعيين.

وفي عام ١٩٨٥ كان ٦٠٪ من الجزائريين دون ٢٠ سنة و٧٠٪ منهم دون ٣٠ سنة.

التصنيع

هناك مشكلة بطالة ونقص استخدام يصيب قرابة نصف السكان. وتصيب الهجرة مليون جزائري يعملون في فرنسا وبالدرجة الثانية في بلجيكا وألمانيا الغربية. وتبلغ تحويلات هؤلاء إلى الجزائر أكثر من مليارى فرنك فرنسي بالعام، وكانت تأتي بالدرجة الثانية بعد صادرات الغاز والنفط. وتعجز الصناعة عن امتصاص أيدٍ عاملة عديدة على الرغم من قيام مشاريع ضخمة مثل المركب الصناعي في عنابة الذي ينتج ٧٠٠٠٠٠ طن من صفائح الحديد سنوياً، والبتروكيمياء في آرزيو ومصانع النسيج. وتتطلب المصانع الحديثة توظيف رؤوس أموال هائلة لكل عامل، لا سيما أن الصناعة ذات التقنية العالية لا تتطلب الكثير من الأيدي العاملة، ترى هل يجب اللجوء لصناعات ذات تقنية أكثر بساطة؟ وفي عام ١٩٨٧ قام معمل إسمنت أبيض مشترك بين تونس والجزائر على الحدود ينتج سنوياً ٢٦٠٠٠٠ طن.

ويكمن حظ الجزائر في النفط والغاز الطبيعي اللذين يحققن القسم الأعظم من الصادرات، ويؤلفان مصادر طاقة، ومواد أولية لصناعة كيماوية(٢) وقد بلغ هذا الانتاج ٤٠ مليون طن وسطياً يصدر القسم الأعظم منه من موانىء

---

(٢) لو لم تستفد الجزائر من البترول الصحراوي لكان عليها الاعتماد على مصادر طاقة من الفحم الحجري الواقع في حوض كنادسة الصغير ذات الموقع الجغرافي الرديء وقلة ثروة هذا الحوض.

بجاية وآرزيو والصخيرة في تونس[3] وفي عام ١٩٨٦ انخفضت قيمة عائدات النفط والغاز بمقدار ٢٠٪ عن عام ١٩٨٢، وكان هذا سبب أحداث شهر تشرين الأول ١٩٨٨ الدامية.

وأول اكتشاف للنفط بالجزائر كان عام ١٩٥٢، وتم اكتشاف حقل غاز عين صالح في عام ١٩٦١ وبدأ استغلاله بعد قليل ويقدر احتياطي الجزائر من الغاز ٥٠٠٠ مليار متر مكعب في مواقع حقول عين صالح والسرار وورود والنوس وتينغوي ولا تزال الأبحاث جارية لاستغلال حقل هضبة تادمائيت (شكل ٦) و(شكل ٧).

---

(٣) يستغل البترول الجزائري في الصحراء من منطقة رسوبية ترقد فوق الركيزة الإفريقية (ترس الرقيبات وترس الطوارق)، وإلى الشمال من التروس الرئيسة تكون الركيزة مهشمة بحفرة متجهة من الشمال للجنوب مما يخفض أرضية الركيزة إلى عمق ٦٠٠٠م، وتكون هذه الحفر مردومة بسماكة هائلة من رسوبات مشوهة بصورة موائمة للاحتفاظ بالنفط، وتكون الصخور الرملية الكامبرية الأوردوفيسية خزانات جيدة إذا كانت مختومة بالأعلى بغطاء كتيم ناجح كالغضاريات الغوتلندية مثلاً. ويحوي الكاربونيفير أيضاً خزانات ممتازة من البترول شأن الرمال والصخور الرملية في قاعدة التزياس وحيث عمل الغطاء المؤلف من الملح والأنهيدريت الترياسي على الإمساك والاحتفاظ بغاز حاسي الرمل. أما بنى مكمن إيجله البترولي فهو تقليدي أكثر إذ تتألف من محدبات ملحوظة على السطح. ويكون الاستغلال أحياناً عالي الكلفة إذ يتطلب الأمر حفراً عميقاً كما في حاسي مسعود، ويجب الاعتماد على تقنيات عالية جداً لإطالة أمد الاستغلال كحقن الغاز في المكمن ومكافحة الاختناق بالملح في قاعدة الأنابيب العميقة. ويبلغ طول أنبوب حاسي مسعود إلى بجاية ٦٥٢ كم، وأنبوب آرزيو ٨٠٠ كم، وأنبوب عين أم الناس إلى الصخيرة ٧٧٠ كم.
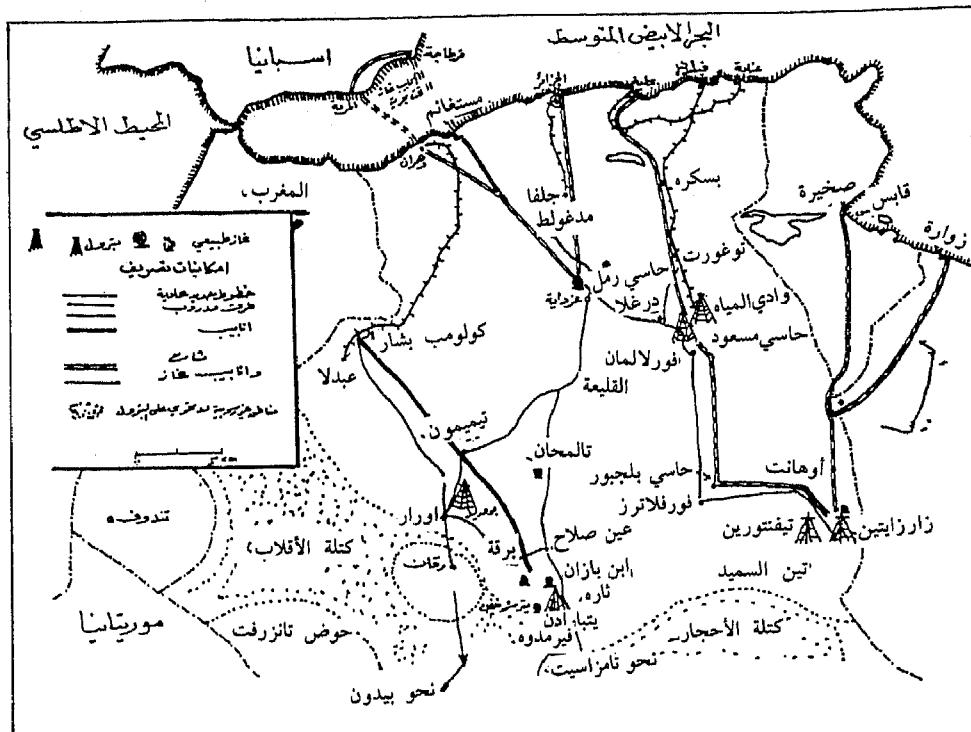
شكل (٦)

لقد احتفلت الجزائر بمناسبة مرور ربع قرن على استقلالها. وتمت المصادقة على ميثاق جديد بعد استفتاء ١٦ كانون الثاني ١٩٨٦. ويؤكد من جديد، شأن ميثاق ١٩٧٦، على أولوية الاشتراكية، والتخطيط، ولكن مع الاهتمام بروح الإسلام وبقيمة الفرد، وينص على ضرورة التنمية الإقليمية المتوازنة. وأكثر النتائج وضوحاً هو تزايد الناتج القومي الخام للمواطن الواحد في الجزائر ما يجعلها ثالث قطر إفريقي في هذه الفئة بعد ليبيا ونيجيريا. وكانت نسبة تزايد الناتج القومي الخام ٧٪ بين ١٩٦٥ و١٩٧٣ وكانت ٦,٤٪ بين ١٩٧٤ و١٩٨٤. وارتفع الأجل المرتقب عند الولادة من ٤٩ إلى ٥٩ سنة لدى الذكور ومن ٥١ إلى ٦٢ سنة لدى النساء.
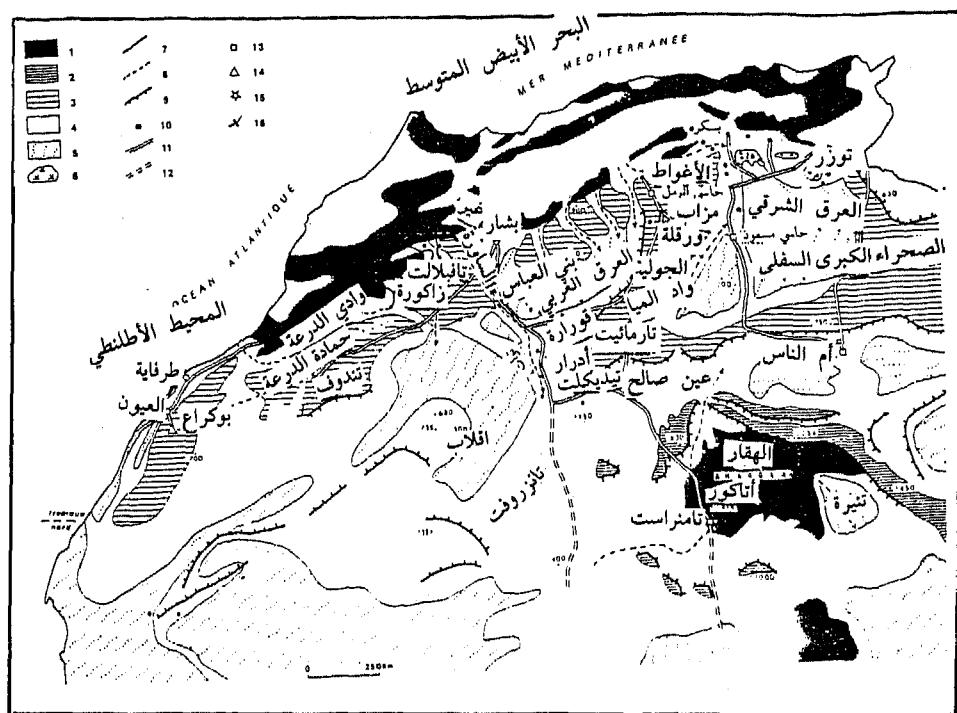
الصحراء الكبرى الشمالية

شكل (٧)

١ ـ جبال.
٢ ـ تضاريس مائدية مرتفعة. تاسيلي.
٣ ـ هضاب منخفضة.
٤ ـ سهول.
٥ ـ مناطق كثيبية.
٦ ـ شطوط.
٧ ـ أنهار.
٨ ـ وديان ذات جريان مؤقت.
٩ ـ تضاريس وحيدة الميل.
١٠ ـ واحات.
١١ ـ الطرق الرئيسة.
١٢ ـ دروب.
١٣ ـ مكامن نفط.
١٤ ـ فوسفات.
١٥ ـ مناجم حديد.
١٦ ـ سدود.

لوحة اقتصادية عن الجزائر في ١٩٨٧

عدد السكان ٢٣,٥ مليون. المساحة ٢٣٨١٧٤١ كم٢، الكثافة ٩,٩ نسمة/كم٢. الدخل الوطني الخام للفرد ٢٤٠٠ دولار في ١٩٨٣

المادة	١٩٧٤	١٩٨٥	١٩٨٦
الشوفان	٥٠٠٠٠ طن	١٠٧	٨٠
القمح	١ مليون طن	١,٦	١,٤
الشعير	٠,٣٣ مليون طن	١,٣	١,١
الحمضيات	٥١٧٠٠٠ طن	٢٩٥٠٠٠	٣٣٥٠٠٠
زيت الزيتون	٨٠٠٠	١٦٠٠٠	١٥٠٠٠
الخمر	٦,٢ مليون هكتولتر	١,٨	١,٨
الأبقار	١,٢ مليون	١,٧	-
الأغنام	٨,٣ مليون	١٨	-
صيد الأسماك	٣٥٨٠٠ طن	٦٦٠٠٠	٧٠٢٠٠
مجمل انتاج الكهرباء	٣٢٤٩ مليون ك وس	٩١٠٨مليون ك وس	-
منها كهرمائية	٤٨٤	٢٩٠	-
البترول	٤٨,٦ م ط	٤٤,٣	٤٦
الغاز الطبيعي	٥,٩ مليون م٢	٣٦,٥	٣٦
خام الحديد	٢ مليون طن	١,٨	١,٨
الفولاذ	١٨١٠٠٠ط	٧٠٠٠٠٠ ط	-
خام الرصاص	٣١٠٠ ط	٣٨٠٠ ط	٣٥٠٠ ط
خام الزنك	١٠٢٠٠ ط	١٣٥٠٠ ط	١٤٠٠٠ ط
الفوسفات	٨٠٢٠٠٠ ط	١,٢ مليون طن	١,٢ مليون طن
الأسطول	٢٤٠٠٠٠ طنة	١٣٤٧٠٠٠ طنة	٨٨٢٠٠٠ طنة
الاستيراد بالدينار	١٦٨٢١ مليار	٥١٢٥٧ مليار	-
التصدير بالدينار	١٧٨٠٣	٥٩١٠٧	-

وقد ارتفع النمو الصناعي وسطياً بحدود ١١٪ بفضل الموارد التي يقدمها النفط والغاز، ولكن تبدل سعرهما يمثل خطراً جائماً، ففي عام ١٩٨٥ انخفضت واردات الدولة إلى النصف بحيث اقتضى الأمر الإسراع بتقليص نفقات الميزانية بمقدار ٢٠٪، وتقديم إضافة للميزانية. بيد أن مبيعات البترول

الخام التي كانت تمثل ٧٥٪ من الصادرات في عام ١٩٧٨ قد انكمشت إلى ٢٦٪، هذا في حين زادت مبيعات مشتقات النفط والغاز السائل وأصبحت تمثل ٤٨٪ من المبيعات. وإجمالاً كان الميزان التجاري عاجزاً لأول مرة منذ ١٩٧٨. وانخفضت نسبة تغطية الاستيراد من ١٠٣ في ١٩٨٣ إلى ٧٧,٥ وكان حدها الأقصى ١٤٨ في عام ١٩٨٠. وفي ١٩٨٦ قدمت مبيعات النفط والغاز ٥ مليارات دولار مقابل ١٠,٤ مليارات لميزانية الدولة وفي عام ١٩٧٨ كان النفط والغاز يقدم ٩٠٪ من مداخيل البلاد. وقد ارتفع الدين الاجمالي في نهاية ١٩٨٥ إلى ١٥ مليار دولار أي تقارب ديون المغرب.

وفيما عدا النفط والغاز تمثل الصناعة الثقيلة ٧,٦٪ من قيمة الناتج القومي الخام والتي توفر فرص العمل لمقدار ١٤٥٠٠٠ عامل وتبلغ قيمة إنتاجها ٢٥ مليار دينار جزائري. وتعد خامات الحديد الثروة الطبيعية الرئيسة بعد النفط. ويؤلف مكمن الحديد في موقع قارة الجبيلات على مسافة ١٣٠ كم من تندوف أكثر المكامن أهمية في المستقبل، إذ تبلغ احتياطياته ٣ مليارات طن من فلزات يرتفع محتواها من الحديد ٦٠ إلى ٦٥٪ وهي إحدى أهم مكامن العالم. وتصدر خامات الرصاص بكاملها في حين تستهلك خامات التوتياء محلياً وكذلك شأن النحاس. كما تصدر الجزائر نصف فوسفاتها. والاستثمارات المنتظرة معدّة لتجديد الآليات ولكن التجهيزات الية كافية وتهتم الدولة بتنويع فروع الصناعة الخفيفة. وتستهدف الدولة بناء مركّبين لتجميع السيارات: فقد تم توقيع اتفاق مع شركة فيات وينتظر توقيع اتفاق آخر مع شركة فرنسية. أما الصادرات فتذهب بنسبة ٩٣٪ نحو الأقطار الغربية (٧٣,٦٪ نحو السوق الأوروبية المشتركة و١٦,٤٪ نحو أمريكا الشمالية). ولا تتلقى البلدان الاشتراكية سوى ٤٪ ودول العالم الثالث ٢٪. أما بالنسبة للواردات فإنها تأتي بنسبة ٨٧٪ من الغرب (٦٣,٩٪ من السوق

الأوروبية المشتركة و٣,٩٪ من أمريكا الشمالية و٣,٤٪ من اليابان) و ٤,٥٪ من البلدان الاشتراكية و ٨,٥٪ من أقطار العالم الثالث. ويفكر المسؤولون بتنمية المبادلات مع الأقطار الاشتراكية والعالم الثالث خلال الأعوام القادمة. وتظل فرنسا أكبر شريك تجاري في الوقت الحاضر أوربع النشاط التجاري الكلي. وقد بلغت قيمة المنتجات الغذائية المستوردة ملياري دولار في ١٩٨٦.

ويتجلى التوجيه الحالي في التنمية الاهتمام في التوازن الاقليمي، ولا سيما على الصعيد (الاقتصادي والاجتماعي). ففيما عدا (أقطاب الصناعة) في آرزيو وعنابة وسكيكدة تمت إقامة بضع مئات من الوحدات الصناعية في مجمل البلاد، وقد استدعى استغلال الجنوب جهداً عظيماً. وكان على الزراعة أن تلعب دوراً متزايداً عن طريق توسيع المساحات المزروعة بنسبة ٢٥ إلى ٣٠٪ وذلك عن طريق التوسع في الزراعات المرواة والمزروعات تحت البيوت البلاستيكية (الدفيئات) والتي ستتضاعف عدداً في عام ١٩٨٩، وزيادة المردود بالهكتار، وتكوين أفضل للمزارعين، وزيادة الميكنة (جرار واحد لكل ٩١ هكتاراً)، وزيادة الأسعار المدفوعة للمشتريات الرسمية (التبغ + ٢٠٪ والخضار + ١٠٪) واتباع سياسة إقراض أكثر يسراً، وتحسين التسويق. وتفكر الدولة بتنمية الأراضي الصحراوية بفضل مياه الغشاء الألبياني وإكثار مزروعات الخضار والثمار، والزراعات بالبيوت البلاستيكية في النطاق الساحلي. . وقد أمكن تحقيق زيادة في حجم الإنتاج الزراعي بين ١٩٨٤ و١٩٨٦ بنسبة ٥٠٪ بفضل جودة الأوضاع المناخية وتحسين التقنيات. كما تشهد تربية الأغنام أيضاً تحسيناً ملحوظاً.

وعلى أثر زيارة العقيد القذافي لمدينة الجزائر في ٢٨ حزيران ١٩٨٧ ينتظر إعلان اتحاد فيديرالي بين الجزائر وليبيا وتونس بهدف تحقيق وحدة المغرب الكبير.

وبتاريخ ١٩٨٦/١٢/٣ نشرت مجلة (إفريقيا الفتاة) مقالة تشرح فيها مشكلة ندرة المواد الغذائية بصورة مزمنة كالبيض والسميد والبطاطا والمنظّفات والمصابيح الكهربائية وقطع تبديل السيارات والأجهزة الكهربائية المنزلية.

وكان سكان البلاد ٢٣,٥ مليون نسمة، ثلثاهم دون ٢٥ سنة، وكانت البطالة تصيب ١٨٪ من القوة العاملة وذلك في عام ١٩٨٧ في أوج ازدهار البلد حين كان دخل النفط يعادل ١٢ مليار دولار. وكان شراء سيارة يتطلب عمل مهندس مدة ٤ سنوات كاملة.

وفي عام ١٩٨٦ أصبحت صادرات النفط والغاز تعادل ٩٧٪ من قيمة صادرات الجزائر التي كان استيراد المواد الغذائية يمتص نصفها في ١٩٨٥.

الجمهورية التونسية

يبدو القطر التونسي بالنسبة للقادم من الجزائر[1] أكثر انفتاحاً وأكثر انخفاضاً[2]. وتكون بلاد الخمير في الشمال - والتي تؤلف استمراراً للأطلس التلي الجزائري - ذات مظاهر قاسية، وضعيفة الاستيطان، وتكون الصخور الرملية (الحث) مغطاة بغابات الخفّاف، وساحلها مستقيماً، غير مضياف، وكان بؤرة مرزغية رهيبة، ولا سيما في بلاد المغد. وتكون بقية البلاد التونسية جيدة التهوية، ميسورة المواصلات، وتنفتح على سهول فسيحة واسعة تشرف على البحر الأبيض المتوسط الشرقي. ويكون البحر هنا على خلاف بقية المغرب[3] مصدر مدنية عالية، والاتصال به ميسور.

---

(١) تبلغ مساحة البلاد التونسية ١٦٤٠٠٠ كيلومتر مربع يسكنها ٧,٦ ملايين في ١٩٨٧ مقابل ٤,٥ ملايين في ١٩٦٦. وتبدو الحدود الغربية متقلصة عما كانت عليه في العصر الروماني. ويعود تخطيط الحدود الحالية لعهد البايات التركي، أما بالنسبة للمشاهد الجغرافية فلهذه الحدود مغزاها ذلك أنه إلى الغرب منها تتلاشى الخصائص التونسية.

(٢) تبلغ أعلى قمة في الجمهورية التونسية ارتفاعاً قدره ١٥٥٤ م في جبل الشعامبي. ولكن التضريس ينخفض في اتجاه الشرق والشمال الشرقي، فترتفع بلاد الخمير إلى ١٢٠٢ م وارتفاع جبل زغوان ١٢٩٥ م.

(٣) على الصعيد البنيوي نلاحظ في محور مجرى نهر المجردة تقارب الأطلس التلي الجزائري (الخمير) من الأطلس الصحراوي. وتتشكل عند التماس بنية ذات طيات وحيدة الميل، لا تكون مرئية عند السطح في أغلب الأحيان.

هيمنة مدينة تونس:

ينتهي محور نهر المجردة ومشاهد التلال والأحواض التي تواكبه وهي الكاف، وجندبة، وسوق الخميس، باجة، طبرسق، مجاز الباب، أقول تنتهي جميعاً تجاه سهول بحرية تحوي مراسي أمينة وهي: بنزرت وهو الميناء الطبيعي الوحيد الممتاز في كل المغرب العربي، وميناء أوتيكا القديم شمال مصب المجردة، وخليج تونس، حيث توجد بحيرة ساحلية يمكن الدخول إليها من البحر بواسطة ممر مائي (بوغاز) ويدعى الآن حلق الواد، كان يوفر للسفن في العصور القديمة ميناءً ممتازاً. وهنا كانت تنتهي المسالك التي تقود لسواحل خليج سيرت التونسي، وإلى منخفضات زغوان أو منخفض قرنبالية والحمامات. وهكذا كانت تونس تشرف على الممر الواصل بين حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي وحوض البحر المتوسط الشرقي، وتتمتع بالقرب من صقلية ومن مالطة. وكان ملاحو بحر إيجة وجزيرة كريت وجزيرة قبرص يقصدون تونس منذ غابر الأزمان، ويدين تأسيس قرطاج في القرن التاسع قبل الميلاد لهم ببعض الفضل، وجاء الفينيقيون وهم خلفاؤهم المباشرون، ليمنحوا القيمة لقلعة بيرسا Byrsa المتواضعة التي كانت تهيمن على بحيرة تونس. وعملت روما على ترميم قرطاج وجهزتها بحنايا لجرّ ماء الشرب إليها، ومنحت السهول المجاورة تخطيطاً هندسياً لازال ماثلاً. وتحولت قرطاج إلى مدينة إسلامية كبرى على إثر الفتح العربي بقيادة عقبة بن نافع وحسان الغساني، ولكنها هجرت لشدة تعرضها للغارات البحرية. وقد انتقل مركز السلطة إلى تونس، وحيث لا تزال أعمدة قرطاج القديمة تحمل العديد من القناطر. وظلت الأوضاع الجغرافية هي ذاتها، ذلك أن تونس تقع أيضاً عند التقاء محاور أرضية، على مقربة من مضيق صقلية، وتتمتع بميناء مناسب، ولكنها كانت بمنجى من المباغتات البحرية. أما الموقع فهو عبارة عن قلعة ضئيلة القيمة تحميه بحيرة ساحلية من الشرق وسبخة ملحة أو منخفض

السيجومي المغلق. وقد كانت مدينة عربية كبيرة ترحب بالأجانب، وتتخذ بذلك طابعاً مشرقياً شبيهاً بموانىء الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. وقد عملت كل الأسر الحاكمة والحماية الفرنسية والجمهورية التونسية على تقوية الطابع المسيطر، والمسيطر للغاية، لمدينة تونس. وقد امتدت أحياء جديدة على حساب البحيرة الساحلية والتي راحت تتمدد في اتجاه آريانة في الشمال، والباردو في الغرب، وسيدي فتح الله في الجنوب. وتم حفر قناة في البحيرة الساحلية تسمح للسفن ذات الغاطس الذي يبلغ سبعة أمتار أن تصل إلى الميناء، أما الميناء الأمامي، أي حلق الواد، فيتمتع بتسهيلات أكبر بكثير.

وتضم مدينة تونس الكبرى، مع ضواحيها، ١,٣ مليون نسمة، أو خمس سكان البلاد وتضم ضاحية المرسى وسيدي بوسعيد، وحلق الواد، رادس، وحمام الأنف. ولما كانت تونس هي المدينة الوحيدة الكبيرة في الجمهورية التونسية، فهي تحتكر الفعاليات الحضرية في هذا القطر. فهي مدينة الحكومة والإدارة وبالتالي تكون مدينة مفترسة مادامت الدولة تدير التجارة الخارجية والداخلية، والزراعة المدولنة والصناعات المؤممة. وتمارس مدينة تونس احتكاراً ثقافياً، ففضلاً للجامعة الإسلامية القديمة، أي جامعة الزيتونة، أصبحت تضم جامعة عصرية حديثة هي الجامعة التونسية، والصحف والمجلات الوحيدة والإذاعة ومحطة بث التلفاز. وتستحوذ تونس توزيع البضائع المستوردة. وتونس هي البُؤرة الصناعية الوحيدة، إذ تحوي مصانع مختلفة في ضاحيتها الجنوبية مثلما تحوي المطار الدولي، أي مطار العوينة، كما تمثل تونس البؤرة الكبرى الجاذبة للمهاجرين الريفيين الذين يتكدسون في أحياء القصدير[١].

---

(١) وهنا تطرح مشكلة تغذية مدينة كبرى بالمياه في قطر قاحل. فقد كانت قرطاج القديمة وتونس الحديثة تستمدان ماءهما من ينابيع زغوان. وقد اقتضى الأمر استكمال حاجتها=

الميزة المناخية لبلاد تونس الشمالية (افريقية):

يكون كل من التل الأعلى (شكل ١) والضهرة التونسية، الواقعين إلى
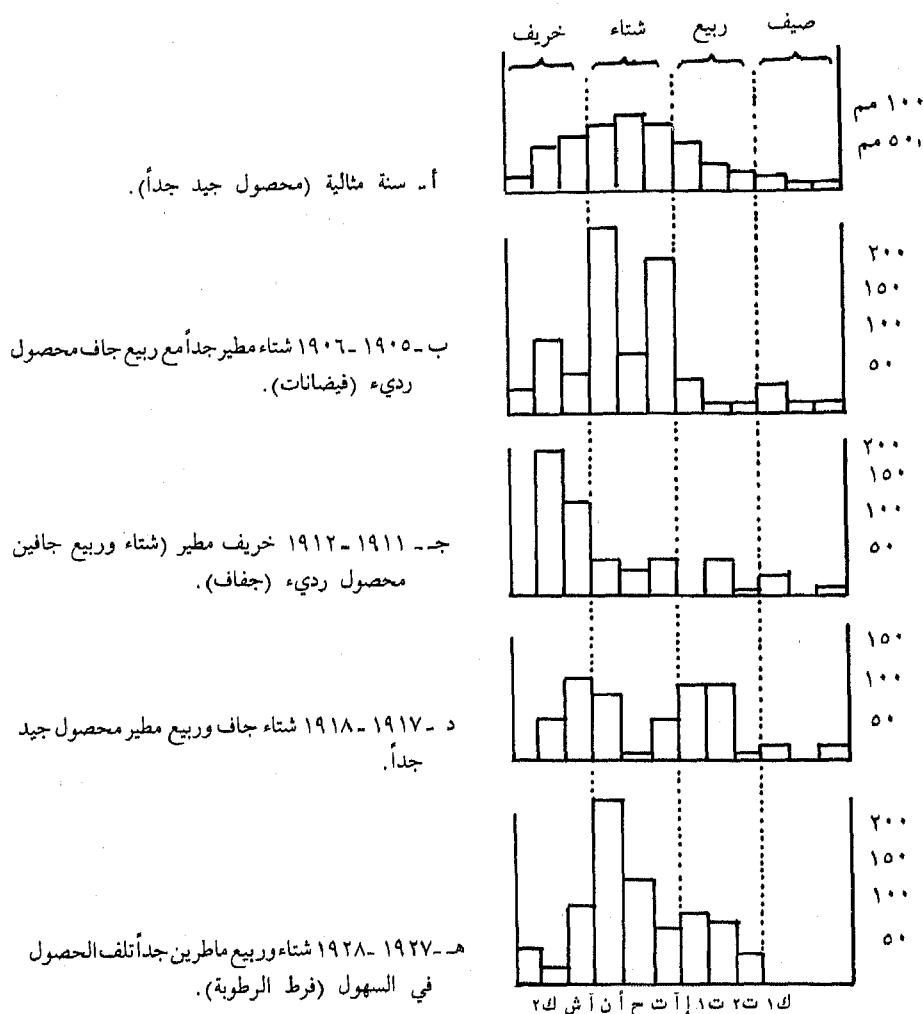
شكل (١)

المواسم الزراعية حسب توزع الأمطار السنوي في منطقة التل آي في الشمال التونسي.

من الماء من خزانات متعددة يقع أبعدها، وهو خزان وادي الليل، في منطقة الخمير في الشمال.

الجنوب من محور نهر المجردة ذا تضاريس ملحوظة رغم اختلاف في البنية[١]. ولكن هذه المنطقة تظل سهلة الاجتياز، وإن كانت قد استطاعت أن تعطي انطباعاً عن عائق، ولم يكن من مصلحة أي إنسان في أن يقتحمها في الماضي، فقد كان من الأكثر سهولة والأكثر جاذبية الالتفاف من حولها مروراً بمدينة تونس. وتبدو شبه جزيرة الوطن القبلي، أو الرأس الطيب، في معزل عن طرق المواصلات الكبرى. وللتل الأعلى وللضهرة التونسية أهمية مناخية من الطراز الأول. فكل المنطقة التونسية الواقعة إلى الشمال من الضهرة تنال أمطاراً على قدر من الوفرة تحقق محاصيل طيبة ومضمونة نسبياً (شكل ٢).

وتحوي تونس الشمالية، في سهولها الساحلية وفي أحواض محور نهر المجردة وأودية التل الأعلى أكثر السكان كثافة، وأكثر المحاصيل الزراعية وفرة. ولم تكن الزراعة هنا في حالة طيبة في نهاية القرن التاسع عشر، إذ كانت هناك سهول عالية القيمة والخصوبة ناقصة الاستغلال لاعتبارات إدارية وحقوقية[٢]، وكانت هناك بقاع من زراعة حثيثة تشهد رغم ذلك على إمكانات كبرى، ذلك أن ضواحي غار الملح، ولا سيما قرية رفراف، تنتج أجود عنب مسكي في العالم، كما أن قرى الرأس الطيب ولا سيما قرية القليبية تشتهر بفلفلها الذي يغطي بقلائده الحمراء القانية الجدران بدءاً من الخريف بزرابي حمراء حقيقية[٣].

---

(١) يتصف التل الأعلى بوجود طيات متراصة مع العديد من الطيات الثاقبة الترياسية Diapirs. وتتألف الضهرة من طيات عريضة استطاع الحت أن يحولها إلى موائد صخرية كلسية من أصل سنكلينالي (قلعة) ومن كريتات Grêts (كف)، وأشكال مدورة رخوة في الغضاريات الجبسية الترياسية. وفي الشمال الشرقي يظهر الجوراسي في قلب المحدبات المفرغة، وبذلك منحت تضاريس عنيفة في جبل زغوان، والرساس، وجبل بوقرنين.

(٢) لقد كانت أملاك الوقف أو «الحبوس» تؤلف عقبة كأداء في وجه الاستغلال العقلاني.

(٣) ينظر علماء التغذية إلى أن شدة استهلاك البهارات الحرّيفة والفلفل =
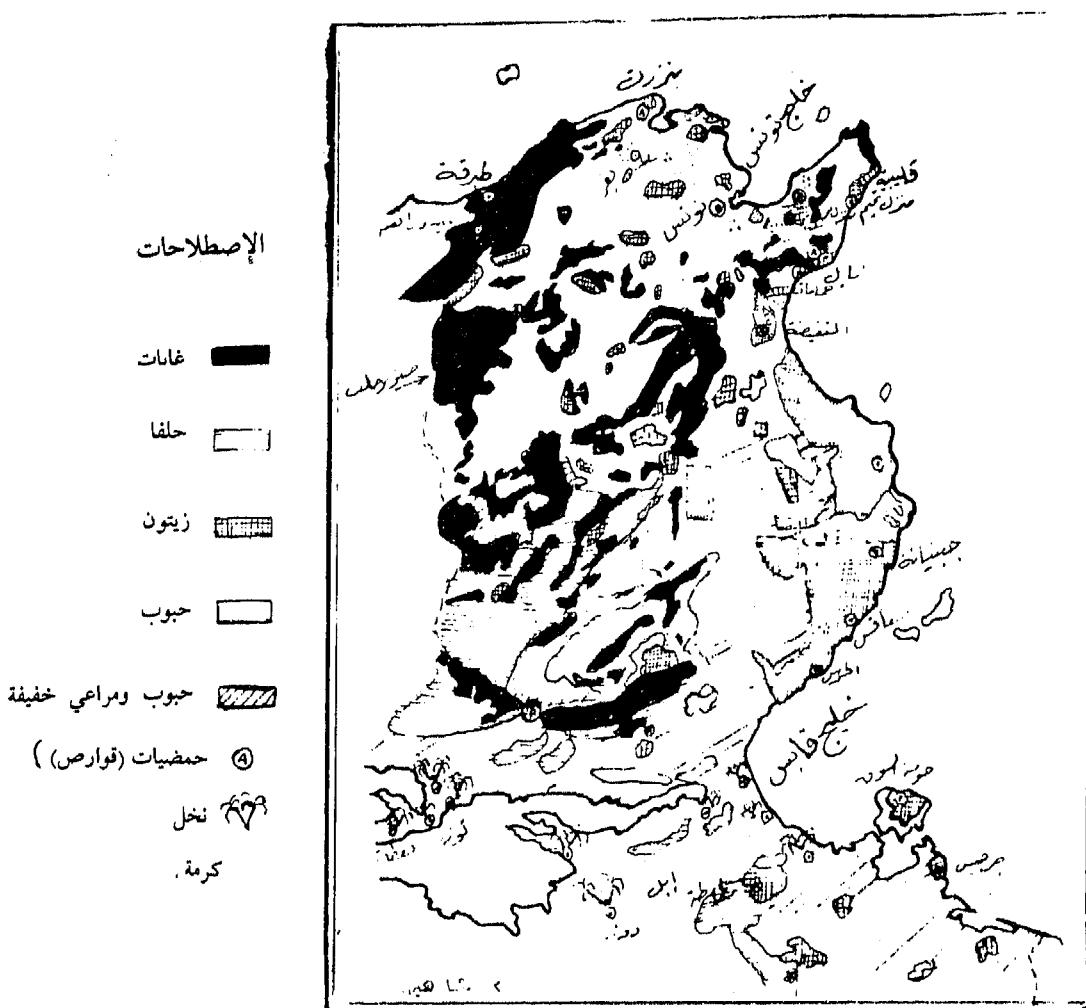
شكل (٣)
الإنتاج الزراعي في تونس

= الاحمر (فليفلة) علامة على سوء التغذية، لأن هذه الأطعمة تسبب حرقة في جدار المرى والمعدة، مما يدفع إلى شرب مقادير كبيرة من الماء وخداع المعدة، وكذلك الحال بالنسبة للفول المّدمس الذي يتأخر هضمه مدة طويلة مما يشاغل المعدة ويؤخر الشعور بالجوع، وقد ثبت أن السمك من أكثر الأغذية قيمة ولا سيما من أجل شحذ الذكاء، لذا يكون الفرد الياباني أكثر أمثاله بالعالم استهلاكاً للأسماك في العام أو ٦٥ كغم مقابل ٢ كغم للفرد العربي.

الأشهر	ك ٢	ش	آ	ن	أ	ح	ت	آ	إ	ت ١	ت ٢	ك ١	المتوسط الحراري والمجموع السنوي
مدينة تونس (درجة العرض ٣٦ درجة و ٥١ دقيقة على حافة البحر)													
الحرارة	١١	١١,٧	١٣,٣٠	١٥,٨	١٩	٢٣,٥	٢٥,٨	٢٦,٤	٢٤,٥	٢٠,٤	١٦,١	١٢,٢	١٧,٣
الأمطار مم	٦٧	٤٩	٣٨	٣١	١٩	٦	١	٩	٣٣	٤٢	٤٨	٧٢	٤١٥
عين دراهم (درجة العرض ٣٦ درجة و ٤٦ دقيقة. وعلى ارتفاع ٧٣٩ م)													
الحرارة	٦,٦	٧,١	٩,٧	١٢,٥	١٦	٢٠,٢	٢٣,٩	٢٤,٩	٢٢	١٧,١	١١,٩	٧,٩	١٥
الأمطار	٢٥٠	١٩٦	١٥٩	١٢٤	٨٠	٢٥	٦	٩	٦٦	١٤٠	٢٠٩	٢٧٥	١٥٣٩
القيروان (درجة العرض ٣٢ درجة و ٤٠ دقيقة وعلى ارتفاع ٦٨ م).													
الحرارة	١٠,٤	١١,٨	١٣,٦	١٧	٢٠,٦	٢٥,٢	٢٨,٤	٢٨,٦	٢٥,٨	٢١,٢	١٥,٩	١١,٤	١٩,١
الأمطار	٢٧	٢٦	٣٥	٢٦	٢٤	١٢	٥	٨	٣٧	٣١	٣٠	٢٥	٢٨٨
طاوين (درجة العرض ٣٢ درجة و ٥٥ دقيقة وارتفاعها ١٩٦ م)													
الحرارة	١٠,٥	١٢,٢	١٥,٣	١٩	٢٢,٣	٢٦,٦	٣٩,٣	٢٩,١	٢٧	٢٢,٤	١٦,٧	١٢	٢٠,٢
الأمطار	٢٢	١٣	٢٦	١٠	٧	١	...	٢	٨	١٠	١٦	١٣	١٢٨
جربة (جزيرة، درجة العرض ٣٣ درجة و٥٣ دقيقة)													
الحرارة	١٢,١	١٥,٤	١٥,٨	١٨,٥	٢١	٢٤,١	٢٦,٥	٢٧,٦	٢٨,٢	٢٣,١	١٨,٢	١٣,٨	٢٠
الأمطار	٢٨	١٩	٢٢	١١	٨	١	...	١	١٣	٣٤	٤٣	٢٧	٢٠٧

وقد اجتذبت سهول تونس الشمالية الإعمار الاستيطاني الفرنسي على شكل مستغلّات فسيحة، وحصلوا على مردود كبير في القمح فضلاً عن أصناف من الخمور المرغوبة، هذا كما اتجه إعمار إيطالي أصغر أبعاداً نحو زراعة الكرمة في منطقة قرنبالية. ويجسّد وادي المجردة الأدنى مزايا تونس الشمالية من مناخ مطير ومساحات واسعة لحقية، ونهر، وإمكان الاستغلال الكامل المثالي، وذلك بفضل سد أقيم على نهر الملّاق رافد المجردة، بحيث أصبح المجردة يوفر حداً أدنى لا يقل عن ١٤ م^{٣}/ثانية مما ساعد على ري مساحة قدرها ٥٠٠٠٠ هكتار (شكل ٣ و٤).
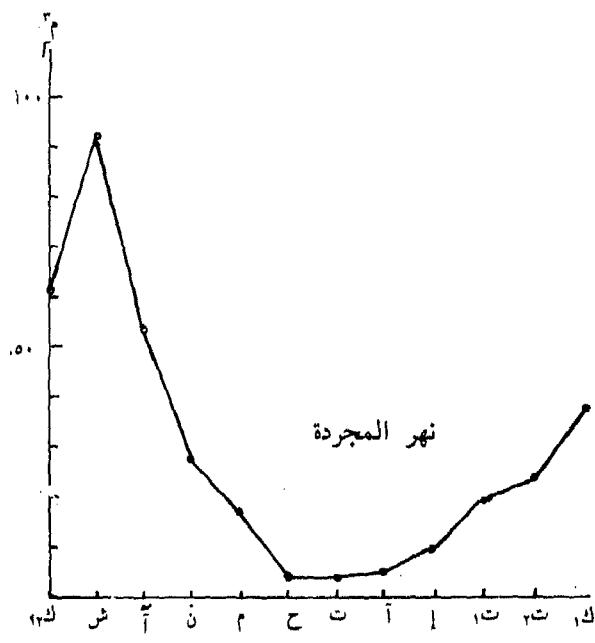
شكل (٢)
نظام نهر المجردة

الصبيب الشهري لنهر المجردة بالأمتار المكعبة في الثانية

ك٢	ش	آ	ن	أ	ح	ت	آ	إ	ت١	ت٢	ك١
٦٠	٩٥	٥٠	٢٥	١٦	٥	٥	٦	١٠	٢٠	٢٥	٣٦
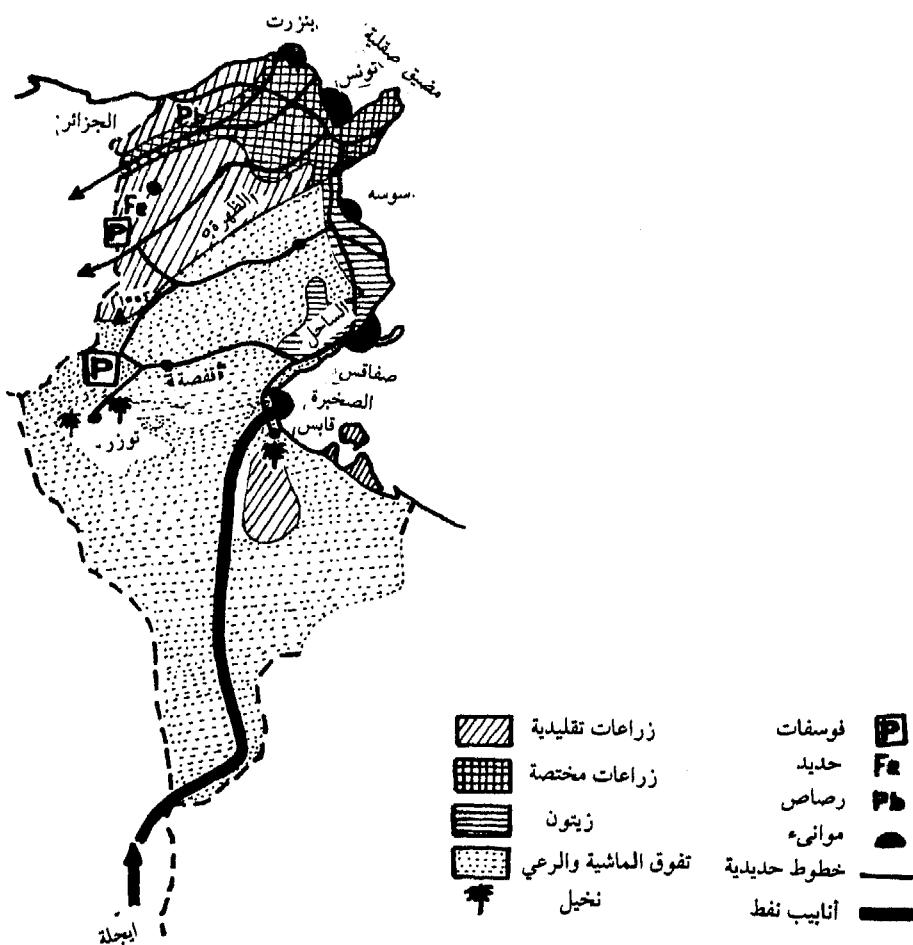
شكل (٤)

منطقة الساحل:

إلى الجنوب من الظهرة تظهر مشكلات جغرافية فتانة في الساحل وظهيره، إذ نجد في مساحة قدرها ٢٠٠٠٠ كم² عدداً من السكان يقارب

٢٠٠٠ ٠٠٠ نسمة[١]. وتحاذي منطقة الساحل البحر بدءاً من شمال سوسة إلى جنوب المهدية. ويكون السكان هنا على درجة عالية من الكثافة[٢] متكدسين في قرى متراصة[٣]. ولا تتألف الأرياف من سهل بل من تلال منخفضة مستورة بغابات بديعة من أشجار الزيتون[٤] القديمة، وتختلط مع الزياتين حقول صغيرة من الحبوب ومن الفول. وتبدو الشروط الطبيعية فقيرة الإمكانات والأمطار قصيرة الأمد فعلاً[٥] أما الترب فهزيلة وغالباً ما تكون مغشاة بالقشرة الصحراوية الكلسية (شكل ٥)، هذا كما يكون قسم من السطح مشغولاً بسبخات ملحة ولا يكون الماء العذب وفيراً. وتكون كثافة السكان

---

(١) لا تدخل منطقة «السهب الأعلى» بين الظهرة وقفصة في عداد هذا التعريف. فهذه المنطقة عبارة عن هضبة من رسوبات قارية بليوسينية ورباعية تثقبها محدبات تعود للكريتاسي والتي تكون مبتورة بحادورات Glacis حتّية مصفحة بالقشرات الصحراوية. وبمقدور السهب الأعلى الذي يجري استغلاله أن يسير على الوتيرة نفسها لتطور السهب الأدنى الذي نتكلم عنه.

(٢) يضم الساحل بكل معنى الكلمة، ساحل سوسة والمهدية ومساحته ٥٠٠٠ كم^{2} ويحوي ٦٥٠ ٠٠٠ نسمة باستثناء مدينة سوسة. وهناك بعض المناطق فيه كثيرة السكان مثل: المنستير، قصر الهلاّل. طبلبة، قصيبة المديوني، لمثه، وهنا تتجاوز الكثافة ٦٥٠ نسمة/كم^{2}. أما سوسة فهي مدينة صغيرة تحوي ٦٥٠٠٠ نسمة.

(٣) لا تستطيع الحاجة للماء تفسير هذا التمركز في السكن، ولكن يجب تفسيرها بالأمن على الأصح، بالاضافة لتقاليد سكان البحر الأبيض المتوسط. فقرية مساكن تحوي ٤٠ ٠٠٠ نسمة ومكنين ٢٥٠٠٠ وتحوي كل من قلعة كبيرة وقصر الهلاّل وقصور الساف وجمّال أكثر من ١٥٠٠٠ نسمة.

(٤) وعلى وجه الدقة تكون أشجار الزيتون منتشرة على السفوح التي تحولت إلى مصاطب، وفي القيعان مما يجعلها تستفيد من سيلان المياه المنحدرة من أعالي التلال التي تلعب دور حوض تجميع للمياه. وتكون المصاطب محاطة بسدود صغيرة لاحتباس المياه القادمة من العالية Amont.

(٥) ونأخذ مثالاً على ذلك النفيضة الذي تنال متوسطاً سنوياً مقداره ٣٨١ مم، والحد الأقصى ٧٧٦ مم، والحد الأدنى ١٦٨ مم. وفي صفاقس تكون الأرقام المماثلة على الشكل التالي ٢١١، ٣٧٠، ٦٩ مم وفي القيروان ٢٨٦، ٥٤٥، ٥٥ مم.
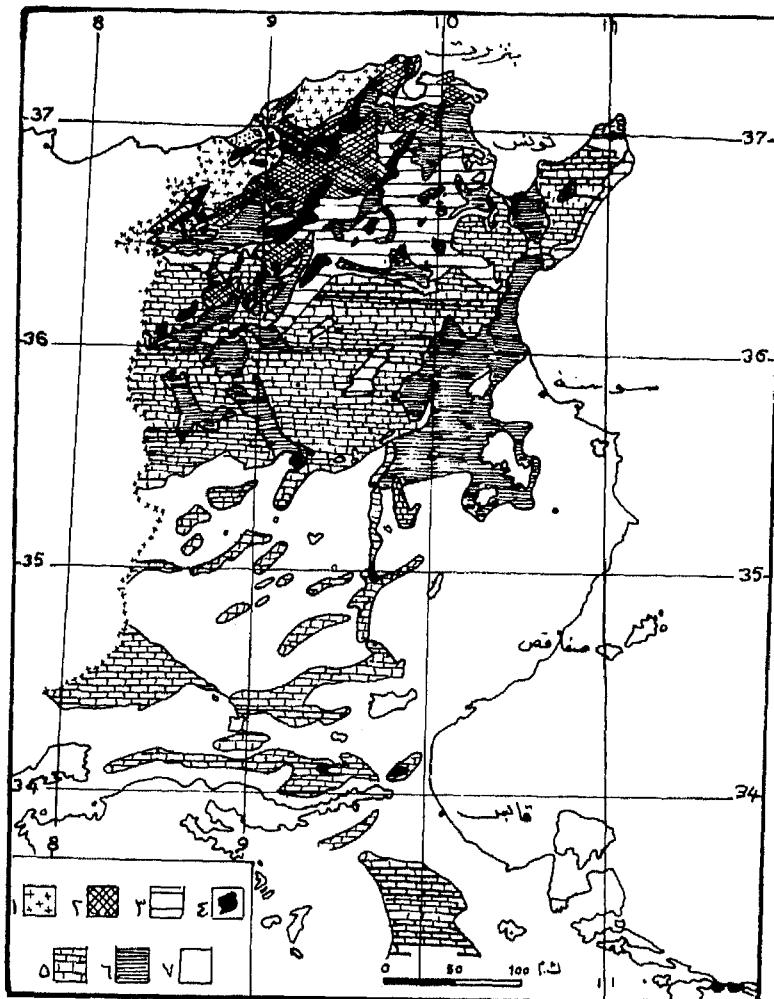
شكل (٥)
خارطة الترب في تونس

١ ـ ترب من نوع بودزول.
٢ ـ ترب من نوع راندزينا.
٣ ـ ترب ذات قشرة.
٤ ـ ترب الترياس (تكون غضارية وجبسية).
٥ ـ مناطق جبلية (ترب متنوعة واجمالاً هيكلية).
٦ ـ لحقيات.
٧ ـ ترب سهوب ذات عناصر ريحية جزئياً وتشير النقاط بالشمال الغربي إلى كثمان.

عالية والاستغلال حثيثاً لأن سكان الساحل عبارة عن فلاحين يقظين، ورثوا تقاليد زراعة الأشجار المثمرة المتقنة منذ أكثر من ٢٠ قرناً. ولا يخلو البحر من مصادر الرزق، فهنا تكثر موانىء التجارة والصيد مثل سوسه التي كانت تدعى Hadrumète والمنستير والمهدية. ويقوم فلاحو الساحل بزراعات محدودة من الحبوب في الداخل[١] وينقلون المحاصيل إلى منازلهم[٢].

أما صفاقس فهي مدينة ومنطقة. فالمدينة متلاحمة مع البساتين التي تطيف بها[٣]. وكثير من سكان البلدة هم أيضاً من ملاّكين ومن مستغلين شركاء ريفيين. فالمدينة تضم ١٢٥٠٠٠ نسمة أو ٢٥٠٠٠٠ مع ضواحيها المؤلفة من بساتين. وهذه البساتين المتميزة بجمال أخاذ تثير الدهشة بسبب جفافها، إذ نجد بين الدروب الشديدة الغبار حقولاً صغيرة محدودة بجدران من طين متوجة بالأشواك، وتضم أشجار نخيل وزيتون، ومشمش، ورمان، وتين، وفستق، وكرمة وحتى درّاق وخوخ وآجاص وتفاح، مثلما تحوي في الشتاء مساكب من حمّص وبطاطا وجزر وبصل وفول وفليفلة والصعتر البري. وتكون هذه المحاصيل ناجحة رغم أن الأمطار الوسطى السنوية لا تتجاوز ٢١٠ مم وذلك لأن التربة رملية كثيراً ما تحرث بالمحراث الخفيف أو بالفأس، ممّا يعرقل التبخر وتتثبت الرطوبة الجوية في فراغات هذه التربة الخفيفة. وتصدر

---

(١) وحيث يتراوح المردود بين ٣٠٠ إلى ٥٠٠ كغم بالهكتار فوق الأراضي البعلية ولكنها خفيفة ويعد مردوداً كافياً ونادراً ما يتم الحصول على ١٠٠٠ كغم بالهكتار في حين يصل المردود في هولندا والدانمارك إلى ٦٠٠٠ كغم/هكتار.

(٢) وتكون الصناعة غير نامية وتتمثل بغزل ونسج الصوف والأقمشة القطنية في قصر الهلال، وقفف معاصر الزيتون المضفورة من قش الحلفا في هرقلة.

(٣) ولا يعود هذا التوسع في البساتين إلى عهد بعيد، ففي القرن الخامس عشر كانت صفاقس محصورة ضمن أسوارها التي كانت تهيمن على سهب يتجول فيه البداة وكانت صفاقس تعيش من الصيد والنسيج.

صفاقس الفوسفات والسوبر فوسفات المصنوعة محلياً[٤].

---

(٤) يكون الساحل التونسي بين المهدية وحتى طرابلس الغرب منخفضاً ورملياً. أما البحر الذي يمتاز بقلة عمقه فقد نتج عن طغيان فلاندري فوق سطح قاري شديد الانبساط. وسيكون الساحل غير موائم لرسو السفن لولا أن تيارات المد والجزر ـ لأن المد يبلغ مداه المترين في قابس ـ قد حفرت قنوات. وتتكاثر فوق السطوح المغمورة الضحلة حياة بحرية كثيفة. ويختص قسم من السكان هنا بصيد الإسفنج والأخطبوط. وتسمح القيعان الضحلة بإقامة سدود من سعف النخيل التي تقود الأسماك نحو الشباك المنصوبة ولذا يتكاثر صيادو الأسماك في جزر كركنة وصفاقس وجربة وجرجيس وبن قردان. وتؤلف قابس التي تحوي ينابيع فوكلوزية تقدم ١,٥ م^{3} بالثانية أكبر واحة تونسية، وفيها مليون نخلة تقدم تموراً من نوعية رديئة، لفرط رطوبة الهواء، ولكنها توفر الظل للأشجار المثمرة كالموز والبرتقال وحقول الحنّة والتبغ. أما مزارع الزيتون التي قامت منذ ٧٠ سنة في شبه جزيرة جرجيس فلا تكفي لإنقاذ سكان مفرطي الكثافة من البؤس. وتتصف جزر كركنة بكثافة شديدة تقارب ٢٠٠ نسمة/كم^{2} فوق مساحة ١٨٠ كم^{2}، ضمن شروط طبيعية عسيرة نظراً لملوحة مياه الآبار ووجود مياه ارتوازية ملحـة، وتؤلف المواجن أي البرك الاصطناعية مصدراً حقيقياً للمياه العذبة. ومع ذلك يمارس السكان الزراعة ولا سيما الزيتون والتين والشمام والبطيخ الأحمر والكوسا. وتقدم النخيل أوراقها لصنع السدود أو المدرجات البحرية والشباك. وبعد أن أفرغ الإسبان هذه الجزر من سكانها في القرن السادس عشر تجدد استيطانها من جديد فيما بعد من عناصر متنوعة من سكان الساحل المقابل وطرابلسيين ومغاربة ومنفيين، وذلك خلال وقت قصير مع عناصر متباينة مما سمح بتشكل نمط بشري متميز. ويتصف سكان جزر كركنة بفقرهم، غير أن القارة لا تحوي الكثير من مجالات العمل.
أما جزيرة جربة فهي قطعة من بلاد الساحل في شروط هامشية أكثر أيضاً. فتصعد فيها الكثافة إلى ١٥٠ نسمة في كم^{2}، مع أمطار تبلغ ٢٢٠ مم، ويكون ماء الأبار ملحاً، ولذا يعتمد على صهاريج الماء العذب المجموع من مياه الأمطار، وتؤلف قرية حومة السوق العاصمة.
ولقد لعبت الجغرافيا البشرية دورها باعتبـار جزيرة جربة ملجأ، فلا زالت اللغة البربرية دارجة وكذلك المذهب الأباضي كما في واحات المزاب الجزائرية. ويستمد الجرباويون رزقهم من النسيج ومن بيع المصنوعات الخزفية ومن الصيد ولا سيما من التجارة التي يمارسونها في كل البلاد التونسية. وقد شيدت قنطرة من حنايا، مؤخراً، لجر المياه العذبة مما ساعد على تكاثر الفنادق للسواح الأوروبيين.

ظهير الساحل:

لقد كان السهب المنخفض أو الأدنى[1] في نهاية القرن التاسع عشر بلاد البدو الصغار ولا سيما عشيرة المثاليث وجلاص والسواسي، ويربون الأغنام والماعز ويقومون بزراعة القليل من الحبوب. وتتألف هذه المنطقة من مساحات واسعة هادئة التضريس، ومن منخفضات ملحة مثل سبخة سيدي الهاني حيث تصب الوديان في بعض السنوات المطيرة. وتتألف صخور المنطقة من طبقات ثلاثية مارنية ورملية مستقرة فوق ركيزة صلدة تفرض اتجاهاً شمالياً جنوبياً، معاكساً للاتجاهات الأطلسية كما في جبل وصلات[2]. ويكون المناخ شبه قاحل. بيد أن البراهين تشهد على استيطان روماني على شكل أطلال مساكن ومعاصر زيتون. وتظهر الصورة الجوية المأخوذة في طقس صافي الأديم على وجود نثير منتظم من المنخفضات أو الأقماع التي كان كل واحد منها مشغولاً بشجرة زيتون. وقد كان مدرج الجم الذي يماثل المدرج الروماني في روما يخدم سكاناً عديدين من حضر وفلاحين. ترى هل تعرض المناخ للتجفف؟ الواقع لا شيء يقسرنا على افتراض ذلك، فالمبادرات الناجحة التي تمت في مطلع هذا القرن قد أعادت زراعة الزيتون لسابق عهدها وعثرت على التقنيات القديمة. غير أن انبساط التضريس يحول دون تسليط مياه السيلان وتوجيهها نحو كل شجرة، ولهذا يجب تأمين مساحة كبيرة لكل شجرة أو ١٧ شجرة زيتوناً لكل هكتار، بحيث تبعد الواحدة عن الأخرى بمسافة ٢٤ م لكي يتحقق مجال حيوي للجذور. ويجب تعزيق الأرض لاستبعاد النباتات التي تستهلك الرطوبة. وتثبت الأرض المحروثة رطوبة

---

(١) يضم ظهير الساحل أو السهب الأدنى ٠٠٠ ٥٠٠ نسمة فوق مساحة ١٥٠٠٠ كم^2.

(٢) لقد تعرض الغطاء الرسوبي الثلاثي للتجعيد في بعض الأمكنة فوق الركيزة على شكل محدب، مثل جيب الغاز في موقع بير علي بن خليفة.

الهواء. وتخضع أشجار الزيتون للتقليم المنتظم لتحاشي فرط الأوراق والتبخر.

ولقد تغيرت المشاهد تحت مناخ هامشي يسمح بزراعة الزيتون في أحسن الظروف ولكن هذه الشجرة متلائمة مع هذه البيئة على الضبط لأنها أفضل شجرة لأردأ أرض. وقد تعرضت هذه الزياتين لأسباب انعدام الأمن فهجرت وتلفت فلم يمكن إعادة تكوينها واستصلاحها فإن البداوة الصغرى تفرض نفسها، ففي العصر القرطاجي كان داخل تونس الوسطى تابعاً للبداة الصغار. غير أن الأمان الروماني ساعد على الاستقرار، فأوجد تحديد الأراضي (الكادسترو) وتوسعت الزياتين فوق الأراضي الخفيفة وقامت السدود والمواجن لشرب الناس والحيوان. أما الفتح العربي وتأسيس القيروان ـ على يد عقبة بن نافع ـ فقد حقق مدة لا بأس بها لازدهار زراعة الزيتون، وشهد المستقرون الحضر أوقات طيبة[1]، غير أن الفوضى التي سادت في عهد الزيريين ساعدت على التعدّي على المزروعات والتخريبات المعهودة لدى البدو. وقد كان المشهد الجغرافي متقهقراً عندما وفد بنو هلال في القرن الحادي عشر وكان لديهم ما يكفي من الوقت لتخريب وتدمير ما تبقّى من الزياتين. ولما كان البداة لم يمتلكوا الأرض مع سلطتهم عليها فقد أصبح

---

(١) وتمثل القيروان تأثير التاريخ والمدنية في نشوء مدينة. فالعرب الفاتحون أقاموا مدينة بجوار المراعي التي كانت عزيزة عليهم في منأى عن السواحل المعرضة لهجمات البيزنطيين وقد كانت القيروان منذ نشوئها عربية وإسلامية. وقد كان لهذه المدينة ما يبرر ازدهارها مادامت عاصمة، ولكنها خسرت أهميتها عندما أصبحت تونس أو المهدية عاصمة. وابتداءً من ذلك الوقت اقتصرت على دور مدينة تعيش على ماضيها الديني المجيد تقطنها بورجوازية كانت تعيش على تأجير أراضيها الفقيرة. وظلت القيروان تعاني من مشكلة تموينها بالمياه: فكثرت فيها المواجن وحوض بناه الأغالبة كان يمتلىء من اشتقاق واد وبفضل حنيّة Aqueduc ويبلغ عدد سكانها ٦٠٠٠٠ نسمة.

إعادة التفكير بإعادة زراعة الزيتون مستحيلاً[1] إلى أن استقرت سلطة قوية تتصرف بقوة شرطة لا تقهر، وهذا ما حدث فقط في نهاية القرن التاسع عشر. وهكذا أذعن البدو أمام انبعاث الزيتون، وعرف أكثرهم بصيرة كيف يستفيدون من ذلك. وكان ذلك عبارة عن تقدم اقتصادي لأن خمسة هكتارات من المراعي لا تكفي لتغذية أكثر من نعجة واحدة، في حين يستطيع الهكتار المذكور احتواء ٨٥ شجرة زيتون تعطي في السنة العادية ١٧٠٠ كيلوغرام من الزيت.

تونس الجنوبية

تكـون أواخر جبال الأطلس الصحراوي، في منطقة قفصة، مستغلة في واحات قيعان الوادي فقط، لأن قفصة لا تنال سوى ١٥٠ مم من المطر بالعام، وتكون الجبال المذكورة مسبوقة بحادورات مغشاة بالقشرات الناجمة عن الغبار الجبسي الذي نقلته الريح من شط الجريد والذي تصلّب بالرطوبة. وتخلق مناجم الفوسفات وحدها بعض النشاط كما في مناجم المتلوّي. ويتألف آخر جبل في اتجاه الجنوب من جبل طباقه، الذي هو عبارة عن مهبط محدب اختفى قسمه الشمالي، ويقوم فوق موقعه شط الفجاج الذي يشكل استمراراً لشط الجريد، وكلاهما متجففان وتلمع فوقهما بلورات الملح. هذا ويتاخم

(١) لقد كان البدو مسؤولين على نطاق واسع عن تحويل مشهد جبل وصلات بصورة عميقة. فهذا المحدب الواقع على درجة عرض القيروان عند تماس السهب الشرقي مع جبال الضهرة، والمؤلف من صخر كلسي إيوسيني، ينال ٤٠٠ مم وسطاً، غير أن نفاذية الأرض جعلت الاستغلال الزراعي مستحيلاً. غير أن بضعة آلاف من الفلاحين شيدوا مصاطب وسدوداً ومواجن وقرى. وفضلاً عن زياتينهم وأشجار التين فوق المصاطب، فقد كانوا يملكون حقول حبوب عند حافة السهل. وقد اشتبكوا بمعارك مع بدو السهل المجاورة لأن الجبليين أخطأوا بأن انحازوا للفئة المهزومة في النزاع على عرش البايات في تونس. وهكذا قدمت القوات الحكومية المتحالفة مع البدو فانتصروا على سكان جبل وصلات وبعثروهم وهكذا أقفر الجبل المذكور من أهله.

جبل طباقة جبال مطماطة، وهذه عبارة عن ضلع (كويستا) من الكلس التوروني تشرف على سهل جفارة الساحلي، ويهبط هذا الضلع ببطء نحو الغرب (الضهر). وتكون الزراعة هنا جريئة مع مصاطب وسدود تقوم على زراعة الزيتون والتين المعتمدة على مياه الأحواض السفحية (الأحواض الساكبة). وتكون المساكن عبارة عن كهوف. والأهلون لاجئون لأن قسماً منهم لايزال يتكلم البربرية والذين يكملون موارد رزقهم من الهجرة، فيختص رجال قبيلة غمراسن ببيع الفطائر في مدينة تونس في حين ينصرف رجال عشيرة قرمصّة إلى بيع الخضار.

ومن حسن حظ الجنوب التونسي، في قسمه الغربي، أنه يمتلك موارد طيبة من المياه، فميل الطبقات الرسوبية يحبس أغشية مائية توجد ينابيع أرتوازية في واحات نفزاوة (قبيلي) والجريد (توزر، الوديان، الحامّة، نفطه). وبفضل المناخ الجاف تنتج هذه الواحات (الرياض) تمور دقلة النور، وهو تمر من الدرجة الأولى ويمكن الاحتفاظ به لمدة طويلة. وعلى الرغم من جمال نبات هذه الواحات فهي ليست جنات عدن. فهناك ملاكون صغار، وهم بالوقت نفسه شديدو الفقر، يقعون في نزاعات مع الخّماسين، الذين يحتفظون لأنفسهم بخمس المحصول، ولكنهم أكثر فقراً أيضاً. أما العمال المأجورون العضليون فهم يتمتعون بفقر مدقع. وقد يخطر ببالنا أن الأصح أن يستغل الملاكون نخيلهم بأنفسهم، غير أنهم ورثوا أملاكهم عن أجدادهم البدو الذين استولوا على الواحات، ولما كانوا منحدرين من بدو فهم يزدرون العمل اليدوي.

وتستطيع التعاونيات أن تسمح بتحسين التقنيات القليلة العائدية وبالتخلص من الاستغلال غير المباشر ومن التشارك في الملكية.

المشكلات الاقتصادية

لقد ازدادت المساحة المزروعة من ٦٠٠٠٠٠ هكتار في ١٨٨١ ـ أي عند فرض الحماية الفرنسية على البلاد ـ إلى ٣ ملايين هكتار في ١٩٦٤، وارتفع عدد أشجار الزيتون ٨ ملايين إلى ٢٧ مليون. ولما كان نصف السكان ريفيين، فمن الضروري التوسع في الرقعة المزروعة، ترى هل هذا ممكن رغم عدم كفاية الأمطار وعدم انتظامها ويؤلف الري في تونس مفتاح التقدم الزراعي؟ ولكن إذا حصل استغلال أفضل للمطر الذي يهطل شتاءً، فمن غير المفيد تخزين مياه السنوات المطيرة لتوزيعه خلال السنوات العجاف. ومهما كان عليه الأمر فإنه من اللازم تحويل منطقة الخمير إلى مطرية Impluvium فسيحة لا تسمح بضياع قطرة واحدة من المياه باتجاه البحر، ولترسل فائضها المائي نحو المناطق الساحلية الشرقية (شكل ٦). ولقد سبق أن رأينا عمليات تهيئة وادي المجردة. هذا ولا تؤلف شجرة الزيتون الترياق الشافي، ذلك أن زراعة الزيتون الحاذقة تحت مناخ جاف تكون ذات عائدية ضعيفة بالهكتار، أو ٣٥٠ كغم زيت في العام لا تعوض الجهد الإنساني المبذول. وللحصول على أجر أفضل لساعة العمل يجب أن يباع زيت الزيتون بسعر أعلى، وهذا ما يبدو صعباً أمام منافسة الزيوت الرخيصة. ولإنشاء زياتين من النمط الصفاقسي وصيانتها شعباً فإن ريفياً ذا مستوى معاشي منخفض هو وحده القادر على ذلك. ففي عام طيب للغاية مثل ١٩٥٨/٥٩ أمكن عصر ١٢٥٠٠٠ طن من زيت الزيتون، وتمّ تصدير ٧٢٠٠٠ طن وتخزين ٢٠٠٠٠ طن للعام القادم الذين كان محصوله يبدو رديئاً، أي يتراوح بين ٤٠٠٠٠ و٥٠٠٠٠ طن لا غير. وتعمل الحكومة التونسية على تصدير زيتها الممتاز، واستيراد زيوت نباتية أخرى رخيصة كزيت عباد الشمس أو فول الصويا الذي يأتيها كمساعدة من الحكومة الأمريكية لكي تحصل على العملة الصعبة. وبعد أن كانت الحبوب في السنوات الخصيبة لاستهلاك السكان أخذت البلاد تعتمد أكثر
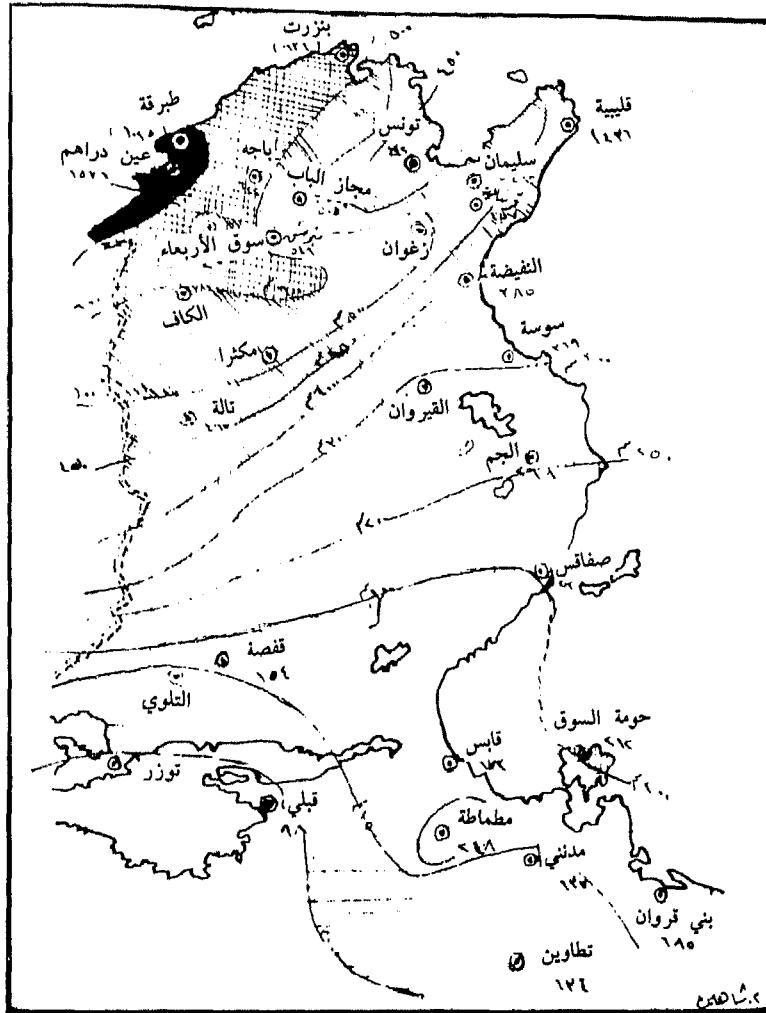
شكل ـ ٦ ـ

النطاقات المطرية (المتوسط المطري بين ١٩٠١ ـ ١٩٤٠)

فأكثر على الخارج، فبين ١٩٥٧ و ١٩٦٥ تلقت تونس من الولايات المتحدة قمحاً قيمته ٢١٨ مليون دولار. وفي عام ١٩٨٦ كان إنتاج تونس من الحبوب يغطي نصف استهلاكها.

أما كروم العنب، وهي من أصل أوروبي، فتنتج خموراً ممتازة ولكنها تطرح مشكلة اقتصادية عسيرة لأن السكان لا يستهلكون الخمر لأنهم - في معظمهم - سكارى من سوء التغذية ونقصها، ولهذا يجب تصدير المحصول برمته.

وفي ١٩٦٤ مثلاً كان هناك ٣ ملايين هكتار مزروع كان منها ٦٠٠ ٠٠٠ هـ تعود لمزارع الدولة التي تسمى وحدات الانتاج. غير أن هذه الزراعة الرسمية تتطلب توظيفات مالية جسيمة. وليس من المؤكد أن النتائج الحاصلة من زراعة الشوندر السكري والرز والقطن كانت تستحق مثل هذه التوظيفات. أما التعاونيات الإجبارية فقد أوجدت هياجاً بين فلاحي الساحل مما استدعى تلطيف السلطوية الزراعية. وتستطيع تونس أن تحتل مكانها على السوق الأوروبية للباكوريات والحمضيات، لولا أن البرتغال وإسبانيا قد سبقتها، كما أنها تفتقر للدارات التجارية.

وهناك ثروات معدنية: كخامات الحديد (١٦٥٠٠٠ طن) بعد أن كان مليون طن في ١٩٦٦ والفوسفات (٥,٨ ملايين طن) والرصاص والزنك. وتتعرض الصادرات المعدنية للركود، ولكن هناك ثروة جديدة تتفوق على الأخرى، وهي البترول، الذي يبلغ إنتاجه في تونس ٥ ملايين طن، ويصرّف بترول حقل البورمةالواقع في الزاوية الجنوبية من الحدود في العرق الشرقي، بالأنبوب القادم من حقل عين أم الناس في الجزائر وينتهي في ميناء الصخيرة، وهناك حقل دولب الثانوي. وتنتج البلاد الغاز الطبيعي من الوطن القبلي (الرأس الطيب) ومن منطقة الساحل. ويلعب الغاز الطبيعي والنفط دور قوائم

التصنيع في القطر التونسي. وهناك معامل متنوعة تعمل في ضواحي العاصمة تونس، وهناك مصنع لنترات الأمونياك في قابس، ويستخدم مصنع منزل بورقيبة حديد منطقة المغد في المركب الحديدي الصغير. وتصدر بنزرت منتجات مصنع الإسمنت فيها، ولكنها لا تستفيد كثيراً من مزايا موقعها الممتاز، ولم تكن إقامة مصنع لغزل الصوف في موقع حاجب العيون النائي مع أن هناك مصانع تعمل على معالجة الصوف التونسي.

هذا وتقل قيمة الصادرات عن الواردات بشكل مزمن وأحياناً لا تزيد على قيمة نصف الوارد. ومن جملة عوائق التوسع الاقتصادي الافتقار إلى الرساميل الضرورية. ترى ألا يكون من المفيد تسهيل الاستثمارات الخاصة وتحقيق الطمأنينة لها بدلاً من استدعاء رؤوس الأموال الأجنبية واللجوء للقروض؟ ولتونس ماض سحيق في علاقاتها الخارجية وتجد في الظروف الحالية أفضل أسواقها في أوروبا وتملك إدارة حكومية ناجعة[1]. غير أن موقع تونس على خط طول فرانكفورت يضعها في وضع ممتاز لبيع شمسها للسواح القادمين من أوروبا الوسطى في الطائرة. وتعرف السلطات التونسية ذلك وتعمل على إكثار تجهيزها الفندقي رغم مخاطر هذا الاحتكاك بين التوانسة الفقراء والأوروبيين الأغنياء فضلاً عن المشكلات الأخلاقية واعتياد شرب الخمور.

---

(١) تتخذ الحكومة موقفاً سليماً تجاه النمو الديموغرافي الذين كان ٢,١٪ في ١٩٦٠ و ٢,٥٪ في ١٩٨٦ وتشجعٌ الدول تحديد النسل ولا تعد الهجرةالخارجية ـ إذ يوجد ٢٥٠٠٠٠ تونسي في أوروبا، ثلاثة أرباعهم في فرنسا ـ حلاً ناجعاً لمشكلة تزايد السكان.

لوحة اقتصادية عن الاقتصاد التونسي

في ١٩٨٧ كان عدد سكان البلاد ٧,٦ ملايين نسمة فوق مساحة ١٦٣٦١٠ كم^{٢} وكثافة ٤٦,٥ نسمة/كم^{٢} وكان دخل الفرد السنوي المتوسط ١١٩٠ دولاراً مقابل ١٧٠٠٠ في اليابان.

المادة	١٩٨٤	١٩٨٥	١٩٨٦
القمح	٧٥٥٠٠٠ ط	١,٣٨ م. ط	٤٧٣٠٠٠ ط
الشعير	١٧١٠٠٠ ط	٦٨٦٠٠٠ ط	١٣٢٠٠٠ ط
زيت الزيتون	١٢٧٠٠٠ ط	١١٣٠٠٠ ط	١٦٠٠٠٠ ط
التمور	٤٤٠٠٠ ط	٦٢٠٠٠ ط	٦٩٠٠٠ ط
الحمضيات	١١٩٠٠٠ ط	١٦٨٠٠٠ ط	٢١٧٠٠٠ ط
الأبقار	٨٣٠٠٠٠	٦٢٠ ٠٠٠	-
الأغنام	٣,٣ ملايين	٥,٢ مليون	-
صيد الأسماك	٤٢٧٠٠ ط	٨٨٩٠٠ ط	٩٠ ٠٠٠ ط
الكهرباء	١٢٧٥مليون ك و س	٣٥٧١مليون ك و س	٣٧٥٠مليون ك و س
بترول	٤,١ م ط	٥,٤ م ط	٥,٢ م ط
غاز طبيعي	٢٠١٠٠٠ م^{٣}	٤٣٠٠٠٠ م^{٣}	٤٢٠٠٠٠ م^{٣}
خام الحديد	٤٢٢٠٠٠ ط	١٦٥٠٠٠ ط	١٦٥٠٠٠ ط
خام الرصاص	١٢٥٠٠ ط	٢٥٠٠ ط	١٩٠٠ ط
معدن الرصاص	٢٧٥٠٠ ط	٢٠٠٠ ط	٢٢٠٠ ط
خام الزنك	٦٩٠٠ ط	٥٦٠٠ ط	٤٥٠٠ ط
الفوسفات	٣,٨ م ط	٤,٥ م ط	٥,٨ م.ط
سوبر فوسفات ٤٥٪	٤٩٠٠٠٠ ط	٨٠٤٠٠٠ ط	٩٥٦٠٠٠ ط
تركيب سيارات سياحية	...	٥٢٢٢	٢٦٥١
تركيب سيارات نفعية	...	٩٤٢٠	٤٦٤٨
ورق الحلفا	...	١٤٤٤٤ ط	...
تلفزيونات	...	١٣٠٨١٣	...
عدد السواح (ليالي)	...	١٢,٦٢١مليون ليلة	١٢,٥٤٩مليون ليلة
الإسمنت	٥٤٠٠٠٠ ط	٣ م ط	٢,٩ م ط
استيراد بالدينار	٤٨٨ م. د	٢٢٨٧ م د	٢٢٩٤ م ط
تصدير بالدينار	٣٩٧ م. د	١٤٤٣ م د	١٤٠٤ م. د

وبعد مضي فترة تنمية مرضية وجدت تونس نفسها في وضع جرح. فعلاقاتها شديدة الاضطراب مع جارتها ليبيا بعد فشل الوحدة التي لم تعمّر

أكثر من يوم واحد في ١٩٧٤، وتلاشي الجمهورية العربية الإسلامية وهي في المهد، ووضعها بين الجزائر وليبيا اللتين تحاولان التقارب في الوقت الحاضر، ووجود مقر الجامعة العربية فوق أرضها، وهياج «الأصوليين» في الجنوب والذين يستندون إلى استياء الطلاب في الجامعات، وإلى المصاعب الغذائية لدى شطر لا بأس به من السكان بعد (ثورة الخبز)، وبسبب تقدم السن لدى الرئيس الحبيب بورقيبة الذي قسر على الانزواء في عام ١٩٨٧ كي يحل محله زين العابدين بن علي، أقول كل ذلك يؤلف وضعاً قليل المواءمة للتقدم. ولم تكن نتائج الخطة السادسة بين ١٩٨٢ ـ ١٩٨٦ غير ذات بال ولكن بدءاً من عام ١٩٨٦ تراكمت المصاعب مما أجبر الحكومة على إعداد خطة للإصلاح في آب ١٩٨٦ ترمي إلى تخفيض قيمة الدينار لتشجيع الصادرات، واللجوء إلى عدة عمليات اقتراض، وضغط نفقات الدولة، وتخفيض استهلاك الطاقة بنسبة ٢٠٪ وتحرير الأسعار تدريجياً لتشجيع التنافس والاستعانة المتزايدة بالقطاع الخاص وقد كان لهذه الاستراتيجية الصارمة نتائج كافية لمواجهة إطلاق المخطط السابع بين ١٩٨٧ ـ ١٩٩١ والرامية لتشجيع الاستخدام وتحقيق التوازن المالي بين الخارج والداخل، وهناك جهد ضخم سيبذل في قطاع التنمية الصناعية وليبرالية المبادلات وتوازن التجارة الخارجية. وفي بداية عام ١٩٨٧ كانت النتائج أفضل بالموازنة مع بداية ١٩٨٦، وقفزت نسبة تغطية الواردات ٥٨,٦٪ إلى ٦٩,١٪. وزادت الصادرات بنسبة ٣٦٪ في حين لم تتقدم الواردات بأكثر من ١٥,١. وأصبحت المنسوجات والجلود تؤلف أول قطاع في التصدير أو ثلث المجموع وفي ١٩٨٦ تمّ تصدير ٢,٥ مليون طن بترول أو ٢٢٪ من واردات العملة الصعبة. ولكن الإنتاج هبط بنسبة ٥٪ في العام منذ عام ١٩٨٥ لازدياد الاستهلاك، وتفكر السلطات الاقتصادية بتوقيف الصادرات في حال عدم تحقيق اكتشافات جديدة. وتستمر عمليات الحفر في الجنوب في

منطقة جرجيس. وصدر قانون بترولي تمت المصادقة عليه في آذار ١٩٨٧ يسمح بمنح تراخيص جديدة. وفي عام ١٩٨٦ تجاوزت عائدات السياحة البالغة ٣٩٢ مليون دينار عائدات النفط التي كانت أول مصدر للعملة الصعبة (٣٠٠ مليون دينار). ويجري تشجيع القطاع السياحي بحسبانه (محركاً) للاقتصـاد، فبلغ عدد السواح ٢,٥ مليون سائح في عام ١٩٨٦ مع تناقص بمقدار الربع بالموازنة مع عام ١٩٨٥، ولكنَّ هناك مشروعاً لتحسين البنية التحتية لأن عدد السرر حالياً بحدود ١٠٠٠٠٠ وتنمية السياحة الاصطفائية في جنوب البلاد بالاتجاه خصوصاً نحو اجتذاب السواح الإنكليز والألمان، وفي مطلع عام ١٩٨٨ حصل اتفاق بين الرئيس التونسي وزميله الليبي على عودة العمال التوانسة إلى ليبيا والاتفاق على اقتسام الرصيف الساحلي في خليج سيرت الغربي في سبيل التنقيب عن ثروات النفط والغاز الكامنة بجوار السواحل.

ويتناقص سكان الريف المشبع من حيث الرقم النسبي والمطلق كما يشير إلى ذلك الجدول التالي:

السنة	النسبة	العدد
١٩٥٦	٦٧,٧٪	٨٧٨٠٠٠
١٩٦٦	٤٠٪	٧٠٠٠٠٠
١٩٨٤	٢٦,٦٪	٤٧٥٠٠٠

القرن الافريقي
جمهورية جيبوتي

تتجاور فوق مساحتها البالغة ٢٢٠٠٠ كم٢ منخفضات تكتونية تهبط إلى ١٦٠ م تحت سطح البحر، وأكداس بازلتية تصعد إلى ١٧٥٠ م في جبل جوداة. وتكثر هنا حركات القشرة الأرضية كما في انهدام بحيرة عسل، ومصاطب مرجانية ناهضة، وزلازل. ويسود المناخ المميز للقرن الافريقي، حار وصحراوي، ولكنه ليس صحراوياً. فتتميز جيبوتي بحرها الشديد، ذلك لأن الحرارة الوسطى السنوية فيها تبلغ ٢٩,٦ درجة في حين أنها في درجة العرض ١١ تبلغ وسطياً ٢٦,٣ درجة. وتصل الحرارة الوسطى لأكثر الشهور حراً ٣٤,٩ درجة في تموز، بينما يكون متوسط أقل الشهور حرارة وهو كانون الثاني ٢٥,٥ درجة، أي تعادل حرارة جاكرتا الأندونسية. ويكون الحر خانقاً بسبب الرطوبة النسبية الوسطى التي تبلغ في أكثر الشهور حراً ٥٣٪ وفي أقلها حرارة ٨٠٪. ويفسر تواتر السحب انخفاض التشمس لمقدار ٢٢٣٦ ساعة بالعام. ويكون المتوسط السنوي للأمطار ١٣١ مم، ويتع أكثر الفصول جفافاً بين أيار وتشرين الأول. غير أن للمتوسط السنوي وللتوزع الشهري للأمطار قليلاً من المدلول، لأن الأمطار تتبدل بشدة بين عام وآخر، فبلغت ٢٨٢ مم في ١٩٣٧ و١٠ مم فقط في ١٩١٨، وفي ١٨ آذار ١٩٣٠ هطل في ٢٤ ساعة

مقدار ١٦٢ مم وشهدت البلاد أمطاراً كارثية في نيسان ١٩٨٩. ويعمل الارتفاع على تحسين مقادير التهطال فتزدهر غابة حقيقية فوق ارتفاع ١٤٠٠ م في جبل جوداة حيث تنتشر أشجار العرعر والبقص والتين البري.

ويستفحل الطابع الصحراوي في المنخفضات الداخلية بملوحة المياه. ويتخلى البازلت - الذي يشكل القسم الأعظم من مساحة البلاد - عن الملح للمياه التي تخترقه، فيجعلها قليلة الصلاحية للشرب، وتتكدس هذه الأملاح في السبخات وفوق شطوطها القلوية.

ويبلغ عدد سكان البلاد ٤٥٠٠٠٠ نسمة نصفهم في العاصمة جيبوتي والباقي بدو.

وينتشر في الشمال العفار وهم فرع من الدناقل، في حين نجد قبيلة عيسى في الجنوب وهم من الصوماليين. وإذا كانت هناك وشائج قربى من ناحية النموذج الطبيعي وبلغاتهم الكوشيتية وتقنياتهم فإن هذين الشعبين غير متفاهمين. وتدين جيبوتي بوجودها لمينائها، وهو أفضل من المواقع القديمة لمدينتي تاجورة وأوبوك، وأكثر قرباً من هرر وأديس إبابا الحبشيتين. وتعد جيبوتي ميناء الوقود السائل ومنفذاً للحبشة، وذلك بفضل الخط الحديدي الفرنسي الاثيوبي الذي سيتجهز بفرع باتجاه سيدامو. وكانت تطالب كل من الحبشة والصومال بهذه المنطقة إلى أن حصلت على الاستقلال الذاتي في ١٩٥٧ وأصبحت مستقلة تماماً في ١٩٧٧ برئاسة حسن جوليد.

ب ـ جمهورية الصومال

إن جمهورية الصومال التي تمتد على مساحة قدرها ٦٥٠٠٠٠ كم² ويسكنها ٧,٧ ملايين نسمة (شكل ١)،. هي القطر الوحيد في شمال شرق إفريقيا السوداء دون أقليات، وهي أمة متجانسة بما سمح باتحاد الصومال الايطالي والبريطاني دون مشكلات، وهناك محاولات انضمامية إذ يعيش نحو مليون صومالي في منطقة أوجادن الاثيوبية و٥٠٠٠٠٠ في كينيا و٥٠٠٠٠ في جيبوتي.
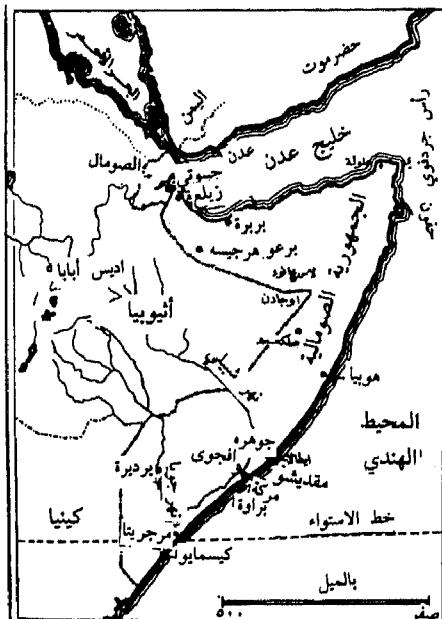
شكل (١)

وهناك جنوح صحراوي، فالأمطار لا تكون إطلاقاً متدنية كما في الصحراء الكبرى، ولكنها تتناقص من الجنوب نحو الشمال: فبينما تكون بحدود ٦٠٠ مم عند مصب نهر جوبا تهبط إلى ١٠٠ مم في رأس حفون، مثلما تقل من الجبال باتجاه البلاد المنبسطة، إذ تكون ٧٠٠ مم في المرتفعات إلى الشمال من هرجيسة تهبط إلى ٤٣٠ في هرجيسة وإلى ٧٥ مم في إقليم الحوض. ويفسر فقر الأمطار في هذا القطر شبه الاستوائي أولاً بسبب المسار القاري (لموسميات الصيف)، أي من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي. وتعمل رياح الجنوب على تحريض تيار بحري يعمل أثناء انحرافه نحو يمينه على الانفصال عن الساحل، ويساعد على صعود الأمواه العميقة مما يؤدي لقحولة الساحل الشرقي. وهناك فصلان ممطران هما الربيع والخريف وفصلان آخران يتصفان بجفافها. وتسمح الأمطار بنمو أشجار السنط المتباعدة (أكاسيا)، ولكن الأراضي الجبسية تكون وحدها دون أشجار، في حين تتناثر المآرض Termitières فوق الصخور الرملية والكلسية (شكل ٢).

وتنهض الهضبة الصومالية بهدوء باتجاه الشمال حتى ٢٠٠٠ م قرب اريغافو، وهنا تكون صخور الحث الكريتاسية وصخور كلس الإيوسين مقطوعة بجرف صدعي، بحيث تشهد الزلازل المتواترة على عدم استقرار خليج عدن، ذلك الصدع الذي ينتهي بعنفوان عند رأس غردافوي. وهذا الجرف ذو النظارة الشمالية يهيمن على المنطقة الساحلية الشمالية، والتي ليست عبارة عن سهل، بل عبارة عن تلال ناشئة فوق الركيزة التي تعود هنا للظهور من جديد، وتظهر موائد بازلتية عريضة تحجب الصخور القديمة في كثير من الأحيان. وتعمل كثبان السهل الشرقي على انكفاء نهر شبيلي على مسافة ٤٠٠ كم نحو نهر جوبا. وهكذا لا تقدم بلاد الصومال عوائق في وجه تنقلات الناس.

والصوماليون هم رعاة ولكن ليسوا من كبار البداة، فالمناخ لا يحث على

شكل (٢)
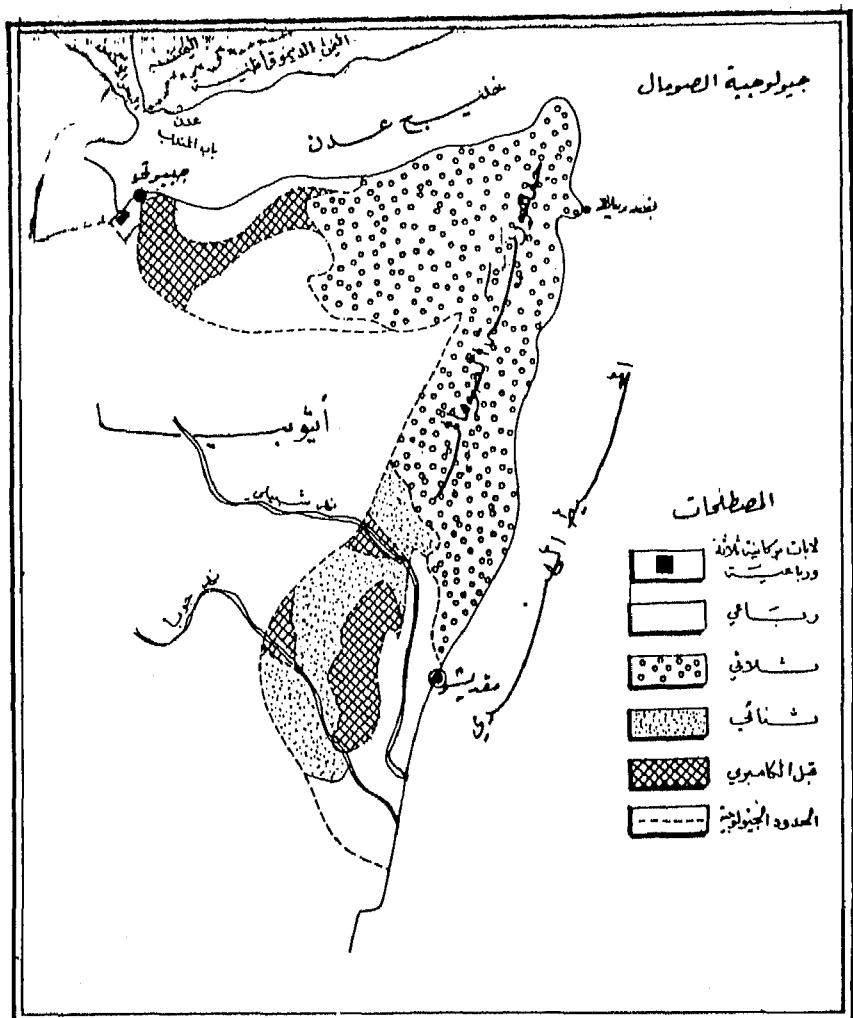
. ـعات تتجاوز ١٠٠ كم. ويقوم فصلا الأمطار بتحريك القطعان مرتين في خلال اثني عشر شهراً بين الآبار الدائمة حيث تكون الإقامة في الفصل الجاف وبين مراعي فصل الأمطار.

وفي منطقة الحوض أدى إغلاق الحدود الصومالية مع الحبشة إلى عرقلة البدو الصوماليين، والذين كانوا يتأرجحون في تنقلاتهم بين هذه الهضبة التي تتراوح ارتفاعاتها بين ٦٠٠ و١٠٠٠م ذات المراعي الطيبة خلال الفصل

المطير، ولكن دون موارد ماء في الفصل الجاف، وبين الآبار الدائمة في هرجيسة وعدوينة وبوراءو وعينابو ولاس آنود، غير أن الحوض يقع في إثيوبيا والآبار في الصومال.

وليست الصومال عبارة عن صحراء حقيقية، فهناك مناطق واسعة ذات طبيعة تماثل نطاق الساحل في جنوب الصحراء الكبرى، فترسل هضبة الجالاّ الحبشية نهرين هما شبيلي وجوبا. ولدى الصومال إمكانات زراعية. فالاهتمام الضئيل الذي يمنحه الصومالي إلى حقوله لا يجعله يستغل كل إمكانات المساحات القابلة للحراثة، غير أن محصول الذرة البيضاء يغطي حاجات استهلاك السكان. وتمتد المساحة الصالحة للزراعة دون ري منتظم على رقعة تتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين هكتار، أي أن الصوماليين لن يفتقروا للأرض في المنظور القريب. وقد نشأت مزارع حقيقية مرواة في أودية النهرين الكبيرين، مثل قصب السكر على نهر شبيلي في موقع دعاه الطليان فيلا آبروزي، كما انتشرت مزارع الموز في وادي جوبا والتي تحقق شطراً كبيراً من الصادرات. ولا يقدم ما سبق فكرة كافية عن الاقتصاد الصومالي، ذلك أن إنتاج بضع مئات من الهكتارات يحقق القسم الأعظم من النقد النادر. وبالنسبة لمزارع الموز هذه تكون الرساميل والتقنيات والتسيير والسوق ايطالية. ولولا الحماية الجمركية لما استطاع الموز الصومالي أن يستأثر بالسوق الإيطالية.

وتبلغ نسبة السكان الريفيين ٨٠ بالمئة. والمدن الهامة هي العاصمة مقديشو التي يبلغ عدد سكانها ٢٥٠٠٠٠ نسمة وكيسيمايو اللتان تدينان للطليان بمظهرهما الحديث. ولا تضم هرجيسة وهي عاصمة الصومال البريطاني السابقة أكثر من ٥٠٠٠٠ نسمة وتكثر في أحيائها الأكواخ والعشش، أما زيلع فهي شبه أطلال في حين كانت بربرة في سبات لولا انتعاشها بفضل إنشاء قاعدة بحرية سوفياتية في المياه العميقة تخلّى عنها هؤلاء بعد مدة من

الزمن، وليس هناك من حركة تجارية لبعث الحياة فيها.

وليس في البلاد ثروات معدنية ذات بال، باستثناء صادرات الملاحات الساحلية من الملح، وهناك نتاج القطف والزراعة أو تربية الماشية والبخور (صمغ شجرة Boswellia) والمر (Commiphora) وجوز نخيل الدوم (العاج النباتي)، وفحم الحطب، وجلود الفهد، والقليل من اللؤلؤ والموز، ويقدم القطيع المؤلف من ٢,٥ مليون جمل و١,٢ مليون رأس بقر و٣ ملايين من الأغنام و ٤,٥ ملايين رأس ماعز بعض الصادرات ولا سيما لدول مجلس التعاون الخليجي وعلى رأسها المملكة العربية السعودية، ويؤلف جلد الخروف ذي الرأس الأسود في منطقة بربرة مادة لصناعة القفازات الممتازة. ولا تزال شبكة الطرق غير كافية، والميناءان المناسبان للتجارة هما مقديشو وكيسيمايو.

ويتصف الشعب الصومالي بتجانسة باللغة والعادات المشتركة والورع الاسلامي، وشعور بالسمو تجاه زنوج البانتو، وازدراء العمل اليدوي، ذلك أن الحدادين والفاخوريين والحذّائين والحلاقين هم من الطبقة الدنيا ويقارب عددهم عشرين ألفاً لا غير. وقد كان للصوماليين تنظيم على شكل عشائر أبوية، تكملها رتبة المحاسيب. وكانت العشائر في نزاع للسيطرة على الدروب والمدن. وكانت حوادث الثأر لا تنتهي بين العشائر. وكان مفهوم الشرف والمصلحة يقضي بحماية قوافل المحاسيب، أما الزعيم المهمل فقد يتعرض للسخرية بقصيدة سرعان ما تنتشر فوق الدروب والمسالك، وهو شعر شفوي لأن اللغة الصومالية ظلت حتى عهد قريب غير مكتوبة وهي لغة كوشية. وقد أوجد حكام الصومال كتابة حديثة للغتهم بالحروف اللاتينية، وإن كانت الصومال عضواً بالجامعة العربية. غير أن التعلق بالعشيرة يجب أن يتخلى عن مكانه لنفسية المواطنية، وريثما يتحقق ذلك تنقسم العشائر إلى أحزاب عديدة سياسية تستغل السلطة لوضع أعضائها في وظائف عامة.

وتكثر المعونات الأجنبية الخارجية، فلا نجد أي قطر في إفريقيا السوداء ينال مثل هذا العون بالنسبة للمواطن الواحد ويأتي هذا العون من المملكة المتحدة، وإيطاليا، والاتحاد السوفياتي، ومصر، وألمانيا الغربية، وتشيكوسلوفاكيا، والولايات المتحدة. ولكن من أجل تحقيق اتصالات مثمرة يجب وجود تقنيين وخبراء يتكلمون اللغة الصومالية.

جمهورية السودان

مقومات وجودها:

تؤلف أراضي هذه الجمهورية رقعة فسيحة تماثل القطر الجزائري (شكل ١) بمساحته البالغة ٢,٥ مليون كم²، ويسكن ٢٣,٥ مليون نسمة

شكل - ١ -

(١٩٨٧)، وكثافة تقل عن ١٠ نسمة/كم٢. وتحوي هذه البلاد كل المراحل الانتقالية بين الصحراء الكبرى وخط الاستواء (شكل ٢). وهناك محوران للحياة: أولهما شمالي جنوبي نيلي، وثانيهما من الشرق للغرب ذو طابع ساحلي كالموجود جنوب الصحراء الكبرى. غير أن الأول على قدر من الوزن
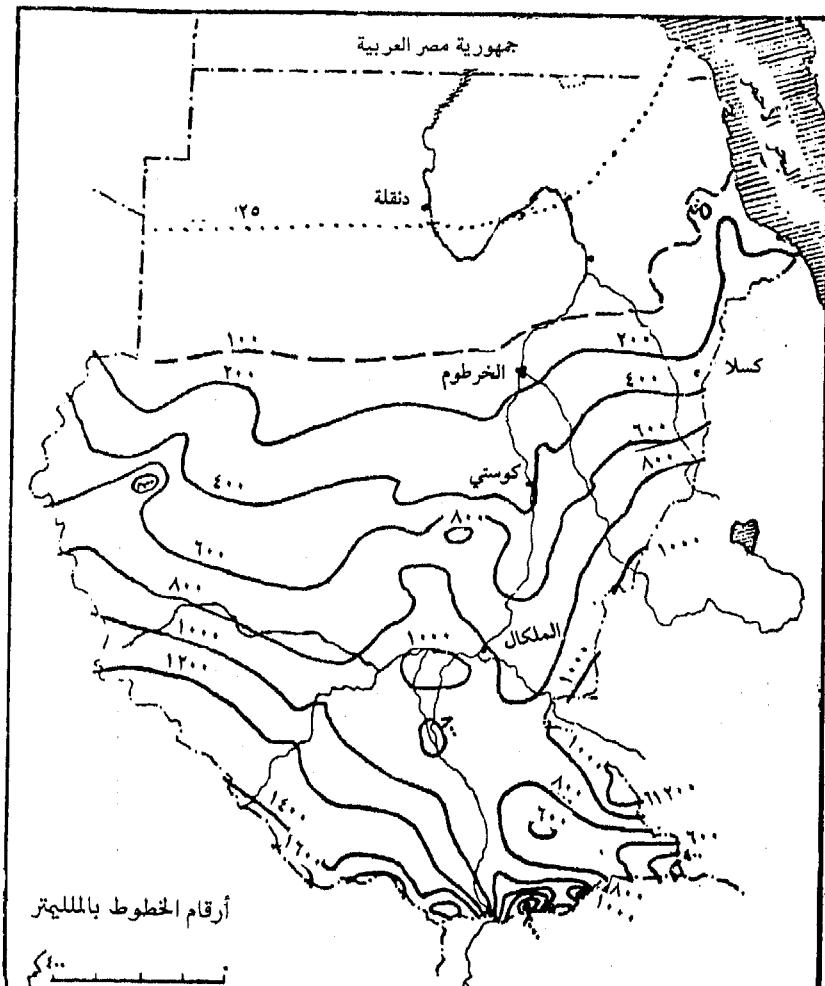
شكل (٢)

مصور الأمطار في السودان وقد رسم بفاصلة أساسية مقدارها ٢٠٠ مم وبفاصلة بينية مقدارها ١٠٠، وبنصف فاصلة إضافية مقدارها ٢٥ مم.

الكامن جعله يقضي على الثاني ويلاشيه. على أن مصر لم تمارس عملاً سلطوياً ودائماً فاستقلال جمهورية الخرطوم هو امتداد للماضي.

وكان المصريون القدامى والنوبيون يرتبطون بوشائج قربى عن طريق اللسان، وتؤلف اللغة القبطية بقاياه. وكانت الإمبراطورية الفرعونية الوسطى تحكم وادي النيل حتى دنقلة، أما الامبراطورية الجديدة فقد تجاوزت سلطتها أبو حمد. وفي القرن الثامن قبل الميلاد استولت أسرة ناباتا المتمصرة على مصر، ولكن سرعان ما انفصمت عرى الوحدة السياسية، وبعد مدة غامضة، في القرن الرابع قبل الميلاد، أسست مدينة ميروة (وادي النيل عند درجة العرض ٧ شمالاً) مملكة نوبية ذات مدنية مصرية تركت بقايا ضخمة لصناعة الحديد، وعن طريق هذه المملكة استطاعت صناعة الحديد أن تنتشر في إفريقيا المدارية. وقد ظلت العلاقات المصرية النوبية متراخية على الدوام، إذ لم يقم البطالمة ولا الرومان بجهود تستحق الذكر في اتجاه النوبة. ولم تصل المسيحية القبطية إلى بلاد النوبة إلّا في عام ٥٤٨م فحسب. ولما أصبح العرب سادة مصر في عهد عمر بن الخطاب قاموا بالهجوم على السودان على شكل غارة، إذ اكتفوا بفرض الجزية على مملكة دنقلة النصرانية ولم يستولوا عليها فعلاً إلّا في عام ١٣٤٠م من خلال موجة من البدو قامت بتعريب السودان الواقع جنوب الصحراء الكبرى. وكانت هناك مملكة مسيحية أخرى هزيلة في سنّار دمرتها حملة إسلامية قادمة من الغرب من اقليم بورنو في عام ١٤٩٠م. ويدين الإسلام في النوبة بأصوله الغربية للمذهب المالكي في حين يتبع أكثر المصريين المذهب الشافعي. وهناك تأثير آخر من الغرب الافريقي، فخلال الحكم المصري الذي ابتدأ في ١٨٢١ تعرضت بعض مناطق السودان للمجاعات المماثلة لما يحدث في أيامنا بسبب الجفاف وتعاقب سني القحط، ففي إقليم كسلا نجد الكثافة فوق الترب البركانية وفيرة الأمطار لا تتجاوز ٤

أشخاص في الكيلومتر مربع. وقد تمّ استيطان هذه البقاع شبه الخالية من السكان من قبل الحجاج القادمين من غرب إفريقيا الذاهبين لمكة المكرمة ويطلق على هؤلاء اسم (الفلّاتة). وكان الكثير من هؤلاء ممّن نفدت مواردهم يعزفون عن الاستمرار في طريقهم إلى الحجاز، أو عند عودتهم من مكة يعجزون عن الاستمرار في مسيرتهم إلى أوطانهم، فيستقرون فوق هذه الأراضي الشاغرة، ففي عام ١٩٤٧ كان ١٠٠٠٠٠ من هؤلاء الفلاتة قد امتزجوا ببقايا سكان مملكة الفونج في سنّار (شكل ٣). وهكذا نجد أن وادي
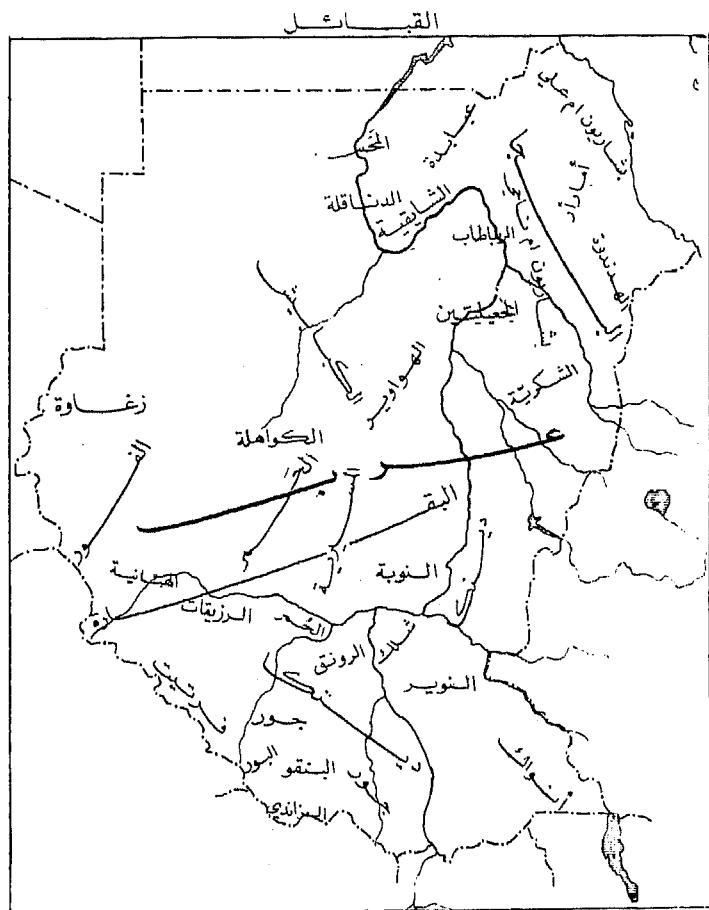
شكل (٣)

النيل لم يلعب إذن دوراً قاهراً إذ ينفتح من الجنوب على داخل إفريقيا بصورة رديئة لا تقود بحذ ذاتها لشيء يذكر.

الشروط الطبيعية

التضريس والمناخ:

يبدو التضريس على قدر من الضعف بحيث يعجز عن تشويش موكب المشاهد المناخية بين درجة العرض ٢٣ وخط الاستواء. كما يكون المركّب الأساسي - الذي يتكشّف على ثلثي مساحة السودان، ويندس من تحت الباقي - يكون مشحوذاً باستثناء النتوءات البارزة التي تدعى باينسلبرغ (شكل ٤) كما في النوبا في الغرب وايماتونغ وكسلا في الجنوب الشرقي. وفي اتجاه الشمال تختفي الصخور القديمة تحت الصخور الرملية النوبية. وقد انعطفت هذه الركيزة لتشكل الميزاب النيلي بين انتفاخين ثقيلين في الغرب

بئر قرب الفاشر وتظهر جزيرة جبلية «اينسلبرغ» في صدر الصورة.

شكل (٤)

(جبل تينغا ١٣٠٠م، جبل العوينات ١٨٩٥م، البركنة الثلاثية والرباعية لجبل مرّة ٣٠٨٧م، وجبل ميدوب ١٦٨١م) وفي الشرق (جبال البجا ٢٢١٧م). ويتصف النيل بضعف ميل مجراه: فهو على ارتفاع ٦٢٥م في نيمولة و ٤٥٥م بدءاً من جوبا، و ٣٨٥م في مالكال، و ٣٧٦م عند الخرطوم، و ١٢٥م في وادي حلفا. أما في القسم الأوسط فقد توضعت في بحيرات السدود الضحلة غضاريات أفقية ورتيبة.

وبالموازنة مع كل درجات العرض، نجد السودان أحد أكثر الأقطار سخونة في العالم. فيكون متوسط أكثر الشهور حراً كما يلي: الخرطوم ٣٣,٦ (حزيران)، بورسودان ٣٤,٨ (آب)، أما الحرارة في أقل الشهور حراً فتكون ٢٣,٦ في الخرطوم، و٢٦,٨ في الرصيرص و٢٣,٢ في بورسودان. أما الشتاء وهو أكثر فصول السنة لطفاً فلا يخلو من موجات حر، فيصل الحد الأقصى المطلق في كانون الثاني إلى ٣٩,٦ في الخرطوم، هذا فضلاً عن عواصف الرمل التي تسمى الهبوب.

والأمطار وحدها هي التي تميز المناخ حقاً، فإلى الشمال من درجة العرض ١٩ تقع الصحراء حيث قد ينحبس المطر خلال ١٢ شهراً متتابعة. وبين درجة العرض ١٩ ودرجة العرض ٤ يتزايد المطر بمقدار ١٠٠ مم كل درجة عرض: فبينما يكون مقدار الأمطار صفراً عند درجة العرض ١٩، يبلغ ٣٠٠ مم عند درجة العرض ١٥، و ٤٠٠ مم عند درجة العرض ١٤، و ١٤٠٠ مم عند درجة العرض ٤. وكلما كان الفصل الجاف أكثر قصراً كانت الأمطار أكثر غزارة. ففي مدينة الفاشر الواقعة على درجة العرض ١٣ و٢٨ دقيقة يبلغ متوسط المطر ٣١٠ مم ويقع فصل الأمطار بين تموز وأيلول (شكل ٥). أما الرصيرص الواقعة على عرض (١١,٥١°) فتنال ٨٠٨ مم بين أيار وايلول، وتتلقى بلدة راغا عند درجة العرض ٨° و٢٨′ مقدار ١١٣٧مم بين
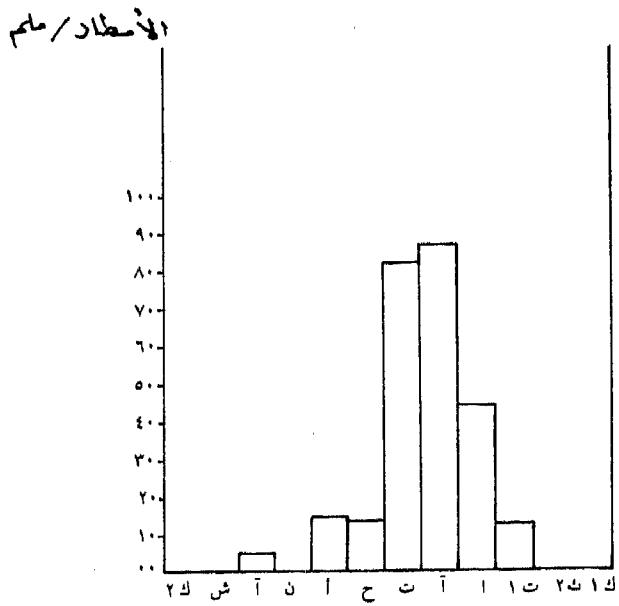
نموذج المناخ: مداري سنغالي
العرض ١٣,٥٩°، الارتفاع: ٤٠٠ م
المعدل السنوي للحرارة ٢٧,٧°
معدل آحر شهر آذار ٣١,٥°
معدل أبرد شهر آب ٢٦,٣°
الأمطار السنوية ٢٦١ مم

شكل (٥) دويم (السودان شرقي)

أيار وتشرين الأول، وعند منابع نهر يوبو Yubo عند درجة العرض ٥,٢٤ تصل الأمطار إلى ١٤٥٩مم بين نيسان وتشرين الأول. وإلى الشمال من درجة ـرض ١٢ تكون الزوابع الصيفية مصحوبة برياح الرمل أو الهبوب.

وينقسم السودان الشرقي إلى نطاقات حسب درجة العرض. أما القسم الجوهري، الذي يأخذ على عاتقه إعاشة السودان المسلم والناطق بالعربية والذي يضم ٨٠٪ من السكان، فهو الواقع إلى الشمال من درجة العرض ١٢ والذي ينال ما بين ٦٠٠ مم و٣٠٠ مم في العام، وهي مقادير تماثل نطاق الساحل الواقع جنوب الصحراء الكبرى، أي هامشية بالنسبة للزراعة، وموائمة

للتربية الحيوانية البدوية. وتكون الزراعة محظورة دون ري إلى الشمال من درجة العرض ١٥. هذا وتستحيل تربية الإبل بسبب وخامة المناخ جنوب خط العرض ١٣، في حين لا تنجح تربية الأبقار جنوب خط العرض ٨.

التقسيمات الاقليمية

رعاة الشمال:

تتأرجح نجعة البدو الجمّالة بين درجة العرض ١٣ في الشتاء ودرجة العرض ١٨ صيفاً: وهذا حال الهواوير، وهم بربر دارفور، وزغاوة من تدا دارفور، والكبابيش وهم عرب كردفان، والشكرية والرشايدة، وهم عرب شرق النيل. وإليكم وضع الكبابيش: ففي الشتاء يؤلفون ستة تجمعات من الخيام حول الآبار بجوار خط العرض ١٤، وفي شهر أيار تندفع بعض القطعان حتى درجة العرض ١٣ للاستفادة من المراعي التي نشأت بتأثير مطر مبكر. وفي نهاية حزيران يتبع الكبابيش مسيرة الأمطار باتجاه الشمال متحاشين الذباب القاتل للإبل، وينطلق الرعاة وقطعان الجمال في الطليعة، في حين يتمهل مجموع الأسرة مع الحيوانات اللبونة كي يلتحق فيما بعد بالطليعة. وفي ايلول تتم العودة نحو الجنوب إلا إذا سمحت المراعي ببقاء الرعاة في الصحراء مدة شهرين إضافيين. وهكذا تكون نجعات الكبابيش متمازجة ومنقسمة بحذق لتحقيق استغلال عقلاني للمراعي. وإذا كانت سوية معاش الكبابيش فقيرة فهم ليسوا أكثر فقراً من فلاحي كردفان، ذلك أن بيع مواليد الماشية يحقق لهم مداخيل لا تقل عن الدخل الذي يحققه التقاط الصمغ أو زراعة القطن للفلاحين المستقرين.

ويسيطر على الجبال التي تطل على البحر الأحمر عشائر البُجّا وعددهم ٣٥٠٠٠٠ نسمة فوق مساحة تبلغ ٢٨٠٠٠٠ كم٢، وهم بدو جمّالة يتكلمون لغة كوشيتية، ويمارسون نجعات صغيرة بين سفح الجبل الغربي حيث يقيمون

في الفصل المطير والقمم وهي أكثر في الفصل الجاف، وبين سفح البحر الأحمر، أي السفح الشرقي، الذي ينال بعض الأمطار الشتوية والسفح الغربي الممطر في الصيف. وتكون الأجزاء الجبلية العليا على قدر من الرطوبة تسمح بوجود عدد أكبر من السكان، إذ تحوي المناطق المجاورة لقمة إربا Erba وقمة آسوتريبا Asotriba المراعي والمياه الجارية.

ويتألف ساحل البحر الأحمر من مصطبة مرجانية محرومة من التراب ومن العشب ومن الماء العذب، فلا يقدم أي عون للرعاة. وعندما أقيمت حديقة عامة في بورسودان اضطر المسؤولون لنقل التراب اللازم من وادي النيل بالقطارات.

أما خور بركة فهو عبارة عن دلتا سفحية يتمتع بخيرات المياه القادمة من أريتريا. ويتألف كل من سواكن وبورسودان من ميناء طبيعي ولكن الأول لا يستطيع استقبال السفن الكبرى.

وبعد أن كانت قبيلة البّقارة من رعاة الإبل تحوّلوا إلى تربية الأبقار، ومنها جاءت تسميتهم، لأنهم اندفعوا كثيراً باتجاه الجنوب وبالتالي فقدوا إبلهم. وينتقلون نحو الشمال حتى درجة العرض ١٣ في فصل الأمطار هرباً من الحشرات (Tabanides) الضارة بالأبقار. وفي فصل الجفاف يقومون بانتقالات نحو المراعي التي لا تزال رطبة بمنطقة بحر العرب عند درجة العرض ١٠. وللبقارة علاقات حساسة ولكن لبقة مع فلاحي كردفان، وهم عرب ومسلمون مثلهم، في حين كانوا بحالة حرب مستديمة ولمدة طويلة مع الدنكا، وقد تمخضت الزيجات مع الإماء الزنجيات اللون القاتم لدى هؤلاء البقارة[1].

(١) هناك أعداد من الرعاة وربما النصف لا ينتقلون للبحث عن المراعي بل هرباً من المناطق الموبوءة بالحشرات، وقد يؤدي القضاء على هذه الحشرات لتقليص عدد =

تكون الزراعة بين خط العرض ١٥ حيث تبلغ الأمطار ٣٠٠ مم بالعام وخط العرض ١٤ حيث الأمطار ٤٠٠ مم عبارة عن رهان، وتتطلب وجود فلاحين مستسلمين ونباتات متنوعة فقيرة. ويزرع فوق أكثر الترب خفة الدخن، وفوق الترب الأخرى الذرة البيضاء التي تؤلف الحبوب الأساسية في السودان الناطق بالعربية ولكنها تتهجن بسهولة كبيرة مع أنواع الذرة البيضاء الوحشية مما يؤدي لتدهور السلالات المزروعة. ويستطيع فصل أمطار متمركزة كثيراً أن يسمح بزراعة بعلية (إعذاء، ديم). ولهذا يبحث الفلاحون عن سلامتهم باللجوء لتقنيات مختلفة: كزراعة القيعان الأكثر رطوبة، وبناء سدود تحجز سيلان المياه لحوض سفحي لفائدة مساحة صغيرة مزروعة، وتعمل ممارسة الحريق على حماية قطعة أرض عشبية مدة ٣ أو ٤ أعوام من الحرائق والحشرات: ويعمل إحراق بساط القش الجاف على قتل الأعشاب التي تعود للإخضرار بعد أوائل الامطار، مما يوفر مساحة لا تحتاج للعزق أو للحراثة، وهنا تنمو الذرة البيضاء دون منافس.

وفي هذا النطاق الزراعي الأول يكون المورد التجاري هو الصمغ العربي، ذلك أن شجرة الهشاب (أو السنط السنغالي) تفصد في السنة الخامسة من عمرها، وتستغل مدة عشرة أعوام. وقد بلغ إنتاج السودان من الصمغ ٤٧٠٠٠ طن في عام ١٩٥٥ أو ٨٠٪ من الاستهلاك العالمي وهكذا يكون السودان أول منتج عالمي لهذه المادة التي تدخل في صناعة النسيج بعد أن نافسه الصمغ الاصطناعي.

= البدو. الإحصاء الذي حصل عام ١٩٥٦ أعطى رقم ١,٣ مليون بدوي، منهم نصف مليون في منطقة كسلا، و ٣٥٤٠٠٠ في كردفان، و ٢٦٥٠٠٠ في دارفور، و ١٤٥٠٠٠ في إقليم النيل الأزرق و ٦٥٠٠٠ في إقليم الشمال.

وهنا تطرح مشكلة مياه الشرب، ذلك أن معظم هذه المياه إنما تستمد من آبار محفورة في سرر الوديان. أما الحفائر التي تنتشر أكثر فأكثر فهي خزانات تنشأ في عالية السدود الصغيرة الترابية التي يسهل بناؤها خلال عدة أيام من عمل الجرافات الميكانيكية (بولدوزر). وتستغل الجذوع الجوفاء لأشجار التبلدي كخزان مائي. ويؤدي الافتقار للماء الصالح للشرب إلى عرقلة النشاط الزراعي، ففي دارفور الشمالية الغربية، يقع الحد الشمالي للزراعة عند درجة العرض ١٤° و ٤٥ ثانية شمالاً، هذا مع أن الأمطار في شمال درجة العرض هذه تكفي لزراعة الدخن، ويؤدي الافتقار لماء الشرب إلى حصر الحقول بجوار الآبار. وتقفر قرى منطقة الفاشر من سكانها لفقدان الماء بين شهري كانون الثاني وحزيران. ويكون هذا النطاق الهامشي شحيحاً، ذلك أن أي انحباس للأمطار يقود إلى مآسي المجاعات وتلف قطعان الماشية كما حدث في معظم سنوات السبعينات والثمانينات من هذا القرن.

ولقد تعرض السودان في الماضي البعيد لمناخ أكثر قحولة، نشر الكثبات الرملية على مساحات شاسعة والتي تحققت تسويتها خلال مدة أكثر رطوبة، وشكلت ما يسمى (القوز) وهي الكثبان الرملية المثبتة بالحشائش في إقليمي كردفان ودارفور. ترى هل يحصل تجفف في الوقت الحاضر تحت أبصارنا؟ وإذا كان من الصحيح القول إن هناك شحاً في الأمطار وزحف الصحراء نحو الجنوب، وهو ما يسمى بالتصحر، فمما لا ريب فيه أن بعض المظاهر تكون خداعة، ذلك أن شره ووطء أظلاف الأبقار الكبيرة العدد قد عملا على تعرية أطراف القرى، وأعادت للرمال المثبتة حرية حركتها، هذا فضلاً عن أن استتباب الأمن والوقاية الصحية وقد شجّعا على تكاثر الماشية وأطلقا العنان لأضرار الرعي الجائر، وهذا ما يسمى بالتصحير. ولا تزال هناك بعض النقاط المظلمة التي تستدعي الشرح: ففي موقع أوري لا تزال أطلال تشهد على أهميتها في القرن الخامس عشر الميلادي كعقدة طرق قوافل، غير

أننا لا نجد في هذا الموقع كمية كافية من الماء لعدد من السكان على قدر من الأهمية. وإلى الشمال من جبل مرّة، في شمال إقليم دارفور، نجد موقعي كوتوم وعين فاره جدراناً من الطابوق، وهي بقايا أديرة نوبية، مصحوبة بمصاطب زراعية، وذلك في بقاع تبدو اليوم محرومة من الماء.

وبين درجتي العرض ١٤ و ١١ أي بين حدي ٤٠٠ مم و ٧٠٠ مم من المطر تسود زراعة بعلية أكثر ضماناً لمحصولها، مع أنها لا تزال شديدة الحساسية بالجفاف، ولكنها لا تطلب الموارد التجارية من الصمغ بل من القطن غير المروي، وهو القطن قصير التيلة. ولا يزال المناخ هنا صحياً نسبياً: فلا نجد هنا مرض النوم، والبرداء قليلة الانتشار ذلك أن يرقات الآنوفيل تجد صعوبة في العثور على مواطن مائية. ويتخذ إقليم كردفان، الذي ينتج الذرة البيضاء والقطن وفستق العبيد (الفول السوداني) والماشية، مراكز هي مدن حقيقية مثل النهود والفاشر وعلى الخصوص الأبيِّض التي تضم قرابة ٠٠٠ ١٥٠ نسمة، ولكن المشكلة العسيرة تظل هي توفير الماء لمثل هذا العدد من السكان.

النوبا ومَرّة:

لم تستطع الرقعة العربية المنبسطة أن تتمثل بعد سكان الجبال التي تحيط بهم. فالنوباويون[1] الذين ينتشرون على رقعة تبلغ ٠٠٠ ٢٥كم٢ وعددهم نحو ٠٠٠ ٥٠٠ نسمة، يسكنون أرخبيلاً من تضاريس الاينسلبرغ المتبلورة ويزرعون السهول الواقعة فيما بينها. وقد احتفظ هؤلاء الزنوج السودانيون، الذين طاردتهم القبائل البدوية في الماضي، بأصالتهم ضمن ملاجئهم الوعرة، ونتج عن العزلة اختلافات كبيرة بين جيل لآخر. فهناك

---

(١) يجب أن نميز بين مرتفعات النوبا في اقليم كردفان وسكانها نوباويون وبين أقليم النوبة في أقصى الشمال الشرقي من السودان وسكانها نوبيون.

اختلافات لغوية، فتكون اللغات نوبية أو سودانية وعشائر أموية أو أبوية. ويقوم النوباويون بتهيئة حقول على شكل مصاطب، يجيدون حراثتها وتسميدها، ويملكون حقولاً أخرى في السهل يستغلونها على عجل بطريقة الحريق والبور. وما إن استتب الأمن حتى هجرت المصاطب ذلك لأن الزراعة الواسعة أكثر عائدية بالموازنة مع ساعات العمل. وخرج النوباويون من عزلتهم واغتربوا للحصول على مرتبات كشرطة وجنود. وغدت عاصمتهم ديللنغ مركـزاً لنشر العروبة والإسلام. وتعثر على الوقائع نفسها التي تتكرر لدى ٧٠٠٠٠ من قبيلة انغسّانه، وهم زنوج سودانيون وجدوا في تلال صخر السربنتين في جنوب الرصيرص حماية من غزوات العرب والدنكا.

وفي أقصى غرب السودان نشر بركان مَرّة ـ الذي يسمو إلى ٣٠٤٢ م ـ لاباته فوق مساحة شحذت صخور ما قبل الكامبري. وقد نجم عن قدم البركان، لأن معظم لاباته تعود لنهاية الحقب الثالث، تفسخ صخور البازلت إلى ترب مفيدة. وتحوي الفوهات النهائية المؤلفة من رماد رباعية متآخذة بحيرتين ملحتين. وتتعرض التضاريس لصفعة الأمطار التي تبلغ ٤٠٠ مم عند القاعدة و ١٢٠٠مم عند القمة ونجد هنا ينابيع وحتى جداول دائمة الجريان، وهنا تقع جنة عدن بالنسبة لإقليم دارفور ونجد فوق ارتفاع ٢٠٠٠م بعض المساحات النباتية الأصلية كالأريقي واللاوند والزيتون، والعتم. وإذا كان فلاحو الفور قد اعتنقوا الإسلام فقد ظلوا محافظين على لغتهم الكوشيتية. ويقيمون مصاطب زراعية تستند إلى جدران من الحجر الغشيم حتى ارتفاعات ٢٧٠٠م، ويزرعون الأرض ١٠ سنوات مقابل ١٠ سنوات من البور، فيزرعون الدخن وفوق سوية ٢٠٠٠ م يزرعون القمح. ومن ناحية أخرى يتصف الفور بحذقهم في تمديد المياه ضمن قنوات وحنايا، ويزرعون حقولاً صغيراً ومزارع شجر مرواة، كبيارات البرتقال في سوني المتصفة بإتقانها والمسمدة بسماد ماشية الجبل.

الأراضي المرواة:

يروي النيل الأبيض والنيل الأزرق (شكل ٦) ونهر عطبرة مساحات كبيرة تؤلف ثروة السودان الكبرى. ويصل التخم الجنوبي للري لخط العرض ١٣ ولا يكون الري عبثاً إلى الجنوب من ذلك. وقد ينسب حقل انحسار الفيضان[١] لمجال الري، ذلك لأن الأرض (القرف أو الغرف) التي ينحسر عنها ماء الفيضان تعزق وتبذر، وينسب إلى هذا الصنف قيعان البرك الجانبية والخزانات التي تفرغ من أجل الري كخزان سنار وخزان جبل الأولياء. ولدلتا القاش الداخلي، قرب كسلا، ولسهل طوكر البحري أيضاً، شبكة من السواقي التي توزع الفيضانات على كل المساحة، وهو ري مسبق، ويبيع سكان هذين الدلتاوين تقاوي القطن لمزارعي منطقة الجزيرة.

وإلى الشمال من الخرطوم يصبح وادي النيل واحة شريطية تمتد على مسافة ١٠٠٠ كم ونادراً ما يتجاوز عرضه ٢ كم، وتكون كثافة السكان شديدة فتبلغ ٢٥٠ نسمة/ كم٢ بين مروة ودنقلة، ويعتمد في الري هنا على الشادوف أو على نواعير يديرها زوج من الأبقار والتي تدعى سواقي، والتي يبلغ عددها ١٠٠٠٠ في سافلة خط العرض ١٣، فضلاً عن المضخات ذات المحرك. وتستطيع الناعورة أن تسقي هكتارين برفعها الماء لارتفاع مترين وإذا رفعت الماء لارتفاع ٨ م فلا تسقي سوى أربعين آراً. وتستهلك حيوانات الحراثة وثيران الناعورة قرابة نصف الناتج عن الري، ولكنها تعطي السماد الثمين في مقابل ذلك. وتكون الزراعة هنا حثيثة فوق أرض لا تعرف الراحة: فهناك الزراعة الشتوية المؤلفة من القمح والشعير والفاصولياء والفول، وبين أيار وآب تقع الزراعة الصيفية وتقوم على البرسيم والثمار، وبين آب وتشرين الثاني

---

(١) يطلق على السهل الفيضي في العراق وسورية عبارة الرقة.

النيل الأزرق والعطبرة
بورسودان
سواكن
طوكر
البحر الأحمر
مصوع
أسمرة
مارب
الجندل الرابع
الجندل الخامس
عطبرة
أداراما
عطبرة
السبلوقة
الخرطوم
أم درمان
الجزيرة
المناقل
واد مدني
الدويم
سنار
كوستي
الجبلين
الزنك
الرصيرص
فامكا
ملوث
ملكال
غميلا
بارو
كسلا
خور الجاش
خشم القربة
القضارف
ستيت
بحر السلام
الرهد
الدندر
غندار
ملانا
أثيوبيا
الأباي
جما
أديس أبابا
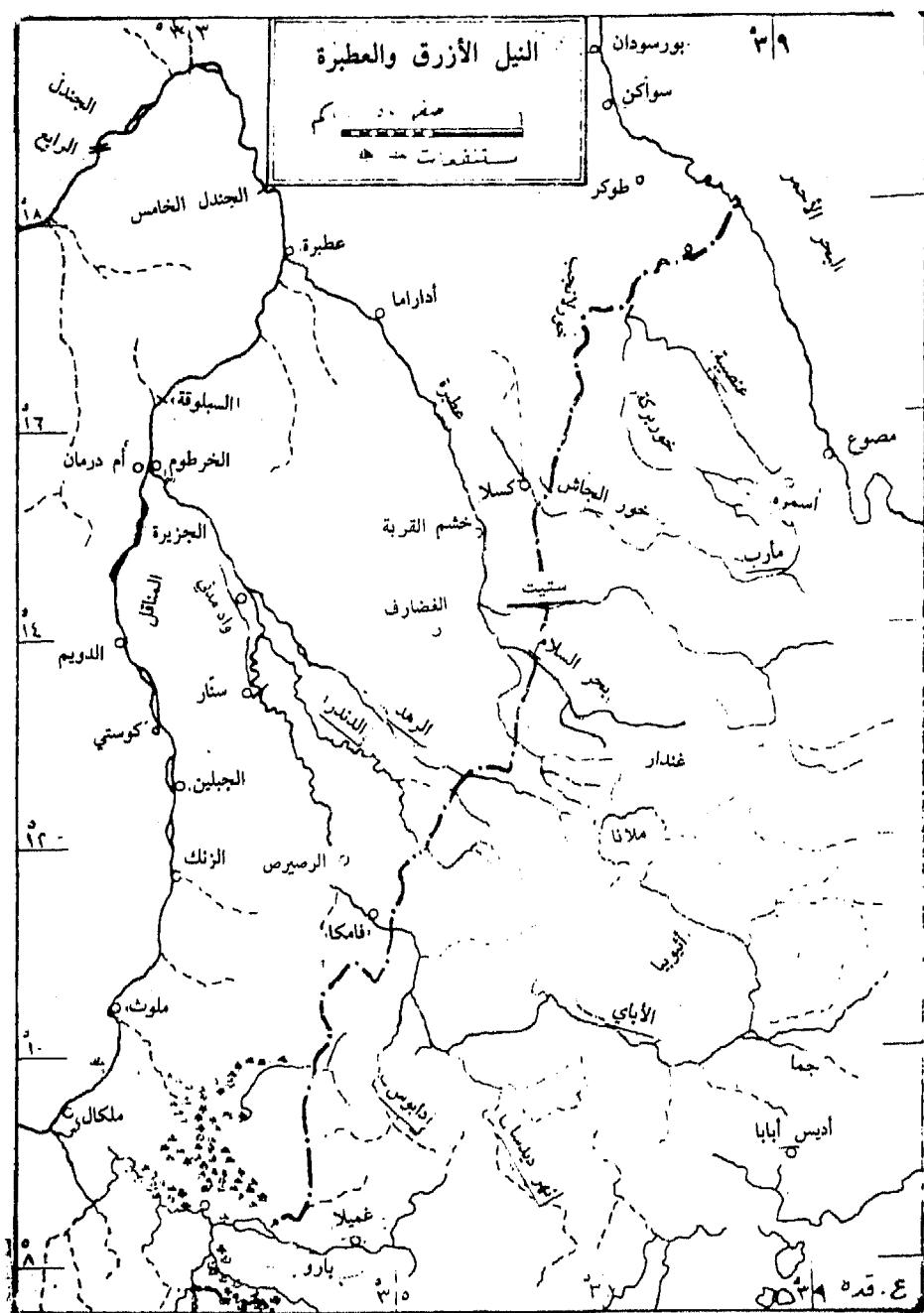
شكل (٦)

تكون زراعة الدميري وتتألف من الذرة بنوعيها واللوبياء والسمسم والباميا والحمص. أي هناك جهد عظيم ومكافأة صغيرة تجاهه، ويبلغ تقسيم الملكية حد التفتت مما يؤدي لدعاوى لا متناهية بين الجيران، والورثة، والملاكين والشركاء، وبائعي الماء والمستفيدين منه، ومالكي ثيران النواعير ومستخدميها. وتجنى التمور في شهر تشرين الأول وهي أهم محصول نقدي، وقد تكون هنا من نوعية ممتازة، غير أن الافتقار للطرائق الحديثة في زراعة النخيل وانعدام الاصطفاء ـ لأن نخلة واحدة قد يملكها ١٢ مالكاً ـ يؤدي لتدنّي نوعية المحصول وكميته. ويكون وادي النيل هنا منعزلاً، ونائياً جداً عن الخرطوم وتحصل هنا هجرة نهائية للنخبة المتعلمة. وهكذا ينزلق وادي النيل ـ الذي كان سكانه من حيث عددهم وثقافتهم المؤسسين الأوائل لجمهورية السودان ـ ينزلق نحو إقليمية متأخرة.

وتظل منطقة الجزيرة، لؤلؤة السودان، ومصدر سعادة الحكومة إذ تقدم لها نصف الميزانية، ومصدر الصادرات الرئيسة أو ٦٠٪ من قيمتها، أقول تظل هذه المنطقة موضوعاً خصيباً للباحثين من أجل الحصول على شهادة الدكتوراه في التخلف. فهي تمتد على ٤٠٠٠٠٠ هكتار مستغل، أو ٢٠٠٠٠٠ فعلاً كل سنة، منها ١٠٠٠٠٠ تزرع قطناً، وتنتج ٤٥٠٠٠ طن من ألياف القطن من النوع الأول، وتقدم مقادير وفيرة من الذرة، وللمستغلين الذين يبلغ عددهم ٢٦٠٠٠ أعلى سوية معاشية في ريف السودان.

وتستحوذ منطقة الجزيرة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق على مزايا طبيعية على قدر من البريق بحيث يكفي إهمالها متطاول الأمد لإعطاء فكرة عن فقر تنمية السودان التقليدي. ووجود ميل خفيف على نهر النيل الأزرق في اتجاه النيل الأبيض يستدعي الري من النهر الأول، وقد خلق موقع سنار سهولة قيام سد تخزيني، وتكون الترب هنا غضارية وخصيبة، كما يوائم المناخ الجاف

نضج القطن ويعمل تشقق التربة خلال الشتاء على تهويتها دون كلفة ويكون التصدير ميسوراً عن طريق بور سودان ويتم التطوير حالياً في منطقة المناقيل.

وتكون القطع ذات المساحة التي تبلغ ٤ هكتارات مؤهلة للحراثة بالجرار ومجتمعة في مستغلات ذات مساحة قدرها ١٦ هكتاراً من حيث المبدأ. وهناك استقرار في الإقامة بالأرض للمستغل الوفي لتعليمات السلطات المسؤولة. وتكون الدورة الزراعية ممتدة على ثمانية أعوام: قطناً، بوراً، ذرة، بقوليات، بوراً، قطناً، بوراً، بوراً. ومن الضروري الاعتماد على أيدٍ عاملة مأجورة من أجل بذر القطن، في شهري آب وأيلول، ومن أجل التفريد والعزق والجني. ويكون المردود مرتفعاً إذ يعطي الهكتار ٤٥٠ كيلوغرام من القطن المحلوج طويل التيلة. أما بالنسبة للري فهناك وفرة في المياه بين منتصف تموز إلى منتصف كانون الثاني، وتحديد في مخزونات سنار من منتصف كانون الثاني إلى منتصف نيسان، وينقطع الماء من منتصف نيسان إلى منتصف تموز[١].

السودان الجنوبي:

وهو عالم مختلف عن بقية السودان المؤلف من جماعات إسلامية، عربية، مثقفة، منتظمة على شكل ولايات واسعة، منفتحة على التجارة، فهنا تسود عبادة الأرواح، كما أن السودان الجنوبي عبارة عن برج بابل لكثرة اللغات غير المكتوبة، وحيث تكون الخارطة السياسية مائعة إذ تكون القرية هي الوحدة المستقرة الثابتة، والاقتصاد معاشي بحت.

ويكون التباين أقدم من أسلمة الشمال، وحيث حل الإسلام مكان

---

(١) بالاضافة إلى ٤٠٠٠٠٠ هـ قيد الاستغلال هناك ٣٢٠٠٠٠ هـ في قطاع المناقل الذي تجري تهيئته منذ ١٩٥٧ ولكن أي استغلال آخر وهو ما تسمح به الشروط الطبيعية فمن الضروري الاتفاق عليه مع أثيوبيا ومصر.

النصرانية التي كانت عديمة الجذور، والتي لم تبلغ الجنوب. ويكون السودان الجنوبي مكان التقاء عناصر سودانية (زاندة، لوغو، لوغباره، مادي) وعناصر نيلية (دنكا وشيللوك ونوير، باري، نيانغواره، توبوزه)، أي أن القسم الغربي من جنوب السودان هو أقرب لجمهورية إفريقيا الوسطى في حين يكون الشرق أقرب إلى أوغندة. وهناك ثغرة استيطانية شبه خالية من السكان عرضها مائة كيلومتر تفصل كردفان عن المستنقعات.

وتغطي المستنقعات في وقت الفيضان مسافة قدرها ٣٠٠ ٠٠٠ كيلومتر مربع، ويكون معظمها عبارة عن غشاء مائي يطغى على منخفضات سطح ضئيل التضاريس، وتتفرع التضاريس المتواضعة الواقعة في الفواصل النهرية على شكل تصبّعات عائمة. ويمكن لمن يركب الطائرة أن يقرأ بسهولة، من خلال طبقة ماء الفيضان الرقيقة، الطرق والدروب المرسومة في وقت الشح. وتكون البحيرات الدائمة ضئيلة، في حين لا تتجاوز مساحة المستنقعات الدائمة ذات النبات المائي (السدود) لا تتجاوز مساحتها ١٥ ٠٠٠كم٢، وقد عملت مصر بالاتفاق مع السودان على حفر قناة تتحاشى المستنقعات المذكورة وتوفر الماء الضائع بالتبخر من سطح المستنقعات الهائلة، بطول يقارب ٣٠٠ كم وبدأ العمل فعلاً بجرافات وحفارات حديثة، غير أن تمرد الجنوب بقيادة جون غارانغ دعا لتوقف هذه العملية، وبقيت الآلات تحت الصدأ، في حين كانت هذه القناة ستوفر لمصر وللسودان بضعة مليارات من الأمتار المكعبة من المياه الثمينة والتي كانت تذهب سدى عن طريق التبخر. وتتألف السدود من نباتات متجذرة كالأقصاب والبابيروس (البردي) أو عائمة (خس الماء). وتستطيع نفحة من الريح، بعد أن تقتلع رزمات من النباتات، أن تتركها لتيار الماء الذي يكدسها في منعطف، ويقول الدنكا إن بحر الجبل كثير التعرج مثل كتابة (الانكليز) لدرجة تجعلها تعرقل الملاحة وتوقفها. وإذا كانت مخاطر

(السدود النباتية) قد اتخذت شكلاً مأساوياً في أدب الرحلات، فإن المستنقعات لا تزال عائقاً أمام التنقلات البرية وفي وجه الملاحة، وقد كانت الملاحة عسيرة على الأنهار المنقسمة إلى أذرع عديدة، ومربكة بالأرصفة الرملية. وكان السكان مشاكسين أيضاً، إذ كان يجب تبديل القبطان عند كل منطقة قبلية جديدة. وهكذا لم يفتح نهر النيل أمام مصر والسودان منفذاً نحو إفريقيا الاستوائية والشرقية.

وتكون كثافة السكان ضعيفة لا تزيد على ١٠ أشخاص في الكيلومتر المربع في منطقة المستنقعات. وتتصف قبائل الدنكا والنوير والشيللوك بسواد البشرة الشديد، وملامح وتقاطيع قليلة الزنجية، وقاماتهم طويلة وممشوقة. ويبلغ طول ذكور النوير وسطياً ١٧٩ سم، حتى لقد قيل (بما أن الطوال هم الأقل تعرضاً للغرق لهذا لم يكتب البقاء إلا للسلالات الطويلة القامة). ويكون التنظيم السياسي قليل التطور. (فالملوك) الشيللوك كانوا مستدرّي مطر، وليسوا عبارة عن سلاطين فعالين، والقرية وحدها كانت الخلية الإدارية النشيطة. وعلى الرغم من أن المستنقعات لا تقدم الشروط الطيبة لتربية الماشية الكبيرة فإن الثيران تكون موضع اهتمام مهووس. ويقطن الدنكا في أكواخ مخروطية من الطوب غير المشوي ذات سقوف مخروطية من القش، وتقوم القرى فوق الأرض اليابسة فوق وسادة لحقية عائمة دائماً، ويقيم القرويون فيها في شهر نيسان هرباً من الفيضان. وتزرع الحقول القائمة فوق الوسائد اللحقية التي تكون صغيرة جداً، ولكنها تدمل من قبل الثيران التي تبيت فوقها ليلاً، ويكون محصول الذرة الصفراء سخياً كما لا تستريح الأرض إذ لا حاجة للبور[1].

(١) ويلجأ الدنكا أحياناً لتخصيب الأراضي البعلية بتشجيع عمل الأرضة، وهكذا يكون الحقل القادم في بداية الفصل الجاف مغطى بفراش من الأغصان وتقوم الأرضة بالتهامها تاركةً غباراً خصباً مع تهوية التربة.

وفي فصل الأمطار تنتشر سحب الحشرات وعندئذ يتراص السكان حول النار وبجوار دخانها الواقي. وفي الصباح يظهر الناس وقد غطّاهم الرماد حيث كانوا نياماً، ويكون منظر هؤلاء الزنوج الرماديون في ضباب الفجر غريباً مع شعرهم الأصفر بتأثير الغسول المؤلف من بول البقرة. وفي حزيران ينتجع قسم من القطيع نحو المراعي غير المغمورة بقيادة رعاة شبان وشابات. وتكون العودة في تشرين الأول للمساعدة في الحصاد. وفي كانون الأول يذهب الناس مع مواشيهم لكي يخيّموا فوق الأراضي (التواش) التي تحررت من مياه الفيضان من قريب، وهنا تكون المراعي طيبة فيكثر الحليب، وتجهز النسوة السمن في حين يمارس الرجال القنص ويجففون لحم القنائص. وتستمر الأمواه بانخفاضها تحت سماء صافية، وتحصل انتقالات جماعية نحو ضفاف الأنهار حيث يظل العشب أخضر. وفي نيسان وأيار تسقط أوائل الأمطار ويعود معظم السكان إلى القرية، وذاك أيضاً هو فصل الصيد المائي الكبير وتجفيف السمك.

وهكذا استطاع السكان أن يقتطعوا لأنفسهم مكاناً في الدورة الطبيعية ولكن لم يسيطروا عليها، فالماء عدو وليس خادماً، فالجهل في التهيئة الهيدروليكية وفي الزراعة المغمورة يكون هنا ذا مدلول. هذا وليس لأبناء عم الدنكا النيليين ـ ولكن من الذين يعيشون في خارج المستنقعات ـ تقنية مختلفة كثيراً. ووجود مدنية قادرة على التهيئة الريفية ستجد في المستنقعات إمكانات زراعية واعدة وواسعة. وهكذا نلاحظ أن شعوب المستنقعات، وهم محاربون وفخورون، وكرماء في سفك دم الغير، قد قاموا بإقفال النيل. كيف سيتطورون؟ هل عن طريق التعلم بلغاتهم أو إذا استعربوا؟ ولكنهم اختاروا حمل السلاح في وجه الشمال العربي بتحريض من إيثيوبيا وأحياناً من بعض الدول العربية الشقيقة.

وفي جنوب غرب المستنقعات، وبين خط العرض ٨ و ٥ حيث يهطل ما بين ١٠٠٠ و ١٣٠٠ مم من الأمطار بالعام تمتد هضاب منخفضة ذات دروع لاتيريتية وأودية عريضة، تحوي أقواماً نيلية، هم النيانغوراه، الذين حرموا من أبقارهم التي أبادتها المثقبيات Trypanosomes، وأقواماً سودانية، وهم الزاندة، وتتراوح الكثافة هنا بين ٥ و ٦ أشخاص/كم ٢، وتقوم زراعة فقيرة تترك مكاناً فسيحاً لحبوب من صنف ايلوزين Eleusine التقليدي ويعانون من العزلة.

هذا ولا تكون السهول الغضارية في الجنوب الشرقي أكثر نشاطاً. فأولاً لا يكون وادي بحر الجبل ـ وهو النيل الأعلى ـ محور حياة متوقعة ومنتظرة من نهر النيل الذي يصلح للملاحة حتى جوبا. وهذه البلدة الصغيرة حاضرة واد يقطنه فلاحون من قبيلة باري، وهم نيليون حاميون ينصرفون للزراعة أكثر من تربية المواشي. وتكون السهول الغضارية الفسيحة في الجنوب الشرقي أحياناً مقفرة خالية من السكان، فتقضي قطعان الوعول فصل الأمطار في السهل وفصل الجفاف فوق هضبة بوما المتاخمة لإثيوبيا. ويبدو أن هضاب بوما ولومارانغ البازلتية خصيبة ولكنها منعزلة والمعلومات عنها قليلة. ويستغلها جزئياً فلاحون من قبيلة كيشيبو Kechepo الذين تمنعهم ذبابة تسه تسه من اقتناء الأبقار، هذا في حين أن الرعاة من توبوزا ـ وهم من أقرباء توركانه ـ يربون الأبقار في سهول أكثر قحولة. هذا ويمنح نهوض اعترى الركيزة القديمة جبال ايماتونغ، فتظهر قمة كينيتي Kinyeti وارتفاعها ٣١٥٠ م، فضلاً عن قوالب السكر، وهي عبارة عن إينسلبرغ، بالإضافة إلى العديد من الميادين الغرانيتية الفوضوية.

الحصيلة ومنظورات المستقبل:

إن جمهورية السودان التي حصلت على استقلالها في عام ١٩٥٦ تبدو هائلة من حيث مساحتها البالغة ٢,٥ مليون كم٢ أي أكثر بقليل من مساحة

الجزائر ولكن عدد سكانها لا يتناسب مع رقعتها إذ كانوا ١٣,١ مليوناً في عام ١٩٦٤ وفي ١٩٨٧ أصبحوا ٢٣,٥ مليوناً أي ازداد أكثر من ١٠ ملايين خلال ٢٣ سنة. وتعبر هذه الدولة عن تطلعات كتلة ونخبة إسلامية وعربية والتي تنتشر في كردفان وفي وادي النيل وفي إقليم الجزيرة، وبلاد سنّار.

وإذا كان عدد لغات سكان السودان يقارب ١١٠ لغات، فإن اللغة العربية وحدها كانت هي المكتوبة قبل قدوم المبشرين الأوروبيين الذين أوجدوا كتابة لبعض اللغات السودانية، وتبلغ نسبة الناطقين بالعربية ٥١٪ وتكون اللغة العربية هي لغة الأم لنسبة ٤٠٪ لأن البقية فقد تعلموها بعد إقامتهم بالسودان الأوسط. وتتقدم الدعوة الإسلامية بصورة متوازية مع تقدم اللغة العربية وهي لغة التعليم الوحيدة في المدرسة، وحتى في بلاد الجنوب حيث تكون أغلبية السكان من غير العرب وحيث لكل قبيلة لغتها الخاصة.

ويؤلف سكان الجنوب ٣٠٪ من مجموع السكان وهم في حالة تمرد شبه مستمر منذ عام ١٩٥٥ مما جعل التجارة والزراعة والتنظيم التجاري بحالة شلل. وقد هرب من قبيلة الزاندة وحدها قرابة ١٠٠٠٠٠ للبلاد المجاورة.

ويشهد سكان السودان نمواً سريعاً، وهذا ضمان للمستقبل بشرط أن ينطلق الاقتصاد بخطى أكثر حيوية من الديموغرافيا. وتشير الإحصاءات إلى أن سكان السودان يزدادون بنسبة ٣٪ أي يتضاعف عدد سكان السودان مرة كل عشرين عاماً. ولا يفتقر السودان للأراضي، ففوق الأراضي غير الصحراوية نجد مساحة تبلغ ٧٠٠٠٠٠ كم^{٢} لا تزيد الكثافة فيها على خمسة أشخاص بالكيلومتر المربع. ولكن هل يستطيع السودان أن يمتلك الوسائل اللازمة لمنح سكانه الجدد مجالات العمل والازدهار والرخاء. وبعد أن كان بعض الجغرافيين يطلقون بسذاجة على السودان عبارة (سلة خبز) العالم العربي ظهر الآن سخف هذا الشعار، وتكشف للعيان نقاط ضعف السودان على الصعيد

الفيزيولوجي وفقره على مختلف المستويات، ويكفي أن المجاعات فيه أصبحت مزمنة منذ أكثر من عشرة أعوام.

وتظل مشكلة التعليم الشغل الشاغل، فعند الاستقلال كانت نسبة الطلاب الذين يدرسون ١٠٪ من مجموع التلامذة الذين هم في سن الدراسة وتبلغ نسبة الأميين حالياً ٨٥٪.

ويظل الاقتصاد ريفياً ففي عام ١٩٥٦ كان سكان المدن يؤلفون ٨٪ من مجموع السكان. ولا يزيدون حالياً على ٢٠٪. وتعد الخرطوم المدينة الوحيدة الكبيرة في جمهورية السودان، إذ يتوافر فيها كل شيء من أجل النمو الحضري: فهي تقع عند مفرق الطرق الصالحة للملاحة، ووفرة لا تنضب من الماء العذب في بقعة تكاد تكون صحراوية، وقرب الأراضي المنتجة للغذاء، وتضم مع أم درمان الواقعة على ضفة النيل الأبيض اليسرى نحو مليون نسمة. ولا يعود تاريخ المدينة لأكثر من عام ١٨٢١، وذلك عندما أقام الجيش المصري معسكراً فوق هذا الموقع. ولما كانت مدينة سنّار، وواد مدني وشندي أكثر قدماً، فقد ظلت المدن المذكورة لمدة طويلة أكثر سكاناً. وقد كانت ولادة الخرطوم الحقيقية عندما تسلم الإنكليز في عام ١٨٩٨، وبعد تغلبهم على ثورة المهدي، زمام أمور الإدارة، فنشأت ثلاث مدن: الخرطوم في جنوب المقرن، وأم درمان إلى الغرب من النيل الأبيض، وخرطوم الشمالية على الضفة اليمنى لنهر النيل الأزرق، فالأولى هي المركز السياسي والإداري، والثانية مدينة مهجع، والثالثة تستقبل الصناعة. وقد واكبت الخرطوم نجاحات منطقة الجزيرة وتدين بأهميتها لدورها المزدوج كعاصمة عامة للسودان وقصبة الجزيرة.

وقد اختار السودان لنفسه الخط الحديدي وقرر عدم بذل جهود كبيرة

لبناء الطرق وذلك لأن القسم الأعظم من رقعة البلاد لا توائم بناء الطرق المعبدة بسبب رمال القوز في كردفان والأراضي الغضارية في الشرق والتي تشكل سوية أرضية رديئة للطرق، كما تخلو البلاد من الحجارة على مسافات تبلغ عدة مئات الكيلومترات، والخط الحديدي الذي يتم تمديده دون حجر الرص Ballast يكون اقتصادياً أكثر ويتوافق مع هذه الشروط الطبيعية ويستغل انبساط الأرض العام، وكان طول شبكة الخطوط الحديدية يمتد على مسافة ٤٥٥٠ كم في عام ١٩٥٨، وتتوسع الشبكة في مختلف الاتجاهات، وهناك خطة لوصولها إلى نيجيريا بعد أن تعبر تشاد. وتنقل الخطوط الحديدية نحو بور سودان المحاصيل الزراعية كالقطن الذي كان إنتاجه في عام ١٩٨٦ ١٥٠٠٠٠ طن بعد أن كان ٢٠٠٠٠٠ طن في ١٩٨٥ و٢٢٩٠٠٠ طن في ١٩٧٤ أي أصبح إنتاج السودان يقل عن إنتاج سورية في العام الأخير ذاته وبذرة القطن والصمغ العربي والفول السوداني والسمسم والتي تشكل كل الصادرات.

أما المنتجات المعدنية فلا يؤبه لها، وهناك مشروع لاستغلال الذهب في الشمال الشرقي من البلاد، وقد اكتشفت شركة شيفرون النفط ولكن متمردي الجنوب عملوا على توقيف عمليات التنقيب والاستغلال، وعلى كل تبدو مقادير النفط في السودان تماثل المخزون والإنتاج في سورية وفي جمهورية اليمن العربية وتونس أي لا يزيد منه كثيراً بعد الاستهلاك المحلي. وقد قامت مصانع لإنتاج السكر ولكن يبدو أن الإنتاج لا يكفي الاستهلاك المحلي.

كما أن من العسير تحقيق عملية إقلاع اقتصاد حديث في شعب فقير يفتقر لرؤوس الأموال والخبرات. وهناك عائق رهيب يقف في وجه التنمية في السودان خصوصاً وفي بقية الوطن العربي بشكل عام، وهو المفهوم البدوي

المعادي للعمل اليدوي، وهو مفهوم مورث عن الحياة القبلية، ومع أن فلاحي كردفان ينحدرون من بداة فقدوا قطعانهم بتأثير الاضطرابات والجائحات الحيوانية في نهاية القرن الماضي، فقد أذعنوا لممارسة الزراعة، ولكن لديهم القليل من الذوق نحو العمل اليدوي.

وفي إقليم الجزيرة هناك طبقة من أصحاب المداخيل وطبقة من الشغيلة. وكلما كان صاحبَ الدخل غنياً قلّ ميله نحو العمل بنفسه. وبما أن السودانيين الأنقياء لا يميلون إلى العمل اليدوي كمأجورين، فإن إمكانات تعبئة الأيدي العاملة تصبح أكثر ضيقاً. وأفضل العمال هم من الفلاّتة وهم الوحيدون الذين يقبلون بكري القنوات ولكن متطلباتهم تظل كبيرة.

وهكذا تكون كلفة قطن الجزيرة مرتفعة بتأثير مفاهيم سابقة مولودة من عهود الاستعباد والبداوة، وهكذا تجتذب الجزيرة ومشروع المناقيل أيدي عاملة ليست ضرورية لهما، وينطبق هذا الحال على سائر أقطار مجلس التعاون الخليجي.

وأخيراً بلغت ديون السودان في ١٩٨٧ مقدار ١٢ مليار دولار، وقد تعرضت لمدة جفاف طويلة تلتها في ١٩٨٨ أسراب الجراد ثم الفيضان في صيف العام المذكور والذي شرّد مليوني نسمة وأتلف مساحات هائلة من الأراضي الزراعية. وتؤلف مشكلة الجنوب معضلة إذ يؤلف سكانه ربع مجموع السكان من أصل ٢٣,٥ مليون نسمة.

وبلغ عجز الميزان التجاري في ١٩٨٧ مليار دولار، لأن قيمة الاستيراد بلغت ١٧٠٠ مليون دولار في حين أن قيمة الصادرات لم تتجاوز ٧٠٠ مليون دولار.

وفقدان سياسة واضحة على الصعيد الداخلي جعل موارد البلاد تضيع

في حرب أهليـة بين الشمال العربي المسلم وبين الجنوب الوثني الزنجي الذي لعب فيه المبشرون دوراً تخريبياً أنهك قوى هذا القطر الفقير وعرقل مشاريع الري الكبرى كقناة دونقلي، أو استغلال موارد النفط.

آسيا العربية

يعد المشرق العربي، أو الشرق الأدنى، أو بلاد الهلال الخصيب، امتداداً لمجموع جغرافي واسع هو شبه الجزيرة العربية التي درجت العادة على أن تدمج في قارة آسيا، هذا على الرغم من أنها تنفصل عن أكبر القارات بحزام جبلي وببحار، فهي تتمايز في آن واحد عن كل من آسيا وعن إفريقيا، إنها قارة صغيرة على حدة.

فآسيا العربية تلامس إفريقيا بقناة السويس التي لا يزيد عمقها على ١٢م، وفيما عدا ذلك نجد شبه الجزيرة العربية تطل على بحار كالبحر الأبيض المتوسط من الغرب، والبحر الأحمر من الجنوب الغربي، والبحر العربي من الجنوب، وبحر عمان والخليج العربي من الشرق. وأخيراً تقوم سلسلتا طوروس وزاغروس بفصلها من الشمال عن هضاب الأناضول العالية، ومن الشمال الشرقي عن هضاب إيران.

وهكذا نجد أن شبه الجزيرة العربية تمتد على قرابة ٢٥ درجة عرضاً، أي من درجة العرض ١٢ عند مضيق باب المندب و٣٧ شمالاً قرب الحدود التركية، ويشكل مدار السرطان حزاماً في وسطها. وتمتد من الشمال إلى الجنوب على مسافة تزيد على ٣٠٠٠ كم أي بين القامشلي وعدن، ونحو ١٤٠٠ كم من الشرق إلى الغرب، بين ساحل البحر الأحمر والخليج العربي -

الفارسي ـ وعلى الرغم من اتساع آسيا العربية فهي تتصف بوحدة تدين بها لانسجام بنيتها وبساطتها، فهي تتألف في جملتها من عتبة أو سطيحة قارية.

والواقع تشتمل القشرة الأرضية على نمطين من المناطق: العتبات القاريـة والسلاسل الجبلية الملتوية.

فالعتبات Plateforme أو الرقع القارية تتألف من نوى غرانيتية قديمة، ومن جذور سلاسل جبلية هرمة هرسينية أو كاليدونية شحذها الحت وملتصقة بأطراف العتبة، والتي تساهم في تلاحم النوى الغرانيتية فيما بينها، فهي تماثل بلاطات صلدة تكون تشوهاتها مصحوبة بانكسارات تنجم عنها التجزئة. وهكذا تكون الحجرات Blocs ناهضة أو خافسة، حسب أشكال مختلفة، وبذلك تتمخض عن بلاد جبلية متميزة، يطلق على الأجزاء العالية، المائدية، اسم هورست Horst والأجزاء الواطئة وهدات أو أغوار Graben.

أما السلاسل الجبلية الملتوية ـ وهي مختلفة جداً ـ فقد نشأت فوق مواقع أحواض بحرية سابقة، كان قاعها يغوص في الوقت الذي كانت تتوضع فيه رسوبات سميكة قد تبلغ بضعة كيلومترات كما في السهل العراقي الأدنى بين بغداد والبصرة. ولا تلبث هذه الرسوبات أن تصبح عرضة للانضغاط بين الرقع القارية الصلدة، وتندفع نحو السطح على شكل طيات، تكون أحياناً متنضدة فوق بعضها بعضاً، بحيث تنتج عنها تضاريس جبلية.

ويرسم مجموع الأحواض البحرية التي احتضنت وتمخضت عن السلاسل الملتوية والسلاسل التي انبثقت منها، أقول يرسم فوق القشرة الأرضية قلادات طويلة تطيف بالعتبات القارية. ولما كان النمطان المذكوران من المناطق المتجاورة مختلفين جداً بتكوينهما، فهما بالتالي يتنافران أيضاً بشكل صارخ جداً بمظهر مشاهدهما.

وتكون الحافة الشمالية والشمالية الشرقية للعتبة العربية محفوفة بالسلسلة الكبرى الألبية الهيمالائية، تلك السلسلة التي تمتد من جبال الألب حتى هيمالايا وسلاسل فيتنام، والأجزاء التي تحد العتبة العربية من الشمال هي جبال طوروس من الشمال وزاغروس من الشمال الشرقي.

وتملك شبه الجزيرة العربية كتلاً جبلية خاصة بها مرتصفة فوق الحواف الأخرى، غير أن هذه الكتل تكون من نمط مائدي، ومهشمة على شكل حجرات ناهضة أو خافسة. وأكثرها علواً هي الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط وحيث تكون التوائية وانكسارية في آن واحد، فتبلغ ٣٠٨٨ م في القرنة السوداء، وترتفع الجبال الانكسارية الصرفة إلى ٣١٠٠م في قمة السوداء قرب مدينة أبها في بلاد عسير وإلى نحو ٣٧٦٠ م غرب صنعاء وإلى ٣٠١٩ م في الجبل الأخضر العماني.

ونعثر على البنية المائدية والمصدعة ذاتها، والتي نراها على ساحل اليمن والحجاز، فيما وراء البحر الأحمر، أي على سواحل إفريقيا.

وقد قاد هذا التماثل في البنية والتشابه في شكل السواحل المتقابلة أكثر الجيولوجيين إلى اعتبار شبه الجزيرة العربية كجزء بسيط من القارة الإفريقية، جزء انفصل عن هذه القارة على أثر انسياح نحو الشمال الشرقي. واستناداً إلى هذه النظرية يكفي، من أجل إعادة تمثيل القارة البدائية، أو غوندوانا أن نقارب سواحل البحر الأحمر وسواحل خليج عدن كي تتطابق السواحل المتقابلة وتتلاحم.

المناخ: وهو عامل كبير في الوحدة، إذ تنتسب الجزيرة العربية من حيث درجة عرضها للأقطار الحارة. فتكون متوسطات الحرارة الصيفية في كل مكان مرتفعة، إذ تتجاوز ٢٥ درجة، باستثناء المرتفعات التي تزيد على ٢٠٠٠ م، وتكون أحياناً شديدة الارتفاع تزيد على ٣٠ وحتى ٣٥ درجة مئوية. بيد أن

الشتاء، رغم قصره، يكون واضحاً متميزاً بسبب الطابع القاري للمناخ، والذي يعمل على احتدام الفروق بين فصلي الشتاء والصيف من ناحية، ونظراً لوجود تضاريس قوية، كجبال اليمن ولبنان وسروات عسير، والتي تعمل على تدنّي الحرارة بشكل عام. ولهذا لا يكون الانجماد والثلج مجهولين تماماً في الشتاء، فتكون رياضة التزلج على الثلج معروفة في جبل لبنان وجبل الشيخ في لبنان الشرقي.

ويعود الطابع المناخي المهيمن لنظام الأمطار، ذلك أن الوضع الفلكي العام لجزيرة العرب يجعلها تنتسب للنطاق الصحراوي الكبير والعريض الذي ينتشر مجتازاً كل العالم القديم على شكل وتر مائل نحو الشمال الشرقي، أي بدءاً من سواحل المحيط الأطلنطي في موريتانيا والصحراء الغربية حتى قرب المحيط الهادي غرب بكين، مروراً بالصحراء الكبرى والتركستان ومنغوليا، كما يكون الجفاف هو الميزة العامة لكل شبه الجزيرة العربية.

فالجفاف يكون مطلقاً في الداخل، أي في بادية الشام ذات الصخور الكلسية وفوق كثبان النفوذ والربع الخالي الرملية حيث تقل الأمطار الوسطى عن ١٠٠ م في العام. وتخف حدة الجفاف على سواحل البحر الأبيض المتوسط التي تتمتع بنظام أمطار شتوية، وكذلك على ضفاف المحيط الهندي حيث تتمخض الرياح الموسمية عن أمطار صيفية. بيد أننا نجد ـ وذلك حتى في أكثر المناطق أمطاراً، مثل جبل لبنان ومرتفعات اليمن وعمان ـ أن مدة طويلة من العام قد تمر دون مطر، فتظل السماء صافية الأديم خلال مدة قد تمتد على ٤ شهور أو ٥ شهور متلاحقة. ويفرض هذا الجفاف المنتظم الذي لا يستدعي نشرات جوية عن حالة الطقس المعروفة سلفاً، أقول يفرض سماته على النبات وعلى كل الحياة الزراعية، إذ تسود الزراعة البعلية، أو المطرية، أو الديم، أو زراعة اليانصيب وتبقى الزراعة المضمونة هي الزراعة المرواة

التي تصحح نزوات المناخ، وتظل الصحراء والسهل ماثلة في كل مكان وهي الأفق السائد المألوف، ولا غرابة في ذلك فالصحراء القاحلة الجدباء تحتل ٩٠٪ من مساحة الوطن العربي، والسهب أو المراعي ٥٪ والمناطق التي تنال أمطاراً كافية لقيام زراعة بعلية ـ أي أكثر من ٣٥٠ مم في شمال الصحراء الكبرى و٦٠٠ مم في جنوبها ـ لا تشغل سوى ٥٪ من المساحة الباقية، ولكن يجب أن نحذف منها الجبال الجرداء الصخرية والغابات والطرق والمساحات العمرانية من قرى ومدن، أي أن الصافي القابل للزراعة لا يزيد على ٢٤٠,٠٠٠ كم^{2} في سائر أرجاء الوطن العربي وهذا ما يفسر العجز الغذائي المستفحل.

التضريس والنبات

تتخذ شبه جزيرة العرب، في مجملها، شكل مائدة مسطّحة، مائلة بهدوء نحو الشمال الشرقي، بدءاً من الحصن اليمني الذي يتراوح ارتفاعه بين ٢٥٠٠ و٣٥٠٠م، والذي يشكل فيها الزاوية الجنوبية الغربية. ويجنح الارتفاع العام نحو التناقص دون هوادة حتى السهل الذي يأخذ شكل قوس دائرة يمتد من حلب حتى البصرة، والذي يتمدد بانتظام حتى مضيق هرمز، كي يغطس تحت شريحة مياه الخليج العربي الرقيقة التي يندر أن تزيد سماكتها على ١٠٠ م.

أما سلسلة جبال عمان التي تسمو في الجبل الأخضر، فتشكل شذوذاً عن هذا الوضع العام، ذلك أن تكوينها هو على علاقة مع كسور في خليج عمان فصلتها عن السلاسل الإيرانية الالتوائية المقابلة، والمماثلة في بنيتها ومورفولوجيتها. وينعكس كل من وحدة وثبات ميل العتبة العربية نحو الشمال الشرقي على الميل العام للشبكة الهيدروغرافية عن طريق الاتجاه العام نحو الشرق والشمال الشرقي والذي تتصف به الوديان العديدة الكبرى، وبانصباب

المياه الجارية نحو بلاد ما بين النهرين والخليج العربي. وتقع رؤوس أهم الأودية الكبرى لجزيرة العرب في جبال اليمن مثل وادي حضرموت المتجه نحو بحر عمان، ووادي نجران المتجه نحو الربع الخالي، وكذلك وادي الدواسر ووادي الرمة وصحبة نحو الخليج العربي. ونجد في سورية أودية مماثلة، كوادي صواب ووادي المياه، تتجه نحو الفرات. وكل هذه الأودية جافة، غير مستمرة الجريان، وميتة، موروثة من العصور المناخية المطيرة.

هذا ولما كانت الشبكة الهيدروغرافية بارزة الملامح بعمق على سطح العتبة العربية فهي تضم أودية عميقة متسلسلة تظهر بجلاء من نافذة الطائرة مع أكواعها المتعمقة وجروفها القائمة، بحيث لا تتناسب إطلاقاً مع الأمطار الهزيلة الحالية ومع كميات المياه الشحيحة العابرة التي تجري في أودية فضفاضة. وقد تتسبب العواصف المطرية، والمحدودة مكانياً، في حدوث سيول جارفة عنيفة لا تستغرق أكثر من عدة ساعات، والتي تجرف مقادير هائلة من الحصى والوحل، وتتلاشى بعد مسيرة لا تتجاوز بضع مئات الأمتار أو الكيلومترات. غير أن الحت الشاقولي في هذه الأودية متوقف فلا تتعمق بل، على العكس، تتجزأ إلى قطاعات منفصلة عن بعضها بعدسات ركامية وتجنح الأودية للانطماس والتلاشي تحت ما تحمله من أنقاض. إذن إنها أودية مستحاثة تمّ حفرها في ماضٍ مطير ربطه العلماء بالزحوف الجمودية الرباعية في أوروبا الشمالية والتي دفعت بنطاقات المناخات الرطبة والمعتدلة نحو الجنوب، ولكن يبدو على الأرجح أنها اكتسبت ملامحها منذ نهاية أواخر الطغيانات البحرية فوق العتبة العربية أي منذ نهاية الميوسين في سورية.

غير أن هناك أنهاراً كبرى استطاعت مقاومة التجفف المناخي، وهما دجلة والفرات وكارون، لأنها أنهار تستمد تغذيتها من جبال طوروس وزاغروس ذات التغذية الثلجية شتاءً، أي أنها أنهار أجنبية المصدر عربية

المعبر، وتنقل لبلاد ما بين النهرين وحلاً رملياً دقيقاً تتخلى عنه ليترسب في الخليج العربي، وتدفع بساحله شيئاً فشيئاً نحو الجنوب، وإن كانت تترك أهواراً عديدة على شكل جيوب غير كاملة الإطماء، ولقد تشكل العراق الأدنى مما ربحه البر على حساب البحر خلال الأزمنة الجيولوجية الحديثة.

وفي العتبة العربية يتنافر نمطان من المناطق الجغرافية: هما الحافات الجبلية ذات البنية المائدية والهضاب والسهول وهي أكثر اتساعاً وامتداداً بكثير.

أولاً - الحافة الجبلية المائدية:

ينتصب اليمن كأنه مقدمة سفينة أو جؤجؤها، في الزاوية الجنوبية الغربية من القارة العربية، بحيث يشرف من علٍ على البحر الأحمر وبحر عمان. ولا تزال الركيزة الغرانيتية التي تكون بحد ذاتها ناهضة لعلو كبير، لا تزال تحمل أيضاً طبقات من صخور كلسية ومن لابات ترقد فوق تكوينات **الوجيد** الرملية ذات التطبق المتصالب، والتي تماثل الصخر الرملي (الحث) النوبي. وتسكب الرياح الموسمية الهندية والقادمة من جنوب غرب الحبشة أمطاراً صيفية وفيرة جداً، والتي تضاف إليها بعض الأمطار الربيعية التي تبدو كصدى بعيد للمناخ الرومي (المتوسطي). وهكذا يكون اليمن غنياً وكثير السكان منذ أقدم العصور. وفي الواقع يطلق عليه وعلى حضرموت اسم **بلاد العرب السعيدة**. وتشير الوثائق التاريخية لقيام مدنيات ما قبل الإسلام فيها كبقايامدنية حِمْيَر وبناء سد مأرب، الذي أعيد بناؤه من جديد في ١٩٨٧ بعد تهدمه بنحو ثلاثين قرناً.

وابتداءً من اليمن في اتجاه الشرق تأخذ الحافة الجبلية بالانخفاض بسرعة من ٢٠٠٠ إلى ١٠٠٠ م في حضرموت وإلى ١٠٠٠ م في ظفار. وتنال هذه المناطق أمطاراً صيفية لا بأس بها، ولما كانت الأرض في معظمها مؤلفة

من صخور كلسية فهي تبتلع مياه السيلان السطحي كيلا تردها إلّا في بطون الأودية العميقة غير المعاصرة كوادي حضرموت. إذن تلتجىء كل مظاهر الحياة لبطون هذه الأودية كما هو الحال في أودية نجد التي تنحصر الخضرة فيها بعد تجفف المناخ فالتجأت الحياة إليها واستبدلت بالمياه الجارية والأشجار البرية الوحشية أو المزارع. وفيما وراء ظفار تنطمس معالم التضاريس لتتحول إلى سهل منخفض ومقفر والذي يستمر حتى أقدام سلسلة عمان.

وهذه السلسلة، المؤلفة من صخور السربنتين قاتمة اللون ومن الصخور الكلسية، هي أكثر شبهاً بجبال منطقة جبل الكرد غربي عفرين وآمانوس أكثر من بقية الجبال العربية. وتمتد جبال عمان على ٦٠٠ كم وتنتصب على ارتفاع ٣٠١٩ م في الجبل الأخضر مشرفة على بحر وخليج عمان وتنال أمطاراً وفيرة وتتغطى فوق ارتفاع ٢٠٠٠ م بنبات كثيف ومشاجر مما دفع لتسميتها بالجبل الأخضر. ونظراً لعزلة هذه الجبال عن بقية البلاد العربية بالفيافي الرملية الشاسعة فسكانها كانوا ولا زالوا يتجهون نحو الهند وإيران[١].

هذا وتتنافر حافة العتبة العربية في شمال اليمن مع الحافة الجنوبية بملامحها، وعرة التضاريس والجبلية على الدوام. ونجد على طول البحر الأحمر وخليج العقبة ـ أي في بلاد عسير والحجاز ـ جروفاً رهيبة، هي جروف صدعية متقهقرة وعقبات وسروات[٢] تبدو وكأنها ابتداء لبلاد العرب السعيدة. وفي وسط المسافة بين عدن والعقبة يسمح وجود منخفضات في جبال الحجاز

---

(١) ويقول المثل عندهم (الهند هندي إذا قل ما عندي) بينما يقول مثل نجدي قبل اكتشاف النفط (الشام شامك إذا ما الدهر ضامك).

(٢) جمع سراة أي جبل ذو قمم منشارية وتظهر هذه العبارة في التسميات الإسبانية Sierra وحتى في كاليفورنيا (سييرانيفادا). أي السروات الثلجية.

لقيام مدن قامت بتأثير تجارة القوافل بين الشمال والجنوب، أي رحلة الشتاء والصيف، واكتسبت أهمية عالمية بعد ظهور الإسلام وهما مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وإلى الشمال من ذلك تلتحم العتبة العربية بشبه جزيرة سيناء بأخدود ضيق يمتد من الشمال إلى الجنوب، وحيث يتعاقب خليج العقبة والغور والبحر الميت ونهر الأردن. ويكون هذا القطاع مؤطّراً من الشرق بهضاب شرقي الأردن وحوران ومن الغرب بعتبة سيناء ومحدب الخليل والقدس ونابلس وهضاب الجليل.

وتحوي هذه المناطق حداثة كبيرة في المنظر، ذلك أن الركيزة المتبلورة التي كانت تهيمن في الجنوب تغوص هنا تحت رسوبات خرسانية (حتّية) ومارنية وكلسية ولا تعود للانكشاف أبداً. وهذه الصخور الكلسية هي التي تشكل من الآن فصاعداً هيكل قوام المنطقة، فالكتل الجبلية تصبح هنا أكثر انفتاحاً وأكثر تجزئة وتكون البلاد أكثر انفتاحاً بكثير ويتضافر المناخ هنا مع هذا التباين الأوروغرافي، فهنا ندخل في المجال الرومي (المتوسطي) المتصف بعذوبة حرارته وبوفرة أمطاره الشتوية. وتتفاقم هذه الصفات المختلفة في شمال خط عرض صور إذ يزداد تفتت البنية وكذلك تعقيد المشهد. ونجد على طول الأخدود المستقيم زمرة من أغوار أصغر ذات مرتسم معقد، وتتواصل فيما بينها بوساطة العاصي: وهي **البقاع** وارتفاعه بين ٨٠٠ و١١٠٠ م، والغاب ١٩٠ م، والعمق ٩٠ م مع تفرعاته. وتتألف المناطق المرتفعة، التي تغوص هذه الوهدات فيما بينها، من جبل لبنان الذي يسمو إلى ٣٠٨٨ م، وجبل لبنان الشرقي، ٢٨١٤ م، بالنسبة للبقاع، جبل اللاذقية ١٥٠٨ م، والزاوية ٩٨٠ م، اللذين يشرفان على الغاب. ويكون العمق وامتداده نحو الشمال في وادي النهر الأسود والنهر الأبيض، مغلقاً بقوس آمانوس الجبلي. وتكون

السهول الساحلية مؤلفة من لحقيات هشة وخصيبة وكثيرة الأمطار وتعد من أكثر بلاد آسيا الغربية خصوبة.

ويظل الحاجز الجبلي الساحلي متواصلاً، ابتداءً من النهاية الجنوبية لجبل لبنان وحتى طوروس، على ارتفاع يتراوح بين ١٠٠٠ و٣٠٠٠م ولا ينقطع تواصله إلاّ عند فتحة حمص طرابلس، وممر النهر الكبير الشمالي، ووهدة العاصي الأدنى عند سهل السويدية. وهكذا تضطر الرياح المتوسطية للصعود على الخواصر الجبلية وللتخلّي، خلال الفصل البارد، عن أمطار وثلوج كثيرة. ويتعرض السيلان السطحي الناتج عن ذلك للامتصاص في معظمه فوق السطوح الكلسية والحثّية (الصخر الرملي) الفسيحة، المتشققة، ويغذي ينابيع وجداول عديدة، فيكون بعضها دائم الجريان أحياناً مما يسمح بقيام زراعة مرواة.

ثانياً ـ هضاب الداخل وسهوله:

تمتد كل جزيرة العرب الداخلية والرتيبة والمنبسطة ضمن الزاوية المؤلفة من تلاقي جبال حضرموت واليمن والحجاز.

١ ـ وتستمد أول منطقة واسعة، تقع إلى الشرق من اليمن والحجاز، طابعها الفريد من تجاور مشهدين نموذجيين هما: **النفوذ والحرات**.

فالنفوذ، أي حقول الكثبان الرملية شديدة الاتساع، يدين بوجوده لانكشاف الركيزة الغرانيتية في شبه الجزيرة العربية. ويطلق الغرانيت بعد تفككه حبات الكوارتز (المرو) التي تتكدس، بعد أن تكنسها الرياح وتجرفها السيول، على شكل أكداس كثيبية، تدعى بالنفوذ، وتتناثر فوق قسم كبير من سطح الركيزة.

وتندسّ بين الركيزة التي هي عبارة عن شبه سهل مستحاث في الشرق،

وبين الطبقات الـرسوبية بحرية المنشأ المترسبة على أثر الطغيانات فوق أطراف شبه الجزيرة طبقات الصخر الرملي النوبي الذي نحتت فيه معابد أبي سمبل في مصر ومدينة البتراء في الأردن. أما في لبنان فتظهر الصخور الحثية هذه على شكل انكشافات فسيحة ذات ألوان حمراء وبنفسجية وبيضاء وصفراء وصهباء المتميزة جداً وحيث تتغطى بأشجار الصنوبر، مثلما نجدها على ضفاف نهر الزرقاء جنوب مدينة جرش الأردنية.

أما الحرات فهي بقايا أغشية بازلتية، منبثقة عموماً من براكين صغيرة الأبعاد، تكون أحياناً مرتصفة فوق الانكسارات. ولما كانت اللابة شديدة الميوعة فقد انسابت على مسافات كبيرة تمخضت في الأصل عن مشاهد غاية في فوضويتها، وخبثيّة، أو ذات قباب واسعة منهارة ومتشققة، كما نراها إلى الشرق من المدينة المنورة وجنوب شرق دمشق في منطقتي اللجاة والصفا. غير أن التفكك يحول الفوضى هذه إلى ميادين حجارة، وحيث تتراص الجلاميد المصنّفة حسب أبعادها، بجوار بعضها بعضاً بشكل وثيق. ونعثر على مشهد المسكوبة هذا في حوران وعلى أطراف الصفا. وتكون الحرات في مختلف أشكالها عبارة عن بقاع عسيرة يصعب السير فيها بالنسبة للإنسان وللحيوان.

وتواكب الحرات بشكل أمين الحافة الغربية للعتبة العربية. أما النفوذ فيمتد، على عكس الحرات، لمسافة بعيدة في اتجاه الشرق، في **الربع الخالي** الذي لم يتكشف عن أسراره إلّا في أواسط هذا القرن وبفضل الطيران والعربات الآلية لشركة الآرامكو، وهناك بقعة أصغر بقليل من الرمال تدعى **النفوذ الكبير** الممتد من حائل حتى واحة الجوف قرب حدود المملكة الأردنية.

٢ ـ وفي اتجاه الشمال، ونحو الشرق، يغوص الغرانيت وصخر حث

النوبة، في الشمال أو حث الوجيد في اليمن وعسير، تحت الصخور الكلسية والمارنية ذات الأصل البحري. ويصبح المشهد أبيض، باهر النور، كثير الحصى والحصباء، منبسطاً إلى ما لا نهاية، تلك هي **الحمادة**.

وفي أواسط شبه جزيرة العرب تنال الصحراء المرتفعة نسبياً، ١٥٠٠ م، في جوار حائل بعض الأمطار التي يبلغ متوسطها ١٠٠ مم والتي تغذي واحات غنية كالرياض وعنيزة وبريدة وحائل، تلك هي بلاد نجد. وتتمدد الحمادة النجدية حتى البادية السورية التي تكون منبسطة في قسمها الجنوبي. غير أن الواحات تنعدم هنا تماماً والآبار نادرة وعميقة وشحيحة المياه الملحة تارة أو المرة الجبسية تارة أخرى.

غير أن المشهد يتحول تدريجياً في اتجاه الشمال. فهنا يتجلى ارتداد صدمة التخلعات على حاشية البحر الأبيض المتوسط وبجوار طوروس وذلك بظهور التواءات. وتنفصل أول حزمة جعدات ضيقة عن جبل لبنان الشرقي في جنوب غرب دمشق لتشكل السلسلة التدمرية. وتمتد حتى تدمر منظومة من طيات أكثر عرضاً قادمة من منطقة حمص بوساطة الجبل الأبيض والضاحك وتستمر عبر الصحراء السورية حتى الفرات حيث يظهر جبل البشري. ويطلق على مجموع الحماد والطيات والقباب الالتوائية التدمرية، والهضبة الممتدة شمالاً حتى حلب، أي على كل ما ينحصر بين حافة البحر الأبيض المتوسط المأهولة وبين مجرى الفرات تسمية **الشامية**.

٣ ـ وتمتد فيما وراء الفرات وحتى الدجلة منطقتان مختلفتان تنفصلان عن بعضها حسب خط وهمي هو درجة عرض بغداد حيث يقترب الرافدان من بعضهما. ففي عالية بغداد تقع الجزيرة أو بعبارة أخرى ميزوبوتاميا العليا لدى الأقدمين: ذاك هو سهل فسيح يمتد على شكل حدور Glacis غير محسوس يمتد من أقدام جبال طوروس. وهناك جعدة جبلية ضيقة تقوم بقطع هذا

السهل من وسطه، ممتدة من الشرق إلى الغرب، موازية للالتواءات الطوروسية، فتشكل في الغرب جبل عبد العزيز الذي يرتفع غرب الحسكة إلى ٩٢٠ م، وجبل سنجار في الشرق وارتفاعه ١٤٦٣م، وهما التواءان جسيمان من صخور الكلس ينبثقان في وسط رسوبات رخوة ثلاثية. وتؤلف هذه الجعدة ـ التي تشكل سرجاً عند مدينة الحسكة وممراً يسمح بجريان الخابور ـ تخماً جغرافياً شديد الوضوح: ففي الشمال تقع الجزيرة العليا حيث تتضافر الأمطار الوفيرة وغنى الغرين والطمي المنحدرين من طوروس كي تسمح بقيام زراعة بعلية ومرواة، وفي الجنوب من هذا الالتواء يستفحل الجفاف المتحالف مع عقم التكوينات الجسية والملحية لتجعل من الجزيرة الدنيا بادية رعوية.

وعند سافلة بغداد ندخل في منطقة منخفضة تدعى ميزوبوتاميا السفلى أو العراق الأدنى أو سواد العراق، إذ يندر أن يزيد الارتفاع هنا على ٢٥ م وحيث تكون الأرض مؤلفة من غرين قام النهران بتوضيعه منذ ٦٠٠٠ عام. غير أن رداءة الإطماء وظاهرات الانكباس Subsidence يعملان على عرقلة الصرف، وبقاء أهوار شاسعة لا تزال ماثلة حتى الآن. وهنا ندخل في البادية القفراء بمجرد أن نبتعد قليلاً عن مجرى الفرات غرباً. وقد كانت هذه المنطقة مهد حضارة سومر وبابل ومن أكثر مناطق العالم خصوبة، غير أن إهمال منظومات الري في أوقات الفوضى عرّض نحو نصف هذه المناطق للغمر بالمياه التي تتعمق في مجاريها تارة أو تطفح على شكل مستنقعات أو أهوار، واستفحل التلوث الملحي، ويستدعي الأمر القيام بمشاريع صرف هائلة لإعادة إعمار هذه المنطقة وردّ الحياة اليها، بعد أن حوّلها التملح إلى صحارٍ ملحية بيضاء لا تبتعد عن ضفاف الفرات أكثر من كيلومتر واحد.

٤ ـ وأخيراً يمتد إلى الشرق من دجلة وحتى سلسلة زاغروس ما يدعى

بالعراق الأعلى الذي يعد امتداداً للجزيرة العليا مع جعداته الجبلية المتمددة عبر السهب المؤلف من رسوبات حديثة. فالقسم الشمالي الغزير الأمطار، والذي تخترقه من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي أنهار قديرة تهبط من زاغروس، كالزاب الكبير والزاب الصغير وديالى، يؤلف منطقة خصيبة كثيفة السكان وحيث قامت مشاريع إروائية على شكل سدود على هذه الأنهار المذكورة، كما تملك هذه المنطقة حول كركوك أحد أغنى مكامن النفط بالعالم، أما القسم الواقع إلى الجنوب من نهر ديالى فهو بادية قفراء.

وتحتفظ كل هذه البلاد فيما بينها ـ مهما كان تنوعها ـ بمسحة تماثل مدهشة، تدين بها لوحدة بنيتها المائدية المشتركة: فتهيمن على المشهد في كل مكان الخطوط الأفقية الكبرى، كما أن جبال المنطقة ذاتها، مثل جبال حمرين، تتصف بتواضعها، فلا نجد قمماً ولا ذرا حادة ولا مسلّات ولا سروات منشارية كجبال عسير والحجاز، بل أسواراً جبلية صخرية تنهض دفعة واحدة نحو السماء. فلا نعثر هنا على تنوع في التفاصيل بل نجد تضريساً عنيفاً، ثقيلاً، مكتنزاً، مفصّلاً على مقياس كبير يذكّرنا بإفريقيا أكثر مما يذكرنا بأوروبا أو حتى بآسيا.

ويدعم المناخ هذه الصفات أيضاً، فهو عنيف بدوره أيضاً، ويعمل على استفحال مفارقات التضريس كما يعمل النبات الفقير على تعرية التضاريس ويعرض للأنظار ملامح هندسة البنية الجيولوجية العميقة. فتمتد من اليمن حتى طوروس بلاد ذات آفاق فسيحة، قاسية وعارية تركت بصماتها على المدنّيات المتعاقبة. ذاك هو مجال القبائل البدوية الكبرى حتى الربع الأول من القرن العشرين، ومنطقة عبور مفتوحة في وجه كل الاجتياحات ومحرومة من إطارات داخلية حسنة التحديد، وأكثر مواءمة لقيام إمبراطوريات أكثر من مواءمتها لقيام أمم ودول متمايزة، وما الكيانات السياسية المفصولة عن بعضها

بحدود هندسية مرسومة بالمسطرة أكثر من دول اصطناعية، هشة، رسمتها بريطانيا وفرنسا بعد انهيار الامبراطورية العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى، وقامت لمصلحة أفراد وأسر حاكمة، أي مجالات تحقق شهوات هواة تسلق الكراسي، وتكريس انفصالها، أكثر مما تخدم الشعب العربي وتساعد على تفتحه ورخائه وعزّته.

الجمهورية العربية السورية

الوضع الجغرافي: أكبر أقطار المشرق العربي المشرفة على البحر الأبيض المتوسط. فهي تتاخم تركيا من الشمال، ومن الشرق العراق، ومن الجنوب المملكة الأردنية الهاشمية، ومن الجنوب الغربي فلسطين ومن الغرب لبنان والبحر الأبيض المتوسط.

الوصف الطبيعي: يطل على ساحل البحر الأبيض المتوسط سهل ساحلي ضيق يتكىء على سلسلة من الجبال التي تسمو إلى ١٥٠٠ قرب صلنفة. وإلى الشرق من هذه السلسلة الساحلية، التي تكون مؤلفة من صخور رسوبية في الشمال وبازلتية في الجنوب، يجري نهر العاصي من الجنوب إلى الشمال في سهول حمص وحماة وسهل الغاب الذي تم انقاذه من المستنقعات الوخيمة، والذي أصبح درة السهول الزراعية السورية. وإلى الجنوب من ذلك، وعلى مقربة من الحدود اللبنانية ترتفع سلسلة لبنان الشرقية في جبل الشيخ إلى ٢٨١٤ م. وإلى الشرق من حوض العاصي والتضاريس اللبنانية. تمتد هضبة فسيحة تنخفض بلطف في الشمال نحو مجرى الفرات الأوسط ونحو الجنوب في اتجاه بادية الشام وسواد العراق (شكل ١). وتنبثق من هذه المنطقة الصحراوية، التي تشغل ثلثي سورية بالمساحة ـ من هنا وهناك ـ مرتفعات نذكر منها كتلة جبل العرب البركانية في الجنوب الشرقي وجبال
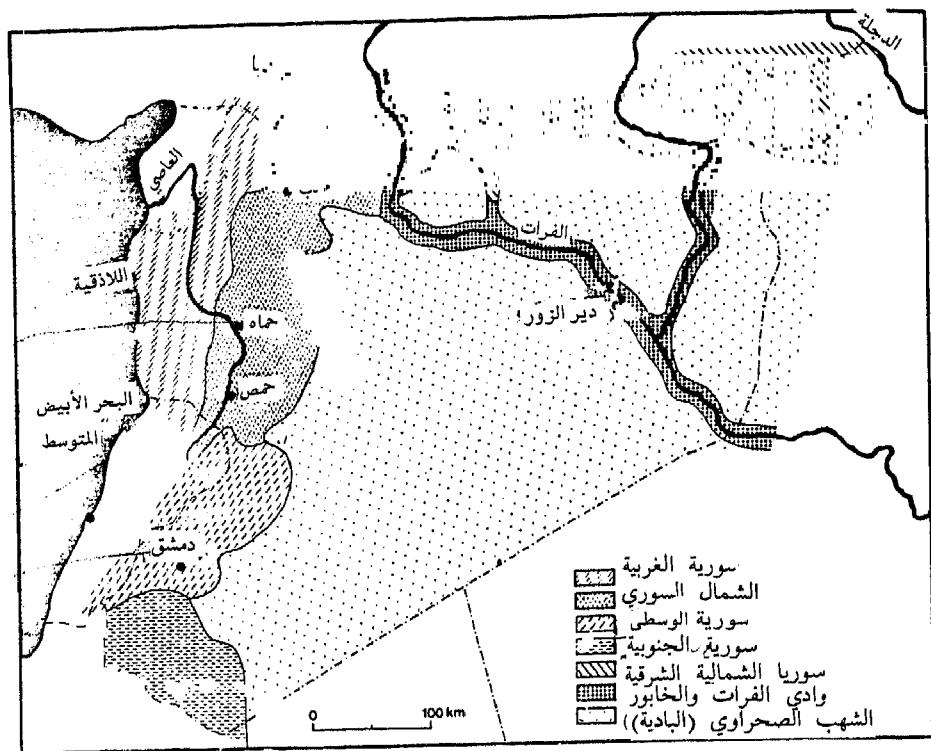
أقاليم سورية الجغرافية

شكل (١)

القلمون التي تحوي بعض الغوطات الصغيرة التي اندثرت في معظمها بسبب الضخ الجائر وتموين المدن بالمياه، وتدمر والسخنة، مثلما تمتد في هذه البادية ذات الآفاق اللامتناهية أشرطة من الخضرة، حيث تقوم الزراعة على ضفاف الفرات (شكل ٢) ورافده السوري الرئيس، وهو الخابور الذي يقدم ٣٥ متر مكعب بالثانية. وفي النهاية الشمالية الشرقية يؤلف نهر الدجلة الحدود مع تركيا على مسافة خمسين كيلومتر.

هذا وتتمتع المنطقة الغربية بمناخ رومي (متوسطي) مع تهطال (شكل ٣) يتمركز في المدة الممتدة بين تشرين الأول ونيسان ولكن تكون أكثر غزارة فوق المرتفعات وحيث تكون ثلجية بدءاً من ارتفاع ١٥٠٠ م.
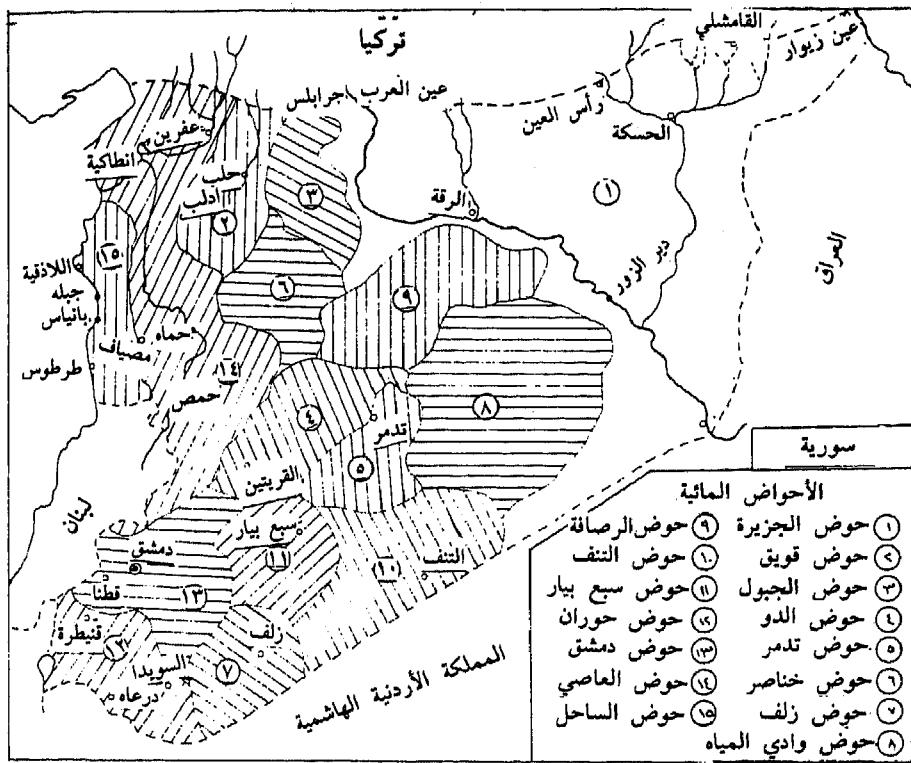
شكل (٢)

وبعد أن كانت سفوح الجبال مستورة بغابات كثيفة من الصنوبر والأرز والسنديان والسرو، أصبحت اليوم شبه معرّاة، أما في الداخل فتكون التهطالات ضعيفة جداً، كما تكون الفروقات الحرارية اليومية والفصلية محسوسة ويتخلّى نبات السهب عن مكانه تدريجياً للصحراء الجرداء عندما يبتعد عن البحر مسافة تزيد عن ١٠٠ كم باستثناء القوس الشمالي الشرقي، إذ تكون أراضي الجزيرة العليا الواقعة إلى الشمال من جبل عبد العزيز وجبل سنجار عبارة عن سهول مترامية تجود فيها زراعة الحبوب ولا سيما القمح والشعير.

السكان: بلغ عدد سكان القطر العربي السوري ١١,٣ مليون نسمة في ١٩٨٧ وبلغت نسبة التزايد السنوية في ١٩٨٥ مقدار ٣,٨٪، أي يتضاعف

مخطط مناطق الأمطار السنوية في سورية
البحر الأبيض المتوسط
تركيا
تدمر
الموصل
المملكة الأردنية الهاشمية
الاصطلاحات
الخابور
دير الزور
مخطط معدل الأمطار السنوية في سورية
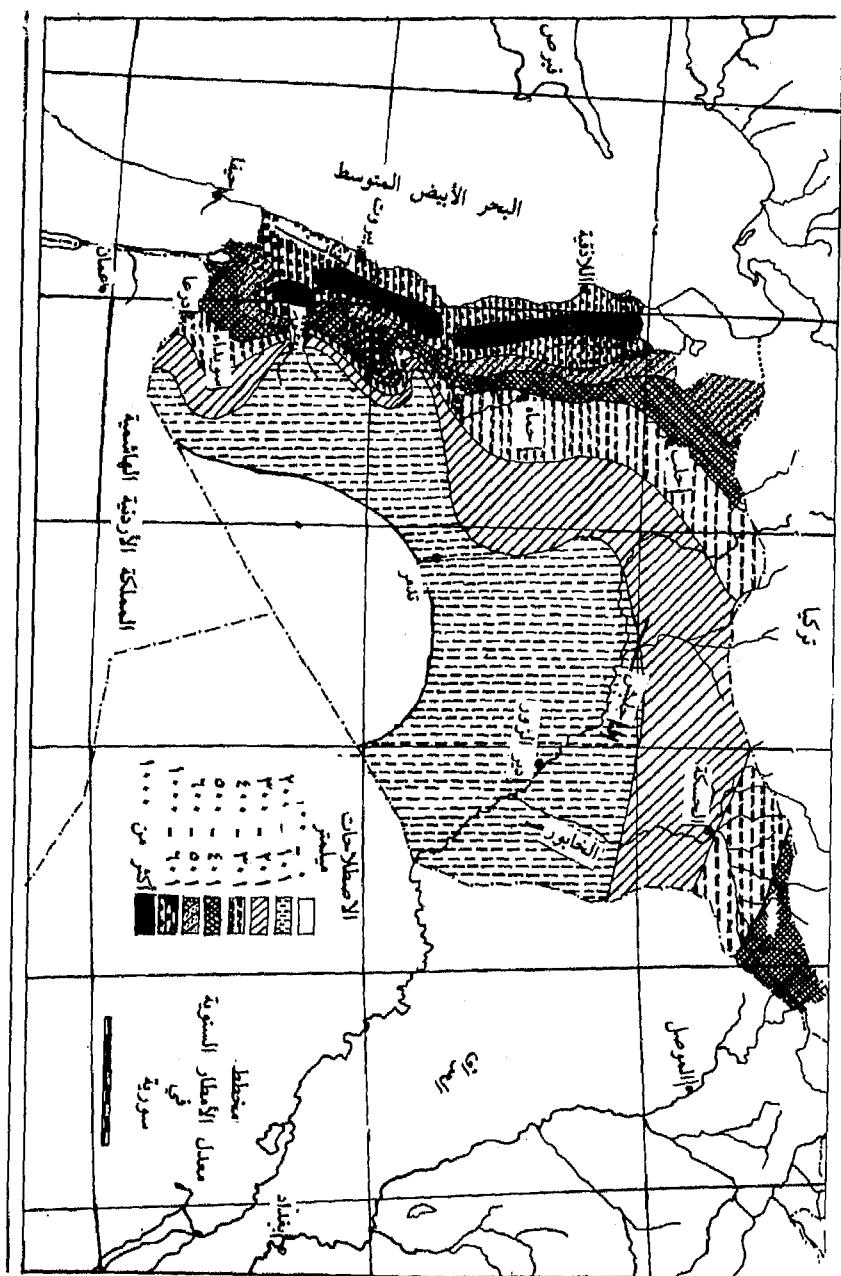
شكل (٣)

عدد السكان مرة كل ١٩ سنة، هذا علماً بأن متوسط تزايد سكان العالم ٢٪ سنوياً، وفي الولايات المتحدة واليابان والاتحاد السوفيتي بحدود ١٪ أي يتضاعف عدد السكان هناك مرة كل ٧٠ سنة. وتعود شدة التزايد في سورية لتحسن الأوضاع الصحية وجر مياه الشرب النقية التي تخفض نسبة وفيات الأطفال إلى النصف، والتي انخفضت من ٣٠٠ بالألف في ١٩٣٥ إلى ٦٠ بالألف حالياً مقابل ١٠ بالألف في المانيا الغربية. وبعد أن كانت غالبية السكان تعيش بالأرياف حتى أواسط هذا القرن انقلب الوضع حالياً بسبب ميكنة الزراعة من ناحية والهجرة الريفية نحو المدن. والناجمة عن عجز الأرض عن تأمين معيشة سكان متكاثرين من ناحية أخرى.

المدن الرئيسة:

دمشق: عاصمة البلاد ويتجاوز عدد سكانها حالياً ثلاثة ملايين أو حوالي ربع سكان البلاد، في حين كان عدد سكانها قبل عشرين سنة لا يتجاوز ٨٠٠٠٠٠ نسمة و٢٥٠٠٠٠ فقط في ١٩٢٥. وتنتشر هذه المدينة على سفوح قاسيون وتمتد أحياؤها الجديدة على حساب غوطتها التي يرويها بردى وفروعه.

وتؤلف دمشق المركز الصناعي والتجاري الأول في سورية. وقد اكتسبت شهرة كبيرة منذ العصور القديمة بمنتجاتها الحرفية وبأقمشتها وبمطرزاتها وبمعادنها المنقوشة، واليوم بصناعة النسيج القطني والصوفي ومن الخيوط التركيبية المستوردة، هذا فضلاً عن الصناعات الغذائية المعتمدة على المنتجات المحلية كالأطعمة المحفوظة والسكريات.

ولما كانت دمشق أقدم مدينة على قيد الحياة إذ تعود لحوالي أربعين قرناً، فقد شهدت عصوراً مجيدة تشهد عليها الأوابد والآثار القديمة فيها وعلى

رأسها مسجد بني أمية، وكنيسة حنانيا، وأبواب المدينة القديمة، والقلعة الباقية وسورها، مثلما تتمتع بموضع من الطراز الأول في المبادلات بين الشرق والغرب يتمثل بمطارها الدولي.

حلب: ثاني مدينة بعدد السكان والفعالية الاقتصادية في سورية، وبعد أن كانت تضم ٢٣٠٠٠٠ نسمة في ١٩٣٠ صعد عدد سكانها إلى ٦٣٩٥٠٠ في ١٩٧٠، وإلى مليون في ١٩٨١، ويزيد حالياً عن ١,٥ مليون نسمة، وقد بلغ معدل نمو سكانها ٤٢,٨٪ في ما بين عامي ١٩٧٠ - ١٩٨١. وهي مركز صناعي هام وعريق، وعلى الخصوص صناعة النسيج الحديثة والحرفية، وصناعة الصابون وعصر الزيوت النباتية، والأسمنت والمصابيح الكهربائية والجرارات الخ.. وقد عانت حلب كثيراً من تجزئة دول الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى، إذ كان الأناضول سوقها المفضل، كما خسرت اسكندرونة التي كانت رئتها، مثلما عانت طويلاً من شح المياه إلى أن تـمَّ جر مياه الفرات إليها في ١٩٥٦، مما ساعد على تزايد نموها العمراني. وتلعب حلب دور الصينية الدوارة بحسبانها ملتقى ومفترق طرق دولية وإقليمية، وذلك من وجهة النظر للطرق البرية والحديدية وحتى الجوية، بعد أن أصبح مطار النيرب ذا طابع دولي نوعاً ما، وقد عرفت حلب الكهرباء لأول مرة عام ١٩٣٣ وكذلك المياه النقية من عين التل.

حمص: وكانت تضم عام ١٩٦٨ مقدار ٢٣٢٠٠٠ نسمة، ويزيد عددهم حالياً عن ٦٠٠٠٠٠ نسمة. وهي مركز لتجارة الترانزيت. وتغلب على بيوتها الحجارة السوداء البازلتية مما يميزها عن سائر مدن سورية الكبرى. ويقتصر نشاطها الصناعي على مصانع السكر من الشوندر والمطاحن الكبرى، وتقع المدينة في سهل فسيح خصيب إلى الشرق قليلاً من نهر العاصي.

حماة: مدينة عريقة ذات شهرة عالمية بنواعيرها، وفي المدينة قرابة

٤٠٠٠٠٠ نسمة. يتوسطها نهر العاصي لذا تنتشر على جانبيه. وبعد أن شهدت نهضة صناعية بقيام مصنع لعجلات السيارات ولغزل الأصواف المحلية وغزل القطن الرفيع ولصهر الحديد بالاضافة إلى مصنع للأسمنت بجوارها في قرية كفربهم حيث تم العثور صدفة على كهف حاوٍ صواعد ونوازل كارستية، استمرت حماة في وظائفها الريفية إذ تساهم في تطوير منطقتها، وينعكس ذلك على أنشطة بعض سكانها كاهتمامهم بصناعة الأجبان والزبدة والسمن.

اللاذقية: مدينة عريقة في القدم تعود لأيام السلوقيين خلفاء الإسكندر الكبير، وفيها أول وأهم ميناء سوري حديث يستقبل سائر أنواع البواخر باستثناء ناقلات النفط التي ترسو في ميناء بانياس، وشاحنات الفوسفات التي يختص بها ميناء طرطوس. وقد نمت المدينة نمواً متسارعاً ولاسيما منذ أواخر الخمسينيات، حتى أصبحت مدينة كبيرة يغلب عليها طابع الحداثة بعد أن أضيفت إليها وظيفة سياحية على شواطئها، وبعد أن كان عدد سكانها لا يتجاوز ٥٠٠٠٠ نسمة في منتصف القرن العشرين ارتفع إلى ١٠٠٠٠٠ في ١٩٧٠ وأكثر من ٣٥٠٠٠٠ حالياً. وقامت فيها بعض الصناعات الحديثة كصناعة الخشب المعاكس وزهت كثيراً خلال دورة ألعاب البحر الأبيض المتوسط في خريف ١٩٨٧، وازدادت أهميتها بعد أن اتصلت بالخط الحديدي مع الداخل حتى أقاصي الجزيرة العليا، ويخدمها مطار محلي للخطوط الداخلية.

دير الزور: حاضرة وادي الفرات وتمتد على الضفة اليمنى أي في الشامية على طرف فرع صغير للنهر وتمتد من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي أي يظل طولها أكبر من عرضها بكثير. وهي سوق كبيرة للمواشي والأصواف ومنتجات الألبان. وتتصل بجسر معلق مع الجزيرة فضلاً عن جسر حديث عريض تم بناؤه في عهد الاستقلال، وقد ازدادت أهميتها كثيراً بعد

امتداد الخط الحديدي إليها والذي يصلها بحلب والجزيرة، في الوقت الذي اتصلت بدمشق بطريق معبدة تمر من تدمر. وتلعب هذه المدينة دوراً هاماً في تطوير وادي الفرات وقامت فيها معامل لحلج القطن، كما قام بجوارها مصنع لانتاج الورق، ويزيد عدد سكانها على ٢٥٠٠٠٠ نسمة.

الحسكة: مدينة حديثة تعود لعام ١٩٢٥ بعد اختيارها عاصمة لمنطقة الجزيرة العليا، وتقوم قرب مقرن نهر الجغجغ بنهر الخابور وإلى الغرب من تل كوكب البركاني. ومخطط المدينة حديث جداً يساعد عليه طبغرافيتها السهلية، وهي وإن كانت أقل سكاناً من القامشلي الواقعة عند الحدود التركية، فإن وظيفتها الإدارية تمنحها أهمية أكبر وينتظر لها مستقبل لامعاً بعد تنفيذ السد على الخابور في سافلة هذه المدينة.

الوضع الاقتصادي

بعد أن خضعت بلاد الشام خلال قرون عديدة لحكام غرباء عنها، لم يهتموا كثيراً بتقدمها الاقتصادي والاجتماعي والمديني بقدر اهتمامهم بالحصول على الأموال وتجنيد شبابها للحروب المتلاحقة، فقد قامت سورية بعد حصولها على الاستقلال الحقيقي في أعقاب الحرب العالمية الثانية بالتصدي لوضع اقتصادي عسير، بسبب فقدان الصناعة الحديثة، باستثناء مصنع واحد لغزل القطن ونسجه ومصنع للكونسروة وآخر للإسمنت، ولوجود بنى متأخرة جداً في القطاعات الأساسية في مضمار الزراعة، كنظام المشاع في ملكية الأراضي الزراعية مما كان يحول دون الاستغلال العقلاني للأرض، ووجود ملكية زراعية واسعة، وانتشار المستنقعات الوخيمة في المنخفضات الرطبة كالروج والغاب، فضلاً عن رداءة وعجز شبكة المواصلات.

الزراعة: وتشكل الفعالية الرئيسة في البلاد وتوفر العمل لحوالي ثلث اليد العاملة، غير أن البوادي والصحراء والجرود الجبلية والهضاب الكارستية

التي تغطي لوحدها أكثر من ٧٥٪ من مساحة البلاد، وضرورة تبوير الأرض الزراعية دورياً باستثناء المناطق التي تنال أكثر من ٤٠٠ مم، يجعل المساحة المزروعة فعلاً لا تتجاوز سدس مساحة البلاد أو ٣ ملايين هكتار، هذا في حين يمتد الري على حوالي ٤٠٠٠٠٠ هكتار، ويظل خطر الملوحة جاثماً في الأراضي المرواة بينما يتهدد التصحر السفوح الجبلية بسبب ظاهرة انجراف التربة.

وقد أنجزت الدولة منذ حصولها على الاستقلال، ورغم أعباء الدفاع الهائلة الناجمة عن قيام الدولة الصهيونية، مشاريع عملاقة كتجفيف مستنقعات الغاب والروج والبقيعة، كما تم بناء سد الفرات وسد تشرين وسد البعث على النهر المذكور بقصد الري وإنتاج الطاقة الكهرمائية، كما أقامت سد الرستن وسد محردة وسد العشارنة على العاصي، هذا فضلاً عن حوالي مئة سد سطحي في مختلف المحافظات والبادية مما ساهم في توسيع النطاق المروي، فضلاً عن تحديث الزراعة وميكنتها وتنويع المحصولات الزراعية كالشوندر السكري وفول الصويا ولا سيما الحمضيات في السهل الساحلي.

وتظل المنتجات الزراعية الرئيسة هي الحبوب كالقمح والشعير والخضار الجافة والطرية والثمار والقطن الذي لا يزال المادة الأولى في قائمة الصادرات، ويتنافس مع الفوسفات بالقيمة. غير أن التكاثر السكاني أدّى إلى الكف عن تصدير المنتجات الغذائية الحيوانية والنباتية، مما انعكس أثره على الميزان التجاري، وأصبحت البلاد مستوردة للعديد من المواد الغذائية، وأدى لتقليص حجم الاستثمارات الضرورية في التصنيع والتجهيزات، إذ أصبحت البلاد تعتمد أكثر فأكثر على الاستيراد من الخارج لمواد كانت تعدّ من صادراتها التقليدية كالحبوب والسمن وزيت الزيتون وزيت القطن، ولكن دون أن تحل سلع أخرى في قائمة الصادرات.

ويتألف القطيع من الأغنام والماعز وتتقلص أعداد الخيول والحمير والبغال بسبب انتشار وسائل النقل الحديثة وكادت الإبل تختفي في ميدان النقل أو للذبح لتقديم اللحم.

الصناعة: وقد شهدت توسعاً شديداً في ميدان الإسمنت والغزل والنسيج وإنتاج الأسمدة الآزوتية والمصابيح الكهربائية وصناعة عجلات السيارات والورق والجرارات والإلكترونيات، ولاسيما تكرير النفط في مصفاة حمص وبانياس وصناعة الزجاج.

أما موارد الأرض المعدنية فلا تزال محدودة، أو يكون بعضها غير اقتصادي كخامات الحديد (شكل ٤). والمجدي الفوسفات الذي يستغل في
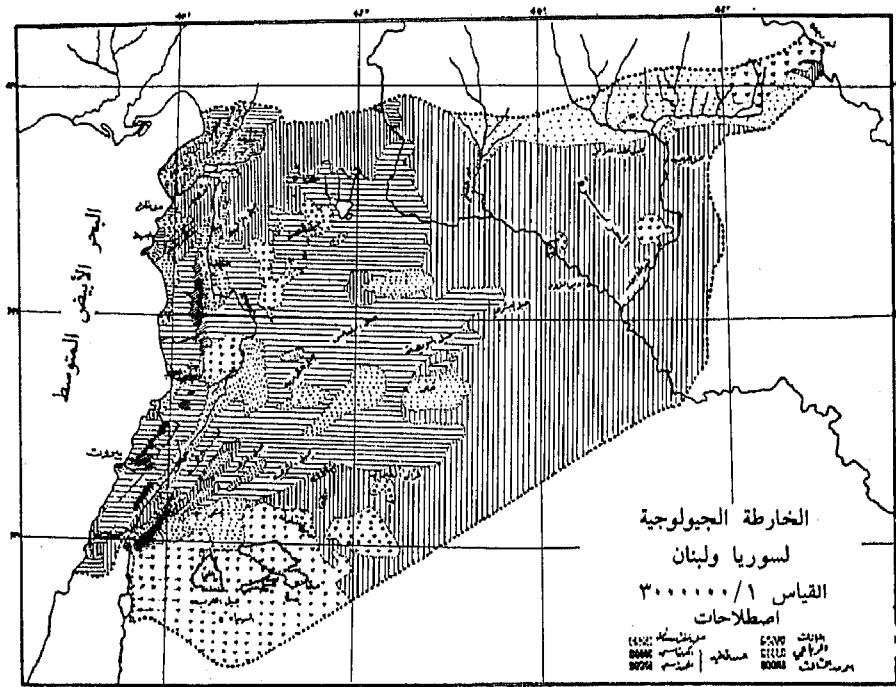
شكل (٤)

مناجم خنيفيس بين دمشق وتدمر والذي يصدر من ميناء طرطوس، والنفط من حقول الجزيرة العليا وأخيراً من قرب دير الزور والغاز من حقل الجبسة جنوب شرق الحسكة، والملح الصخري من مناجم التبني للاستهلال المحلي والذي يمكنه أن يستثمر كمادة أولية في صناعة الصودا الكاوية. هذا وتقدم الصخور الرسوبية وبعض الصخور الخضراء المادة الأولية لصناعة البلاط والرخام، ولكن تضطر البلاد لاستيراد المرمر من إيطاليا وتركيا وأحياناً من السعودية.

ولا يزال الميزان التجاري عاجزاً شأن كل الاقطار العربية غير النفطية، وإن كان يتغطى جزئياً بما يجلبه العاملون في الخارج والمهاجرين ومدخولات السياحة.

وتتم المواصلات بفضل شبكة من الطرق المعبدة الجيدة التي تربو أطوالها على ٢٠٠٠٠ كم، ثلاثة أرباعها مزفتة وشبكة من الخطوط الحديدية ذات المقياس الدولي، باستثناء الخط الضيق الحجازي ويجري الآن مد خط الحديدي الذي سيصل بين اللاذقية وطرطوس.

هذا وقد دخل حقل دير الزور النفطي ميدان الانتاج بمعدل ٥٠٠٠٠ برميل يومياً من مجموع قدره ١٧٥٠٠٠ برميل تنتجه البلاد ومع ذلك لا يغطي كل حاجات الاستهلاك الوطني، هذا كما انخفضت نسبة العاملين بالزراعة من ٤٧٪ في ١٩٧٠ إلى ٣٥٪ في ١٩٨٥، ولكن قيمة الانتاج الزراعي لا تمثل أكثر من ٢٠٪ من الناتج القومي الخام. وتتعرض المساحات المرواة للتقلص في بعض الأمكنة ولاسيما في وادي الفرات والخابور بسبب زحف الملوحة التي تتلف ٥٠٠٠ هـ في العام مقابل ٢٠٠٠٠ هـ بالعراق[1]، هذا في الوقت

(١) غير أن رقعة المساحة المرواة تزداد بسرعة بفضل السدود الساحلية الجديدة التي ستروي ٢٨٠٠٠ هكتار من الأراضي الزراعية الخصبة، يروي نهر السن منها ٩٠٠٠ هـ ولاسيما سد نهر الكبير الشمالي الذي سيروي ١٤٢٠٠ هـ.

اللوحة الاقتصادية

المادة	١٩٦٩	١٩٨٦
القمح	٦٢٥٠٠٠ طـ	١,٩ م طـ
الشعير	٢٣٥٠٠٠ ط	١,١ م ط
الحمضيات	١٥٠٠٠ طـ	٩٤٠٠٠ طـ
العنب	٢١٥٠٠٠ طـ	-
بذرة القطن	٢٦٤٠٠٠ طـ	٣٠٠٠٠٠ طـ
القطن	١٤٧٠٠٠	١٦٢٠٠٠ طـ
شوندر السكر	-	٢٨٩٠٠٠ طـ
حمص	-	٥٠٠٠٠ طـ
زيت الزيتون	٤٨٠٠٠ طـ	٧٠٠٠٠ طـ
سمسم	١٠٠٠٠ طـ	١٢٠٠٠ طـ
تبغ	١٠٠٠٠ طـ	٢٠٠٠٠ طـ
الأبقار	٥١٠٠٠٠	٧٤٠٠٠٠
الأغنام	٥ م	١٤,٦ م
الماعز	٧٤٣٠٠٠	-
الصوف	١٤٠٠٠ طـ	٣٢٠٠٠ طـ
السكر	٣٠٠٠٠ طـ	-
الأسمنت	١ م طـ	٤,٣ م طـ
خيوط القطن	٢٨٣٠٠ طـ	٣٤٨٠٠ طـ
البترول	٥	١٠ م طـ
الكهرباء	١ مليار ك س	٧,٤ مليار ك س
الاستيراد	-	١٥,٥ مليار ل س
التصدير	-	٦,٤ مليار ل س

الذي يتكاثر فيه السكان بنسبة ٣,٨٪ سنوياً (شكل ٥). وتكون المبادلات مع دول السوق الأوروبية المشتركة محدودة لا تمثل سوى ٣٣٪ من الاستيراد و١٨,٤٪ من الصادرات، هذا في الوقت الذي تزداد فيه صادرات الفوسفات نحو الاتحاد السوفيتي، ويقدر احتياط الفوسفات السوري ٥٠٠ مليون طن أو ما يعادل إنتاج المغرب ـ وهو أول قطر بالعالم في إنتاجه وفي احتياطاته ـ مدة ٢٠ سنة حسب الانتاج الحالي.
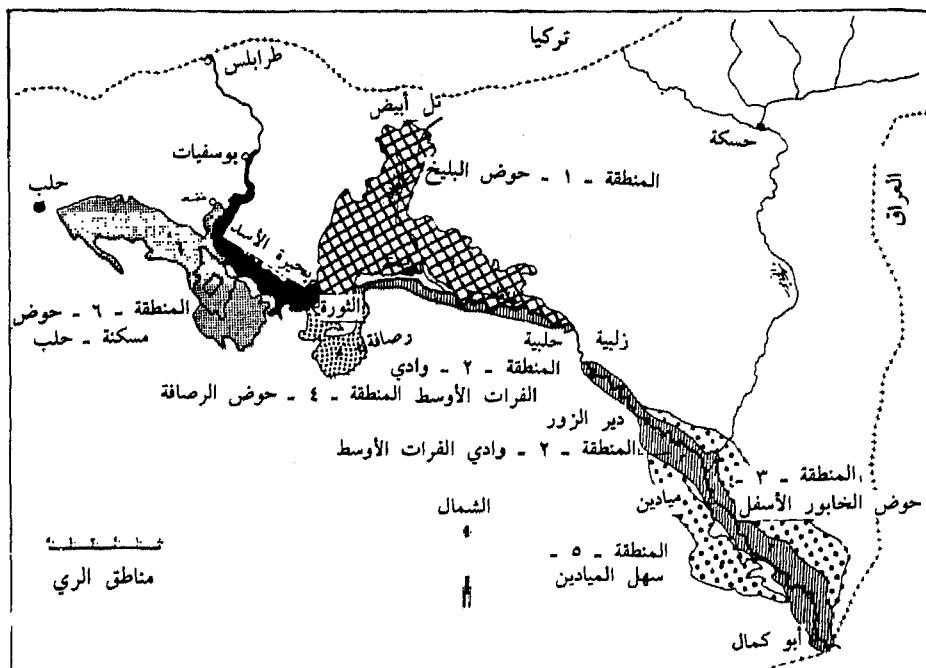
شكل (٥)

خريطة الجزء الشمالي الشرقي من سورية تبين موقع سد الفرات وبحيرة الأسد ومشاريع استصلاح الأراضي.

الجمهورية اللبنانية

الجمهورية اللبنانية بناء سياسي من نمط فريد في المشرق العربي، قام بناءً على توازن بشري دقيق بين ديانات وطوائف شتى، وبناء على رغبة من فرنسا. وقد ولدت على إثر تفكيك أوصال الإمبراطورية العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى حول نواة تبلور أساسية، هو الجبل اللبناني الغربي، الذي يظل دائماً مركز ثقل الدولة، والذي ضمت اليه الدولة المنتدبة منطقة طرابلس في الشمال، وجبل عامل في الجنوب والبقاع والسفوح الغربية لجبل لبنان الشرقي (شكل ١).

ويفسر هذا التكدس البشري الفريد في العالم العربي بشروط موائمة للغاية واستثنائية، إذ يبدو جبل لبنان بالموازنة مع سائر جبال المشرق العربي أكثرها ارتفاعاً، إذ يتجاوز ٣٠٠٠ م، وبالتالي يكون أكثرها أمطاراً (شكل ٢ وشكل ٣). ويضاف إلى ذلك انعدام في التناظر الطبغرافي موائم للغاية، فالسفح الشرقي لجبل لبنان عنيف وشبه قائم، في حين يكون السفح الغربي مائلاً بلطف ومنفتح الصدر للنفحات البحرية الندية. وتمتد سلسلة جبل لبنان الغربي بموازاة الساحل على مسافة ١٧٠ كم تقريباً؛ بحيث تحصر بينها وبين البحر سهلاً ساحلياً ضيقاً يتفاوت عرضه بشدة، حتى أنه لينعدم تماماً أحياناً، فيتلاحم البحر والجبل مباشرة في بعض الأحيان. كما عند رأس

الكبير
الأسطوان
عرقا
البارد
طرابلس
جبل عكار
نهر العاصي
الجوزة
بترون
جبل المكمل
جبل المنيطرة
جبل زمران
ابراهيم
جبل صنين
بيروت
الكلب
جبل
الكنيسة
بيروت
جبل
الباروك
الدامور
الأولي
صيدا
جبل الشيخ
أنهار لبنان
الزهراني
الليطاني
صور
نهر الحاصباني
أكثر من ١٥٠٠ متر
١
١١٠٠٠٠٠
٢,٥
٥٠ كم

شكل (١)
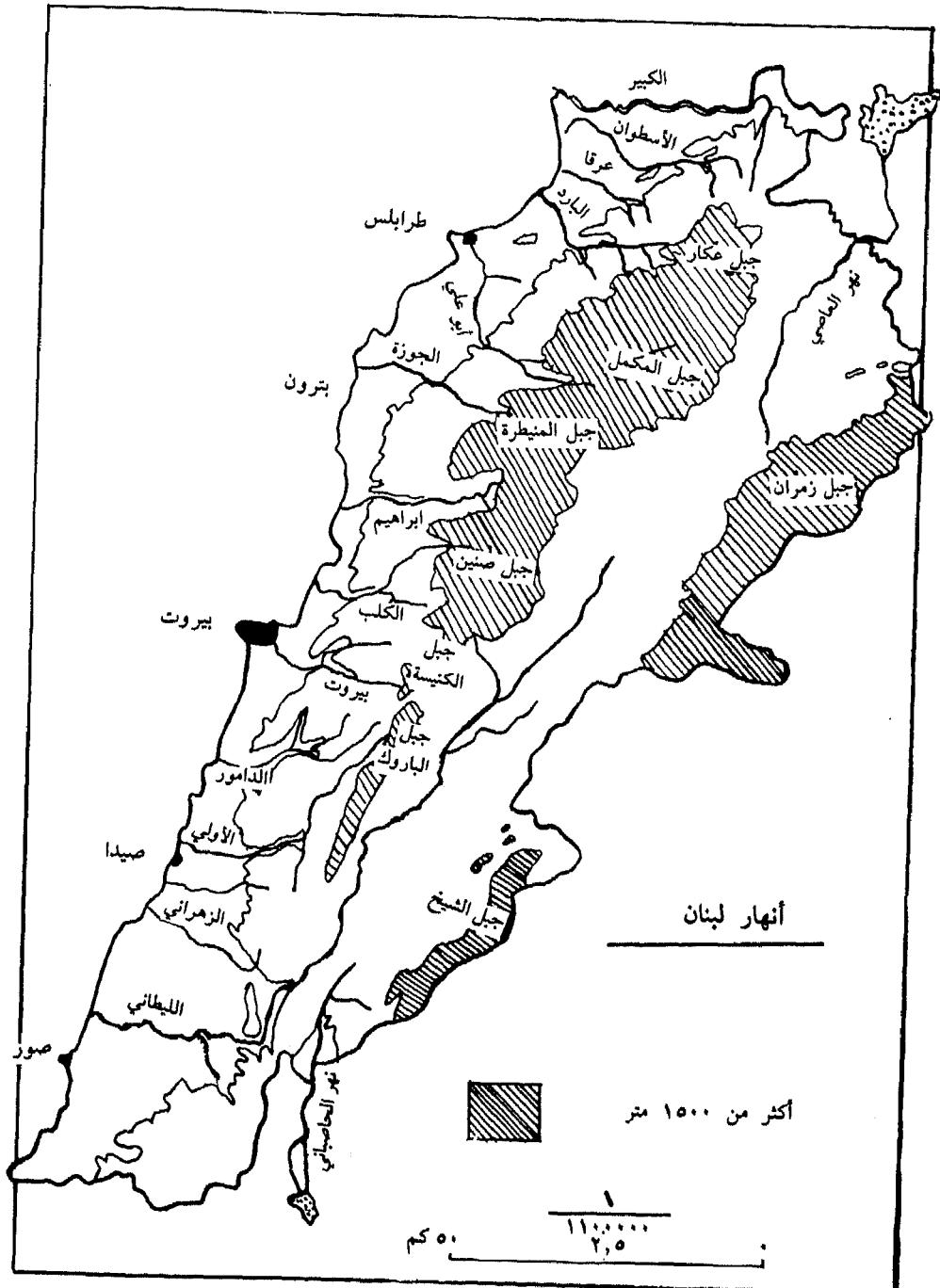
خارطة المناخات في لبنان

١ - مناخ رومي ساحلي رطب
٢ - مناخ رومي رطب
٣ - مناخ رومي جبلي
٤ - مناخ رومي قاري
٥ - مناخ رومي قاري جبلي
٦ - مناخ سوري
٧ - مناخ صحراوي
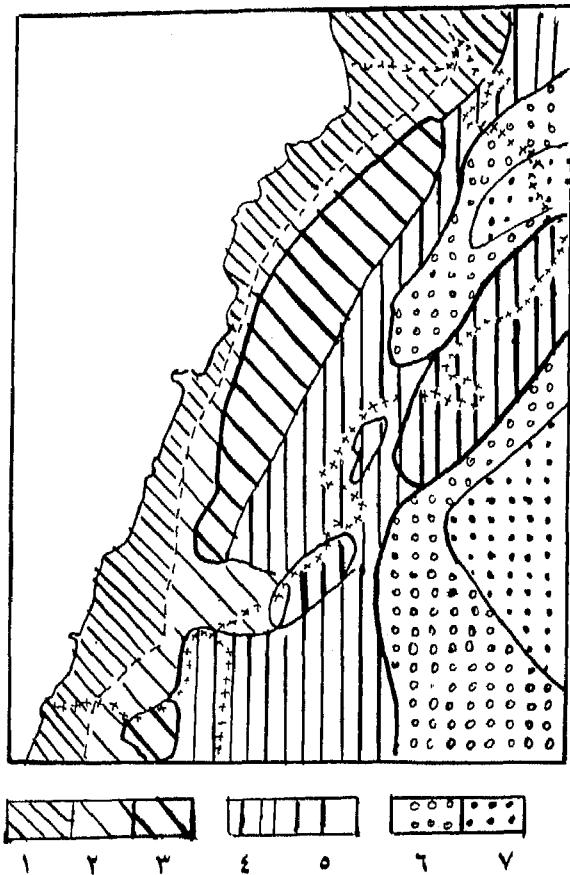
شكل (٢)

الشقعة (شكّا)، ولكنه يعرض في منطقة طرابلس وبين صيدا وصور.

ويتعرض السهل الساحلي لشتاء عذب وصيف حار مشحون الجو بالرطوبة الثقيلة، ويتغطى بالمزروعات المعهودة على ساحل البحر الأبيض المتوسط: ففوق الأراضي المنخفضة تنتشر بيارات الحمضيات والموز والخضار، في حين تنتشر على السفوح التي تقل عن ٧٠٠ م الكروم والزيتون.

ويمتد بين جبل لبنان الغربي وجبل لبنان الشرقي سهل البقاع الذي
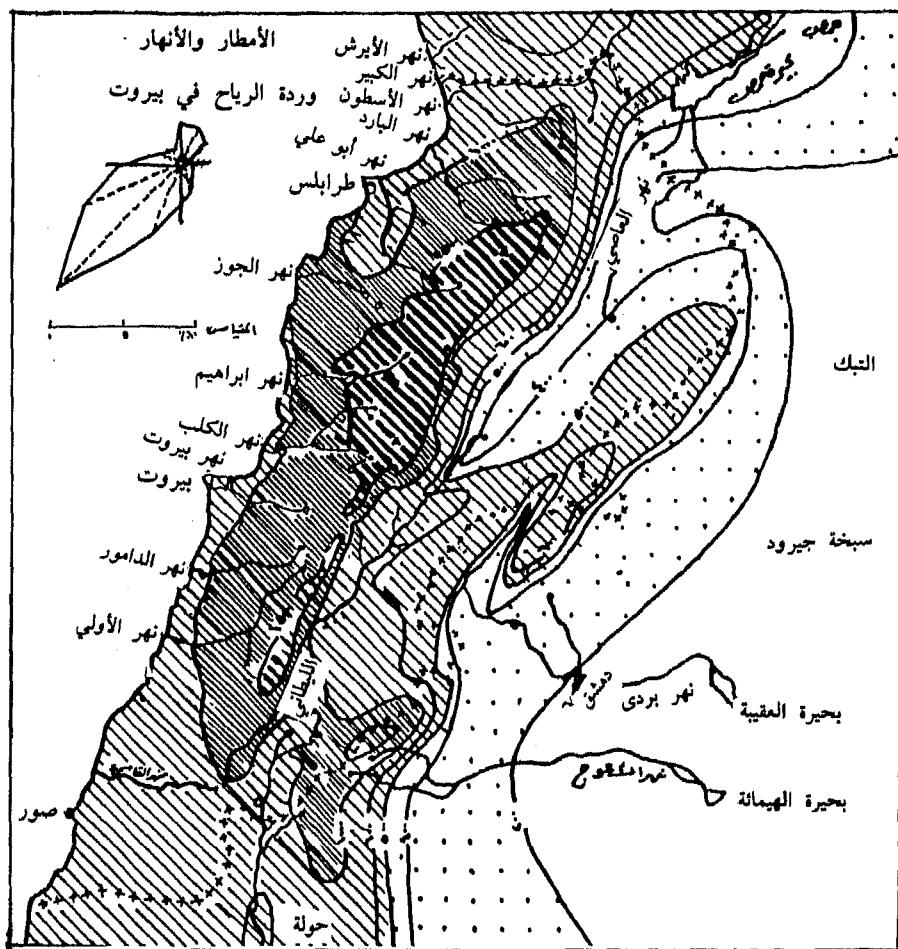
مصور الأمطار والأنهار الدائمة في لبنان وحوضة دمشق

شكل (٣)

يكون عريضاً وقاحلاً إلى الشمال من عتبة بعلبك، وحيث يجري نهر العاصي باتجاه الشمال، في حين يكون السهل المذكور في الجنوب ضيقاً وخصيباً، وحيث يجري فيه نهر الليطاني باتجاه الجنوب لينعطف غرباً كي يصب بالبحر الأبيض المتوسط، وحيث يحمل اسم نهر القاسمية.

ويفصل سهل البقاع بين جبل لبنان الغربي وجبل لبنان الشرقي الذي

يكون على خلاف السلسلة الغربية، أي مرتفع بالجنوب في جبل الشيخ حيث يسمو إلى ٢٨١٤ م، وأقل ارتفاعاً في الشمال، بحيث يكون قاحلاً وفي ظل قمم لبنان الغربي، وبالتالي أقل تهطالاً بكثير. وعلى كل تؤلف السفوح الغربية لجبل لبنان الشرقي الحد الفاصل بين الأراضي السورية ولبنان.

وقد كانت تضاريس لبنان الغربي مغطاة في الماضي البعيد بغابات كثيفة من الأرز والشربين والبلوط، ولكنها تبدو اليوم عارية في معظمها، ولا يزيد عدد أشجار الأرز عن بضع مئات حالياً. وتكون التهطالات ثلجية فوق المرتفعات التي تزيد عن ١٥٠٠ م والأمطار متمركزة بين تشرين الأول وأيار. وتتراوح الأمطار في المدن الساحلية بين ٧٥٠ و ٨٠٠ مم.

المحتوى السكاني: ينحدر سكان لبنان من أصول آرامية ومن قبائل عربية، مع أن الغالبية العظمى تتشرف بانتسابها للعرب، بل وحتى لقبائل يمنية وعدنانية، ويتكلم لغة الضاد ٩٤٪ من السكان والباقي أرمن وأكراد. ويبدو لبنان أكثر الأقطار العربية كثافة سكانية، إذ كانت تزيد الكثافة في بعض المناطق عن ٥٠٠ نسمة/كم٢، وإن كانت الكثافة الوسطية تبلغ ٣٦٧ نسمة بالكيلومتر المربع. ولكن الحرب الأهلية التي اندلعت في ١٩٧٦ تكشفت عن هشاشة وضعف هذا الكيان المبني على أسس فاسدة واهية، وكلفت البلاد حوالي ٢٥٠,٠٠٠ قتيل وهاجر من البلاد قرابة المليون نسمة تشتتوا في سائر أنحاء العالم وعلى الخصوص في قبرص وفرنسا وأستراليا والأمريكتين.

المدن الرئيسة:

بيروت: وهي العاصمة وتحوي قرابة المليون نسمة. (شكل ٤). وهي أكبر ميناء لبناني وتنتصب فوق أواخر أعضاد سلسلة جبل لبنان. وعلى الرغم من تاريخها الذي يعود لآلاف السنين، فهي لا تحتفظ بالكثير من ماضيها لأنها
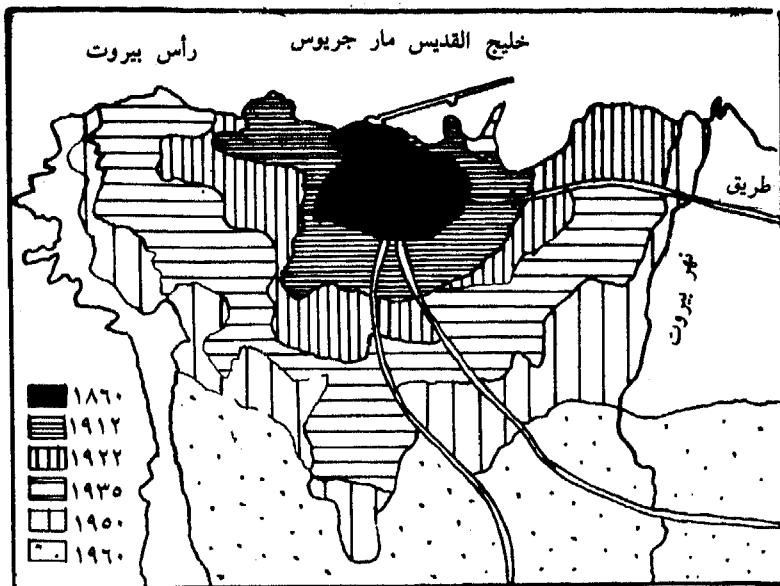
شكل (٤) النمو في بيروت

تتعرض للزلازل على فترات متباعدة. ويعود سحرها بالأحرى للاختلاط بين العالم الشرقي والغربي، والمزيج الذي يماثل برج بابل، فتكثر فيها الفنادق من مختلف المستويات، والشوارع والعمارات الحديثة للغاية، وقام في ضاحية المعاملتين كازينو يعتبر من أكثر أمثاله بالعالم بذخاً أو يماثل مونت كارلو، مثلما تتميز بشدة حركية الحياة الحضرية وتمازج كل الأعراق وأبناء كل الأقطار.

هذا وتلعب بيروت دور مركز سياحي وثقافي من المستوى الأول، إذ تضم هذه المدينة أربع جامعات هي: الجامعة اللبنانية والجامعة الفرنسية (اليسوعية) والجامعة الأمريكية والجامعة العربية المصرية. وظلت بيروت خلال أكثر من ربع قرن تمثل أكبر مركز مالي في كل الشرق الأوسط كما كان ميناؤها أكبر ميناء لتجارة الترانزيت. وقد انشطرت بفعل الحرب الأهلية المريرة

الانتحارية إلى شطرين: شرقي وغربي.

طرابلس: ٣٥٠٠٠٠ نسمة، تنتشر بجوار مصب نهر أبو علي (قاديشا) على ساحل البحر الأبيض المتوسط في سهل غني جداً هو سهل عكار الجنوبي، حيث تنتشر بيارات البرتقال والليمون، في حين يتألف ظهيرها من هضبة الكورة الشهيرة بمزارع الزيتون. ولما كانت مدينة طرابلس تعود لأصول قديمة فهي تحتفظ بالعديد من الآثار الغابرة، كقصر الفرنجة الصليبيين الذين أقاموا فيها كونتية، وتحمل ملامح المدن الإسلامية أكثر من بيروت، وذلك ضمن مزيج رائع في أسواقها وشوارعها الشرقية الطابع، وحيث تتسلَّل الأزقة الضيقة المغلقة حتى البيوت ذات القناطر والأقواس. ويعتبر حي المينا الذي يشكل بحد ذاته نواة حضرية، وكانت ميناءً نفطياً يحوي على مصفاة عندما كانت تصب عندها أنابيب النفط العراقي، وهي قاعدة أسطول صيد.

صيدا: ٨٠٠٠٠ نسمة، وهي صيدون الفينيقية الكنعانية. وعندها ينتهي أنبوب التابلاين القادم من العربية السعودية قرب موقع الزهراني. وتشتهر ضواحيها ببيارات الحمضيات والموز والمشمش الهندي (أنكدنيا أو أسكيدنيا) وبساتين الخضار الخصبة.

بعلبك: ٣٥٠٠٠ نسمة وهي مركز سياحي غني بالآثار، ومركز مهرجان دولي للموسيقى والمسرح إلى أن عملت الحرب الأهلية على تحويلها لبلدة خاملة.

الوضع الاقتصادي:

إن فقر البلاد بالمواد الأولية، وفي الموارد المائية، وفي الصناعات بالموازنة مع شدة كثافة سكانها تؤلف جميعاً عوامل الضعف العام الذي يتصف به الاقتصاد اللبناني. أما الشهرة التي اكتسبها لبنان حيناً من الدهر ولا سيما

بين ١٩٦٠ و ١٩٧٥ فتعود أساساً للوضع المالي المزدهر على حساب بؤس الأقطار العربية المحرومة من الاستقرار، مما خلق تياراً هائلاً من رؤوس الأموال التي تدفقت على لبنان قادمة من الأقطار النفطية التي لم تجد مجالاً لاستثمار أموالها، وكذلك من التجارة الضخمة، إذ كان حجم تجارة الترانزيت يمثل في مطلع السبعينات ٤٥ مليون طن من البضائع، في الموانىء اللبنانية كان ١٠٪ عبارة عن (بضائع جافة) من خلال ميناء بيروت الحر، و ٩٠٪ من النفط الذي كانت عوائدة تشكل ٣٠٪ من الدخل القومي والقادم من العراق والسعودية.

غير أن الفعالية الاقتصادية الأكثر انتشاراً تبقى ـ مع ذلك ـ **الزراعة** التي تظل محدودة المدى لقلة المياه أو لضعف استغلالها، إذ أنشىء سد القرعون على الليطاني دون أن يستغل زراعياً كما يجب للتنافس الطائفي العقيم، ولطبغرافية البلاد الكثيرة التضاريس. وتشير التقديرات إلى أن أكثر من ٤٠٪ من المساحة الكليـة صالحة للزراعة، وهي أعلى نسبة في أقطار الوطن العربي، ولكن المزروع فعلاً لا يتجاوز ٢٧٪، ويقدم القطاع الزراعي ١٦٪ من الدخل الوطني، ويوفر مجال العمل لحوالي ٤٠٪ من السكان العاملين الذين يبلغ مجموعهم نصف مليون نسمة.

والمنتجات الرئيسة الزراعية التي تدخل مجال التصدير هي الفواكه والثمار ولا سيما الحمضيات والتفاح والعنب وزيت الزيتون والخضار، بيد أن إنتاج الحبوب لا يغطي سوى خمس استهلاك البلاد، ولعل أهـم محصول زراعي نقدي في لبنان هو الحشيش الذي يصدر سراً إلى أوروبا وأمريكا ومصر. أما المواشي فهي قليلة باستثناء بعض مزارع تربية الأبقار الحلوبة والمداجن ويساهم الماعز في تسارع تجريد البلاد من غطائها النباتي وتصحيرها وتحويل مرتفعاتها إلى جرود.

وتظل الفعالية الصناعية شديدة التجزؤ وقائمة على شكل مؤسسات صغيرة، إذ يحوي لبنان ١٦٠٠ مؤسسة صناعية يعمل فيها ما بين ١٥٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ عامل، وغالباً ما تكون حرفية باستثناء القطاع النفطي والأسمنت والنسيج الآلي والسكر من الشوندر.

ويجدر بنا أن نشير في هذه اللوحة المتواضعة من الصناعة التحويلية اللبنانية إلى الصناعات الغذائية كالخمور والجعة في البقاع وصناعة البسكويت والمعجنات ومعاصر الزيتون في الكورة، في زغرتا، قرب طرابلس، وصناعة البناء والمنسوجات ولا سيما صناعة الأقمشة الحريرية ومصانع الجوارب وبعض مصانع السجائر. ولكن لبنان يحوي أكبر صناعة للطباعة في الوطن العربي قاطبة والتي بلغ حجم الأموال الموظفة فيها قرابة ١٠٠ مليون دولار.

وتعاني التجارة الخارجية من عجز مزمن، ولكن ميزان المدفوعات يسجل ربحاً كان يتراوح بين ٥ و٧ ملايين دولار (١٩٦٨) وذلك بفضل (المداخيل الخفية) الناتجة عن أجور النقل البحري والتحويلات المالية من المهاجرين، لأن عدد اللبنانيين المقيمين بالخارج يعادل ثلثي السكان المقيمين، ورسوم أنابيب شركات البترول العابرة للبلاد (شكل ٥)، وعوائد السياحة التي كانت تشهد توسعاً مذهلاً، لأن عدد السواح في لبنان بلغ ٧١٤٠٠٠ في ١٩٦٤.

الاقتصاد اللبناني بالأرقام

المادة	١٩٧٠	١٩٨٦
القمح	٤٥٠٠٠ ط	١٥٠٠٠٠
الشعير	١٢٠٠٠ ط	٥٠٠٠
ذرة صفراء	٤٠٠٠ ط	-
بطاطا	٨٧٠٠٠ ط	-
شوندر سكري	١١٠٠٠٠ ط	-
تفاح	١٦٣٠٠٠ ط	-
آجاص	١٦٠٠٠ ط	-
عنب	٨٤٠٠٠ ط	-
حمضيات	٢٣٦٠٠٠ ط	٣٣٤٠٠٠
موز	٣٠٠٠٠	١٣٠٠٠
تبغ	٦٧٠٠	٤٠٠٠
أبقار	٨٦٠٠٠	٤٥٠٠٠
أغنام	٢١٣٠٠٠	١٣٥٠٠٠
دجاج	١٧,٢ مليون	-
أسماك	١٦٠٠ طن	-
سكر	١٠٠٠٠ ط	١١٠٠٠ ط
زيت زيتون	٦٠٠٠ ط	٩٠٠٠ ط
الملح البحري	٢٨٠٠٠ ط	-
خيوط القطن	٢٥٠٠ ط	-
سجائر	١,٥ مليار	-
إسمنت	١,٥ م ط	-
كهرباء	١,٢ مليارك وس	١,٨ملياركـ وس

أنبوب نفط العراق
طرابلس
نهر البارد
القاع
شكا
نهر ابو علي
نهر الجوز
نهر ابراهيم
زوق
نهر الكلب
بيروت
مروج
زحلة
قرنايل
رشمايا
عين زحلتا
نهر الدامور
جزين
قرعون
زهراني
مركابي
عدلون
حاصبيا
نهر الليطاني
أنبوب نفط السعودية
مركز كهربائي حروري
مركز كهرمائي
سد
مكمن حديد
فحم
بيتوم
مصفاة
سبر بترول
الطاقة والمناجم
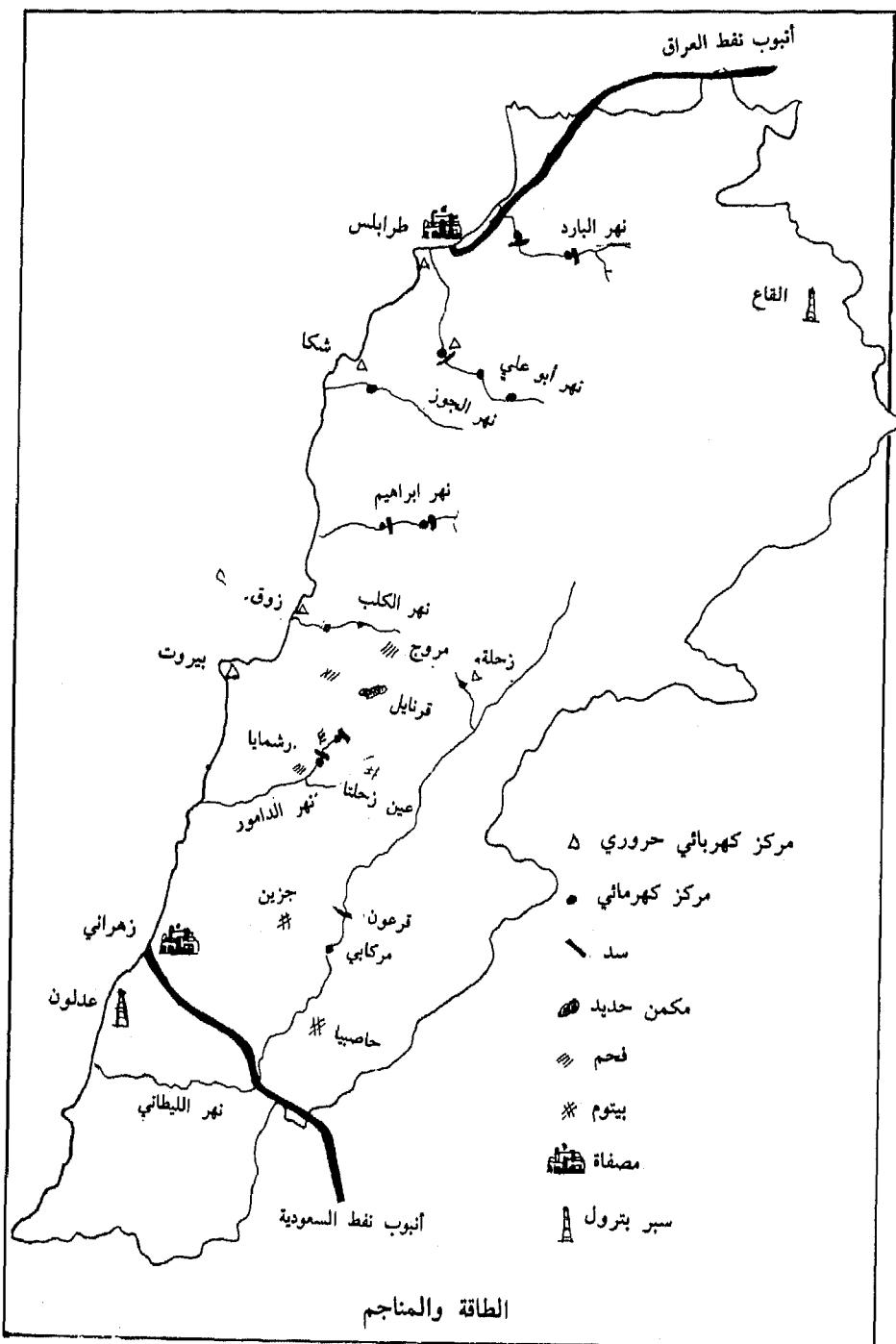
شكل (٥)

فلسطين

تقع فلسطين على الحاشية الغربية من منطقة الشرق الأدنى، وعلى الحافة الشمالية الغربية من شبه جزيرة العرب. وتبلغ مساحتها ـ وذلك استناداً على اتفاقيات الهدنة المعقودة في عام ١٩٤٩ مع الدول العربية المجاورة ـ ٢٠٧٠٠ كيلومتر مربع. وتمتد من الشمال إلى الجنوب على مسافة ٤١٦ كم في حين يتراوح عمقها من الغرب للشرق بين ١١٢ كم في الجنوب و ١٠,٥ كم في السهل الساحلي، في الوسط، إلى الشمال من يافا.

وتنتشر حدودها البرية على طول ٩٥١ كم، وحدودها البحرية المطلّة على البحر الأبيض المتوسط ١٨٨ كم، مقابل ٥٦ كم على البحر الميت، و ١٠,٥ كم على خليج العقبة. وهكذا تلامس حدودها الجمهورية اللبنانية من الشمال، والجمهورية العربية السورية من الشمال الشرقي، والمملكة الأردنية الهاشمية من الشرق، في حين تجاور شبه جزيرة سيناء المصرية من الجنوب الغربي. وبذلك تتخذ شكل شظية مغروسة في قلب الوطن العربي عند تخوم أفريقيا وتبدو وكأنها شرفة تطل على الغرب.

هذا ونميز في فلسطين ثلاث وحدات جغرافية متمايزة بشكل واضح وهي:

- السهول الساحلية الغنية المتصلة جنوباً بصحراء النقب.

- التلال الوسطى التي تبلغ ١٢٠٥ م في جبل الجرمق قرب صفد بالشمال.

- غور الأردن ووادي العربة، وهذا أعمق منخفض على سطح الأرض إذ يهبط إلى حوالي ٤٠٠ م دون سطح البحر، بعد أن كان سطح البحر الميت على مستوى - ٣٩٢ م في ١٩٥٤ (شكل ١).
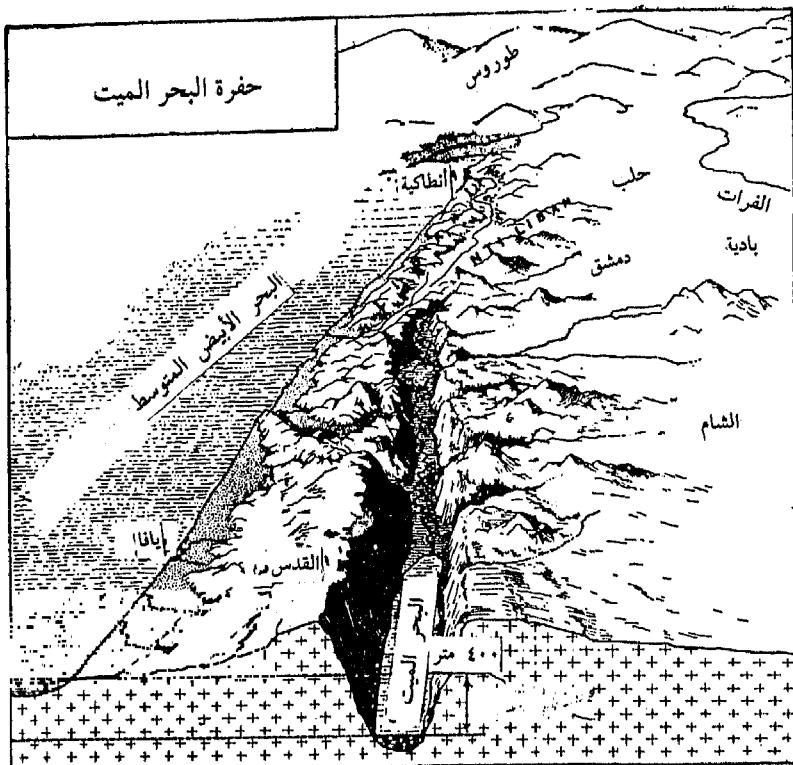
شكل (١)

المناخ: لما كانت فلسطين في مكان التقاء القارات الثلاث، فهي تحوي تنوعاً خارقاً في المشاهد وفي المناخات: فهي تمتد بين خطي العرض ٣٠ و٣٠′ ,٣٣° شمالاً في النطاق الشبه مداري. غير أن هذا الموقع الطبيعي يتأثر بالمعركة المستديمة الناشبة بين رياح البحر الأبيض المتوسط وبين الرياح

الصحراوية، فوق الجبال وفي السهول وفي المنخفضات والأغوار. ونتيجة لهذا الواقع تظل درجات الحرارة الوسطى لطيفة فتبلغ ٢٠ درجة على الساحل كي تتراوح بين ١٨ و ١٦ في المرتفعات، وذلك على مدى الفصلين السائدين خلال العام، وهما الفصل الرطب والفصل القاحل، واللذين يقتسمان العام مناصفة، وإن كان هناك فصل انتقالي في نيسان.

ويمتد فصل الأمطار من تشرين الأول إلى أيار على حوالي ٢٠٠ يوم، ولكن قد تنحبس الأمطار لمدة تمتد على شهر أو أكثر خلال هذا الفصل في السنوات العجاف، ولكن تكون هذه الأمطار عاصفية على الغالب أو على شكل وابل جارف. وتقل مقادير الأمطار من الشمال إلى الجنوب، بالكمية وعدد الأيام المطيرة، فهي تبلغ ٦١٠ مم في حيفا تهطل في مدة ٦٥ يوماً، وتهبط إلى ٤٢٠ مم في عسقلان تنهمر في خلال ٤٠ يوماً. وقد تسقط الثلوج في بعض السنوات فوق القدس وفوق مرتفعات نابلس والخليل في فصل الشتاء، ولكن نادراً ما يمكث أكثر من يوم أو اثنين، ولكن تسود الظروف المناخية الصحراوية في صحراء النقب ولا سيما في صدر خليج العقبة حيث لا تزيد كمية المطر عن ٢٥ مم في العام وسطياً (شكل ٢).

النبيت والوحيش: إن أعمق صفة في فلسطين هي أنها تعرض أكثر الأشياء تنوعاً في العالم ضمن إطار مقاطعة: فنجد هنا بين البحر الأبيض المتوسط والصحراء العربية، وبين آسيا الصغرى وأفريقيا، وذلك بفضل تنوع التضاريس ودرجات الحرارة، أقول نجد نبيتاً ووحيشاً غاية في غناهما، وفي أكثر الأحيان من الأنواع المتوسطية (الرومية) وشبه المدارية، غير أنها تكون صحراوية في الجنوب ومدارية بجوار البحر الميت. وهكذا نصادف البلوط ذا الأوراق الساقطة بجوار الدلب والسماق، كما تتجاوز أشجار الطرفاء والأثل مع الأنواع الشوكية والسنط، كما تنمو أشجار البرتقال واللوز والزيتون والكرمة
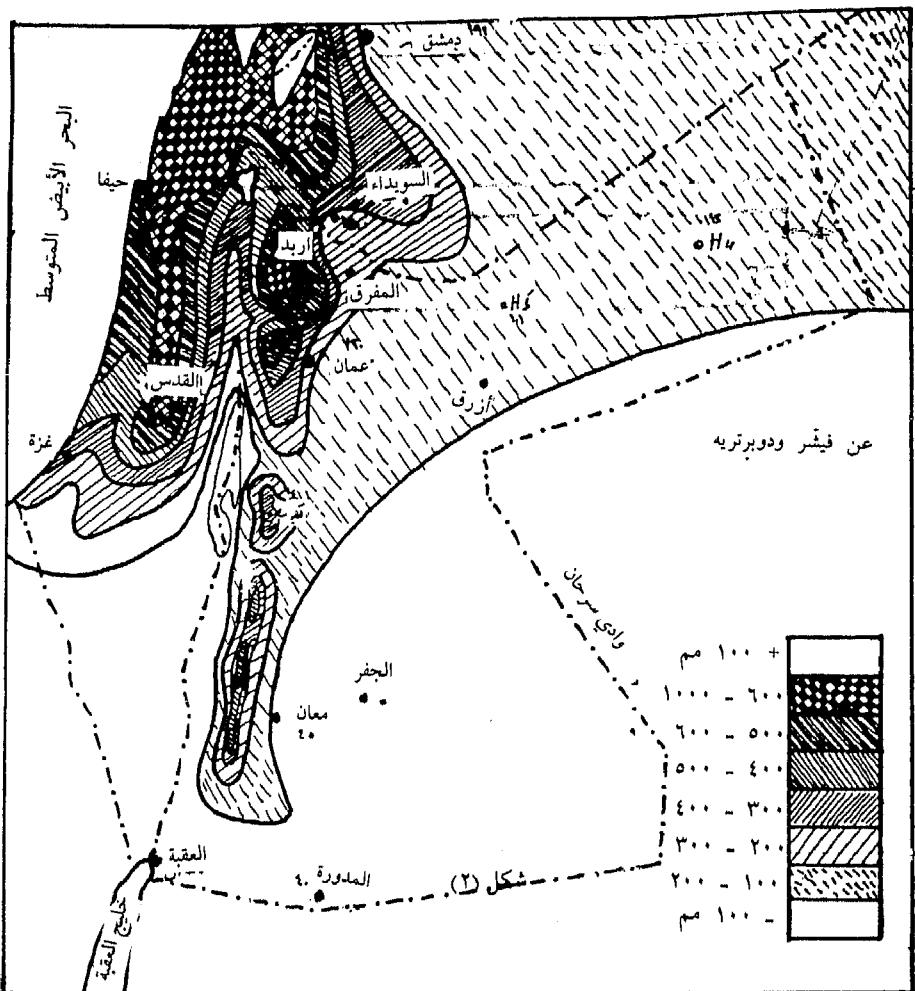
خارطة التهطال شكل (٢)

والجميز والقمح والذرة الصفراء على مسافة غير بعيدة عن النخيل والموز.

وتنتسب أكثرية الأنواع الحيوانية في فلسطين إلى القطبية القديمة، في حين نعثر في الجنوب على أنواع اثيوبية وهندية، حتى أن بعضها يكون خاصاً بالبلاد أي مستوطناً. ونعثر بين الثدييات الوحشية على الكثرة ذاتها: فبعد أن اختفى الذئب والفهد والوشق والدب والأسد، فلا يزال هناك الخنزير البري، وابن آوى، والنيص، والغزال والعنز البري، في حين لا يزال الجاموس في

القيعان المستنقعية، والجمل في بادية النقب، ولا تزال القوارض تثبت وجودها في الحقول وفي المنازل.

وتحوي فلسطين أنواعاً من الطيور مماثلة للأقطار المجاورة كالحجل والترغل واللقلق والقبّرة والشرشور والغراب، وتختلط الأنواع المدارية قرب الماء بالقرلي والحذَف ومالك الحزين والبجع، وهناك العديد من كواسر الطير كالنسر والحدأة والباز والبوم. وينتسب وحيش الرخويات في معظمه إلى أجناس البحر الأبيض المتوسط، وتضم الحشرات مئات الأنواع بدءاً من الفراشة والذبابة، ومن الجُعَل والعقارب، إلى الجراد وحتى النحل والزواحف.

المياه: النهر الوحيد الذي يعتبر على قدر من الأهمية في فلسطين هو نهر الأردن، الذي يتألف من رافد سوري هو نهر بانياس، ونهر الحاصباني القادم من لبنان. واللدان من فلسطين. وبعد أن يجتاز سهل الحولة الذي كان مستنقعياً حتى منتصف هذا القرن، يصب في بحيرة طبرية التي تنخفض عن مستوى البحر بمقدار ٢٠٨ م. ويلعب نهر الأردن دور الحد السياسي الفاصل بين فلسطين وسورية والأردن إلى أن يصب في البحر الميت[١] بيد أن الأنهار الساحلية كالنعامين والمقطع والعوجاء قد تلاشت بعد أن تم جرّ مياهها إلى القسطل الرئيس الذي يدفع بمياه نهر الأردن قبيل وصوله إلى بحيرة طبرية في اتجاه سهل البطوف والغرب لري السهل الساحلي وبادية النقب حتى ضواحي مدينة بير السبع.

السكان: وتتألف غالبيتهم من اليهود الذين قدموا إلى فلسطين بعد قيام هذه الدولة بدعم من الدول العظمى في ١٩٤٨. وفي ١٩٧٠ كان ثلث

---

(١) أو بحيرة لوط أو بحر زغر أو البحيرة المنتنة.

السكان فقط هم من الذين ولدوا في فلسطين أي من يهود الصبرة[٢] وجاء الثلث الآخر من أوروبا وأمريكا أو أوقيانوسيا، والثلث الأخير من أفريقيا البيضاء على الخصوص.

وتبلغ نسبة التوالد ٢٣,١ بالألف والوفيات ٦,٨ بالألف فيكون النمو الطبيعي ١٦,٣ بالألف أو نصف نسبة التكاثر في الوطن العربي. غير أن التكاثر الحقيقي أكثر ارتفاعاً من التكاثر الطبيعي، ففي ١٩٥٥ كانت نسبة التكاثر ٣٥,٥ بالألف وفي ١٩٦٣ كانت ٣٩,٣ بالألف. ونستشف من هذه الأرقام دور الهجرة بوضوح أي أن نسبة المهاجرين تكون أحياناً أكثر من نسبة النمو الطبيعي.

وقبل إنشاء الدولة اليهودية في ١٩٤٩ كان اليهود الذين يقطنون فلسطين لا يمثلون سوى ثلث السكان، ولكن على أثر قيامها. زادت الهجرة اليهودية التي ابتدأت في مطلع هذا القرن بنسبة كبيرة جداً. وكانت أكبر موجة من القادمين بين ١٩٤٨ و ١٩٥١ مع حد أقصى بلغ ١٧٥٠٠٠ مهاجر في ١٩٥١.

وتعود تيارات الهجرة لمصدرين رئيسين هما: أوروبا الوسطى والشرقية من جهة والشرق الأوسط وأقطار المغرب من جهة أخرى. وبعدئذ فقدت الهجرة بعض عنفوانها، ولكن جاءت موجة جديدة من المغرب العربي بين ١٩٥٥ و ١٩٥٦ حين تدفق حوالي ١٠٠٠٠٠ يهودي، وبعدئذ استقرت الهجرة بمعدل ٢٥٠٠٠ شخص بالعام. وإجمالاً وفد إلى فلسطين بين ١٩٤٨ و ١٩٦١ حوالي مليون شخص جاءوا من ٧٥ دولة مختلفة ليندمجوا في بوتقة غريبة وليس بينهم من رابطة سوى الدين، لأن فيهم الهندي والحبشي والروسي الأشقر والمغربي الأسمر.

---

(٢) نسبة إلى التين الشوكي أو تين الصبار، إذ يزعم اليهود أن هؤلاء يماثلون ثمرة الصبارة التي تكون شائكة من الخارج وحلوه المذاق من الداخل.

وبعد أن كان العرب يشكلون غالبية السكان حتى ١٩٤٨ التجأ معظمهم إلى الأقطار المجاورة بفعل التقتيل والإرهاب ومنهم من هاجر إلى أمريكا وأستراليا. ويشكل العرب حوالي ١٥٪ من سكان فلسطين المحتلة ويكثرون بالجليل وعلى مقربة من نهر الأردن وهناك حوالي ٣٠٠٠٠ بدوي يعيشون في بادية النقب. واللغتان الرسميتان بالبلاد هما العربية والعبرية، ويسكن فلسطين المحتلة حالياً ٤,٥ ملايين نسمة.

المدن الرئيسة:

القدس: عاصمة فلسطين المحتلة وفيها ٥٠٠٠٠٠ نسمة. وقد شطرت المدينة إلى قسمين في ١٩٤٩ على أثر توقيع الهدنة بين الدولة اليهودية والأردن. ويضم القسم الغربي الذي يقطنه اليهود الأحياء الحديثة التي تم بناء معظمها خلال الخمسين سنة الأخيرة، مثلما يحوي الأحياء العربية المغتصبة. وتؤلف القدس المركز الثقافي كالجامعة العبرية، والروحي ولا سيما المسجد الأقصى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة، وبدأت تلعب دور عاصمة منذ ١٩٥٠ بالاشتراك مع تل أبيب (شكل ٣). وتقع كل الأماكن المقدسة عند الديانات الثلاث في القدس القديمة التي اجتاحها اليهود في ١٩٦٧.

يافا ـ تل أبيب: وتضم أكثر من ٦٥٠٠٠٠ نسمة. وهنا يقع المركز الاقتصادي الرئيس. وهي أكثر مدن فلسطين سكاناً. وقد أسست تل أبيب في ١٩٠٩ بجوار مدينة يافا القديمة. وقد اندمجت المدينتان إدارياً في ١٩٤٨ وتحوي ميناء حديثاً رغم عدم مواءمة الساحل الرملي.

حيفا: ٤٠٠٠٠٠ نسمة، وتقع على ضفاف البحر الأبيض المتوسط في صدر خليج عريض عند أقدام جبل الكرمل الذي يمتد على خلاف اتجاه الجبال الفلسطينية، إذ يتجه على شكل التواء من الشمال الغربي نحو الجنوب
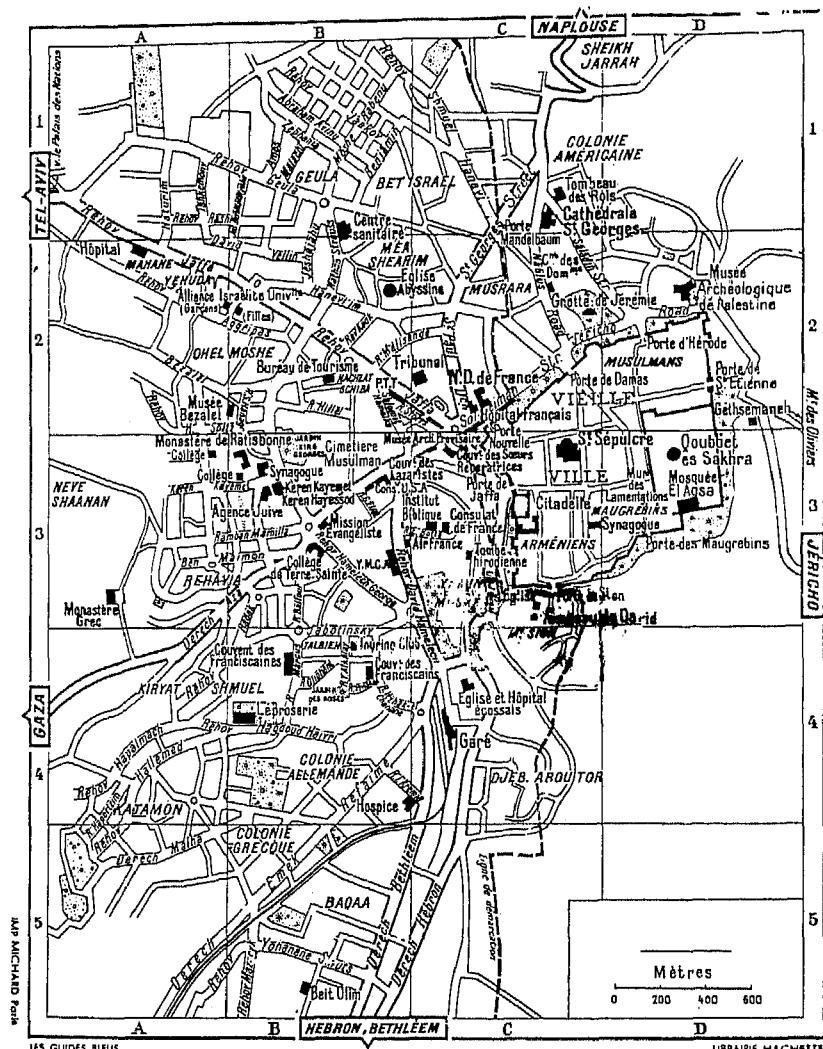
(شكل ٣)

مخطط القدس في ١٩٥٠ عن الدليل الأزرق.

الشرقي. وتضم أهم ميناء على الساحل الفلسطيني، وتكثر فيها الصناعات المتنوعة ولعل أهمها مصافي النفط والصناعات البتروكيماوية.

بير السبع: ١٥٠٠٠٠ نسمة وتقوم على تخوم بادية النقب في منطقة سهبية. وهي عاصمة النقب وتؤلف عقدة مواصلات ومركزاً صناعياً وتجارياً.

الوضع الاقتصادي:

تعتبر الدولة اليهودية، منذ إنشائها، وحتى أيامنا هذه جسماً غريباً في الشرق الأوسط، إذ قامت بمعونة مالية أمريكية وأوروبية تزيد عن ثلاثة مليارات دولار بالعام، فضلاً عن تبرعات أثرياء الشتات اليهودي بالعالم أو صندوق الجباية اليهودية، مما ساعدها على إنشاء بنية اقتصادية إلى جانب منظومة إنتاجية واجتماعية يقربها من مثيلتها في أوروبا.

وتعود عوامل التنمية السريعة إلى عدة عوامل هي:

- شدة تزايد الأيدي العاملة الماهرة الناتجة عن هجرة اليهود الذين كانوا ولازالوا موزعين في مختلف أنحاء العالم.
- تدفق رؤوس أموال أجنبية على شكل قروض واستثمارات خاصة، أو من جانب ألمانيا الاتحادية بحسبانها تعويضات عن المظالم التي يدّعي اليهود أنهم عانوا منها في العهد الهتلري النازي.
- تزايد مستمر في الإنتاجية والناجم عن تنظيم اقتصادي فريد يتداخل فيه النظام الاشتراكي والرأسمالي مما سمح باستغلال الموارد المحلية بصورة عقلانية.

وعلى هذا الأساس ارتفع الدخل الفردي من ٥٧١ دولار في ١٩٥٨ إلى ١١٥٨ في ١٩٦٨ وإلى ٥٠٠٠ دولار في ١٩٨٥ بينما قفز الدخل الفردي في إيطاليا من ٥٢٨ في ١٩٥٨ إلى ١١٤٩ في ١٩٦١ وإلى ٦٥٢٠ دولار في ١٩٨٥.

الوضع الاقتصادي الحالي:

على أثر اتخاذ تدابير قاسية في ١٩٨٥ هبط التضخم إلى ١٦٪ سنوياً. وبلغ الناتج القومي الخام ٢٦ مليار دولار، أي بزيادة سنوية قدرها ١,١٪. وتجاوزت الميزانية ٢٠ مليار دولار، كما ازدادت ميزانية الدفاع بشدة. ويبلغ حجم الديون الخارجية ٢٤,٤ مليار دولار. ولكن نسبة البطالة في صعود فبلغت ٧,١٪ من القوى العاملة، إذ تصيب أكثر من ١٠٤٠٠٠ شخص مقابل نسبة كانت ٣,١٪ في عام ١٩٧٧. ولما كانت الدولة اليهودية تستورد ٩٧٪ من حاجتها من مصادر الطاقة، فإن هبوط أسعار النفط سمح لها بتوفير مبلغ يزيد على ٦٠٠ مليون دولار، فبلغت قيمة البترول المستورد في ١٩٨٦ مقدار ٩٢٤ مليون دولار مقابل ١٥١٠ ملايين دولار في العام الذي سبق. كما زاد العجز التجاري عن العام الفائت. وتؤلف المنتجات الصناعية بما في ذلك التجهيزات العسكرية والأسلحة ٨٣٪ من قيمة الصادرات ويشكل الألماس المصقول ٢٢٪ من هذه الصادرات. وتكون العلاقات مع الولايات المتحدة معقدة لوجود جماعة الضغط اليهودي Lobby فيها، ذلك أن المساعدة الأمريكية تزيد على ٣ مليارات دولار بالعام هذا عدا عن موارد الجباية اليهودية، مقابل مساعدة لا تزيد عن ٧٥٠ مليون دولار لتركيا التي يفوق سكانها ١٢ مرة سكان الدولة اليهودية، وحوالي ٢ مليار دولار لمصر، مما سمح لبنك إسرائيل أن يزيد احتياطياته من العملة الصعبة إلى ٢٤ مليار دولار. وقد حصلت أمريكا من إسرائيل على تعهد بوقف بيع الأسلحة لإفريقيا الجنوبية مثلما اعتذرت أمريكا عن المساهمة بصناعة طائرات هجوم حديثة جداً من نوع ليفي جرى تصميمها على أيدي يهود فلسطين.

هذا وتكون العلاقات مع الضفة الغربية وشريط غزة المحتلين منذ ١٩٦٧ غاية في التشابك والتعقيد. ففي هذه المناطق المحتلة يعيش ١,٤

مليون فلسطيني أي ما يعادل ثلث سكان الدولة اليهودية. ويبلغ دخل الفرد هنا ١٥٠٠ دولار مقابل ٦٠٠٠ عند اليهود، ومقابل ٧٠٠ في مصر و ١٥٠٠ بالأردن. وفي هذه المناطق ربع مليون عامل تصيب البطالة ٣٪ منهم، ويعمل ثلثهم في الدولة اليهودية ذاتها بنسبة ١٠٪ في صناعة البناء و ١٦٪ بالصناعة و ٢٥٪ بالزراعة. ويشتغل الفلسطينيون عموماً بالأعمال الأقل تخصصاً ومهارة والأدنى أجراً، أي كوضع الجزائريين أيام الاستعمار. وقد حقق الفلسطينيون تقدماً ملحوظاً في مناطقهم رغم استلاب ربع أراضيهم الزراعية الخصبة، فزاد إنتاج الخضار ٣ مرات، وتضاعف إنتاج الحمضيات مرتين، والقمح خمس مرات. ولكن التسويق يتم عن طريق المؤسسات التجارية اليهودية بما في ذاك التصدير. وليس لدى الفلسطينيين تنمية صناعية حقيقية باستثناء الصناعات التي لا تنافس الصناعة اليهودية. وتبلغ نسبة الفلسطينيين الذين تقل أعمارهم عن ١٤ سنة قرابة نصف مجموع السكان أو ٤٦٪، وقد أقام اليهود بين ظهرانيهم عشرات المستعمرات الاستيطانية بل وساكنوهم في بعض المدن كما صنعوا في مدينة الخليل.

وأخيراً لا ترى «إسرائيل» أن لها حدوداً رسمية وهذا ما يجعل اطماعها التوسعية، بالتالي، غير محدودة (شكل ٤).

اللائحة الاقتصادية في فلسطين المحتلة

المادة	١٩٧٤	١٩٨٦
القمح	٢٧٤٠٠٠ ط	١٦٩٠٠٠ ط
الشعير	٣٠٠٠٠ طن	١٥٠٠٠ طن
بطاطا	١٦٥٠٠٠ ط	٢٠٧٠٠٠ ط
موز	٣٤٠٠٠ ط	٨٢٠٠٠ ط
حمضيات	١,٧ م ط	١,٣ م ط
عنب	٧٥٠٠٠ ط	٨٠٠٠٠ ط
خمر	٤٠٠٠٠ ط	٣٠٠٠٠ ط
قطن	٥٠٠٠٠ ط	٦٩٠٠٠ ط
بقر	٢٨٠٠٠٠	٣١٠٠٠٠
أغنام	١٨٥٠٠٠	٢٣٠٠٠٠
صيد بحري	٢٣٨٠٠ ط	٢١٠٠٠ ط
كهرباء	٩ مليار ك و س	١٥,٧ مليار ك و س
البترول	٣٨٦٠٠ ط	١٢٠٠٠ ط
غاز طبيعي	٦٥٩٠٠ م^3	٣٩٧٠٠ م^3
خام النحاس	١١٠٠٠ ط	١١٢٠٠ ط
فولاذ	١٢٠٠٠٠ ط	١٠٠٠٠٠ ط
حمض كبريتي	١٨٦٧٠٠ ط	١٨١٨٠٠ ط
فوسفات	٢,٢ م ط	٢,٥ م ط
ورق صحف	٧١٠٠ ط	١١٠٠ ط
غزول قطن	٢٠٢٠٠ ط	١٤٩٠٠ ط
غزول صوف	٨٩٠٠ ط	٥٨٠٠ ط
منسوجات تركيبية	٦٤٠٠ ط	١٨٢٠٠ ط
إسمنت	١,٨ م ط	١,٦ م ط
استيراد	٤,١ مليار دولار	٩,٢ مليار دولار
تصدير	١,٧ مليار دولار	٧ مليار دولار

١
البحر الأبيض المتوسط
سورية
بيروت
دمشق
صور
عكا
قنيطرة
درعا
تل أبيب
القدس
عمان
الأردن
سيناء
معان
العقبة
ايلات
مخطط هيئة الأمم المتحدة للتقسيم عام: ١٩٤٧
٢
البحر الأبيض المتوسط
سورية
بيروت
دمشق
صور
قنيطرة
درعا
تل أبيب
القدس
عمان
الأردن
سيناء أ ع
معان
العقبة
ايلات ج . م . ع
رقع استولت عليها إسرائيل فوق حصتها من مخطط تقسيم هيئة الأمم المتحدة
٣
سورية
الأردن
سيناء
رقع احتلتها اسرائيل عام ١٩٦٧
٤
سورية
الأردن
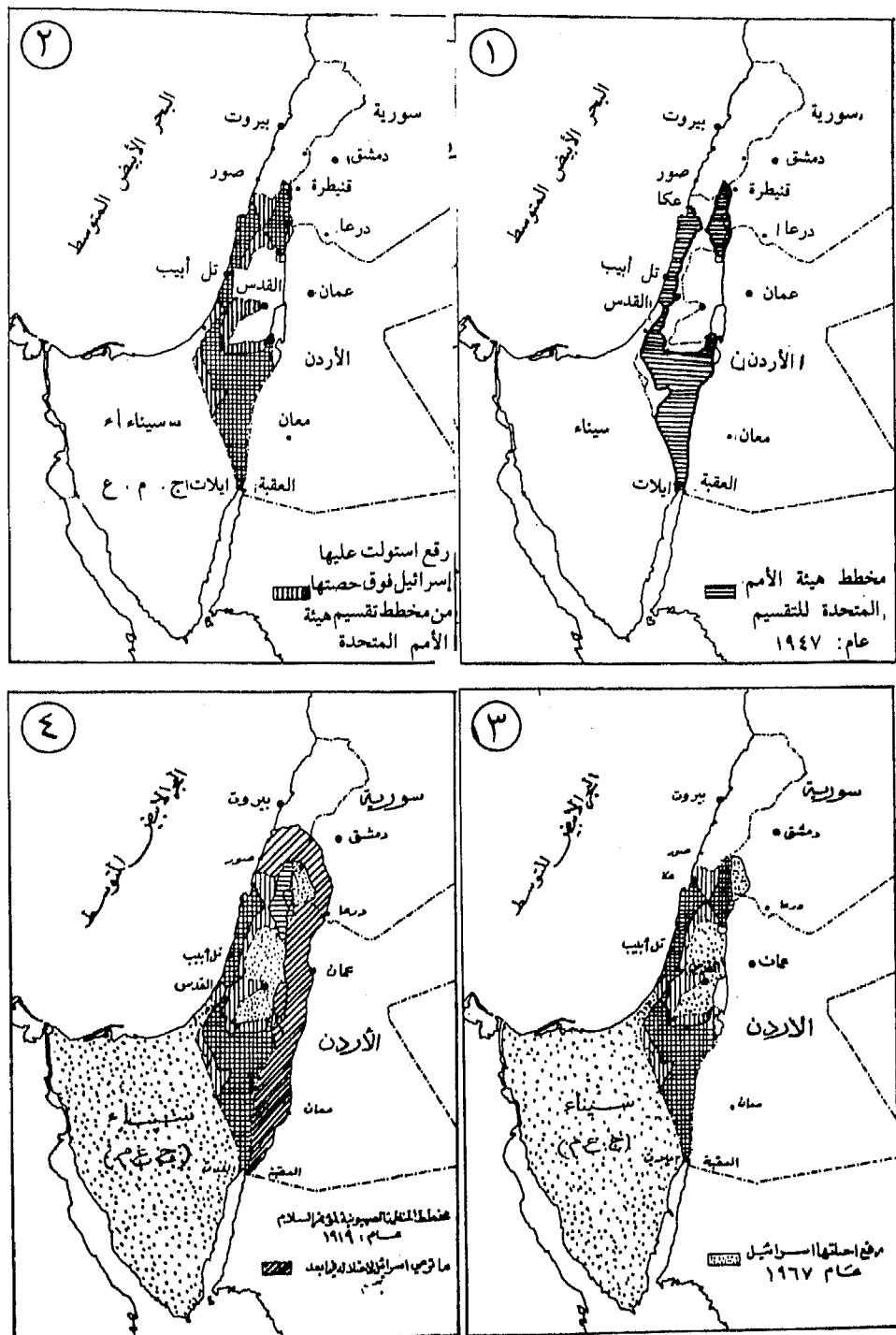
المملكة الأردنية الهاشمية

أحد أقطار الشرق الأدنى وجزء من بلاد الشام وتتلاحم من الشمال مع سورية ومن الشرق مع العراق ومن الجنوب والجنوب الشرقي مع المملكة العربية السعودية ومن الغرب تحدها فلسطين التي تنفصل عنها بغور الأردن والبحر الميت ووادي العربة.

وقد برزت المملكة للوجود في عام ١٩٢١ وتنتشر على مساحة قدرها ٩٢,٥ ألف كم² أو ٩٧,٧ ألف كم² مع الضفة الغربية التي خسرتها في حرب ١٩٦٧ واحتلها اليهود. وكان الأمير عبدالله بن الحسين هو المؤسس الأول لأمارة شرق الأردن التي كانت تحت الانتداب البريطاني. وقد حصلت البلاد على استقلالها في أيـار ١٩٤٦ وضمت إليها ما تبقى من فلسطين في ١٩٤٩.

الوصف الطبيعي:

تنقسم المملكة إلى شطرين لوجود منخفض الغور والبحر الميت ـ الذي يهبط سطحه إلى ٤٠٠ م تحت سطح البحر، وقعره إلى ٨٠٠ م ـ ووادي العربة. ويؤلف نهر الأردن (شكل ١) قسماً من الحدود مع فلسطين بدءاً من بحيرة طبرية حتى مصبه في البحر الميت. وتكون الضفة الغربية المؤلفة من جبال القدس والخليل ونابلس خصيبة وكثيفة السكان. أما الضفة الشرقية أو
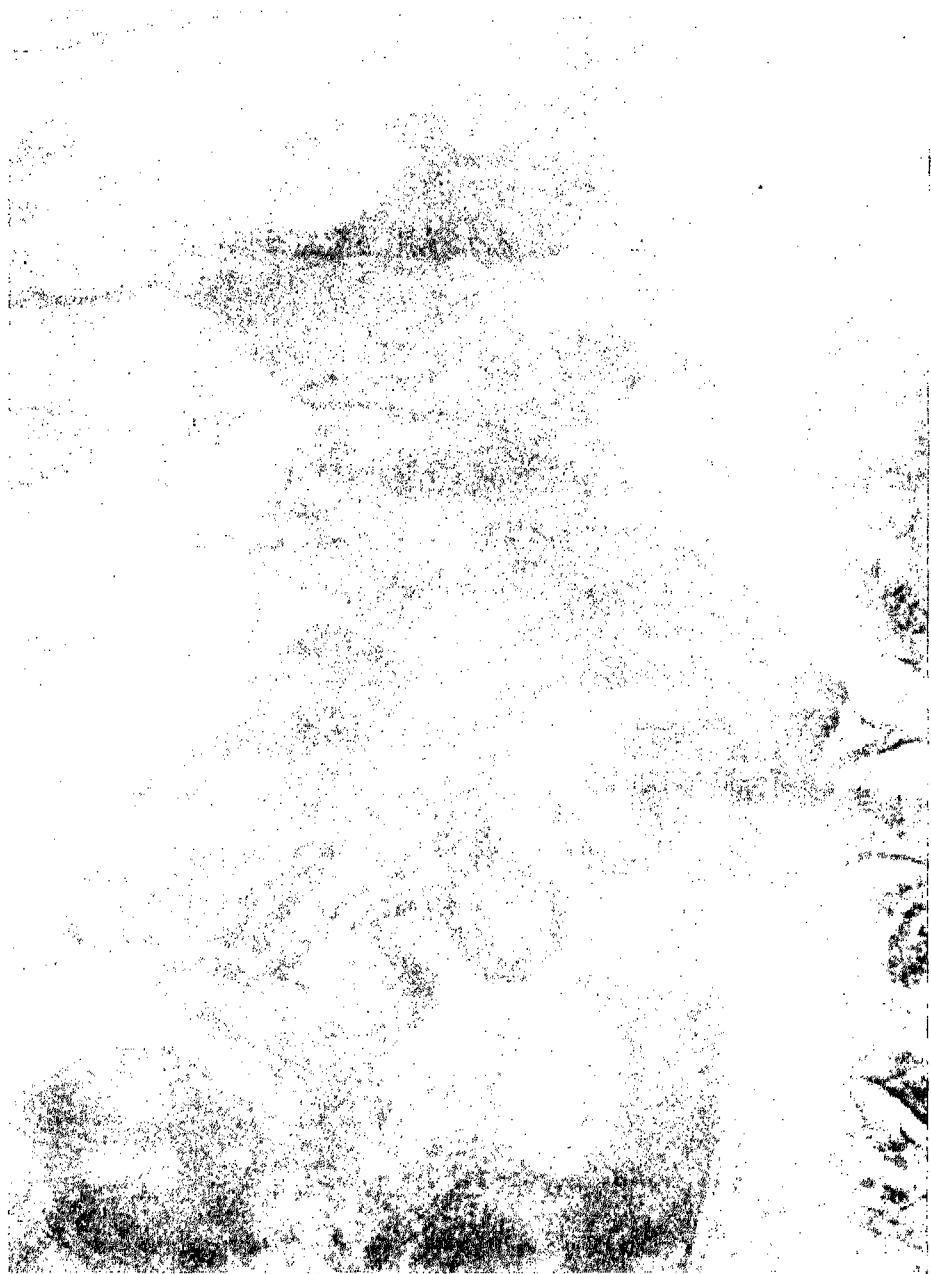
شكل (١)
صورة جوية لنهر الأردن في الغور

شرقي الأردن فتحتل البادية والصحراء أكثر من ٩٠٪ من مساحتها، وتنحدر بهدوء باتجاه الشرق نحو منخفض السرحان ونحو الجنوب. وتؤلف المرتفعات العمود الفقري للبلاد، إذ يتمركز فيها أكثر من ٩٥٪ من سكان البلاد (شكل ٢ وشكل ٣) وحيث تكون مقادير الأمطار كافية لقيام زراعة بعلية وشجرية، بل وحتى لقيام غابات السنديان والبطم في جبال عجلون حيث تقع بعض المصايف. وتنحصر الزراعة المرواة في غور الأردن حيث تروى من روافد نهر الأردن الشرقية ولا سيما من اليرموك الذي اشتقت منه قناة الغور الشرقية، وكذلك على ضفاف نهر الزرقاء، وهو المجرى المائي الدائم الوحيد في المملكة، ومن وادي الموجب واليابس وحسبان، مما يخلق شروطاً موائمة للمزروعات ولقيام مؤسسات بشرية.

السكان: بلغ عدد سكان المملكة في شهر شباط ١٩٨٨ نحو ٣,٣ ملايين نسمة منهم قرابة ١٠٠٠٠٠ بدوي يعيشون في السهوب الصحراوية الواقعة إلى الشرق من الخط الحديدي الحجازي والذي يشير حتى مدينة معان إلى الحدود الفاصلة بين السكان الحضر وبين البداة. وقد تعرضت البلاد لأزمات اجتماعية ومالية خطيرة جداً على أثر تدفق موجتين من اللاجئين الفلسطينية في ١٩٤٨ و ١٩٦٧.

المدن الرئيسة:

عمان: يبلغ عدد سكانها مليون ونصف أي تضم لوحدها خمسي سكان البلاد، وتحتل موقع رابات عموية القديمة أو فيلادلفيا في العصر الروماني. وتقوم فوق تلال عديدة يؤلف كل منها حياً كاملاً قائماً بذاته. وقد بعثت للوجود من جديد وتحولت من قرية حاوية على بعض الآثار القديمة كالمدرج الروماني، إلى مدينة منذ أن أخذ الشراكسة والشاشان النازحون من إمبراطورية الروسيا يفدون إليها لاجئين في أواخر القرن الماضي. وبعد تأسيس أمارة

شكل (٢) كثافة السكان
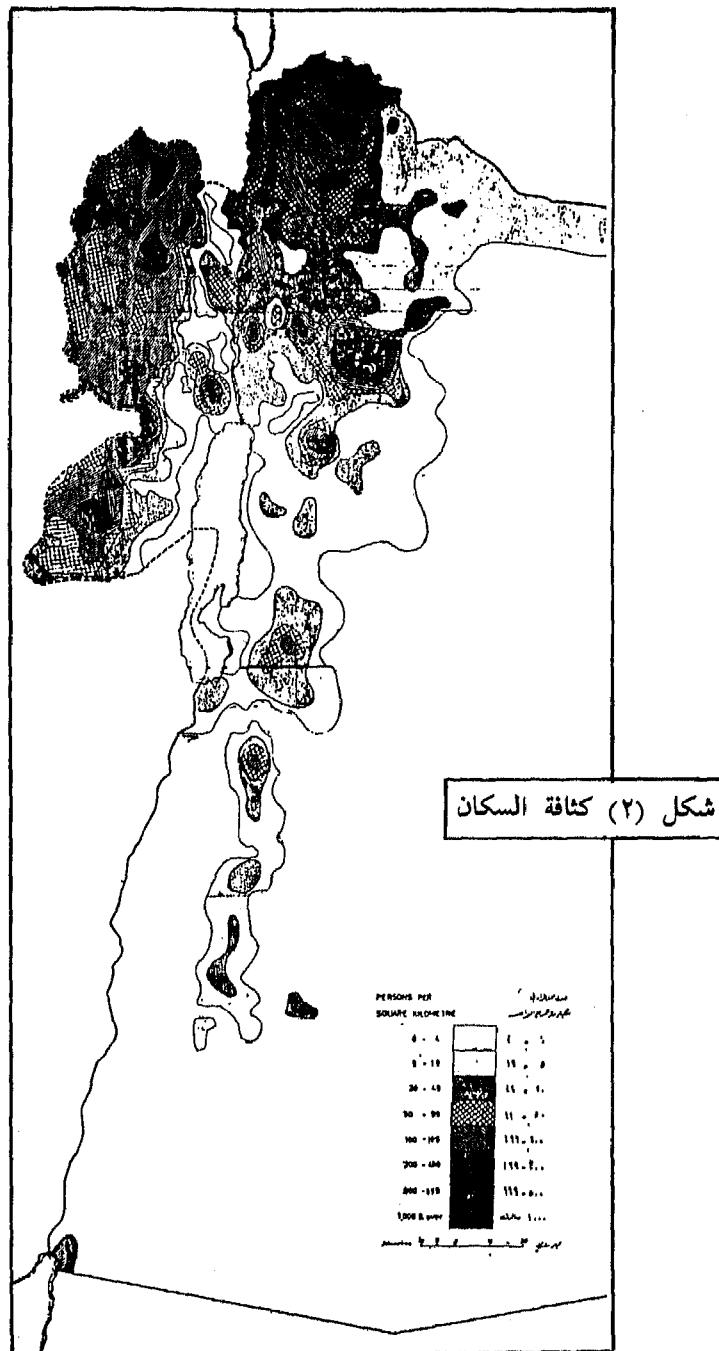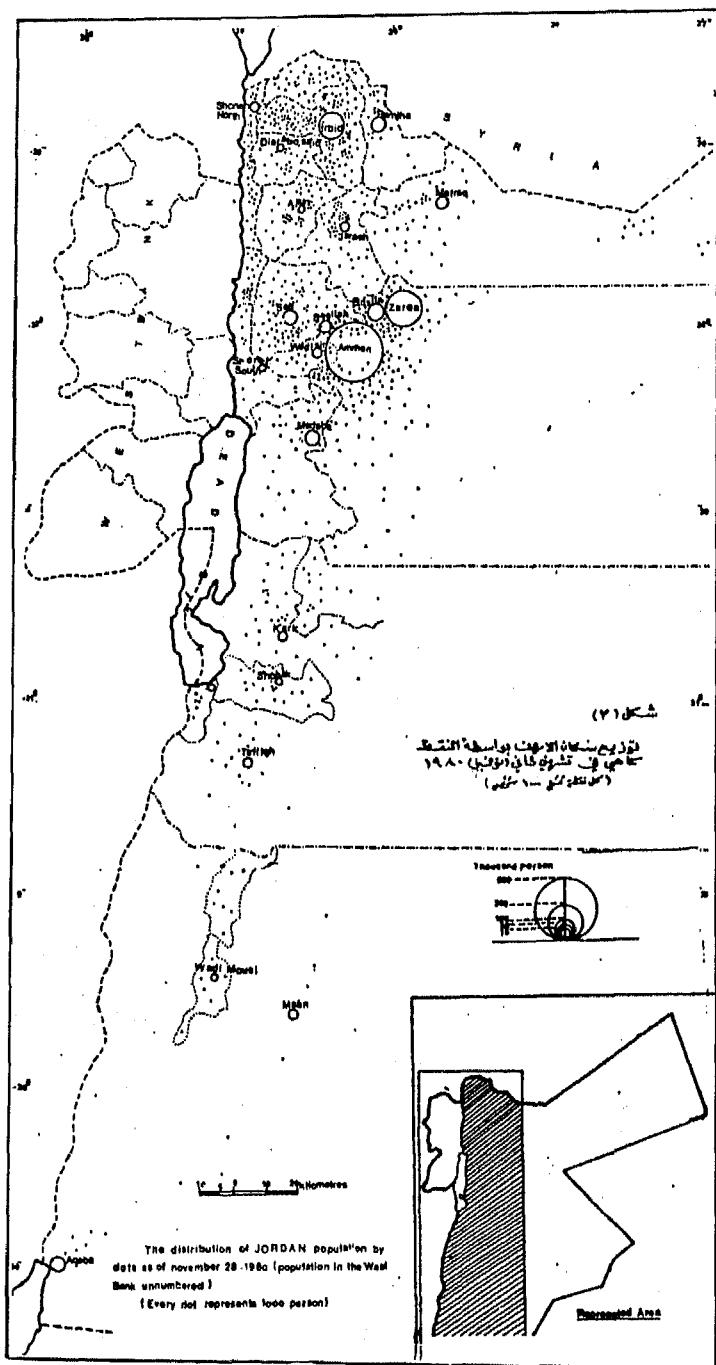
شرق الأردن، وفد إليها الكثير من السوريين واليمنيين والحجازيين. ولكن عدد السكان لم يتجاوز ٢٥٠٠٠٠ نسمة إلا بعد حرب ١٩٤٨، فتدفق عليها اللاجئون الفلسطينيون وجاءت الموجة الثانية من هؤلاء في أعقاب حرب حزيران ١٩٦٧ فأقاموا في مخيمات تكاد تشكل مدناً حقيقية مثل مخيم البقعة إلى الشمال من العاصمة الأردنية فارتفع عدد سكانها إلى ٦٥٠,٠٠٠ نسمة وفي ١٩٦٢ أنشئت بها جامعة تكاملت تدريجياً وتعتبر من أرقى الجامعات العربية.

وعمان مدينة جميلة ذات مخطط ذي حلقات متعددة تؤلف (الجبال) لذا لا تكون الشوارع فيها متعامدة ولا نعثر فيها على المخطط الشطرنجي كالرياض بل تتألف بالأحرى من (دوارات) حلقية.

وتستأثر المدينة بمعظم النشاط التجاري في المملكة وكذلك النشاط الصناعي، وتتميز بأبنيتها الحجرية البيضاء البديعة على شكل فيلات عائلية شبه مستقلة تحيط بها الحدائق المنزلية، ولا نجد العمارات المتعددة الطوابق إلا على جوانب شوارع الحي التجاري وفي الفنادق الفخمة.

جرش: مدينة واقعة على طريق عمان ودمشق، على مسافة كيلومترين إلى الشمال من نهر الزرقاء، وهي غنية بآثارها التي تعود للحقبة البيزنطية والرومانية. وتضم مدرجاً وعشرات الأعمدة القائمة والمهشمة، وقد اجتاحت بعض أبنية المدينة الحديثة بعض هذه الآثار. وتحوي قرابة ٧٥٠٠٠ نسمة، وينصرف أهلها للزراعة المرواة من مياه العيون، ومن نهر الزرقاء. وأصبحت في السنوات الأخيرة بؤرة للنشاط الفني الفلكلوري المحلي والعربي والأجنبي الذي يقام فيها في خريف كل عام على شكل مهرجان دولي.

إربد: حاضرة أكبر سهول المملكة في وسط منطقة زراعية خصيبة تشتهر بزراعة الحبوب. وهي عاصمة الشمال الأردني، تنمو بسرعة حسب مخطط

شطرنجي حديث لأنها واقعة في منطقة منبسطة، وارتقت لمستوى مدينة متوسطة وتحوي جامعة العلوم والتكنولوجيا.

أريحا: مدينة قديمة جداً في الضفة اليمنى لنهر الأردن ـ أي في الغور الغربي ـ وتحوي آثاراً عربية أبرزها بقايا قصر هشام بن عبدالملك. وهي أقدم مدينة في غور الأردن، وينصرف أهلها لزراعة الخضار والمزروعات الباكورية، ولا سيما الزراعة الحديثة تحت الدفيئات أو البيوت البلاستيكية. وتضم حوالي ١٠٠٠٠٠ نسمة. غير أن قيام مستعمرات زراعية استيطانية صهيونية بجوارها أدى لاستئثار اليهود بمعظم الموارد المائية المتاحة وذلك لتضييق الخناق على سكانها العرب.

القدس: ونقصد بها القطاع الشرقي، وتحوي قرابة ١٠٠٠٠٠ نسمة، وهي مدينة مقدسة لدى الديانات الثلاث لأنها تحوي المسجد الأقصى الشريف وقبة الصخرة ومسجد عمر، كما تضم كنيسة القيامة وتنقسم إلى ثلاثة أحياء متميزة بسكانها.

وتشتهر هذه المدينة بصناعة حرفية تقوم على صنع أشياء من الصدف ومن خشب الزيتون والنحاس، يحرص السواح الأجانب من الذين يتدفقون على المدينة في عيد الميلاد من سائر أنحاء العالم على اقتنائها، وقد ضمها اليهود إلى القدس اليهودية الحديثة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ليجعلوها عاصمة لهم.

بيت لحم: وفيها ٩٠٠٠٠ نسمة. وهي مدينة مقدسة عند المسيحيين، وتشتهر بكنيسة المهد، وهي أقدم كنيسة مسيحية في العالم وتقوم فوق المغارة التي ولد فيها المسيح عليه السلام. وتضم الآن جامعة عربية صغيرة.

ومن المدن الهامة بالضفة الغربية **الخليل** وفيها مقام الخليل إبراهيم عليه السلام، وتشتهر منطقتها بزراعة العنب، **ونابلس** التي تشتهر بعصر الزيتون وصناعة الصابون، **ورام الله** وفيها جامعة بيرزيت، **والبيرة**.

الوضع الاقتصادي

يقوم اقتصاد الأردن أساساً على الزراعة وتربية الماشية والتي لا تشجع عليها كثيراً الأوضاع المناخية ولا سيما الافتقار إلى المياه وطبيعة الأرض، ذلك أن المساحة القابلة للزراعة لا تتجاوز ٩٪ من مساحة البلاد، غير أن الرقعة المرواة من قناة الغور الشرقية المنطلقة من نهر اليرموك وروافد نهر الأردن الشرقية لا تزيد عن ٣٠٠٠٠ هكتار أو تعادل تقريباً سنهل الغاب السوري.

وتتصف الزراعة التي يعيش فيها حوالي ثلث السكان بالحداثة، ولكن الإنتاج لا يكفي استهلاك السكان، لأن إنتاج الحبوب لا يغطي حالياً سوى أقل من ربع حاجة السكان، ولكن هناك فائضاً من إنتاج الخضار والأعناب الذي يصدر نحو الأقطار العربية المجاورة. ونظراً لافتقار البلاد للمواد الخام فإن الصناعة الاستخراجية تقتصر على استغلال الفوسفات من مناجم الحسا والرصيفة. وقد تم اكتشاف حقل صغير لإنتاج النفط، هو حقل حمزة، والذي لم يدخل إنتاجه بعد في الإحصائيات، كما اكتشف حقل غاز قابل للاستغلال على الحدود السورية العراقية في موقع الريشة ينتج ٨٠ مليون قدم غاز يومياً. وتعمل مصفاة البترول في عمان على تكرير النفط القادم بأنابيب التابلاين. ويستغل الأردن منذ ١٠ سنوات البوتاس من البحر الميت بفضل مشروع أردني عربي مشترك، وهي المادة التي تصدر منها الدولة اليهودية حوالي ٢ مليون طن سنوياً.

غير أن المملكة الأردنية تعمل جاهدة على تحسين وضعها الاقتصادي عن طريق السياحة، واستثمار شمسها الساطعة وآثار البلاد وأوابدها كالبتراء، وتضم عمان أكثر من أثني عشر فندقاً ضخماً من الدرجة الممتازة تضارع أرقى الفنادق الأوروبية.

ويمكن تلخيص الأوضاع الاقتصادية العامة للأردن بالعجز البالغ في الميزان التجاري، ويعود ذلك إلى أن ثلاثة أرباع موارد الدولة تتألف من القروض أو من المعونات من الدول الأجنبية أو من الدول العربية الأعضاء في مجلس التعاون الخليجي، ويبلغ حجم الديون الخارجية ٣٠٠ مليون دينار في عام ١٩٨٣ أو أكثر من مليار دولار، ومع هذا يبلغ دخل الفرد المتوسط ١٥٠٠ دولار في ١٩٨٥. غير أن البلاد أصبحت تعاني من أزمة اقتصادية بدءاً من عام ١٩٨٨ على أثر انخفاض المعونات العربية من دول الخليج وتدنّي حوالات المغتربين من أبناء المملكة.

لقد تضاعف الناتج القومي الخام بين ١٩٨٠ و ١٩٨٥ ليبلغ ٤,٣ مليار دولار، ولكن نظراً لتزايد السكان بمعدل ٣,٧٪ سنوياً أي يتضاعف عددهم مرة كل ١٨ سنة، فإن قرينة الإنتاج الغذائي للمواطن هبطت من ١٠٠ إلى ٨٩ خلال السنوات العشر الأخيرة، وتأتي نسبة ٢٩٪ من الاستيرادات من السوق الأوروبية المشتركة، والتي لا تشتري سوى ٤٪ من صادرات الأردن ومنها الفوسفات والبوتاس. ويعمل الأردن على تكثيف إنتاجه من الفوسفات من مناجم الرصيفة والحسا في الجنوب، ومن الأسمدة الفوسفاتية أو السوبرفوسفات من مصنع العقبة الذي يقارب انتاجه ربع مليون طن بالعام.

وقد تم بناء طريق لتسهيل استغلال منجم جديد هو الشيدية، الذي يقدر احتياطيه بحوالي مليار طن يمتد انتاجه على قرن كامل. وهناك مشروع لبناء مركز كهربائي حراري يعتمد على الفحم المستورد الحجري الرخيص.

وفي ١٩٨٦ كان الاستيراد يؤلف ٧٠٪ من قيمة الحركة التجارية مقابل ٣٠٪ للصادرات وتتلقى المملكة مليار دولار كل عام كمعونة من المملكة السعودية أي ما يعادل تحويلات ٣٥٠٠٠٠ عامل أردني يعملون في الخارج.

لوحة اقتصاد الأردن في ١٩٨٧

المادة	١٩٧٠	١٩٨٧
القمح	٧٠٠٠٠ ط	١٠٠٠٠٠ ط
الشعير	٣٠٠٠٠ ط	٣٠٠٠٠ ط
الذرة البيضاء	١٠٠٠ ط	-
البطاطا	٣٠٠٠ ط	-
البصل	١٠٠٠ ط	-
البندورة	٢٥٨٠٠٠ ط	-
العدس	٢٠٠٠٠ ط	-
العنب	٦٥٠٠٠ ط	-
الحمضيات	-	٦٦٠٠٠ ط
التمور	١٠٠٠ ط	-
التين	٤٠٠٠ ط	-
الموز	١٧٠٠٠ ط	٧٠٠٠ ط
السمسم	٨٠٠ ط	-
زيت الزيتون	٢٠٠٠ ط	٦٠٠٠ ط
التبغ	١٧٠٠ ط	-
الأبقار	٤٠٠٠٠	٣٥٠٠٠
الإبل	١١٠٠٠	١٥٠٠٠
الأغنام	٧٩٢٠٠٠	٩٩٠٠٠٠
الماعز	٣٧٧٠٠٠	-
الصوف	٢٠٠٠ ط	-
الملح	١٨٠٠٠ ط	-
الفوسفات	١ م ط	٢,٥ م ط
زيوت نفطية	٢٤٨٠٠٠ ط	-
إسمنت	٥١١٠٠٠ ط	-
الاستيراد (١٩٨٦)	٨٥٠ مليون دينار	
التصدير (١٩٨٦)	٢٣ مليون دينار	

العراق

الوضع الجغرافي: يؤلف العراق الجناح الشرقي من الهلال الخصيب، أي يقع ضمن مستطيل الشرق الأدنى الممتد من خليج اسكندرون حتى سفوح الجبل الواقع إلى الشرق من الموصل ومن غزة هاشم حتى الكويت. ويحد العراق من الشمال تركيا، وإيران من الشرق ومن الجنوب الخليج العربي حيث لا يتجاوز الساحل العراقي ٥٠ كم، والكويت والمملكة العربية السعودية، ومن الغرب المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية وسورية.

الوصف الطبيعي: يتألف العراق من منطقة وسطى مركزية شبه منبسطة هي سواد العراق أو بلاد ما بين النهرين أو «ميزوبوتاميا»، ولكن الأرض تنهض تدريجياً في اتجاه الغرب، أي في اتجاه القسم الشرقي من بادية الشام مثلما تنهض شمالاً نحو سهوب الجزيرة العليا (شكل ١)، ونحو الجنوب الغربي، أي نحو الجزء الشمالي من هضبة نجد. وتنهض في الجزء الشمالي والشمالي الشرقي من البلاد سلاسل جبلية التوائية متوازية، تمتد من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي وتشكل جبال حمرين مشارفها، والتي ليست أكثر من مقدمة لسلاسل زاغروس الإيرانية ولسلاسل طوروس الشرقية التركية. وتكون هذه السلاسل محزّزة بخوانق عرضانية تسمح لنهر الدجلة وروافده بعبورها، وحيث تكون السفوح العليا مستورة جزئياً
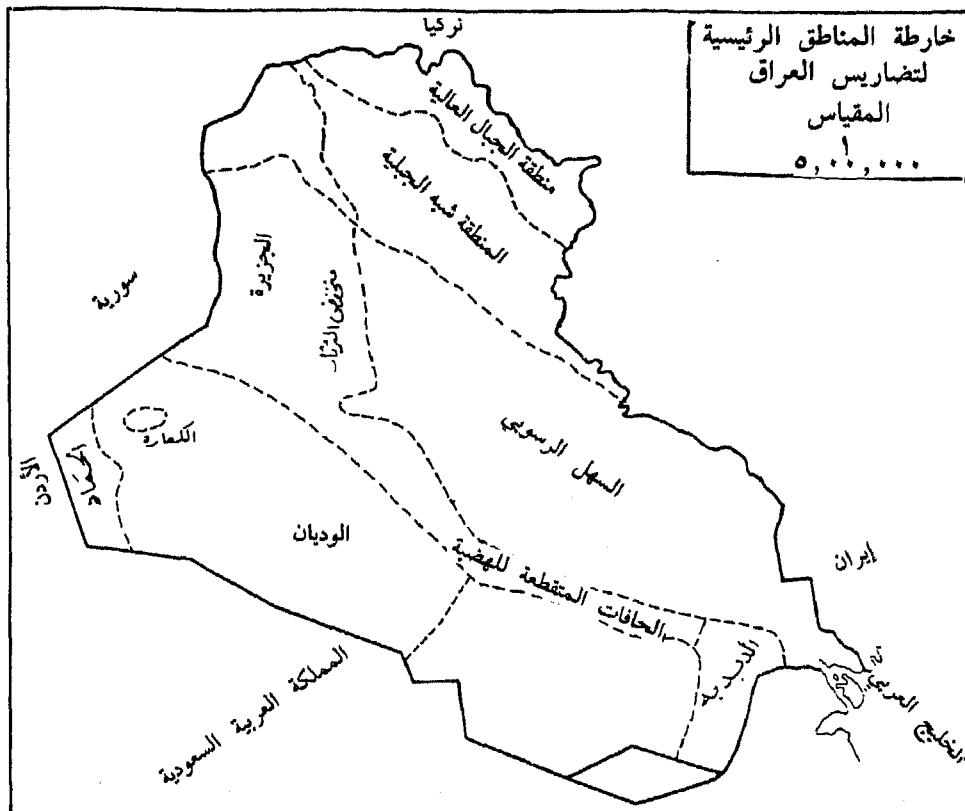
شكل (١)

بغابات المخروطيات وبمشاجر البحر المتوسط كالبطم والسنديان والزيتون البري، وبالمراعي على السفوح الوسطى والدنيا.

ويعتبر الفرات ودجلة اللذان يخترقان العراق في كل طوله، من الشمال إلى الجنوب، النهران الكبيران الوحيدان في كل آسيا الجنوبية الغربية، وينبع كلاهما من هضبة تركيا الشرقية المحصورة بين طوروس جنوباً وجبال البونت شمالاً. ولا يتلقى الفرات في الأراضي العراقية ـ وحيث تكون مياهه بطيئة الجريان، ترسم أكواعاً وتترك جزراً (حوايج) ـ أي رافد يستحق الذكر، باستثناء ما تقدمه الوديان الجنوبية الغربية من مياه فصلية في بعض السنوات وفي أعقاب السيول، مثلما لا يكون سريره الضحل صالحاً للملاحة باستثناء

المراكب الصغيرة الخفيفة بسبب ضحالة مياهه. وللفرات صبيب متوسط بلغ عند مدينة الثورة السورية ٧٥٠ م٣/ثا ولكن في موسم الشح كان يهبط أحياناً إلى ١٧٥ م٣/ثا مقابل ١٨٠٠ م٣/ثا في أيار وبلغ ٥٠٠٠ م٣/ثا في عام ١٩٢٩، وهذه الأرقام لم تعد ذات معنى بعد بناء السدود في تركيا وفي سورية ذاتها، إذ أصبح الفرات نهراً مروّضاً حتى أنه أصبح يعتمد في العراق منذ عشرة أعوام تقريباً على مصرف بحيرة الثرثار التي تسعفه بفائض نهر الدجلة (شكل ٢).

شكل (٢) مجاري واشتقاقات وأقنية دجلة والفرات والمساحات المزروعة.

وعلى خلاف الفرات يكون نهر الدجلة الذي تغذيه من ضفته اليسرى أنهار غزيرة كالخابور الشرقي والزاب الأعلى والزاب الأدنى وديالي والكرخة، التي تقدم له ما يعادل صبيبه عند دخوله العراق من مياه، أقول يكون أكثر غزارة، فيبلغ صبيبه الوسطي السنوي عند تكريت ٨٥٠ م٣/ثا حتى أنه يصبح صالحاً للملاحة بين شط العرب وبغداد بالنسبة للبواخر الصغرى النهرية ذات المحرك. وقد كان النهران يتعرضان لفيضانات كارثية قبل بناء السدود عليهما وعلى روافدهما خلال الربع الثالث من القرن العشرين، ثم يلتقيان قبل البحر بمسافة ١٥٠ كم ليؤلفا شط العرب الذي يسكب مياهه في الخليج العربي بين زمرة من الأرصفة الإطمائية الوحلية ومستنقعات ومقاصب كثيفة.

وكان صبيب الدجلة يبلغ وسطياً قبل دخوله بغداد ١٢٤٠ م٣/ثا مقابل شح، أو صيهود ـ أو تحاريق في مصر ـ يهبط حتى ٣٢٧ م٣/ثا في شهر تشرين الأول، و ٣٠٢٠ م٣/ثا في نيسان، وبلغ في أحد الفيضانات ١٠٠٠٠ م٣/ثا، وهذا قبل بناء سد سامراء الذي يصرف كل مياه الفيضان إلى نهر اصطناعي ينتهي في بحيرة الثرثار (شكل ٣). ويدين الدجلة بوفرة مياهه للروافد المنحدرة من زاغروس التي تنال في أعاليها أكثر من متر واحد من الأمطار والثلوج سنوياً. ولكن الصيهود يقع مع الأسف في الصيف أي عند حاجة المزروعات للإرواء. وينقل الدجلة وسطياً عند الموصل ١٥٠٠ غرام من الصبيب الصلب في المتر المكعب (الميسيسبي ٥٦٠ غرام/م ٣). وقد ساد اعتقاد ردحاً من الزمن أن الإطماء الذي حمله الرافدان بالتحالف مع نهر كارون القادم من عربستان الإيرانية أو العراق العجمي قد جعل الساحل يتقدم على حساب البحر لمسافة ٣٠٠ كم خلال ٦٠٠٠ سنة. غير أن دراسات حديثة ترى، على خلاف ما سبق، بأن الساحل كان في بداية العصر
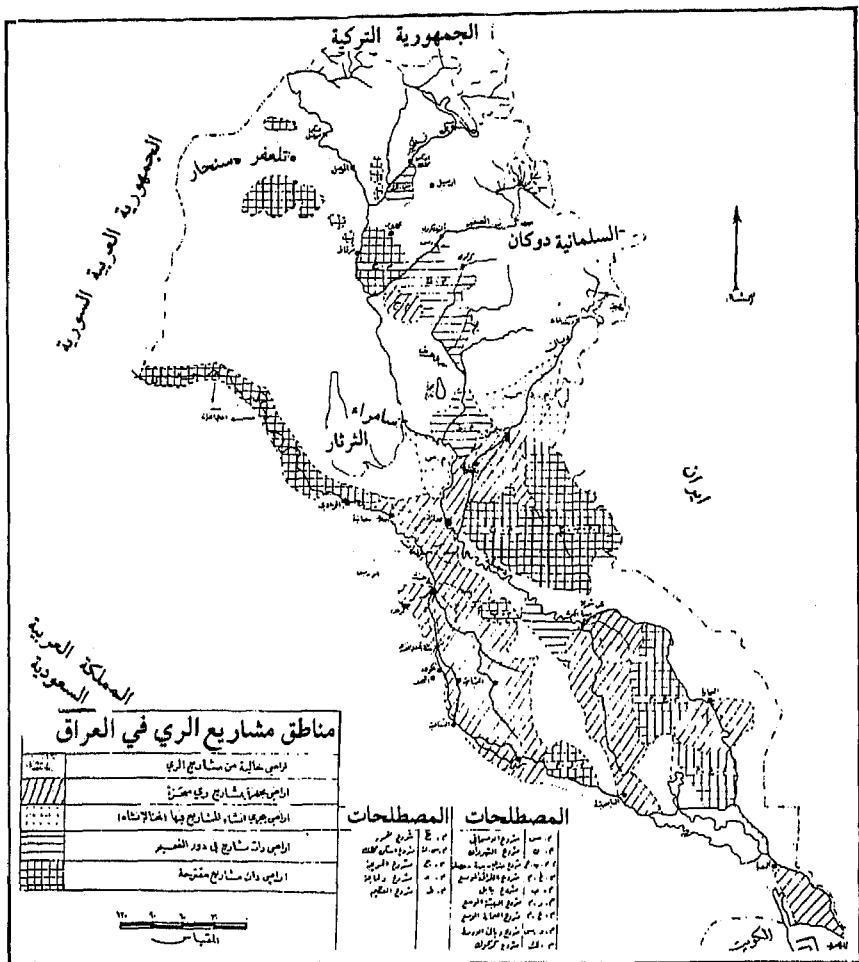
شكل (٣)

ـاريخي أبعد من الساحل الحالي في اتجاه الجنوب. هذا كما غمر البحر قنوات الري القديمة في منطقة بندر شاهبور (بندر خميني) كما قطعت أقنية أخرى بمجاري تيارات المـد والجزر في خليج خور زبير (إيران)، مثلما غمرت حقول زراعية قديمة في ضواحي البصرة بالمياه البحرية. ويتعرض الخليج العربي للزلازل، كما حدث في ٢٧ تشرين الأول ١٩٤٥، وإذا لم يكن الطوفان رواية فمعنى ذلك أنه يستطيع أن يقص علينا حكاية تقدم البحر

في حقبة ما قبل التاريخ.

المناخ: ويعتبر سهل ما بين النهرين من أكثر مناطق العالم حرارة وحيث تتزايد الحرارة (شكل ٤) باتجاه الجنوب بفعل انخفاض الأرض ودرجات العرض، كما تكون مقادير التهطال هزيلة، فبينما لا تزيد عن ٤٠٠ مم في الموصل نجد أن أمطار بغداد تعادل أمطار تدمر أو الخرطوم أي بحدود

الحرارة في بغداد
المعدل السنوي ٢٢,٧
معدل الحد الأدنى ١٥
معدل الحد الأقصى ٣٠,٤

الحرارة في الرطبة
المعدل السنوي ١٩,١
معدل الحد الأدنى ١١,٥
معدل الحد الأقصى ٢٦,٦

الحرارة في كركوك
المعدل السنوي ٢١,٧
معدل الحد الأدنى ١٥
معدل الحد الأقصى ٢٨,٤

الحرارة في الديوانية
المعدل السنوي ٢٢,٦
معدل الحد الأدنى ١٤,٢
معدل الحد الأقصى ٣٠,٩
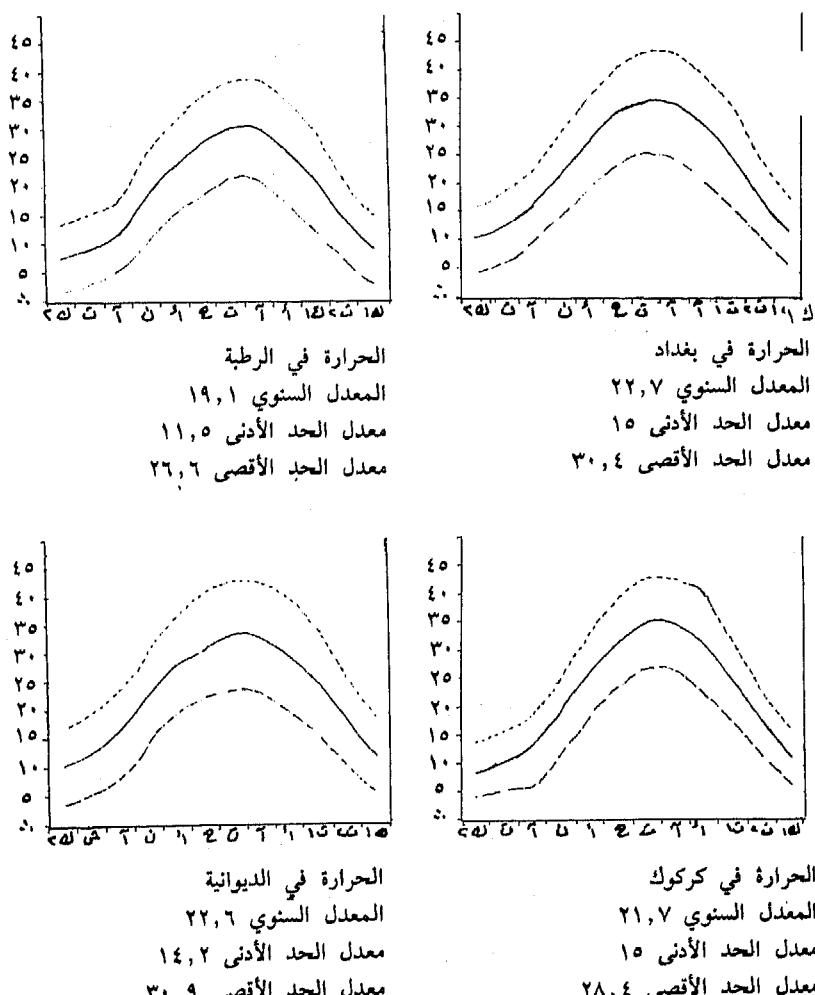
شكل (٤)

١٢٥ مم هذا في حين يستمر الجفاف السنوي مدة ٦ أو ٧ شهور بشكل متواصل. ولكن تزداد الأمطار مع تزايد الارتفاع فتزيد أمطار الجبال قرب الحدود الإيرانية والتركية عن المتر دائماً.

ولا يزيد المطر عن ١٠٠ مم في ثلاثة أرباع مساحة العراق في السنة (شكل ٥)، غير أن الانجماد قد يتقدم حتى البصرة التي قد يصعد فيها ميزان الحرارة في كانون الثاني إلى ٢٧ درجة بالظل في ظروف نادرة. وتكون فصول الصيف طويلة وشديدة الحرارة، وليس من النادر في بغداد أن ترتفع درجة الحرارة القصوى حتى ٤٨ بل وحتى ٥٠ درجة، مما كان يدفع سكانها إلى الالتجاء عند الظهيرة إلى الكهوف أو السراديب في الماضي. وتثير الرياح
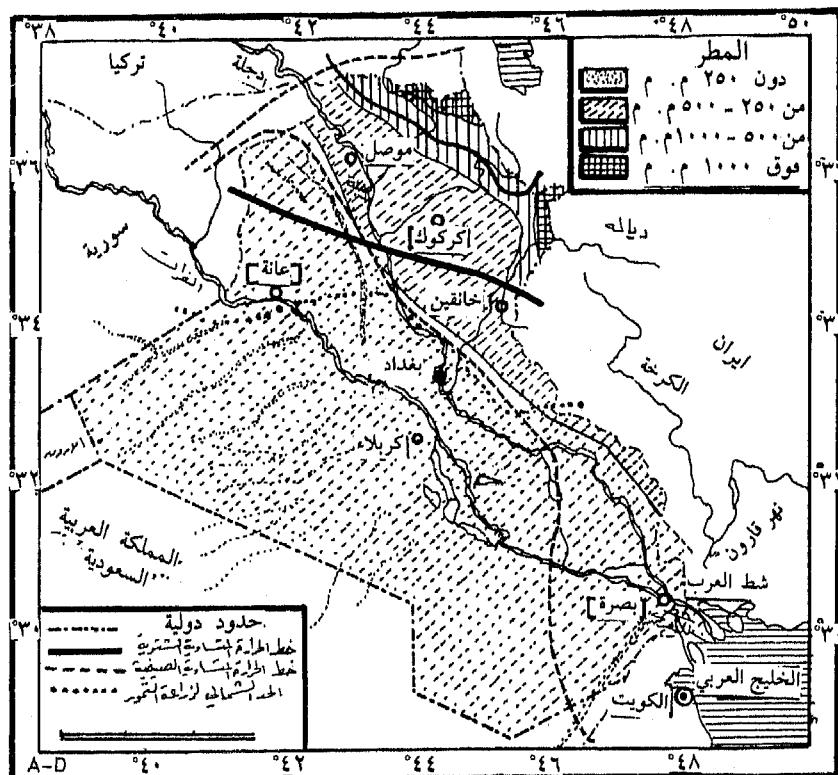
شكل (٥)

الغربية والجنوبية الغربية زوابع الغبار. ويكون متوسط الحرارة صيفاً في البصرة ٣٥,٨ درجة مع رطوبة جوية ثقيلة.

شط العرب: ويتألف هذا المجرى المائي من اجتماع دجلة والفرات في منطقة السواد الأدنى، أو ميزوبوتاميا السفلى، وتروى ضفافه بفضل حركة المد والجزر اليومية على عرض يبلغ كيلومترين. وتنتشر حدائق النخيل الكثيفة على جانبيه وتصعد على الفرات حتى الحدود السورية، وعلى نهر دجـلة حتى بغداد. ويبلغ عدد أشجاره ١٥ مليون نخلة.

البصرة: مدينة تحوي ٦٠٠٠٠٠ نسمة، ولكنها ذات مظهر فقير، وهي الميناء الرئيس في العراق الذي ترسو فيه السفن التجارية، ولكنها ثاني مدينة عراقية في الأهمية بعد العاصمة، وتحوي مصانع تعليب التمور الصالحة للتصدير.

وتكون المناطق الواقعة في عالية البصرة ـ أو بلاد سومر القديمة ـ عبارة عن منطقة كانت تتعرض في معظمها للفيضان الربيعي وذلك قبل بناء السدود على دجلة والفرات وعلى روافدهما، حتى أن هور الحمّار يبدو كبحيرة ضحلة شبه دائمة. ولسكان الأهوار أو المعدان نمط حياة خاصة تتصف بالعزلة وبرمائية، فهنا يقوم نشاط السكان على صيد الأسماك وزراعة الرز (التمّن) ويعيشون في بيوت من قصب المستنقعات، ويربون الجاموس ويماثلون في حياتهم سكان سهل الغاب السوري قبل تجفيفه في عام ١٩٥٦.

أما السواد الأوسط (ميزوبوتاميا الوسطى) فيخلو من المستنقعات، ولكن الفيضانات كانت حتى أواسط القرن العشرين تجتاح أراضي المنطقة وذلك عندما تطغى مياه الرافدين على حواجبهما الجانبية، وهذه المنطقة تزخر بالحياة الزراعية وفيها تصعد الكثافة لأكثر من ٣٥٠ نسمة/كم٢، وتقع عند اقتراب النهرين من بعضهما في منطقة بغداد، ولما كانت هذه المنطقة عقدة

طرق بفضل انكماش عرض السهل، فقد شهدت ظهور بابل وسلوقية وطيسفون القديمة ووريثتهما **بغداد** التي تأسست في عام ٧٦٢ م على ضفاف الدجلة والتي بلغت ازدهارها الأقصى عندما أصبحت عاصمة العالم العربي والإسلامي وكانت تضم في أزهى العصر العباسي حوالي ١,٥ مليون نسمة، وهو رقم لم تسترده إلا في عام ١٩٦٠.

وقد بلغ عدد سكانها ١,٧٥ مليون نسمة في ١٩٦٨ وتتجاوز حالياً ٤ ملايين من مجموع سكان القطر العراقي البالغ ١٧ مليون نسمة. وكان الاجتياح المنغولي على يد جحافل هولاكو نذيراً بانحطاطها، ولا تقدم اليوم لزوارها الكثير من آثار ماضيها المجيد لأن مادة البناء هو الطابوق، أي الآجر المشوي، غير أن اكتشاف النفط في العراق في العقد الثاني من القرن العشرين منحها نهضة جديدة، واكتسبت العاصمة العراقية مشهداً عصرياً بشوارعها العريضة الجديدة وبعماراتها الوظيفية، وتلعب دوراً تجارياً هاماً عند تصالب طرق المواصلات مع آسيا الجنوبية الغربية (شكل ٦).
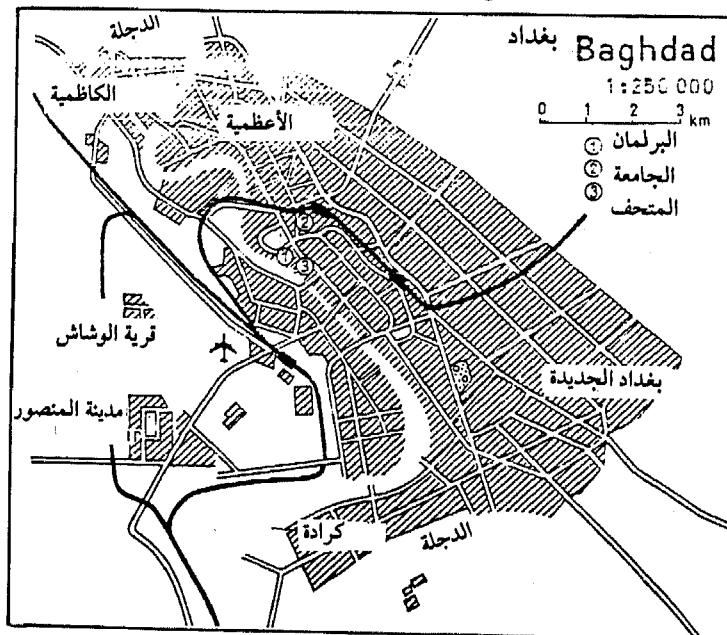
شكل (٦)

وإلى الشمال من خط عرض بغداد نجد النهرين متعمقين في أودية محفوفة بجروف. وتكون الهضبة بين الواديين، أي الجزيرة، عبارة عن سهب يرتاده البدو. وينال محدب جبل سنجار الالتوائي أمطاراً تسمح بممارسة زراعة يقوم بها سكانه اليزيديون الذين لا يقل عددهم عن ١٠٠٠٠٠ نسمة. وتنتشر على ضفة نهر دجلة اليسرى بلاد آشور القديمة التي تنهض في اتجاه جبال زاغروس التي يقطنها الأكراد الذين يفصلهم عن العرب نطاق يقطنه التركمان. وهنا تكون الأمطار كافية لقيام زراعة بعلية، هي زراعة الديم. وهنا تقوم مدينة **الموصل**، أو أم الربيعين، لاعتدال مناخها بالموازنة مع بقية المدن العراقية وتضم حوالي ٧٥٠٠٠٠ نسمة، على مقربة من نينوى القديمة، وهي مدينة تجارية وتقوم فيها صناعة ناشئة تشهد نمواً متسارعاً. وتعتبر **كركوك** التي تضم ٣٥٠٠٠٠ نسمة أكبر مركز نفطي عراقي.

غير أن حكام العراق عجزوا دوماً عن اتخاذ قرار حاسم لحل المشكلة الكردية. فالأكراد الذين يتكلمون لغة هندية أوروبية ويدينون بالإسلام ولا يستوطنون الجبال التي تمتد على جانبي الحدود العراقية التركية، والعراقية الإيرانية فحسب، بل يسكنون أيضاً في السهول العليا الواقعة بين ديالى والزاب الأعلى والزاب الأدنى، أي بلاد آشور القديمة، ويقارب عددهم ثلاثة ملايين نسمة، وهم في حالة ثورة وتمرد مزمن منذ أكثر من ربع قرن ويجدون عوناً من بني جلدتهم القاطنين في إيران وفي تركيا الشرقية.

الوضع الاقتصادي

لاتزال جمهرة الفلاحين العراقيين تعمل في معظمها حسب طرائق قليلة النجاعة، إذ لم يحقق الاصلاح الزراعي تلك المعجزة الزراعية المنتظرة، فإذا كان قد حررهم اجتماعياً فهو لم يحسّن وضعهم اقتصادياً. ومع ذلك يظل العراق يشكو من قلة السكان نسبياً مما حدا بالحكومة لتشجيع هجرة حوالي

مليون فلاح مصري. وعلى الرغم من أن العراق هو رابع منتج للنفط في الشرق الأوسط بعد المملكة العربية السعودية والكويت وإيران، ومع أن عائدات النفط تمثل أربعة أخماس ميزانية الدولة، فإن العمود الفقري للاقتصاد العراقي لا يزال متمثلاً بالزراعة التي تؤلف المورد الرئيس لمعيشة السكان. ففي ١٩٦٢ كانت الزراعة توفر العمل لحوالي ٧٠٪ من السكان العاملين وقد هبطت هذه النسبة إلى النصف حالياً.

وتنتشر الزراعة على سدس مساحة البلاد الكلية أو ٧٤٠٠٠ كم٢، غير أن المردود لا يتجاوز نصف ما يمكن أن تنتجه هذه المساحة، وذلك بسبب البنى الاجتماعية المتأخرة وطرائق الزراعة التقليدية، والشرائط المناخية غير المواتية واستفحال مشكلة الملوحة بحيث تبدو الأرض بين بغداد والبصرة بيضاء وعقيمة تماماً.

هذا ولا تكون الملكية الصغيرة سائدة، ولكن الصيغة الشديدة الانتشار هي المزارعة التي ينال فيها الفلاح غير المالك ما بين ثلث المحصول ونصفه. وبعد انقلاب ١٩٥٨ جرت محاولات للإصلاح الزراعي مع تعويض نقدي للمالكين السابقين، بحيث تم توزيع ٦,٣٦ ملايين مشارة[1] على عائلات الفلاحين بمعدل ١٠ هكتارات لكل أسرة. ولكن يبدو أن هذا التوزيع الجديد لم يشمل سوى ثلث المساحة التي كان من المنتظر توزيعها.

المشاريع الهيدروليكية: لقد أمكن إنقاذ بغداد من الفيضان على أثر بناء سد سامراء قبل الثورة في ١٩٥٦ وتحويل المياه الزائدة إلى بحيرة الثرثار. والواقع فإن استغلال الثروة المائية في العراق ـ وحيث تكون الترب على العموم من نوعية جيدة إذا أمكن تجنب خطر الملوحة ـ يتعلق أيضاً وإلى حد

(١) وهي وحدة مساحية عراقية تعادل ربع هكتار.

كبير بإنجاز شبكة ري هامة وناجعة تعوض الافتقار للأمطار في العراق الجنوبي، ولكن مع قيام شبكة صرف، أو كما يسمى في العراق **البزل**.

وعلى أثر بناء سد دربندي خان على نهر ديالى في ١٩٦١ فقد أمكن إرواء ٢٤٠٠٠ هـ، كما أن بناء سد دوكان على نهر الزاب الصغير، وزمرة من سدود أخرى تحجز مقدار ١٣,٥ مليار م^{3} على توسيع النطاق المروي. وقد استطاعت بحيرة الثرثار أن تنجد نهر الفرات بعد أن شحت مياهه كثيراً بعد بناء السدود السورية والتركية، وهكذا أمكن استنقاذ نصف الأراضي المزروعة في سواد العراق من أخطار الفيضانات الهوجاء.

غير أن الري لا يكون في العراق بسيطاً، كما هو الحال في مصر، باستثناء المناطق المجاورة لشط العرب، إذ يجب توزيع المياه من خلال القنوات المتقنة والتي تستغل فارق الارتفاع بين الرافدين لأن مستوى دجلة أعلى من الفرات في عالية بغداد، ولكنه يصبح أقل ارتفاعاً في سافلة بغداد. ولم تزدهر بلاد بابل القديمة إلّا بفضل يقظة السلطة الحاكمة. فالمراسلات المتبادلة في القرن الثامن عشر قبل الميلاد بين الملك وولاته كانت مخصصة لصيانة السدود والقنوات، وظلت المشاريع الإروائية متقنة في عصر العباسيين ولكنها تخربت على أثر اجتياح المنغول في ١٢٥٨ أي في السنة التي سقطت فيها قرطبة بيد الإسبان. ولم تهتم السلطات الحاكمة بشؤون الري حتى مطلع القرن العشرين.

المحاصيل الرئيسة: إن أكثر منتجات الزراعة العراقية أهمية هي الحبوب من قمح وشعير ورز والموجهة للتغذية المحلية باستثناء الشعير الذين يتم تصدير شطر منه. ويتوسع إنتاج التبغ والقطن والبذور الزيتية، ولكن لم يبلغ أي منها مستوىً عالياً يسمح بالتصدير، ويظل المورد الزراعي الأكبر بالعراق متمثلاً بالتمور الذي تبلغ أصنافه الخمسين عدداً، ذلك أن شجرة

النخيل تزرع على طول شط العرب والمجرى الأوسط للرافدين ويحقق العراق تصدير ثلاثة أرباع التمور التجارية في السوق العالمي.

وتكون أعداد الماشية كبيرة ولا سيما الأغنام والماعز، غير أن تربية الماشية تظل من اختصاص البدو وأشباه البدو حسب طرائق تقليدية لم يطرأ عليها تحسن يلفت الاهتمام، اللهم إلّا في ميدان تربية الأبقار الحلوبة في مزارع حديثة وحظائر. ويسود الجاموس في الأهوار، وتتراجع تربية الإبل التي فقدت دورها أمام وسائل النقل الميكانيكية.

الصناعة: لقد ظلت الصناعة محدودة النطاق والفعالية نظراً للافتقار للمواد الخام باستثناء النفط، كما كان استغلال مصادر الطاقة المحلية رديئاً حتى عهد قريب كالغاز الطبيعي المرافق الذي كان يحرق هدراً فوق الآبار. وقد قامت نواة لصناعة حديثة في السبعينات، غير أن الحرب الإيرانية قضت على كل الطموحات والتطلعات.

وتظل الصناعة النفطية هي المورد التعديني الرئيس بالعراق وتقع حقول النفط في منطقة كركوك شمالاً وبجوار الموصل ونفط خانه وفي حقل الزبير قرب البصرة في الجنوب. ويصدر العراق البترول عن طريق أنابيب تمر بالأراضي التركية وتنتهي على ساحل لواء أسكندرون، وعن طريق المملكة السعودية في ميناء ينبع نظراً لتوقف الأنابيب المارة بسوريا والأردن عن الضخ. وإلى جانب صناعة النفط الاستخراجية والتكريرية التي توفر العمل لحوالي ٢٠٠٠٠ عامل، فإن الصناعات الأخرى تظل محدودة كصناعة الأكلمة الصوفية (الحرامات) وهي تعود للثلاثينات، والصناعات المعدنية الخفيفة كالمدافىء (علاء الدين)، وتركيب الثلاجات والغسالات، وصناعة النسيج الآلية في الموصل، وتعليب التمور في البصرة، والمحفوظات الغذائية في كربلاء، ومعمل سكر الشوندر في الموصل، وتبقى الصناعة الثقيلة الوحيدة

هي صناعة الإسمنت، ويتم تكرير النفط في جوار بغداد في مصفاة الدورة.

المواصلات: يبلغ طول شبكة الخطوط الحديدية قرابة ٢٠٠٠ كم حوالي نصفها من النوع الضيق والتي يجري تنميطها حسب المقياس الدولي، رغم كل الصعوبات لانعدام الحجارة للبالاست (الصابورة) في السهل الرسوبي. أما شبكة الطرق المعبدة فتقارب ٢٥٠٠٠ كم أكثر من نصفها مزفت، ولبغداد مطار دولي في حين لا يزال دور مطار البصرة محلياً.

وإذا كان العراق ينفق بعض أموال عائدات النفط في مشروعات الري كبناء السدود وقنوات الري والبزل في أراضي السهل الرسوبي المعرضة لظاهرة الانكباس Subsidence ، وحيث يبلغ سمك الرسوبات الهشة ١٠ كم، التي يحملها الرافدان بسبب ردم الخليج المتواصل بالرواسب (شكل ٧)، وفي مشروعات الإصلاح الزراعي والتصنيع الذي كان يبشر بمستقبل مشرق قبل ١٩٨٠، إلى أن راح يصرف أمواله وأموال الأقطار المنتجة للنفط في نفقات حربية كلفت البلدين المتجاورين مئات الألوف من القتلى فضلاً عن الدمار الذي لحق بالمدن وترك أكثر من مليوني يتيم وأرملة في القطرين من أجل خلاف شوفيني وعلى خط تقسيم وهمي لمياه شط العرب، هذا في حين كان بمقدوره زيادة الانتاج الزراعي عشر مرات وتوفير الرخاء لسكانه، ويقف النظام العقاري حجر عثرة مثبطة أمام تحسين التقنيات الزراعية. وتبلغ المساحة المرواة ٤ ملايين هـ منها ٢,٥ مليون بالقنوات و ١,٥ مليون هكتار بالضخ. وتبدو هذه المساحة كبيرة ولكن المردود هزيل فإنتاج الرز لا يتجاوز ١١٠٠ كغم بالهكتار مثلاً مقابل ١٠ طونات في مزارع الرز بالأندلس أو في سهل البو الإيطالي أو في الولايات المتحدة.

وقد عملت الحرب التي انهكت قوى البلاد أكثر من ثماني سنوات على تبديد القوى الحية في البلاد، ذلك أن الميزانية العسكرية تبتلع ثلث
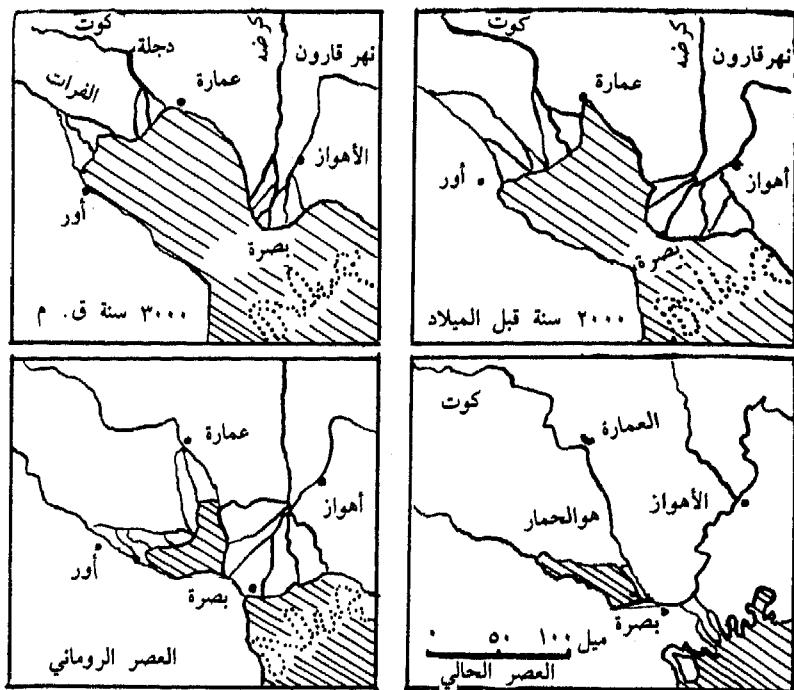
شكل (٧) مراحل تراجع الخليج العربي (عن مورغان)

الناتج القومي الخام، بعد أن كانت لا تزيد عن مليون دولار يومياً عندما كانت الحرب مقتصرة على الجبهة الكردية في الشمال، وهو المبلغ الذي أنفقه المغرب في حربه مع جبهة البوليساريو في الصحراء الغربية، بينماعملت أساطيل الصيد الأجنبية على نهب ثروات الساحل من الأسماك في غفلة من العرب أصحاب هذه الثروة. وقد بلغ حجم الدين الخارجي في ١٩٨٧ مقدار ٦٠ مليار دولار، منها ٣٥ مليار للبلاد العربية النفطية التي تقلص عونها بسبب مصاعبها الحالية الخاصة والكساد الذي اعترى أسواق النفط، لأن دخل النفط عام ١٩٨٧ كان ١١ مليار دولار. وكلفة الحرب مع إيران وسطياً ٧٥٠ مليون دولار شهرياً. وقد قبل الكثير من الدائنين الأجانب باستيفاء ديونهم على شكل

نفط كالهند وتركيا ويوغوسلافيا، وإيطاليا ـ التي هي أكبر دائن بعد دول مجلس التعاون الخليجي ـ واليابان وفرنسا.

ويأمل العراق في الاعتماد على زيادة صادرات النفط بفضل زيادة منافذ بتروله باتجاه ميناء ينبع السعودي منذ تشرين الأول ١٩٨٥ بالاضافة إلى أنبوبين يتجهان من حقول كركوك نحو ميناء دورتيول التركي على خليج أسكندرونه. وفي الواقع وصل تصدير النفط إلى ١,٦ مليون برميل يومياً في ١٩٨٦ مقابل مليون واحد في ١٩٨٥ في الوقت الذي انخفضت فيه العوائد النفطية بنسبة ٤٠٪ لتبلغ ٧ مليارات دولار بالعام. ونتج عن ذلك عجز تجاري مستفحل، وحصل العراق على موافقة دول أوبيك في اجتماع جنيف على تصدير ١,٧ مليون برميل يومياً وربما تجاوز ذلك. ويتم ثلث المبادلات مع دول السوق الأوروبية المشتركة، واضطرت الحكومة العراقية إلى جدولة سداد ديونها الثقيلة. وهناك مشروع لمضاعفة طاقة التصدير بحيث تبلغ الصادرات ٣,١ ملايين برميل يومياً عن طريق زيادة قدرة أنابيب النفط العابرة للأراضي التركية (شكل ٨). ويؤلف النفط ثلثي الناتج القومي الخام وتقدم الخدمات ١٩٪ والزراعة ٧٪ والصناعة ٦٪.

ويعمل ٤٢٪ من السكان العاملين في الزراعة و١٦٪ في الصناعة و٣٢٪ في وظائف الخدمات. وتبلغ نسبة تزايد السكان ٣,٥٪ سنوياً هذا علماً بأن العراق خسر حوالي ربع مليون قتيل بين قتيل مدني وعسكري في الحرب العقيمة مع إيران والتي انشرحت لها صدور تجار السلاح في العالم والتي استمرت ثماني سنوات وتوقفت في آب ١٩٨٨.

لوحة اقتصاد العراق في ١٩٨٦

المادة	١٩٧٠	١٩٨٦
القمح	١ م ط	١,١ م ط
الذرة الصفراء	٤٠٠٠ ط	٣٢٠٠٠ ط
الشعير	٠,٧ م ط	١,٣ م ط
الرز	٢٠٠٠٠٠ ط	١,٦ م ط
الحمضيات	٧١٠٠٠ ط	٢١٦٠٠٠ ط
التمور	٣٣٠٠٠٠ ط	١٠٠٠٠٠ ط
فول يابس	١٨٠٠٠ ط	٨٠٠٠ ط
فاصوليا بيضاء	٧٠٠٠ ط	٤٠٠٠ ط
حمص	٤٠٠٠ ط	١٢٠٠٠ ط
بذرة القطن	٢٨٠٠٠ ط	٧٠٠٠ ط
الياف القطن	١٣٠٠٠ ط	٤٠٠٠ ط
تبغ	١٥٠٠٠ ط	١٨٠٠٠ ط
حمير	٥٤٠٠٠٠	٤٥٠٠٠٠
أبقار	١,٦ م ط	١,٥ م ط
الإبل	٢٠٠٠٠٠	٢٥٠٠٠٠
الخيل	١٢٠٠٠٠	٥٠٠٠٠
الماعز	١,٨ م	٢,٥ م
الأغنام	١١,٥ م	٨,٨ م
الصوف	١٦٠٠٠ ط	١٨٠٠٠ ط
الكهرباء	١,٩ مليار ك و س	٨ مليارات
البترول	٧٦ م ط	٨٣ م ط
طاقة تكرير النفط	٣,٤ م ط	١٨ م ط
الأسمدة الآزوتية	٢٨٠٠٠ ط	٣٩٠٠٠ ط
الأسمنت	١,٤ م ط	٣,٣ م ط

وختاماً بلغ عدد سكان العراق ١٦,٢٨ مليون نسمة في أواخر عام ١٩٨٧.
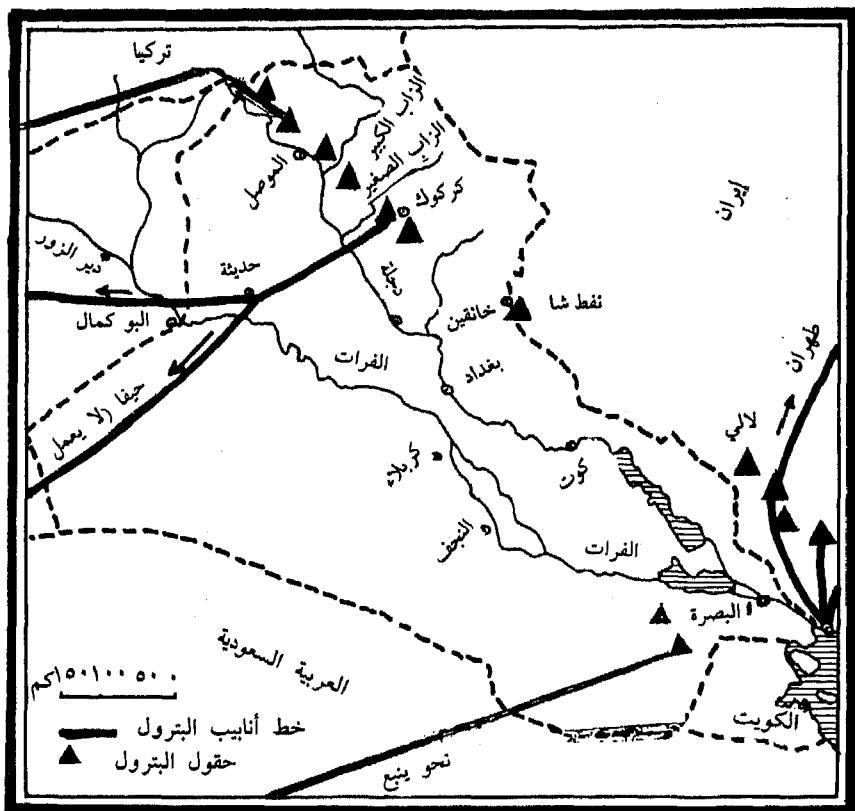
العراق

شكل (٨) العراق

دول مجلس التعاون الخليجي

بعد مفاوضات تمهيدية وافقت كل من دولة الامارات العربية المتحدة ودولة البحرين والمملكة العربية السعودية وسلطنة عمان ودولة قطر ودولة الكويت، في الحادي والعشرين من شهر رجب ١٤٠١ هـ الموافق للخامس والعشرين من شهر أيار ١٩٨١ على إنشاء (مجلس التعاون لدول الخليج العربية) وذلك:

- إدراكاً منها لما يربط بينها من علاقات وسمات مشتركة وأنظمة متشابهة أساسها العقيدة الإسلامية.
- إيماناً بالمصير المشترك ووحدة الهدف الذي يجمع بين شعوبها.
- رغبة في تحقيق التنسيق والتكامل والترابط بينها في جميع الميادين.
- اقتناعها بأن التنسيق والتعاون والتكامل فيما بينها يخدم الأهداف السامية للأمة العربية.
- استهدافاً لتقوية أوجه التعاون والتنسيق وعرى الروابط فيما بينها، واستكمالاً لما بدأته من جهود في مختلف المجالات الحيوية التي تهم شعوبها وتحقق طموحاتها نحو مستقبل أفضل وصولاً إلى وحدة دولها.
- تمشياً مع ميثاق جامعة الدول العربية الداعي إلى تحقيق تقارب أوثق وروابط أقوى.

ـ توجيهاً لجهودها إلى ما فيه دعم وخدمة القضايا العربية الإسلامية.

ويقدر عدد سكان دول الخليج العربية الست، أعضاء مجلس التعاون، بحوالي ١٦ مليون نسمة، كما تبلغ مساحة هذه الدول مجتمعة حوالي ٢,٥٦ مليون كيلومتر مربع أو تعادل مساحة السودان وأكثر قليلاً من مساحة الجمهورية الجزائرية. أما باطن الأرض فيحتوي على ثلث الاحتياطي العالمي من البترول، وتسهم المنطقة بجزء كبير من الكميات المطروحة في سوق البترول العالمي، وتمثل الدخول النفطية أكثر من ٩٠٪ في المتوسط من إجمالي صادرات دول المجلس، كما تمثل هذه الدول سوقاً مهمة للسلع المستوردة، إذ بلغت قيمته وارداتها عام ١٩٨٠ حوالي خمسين مليار دولار، منها ٣٤٪ للسلع المصنعة، و٢١,٧٪ للسلع الغذائية.

وتنص أهم بنود الاتفاقية بما يلي:

١ ـ حرية الانتقال والعمل والإقامة

٢ ـ حق التملك والإرث والإيصاء.

٣ ـ حرية ممارسة النشاط الاقتصادي.

٤ ـ حرية انتقال رؤوس الأموال.

٥ ـ إقرار أهداف الاستراتيجية الأمنية.

٦ ـ تحقيق التعاون الأمني في مجال مكافحة المخدرات والتزوير والتزييف.

٧ ـ إقرار ورقة السياسة الدفاعية.

٨ ـ إقامة قوة خليجية موحدة.

المملكة العربية السعودية

تشغل هذه المملكة حوالي ثلاثة أخماس مساحة شبه الجزيرة العربية، فهي تلامس الأردن والعراق والكويت من الشمال، وتتاخم من الشرق أمارة قطر ودولة الامارات العربية المتحدة وسلطنة عمان ولكن لا تكون حدودها من الجنوب مع اليمن الشمالي ولا سيما مع اليمن الجنوبي دقيقة، بل تختلف باختلاف الأطالس والخرائط.

الوصف الطبيعي: يتألف هذا القطر الذي ينفتح من الشرق على الخليج العربي ومن الغرب على البحر الأحمر ـ حيث تكون السواحل محززة نوعاً ما ومحفوفة بجزر صغيرة وشعاب مرجانية ـ أقول يتألف من هضبة واسعة صحراوية، هي نجد، والتي تضم واحات متباعدة، والتي ينحدر سطحها بلطف نحو الخليج العربي، وينبثق في أواسطها جبل شمر مع القمتين في جبل أجا وسلمى اللتين يزيد ارتفاعهما عن ١٠٠٠ م. غير أن التضاريس التي تتميز بها هضبة نجد هي الضلوع التي تمتد على شكل أقواس متعاقبة من الغرب نحو الشرق والتي تعرض جبهاتها باتجاه الغرب، وتمتد عند أقدامها الكثبان الرملية التي تتوازى مع الضلوع المذكورة (كويستا)، (شكل ١) مثل نفوذ السر ونفوذ الثويرات بين الرياض وبريدة. وإلى الغرب وبين حافة الهضبة المرتفعة ـ أي جبال الحجاز ـ وبين البحر، يمتد سهل ساحلي، هو تهامة،
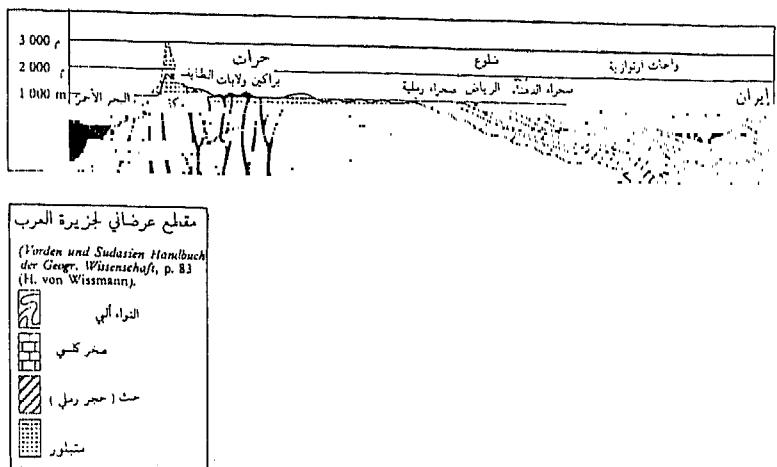
شكل (١)

يزداد ضيقاً باتجاه الشمال إلى أن ينعدم قبل خليج العقبة، ويكون سهل تهامة خصيباً فقط في المنطقة المقابلة لبلاد عسير، وتكون مجاري المياه هنا عبارة عن أودية أشهرها وادي فاطمة الذي ينبع من شمال مكة وينتهي بجوار جدة، ووادي الحمض في الشمال ووادي جيزان في الجنوب الذي أقيم عليه أحد أكبر سدود المملكة.

ويكون المناخ بالداخل قاحلاً (شكل ٢) وحاراً (شكل ٣) مع فروق حرارية يومية كبيرة، ولكنه يصبح على السواحل رطباً ثقيلاً ومن أكثر مناخات العالم صعوبة على الإنسان، حتى أن التكييف المنزلي يصبح ضرورياً في كل السنة تقريباً.

وسكان المملكة كلهم عرب، ولا غرابة فهي موطن إسماعيل عليه السلام وبني عدنان، وكل قبائلها من العرب الخلّص يحرصون على أحسابهم وأنسابهم ويفتخرون بها أكثر من افتخارهم بثرواتهم. وقد عملت الثروة النفطية على هبوط نسبة البدو بشكل متسارع بحيث لا تزيد حالياً عن ١٥٪ من السكان
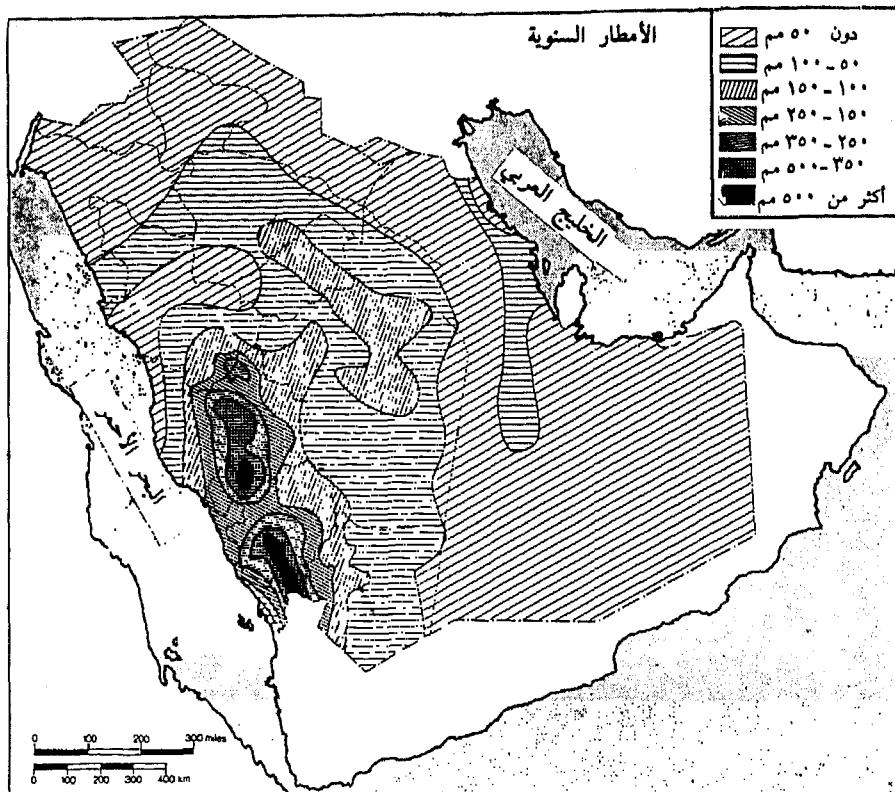
شكل (٢)

والذين احتفظوا منذ عشرات القرون بعاداتهم وبتنظيمهم الاجتماعي، ويتجهون للاستقرار في القرى والمدن منذ الثلاثينات بتشجيع من الملك عبدالعزيز آل سعود مؤسس المملكة، ولا سيما بعد ظهور أثر عائدات النفط على ارتفاع سوية معاشهم، وبدو اليوم يستخدمون الشاحنـات لنقل مواشيهم الصغيرة والسيارات الصغيرة الفارهة لتنقل العائلة، والمركبات الوسطى (بيك آب) لنقل الأثاث والخيام، والتي تستعملها النسوة أحياناً للإشراف على قطعان الأغنام في المراعي، وتضاءل دور الإبل الذي اقتصر على تقديم اللحم واللبـن، وكذلك أصبحت الحمير حيوانات طليقة شبه متوحشة، كما أصبحت تربية الخيول هواية الميسورين أو للسباق. وقد تلاشت البداوة المطلقة إذ
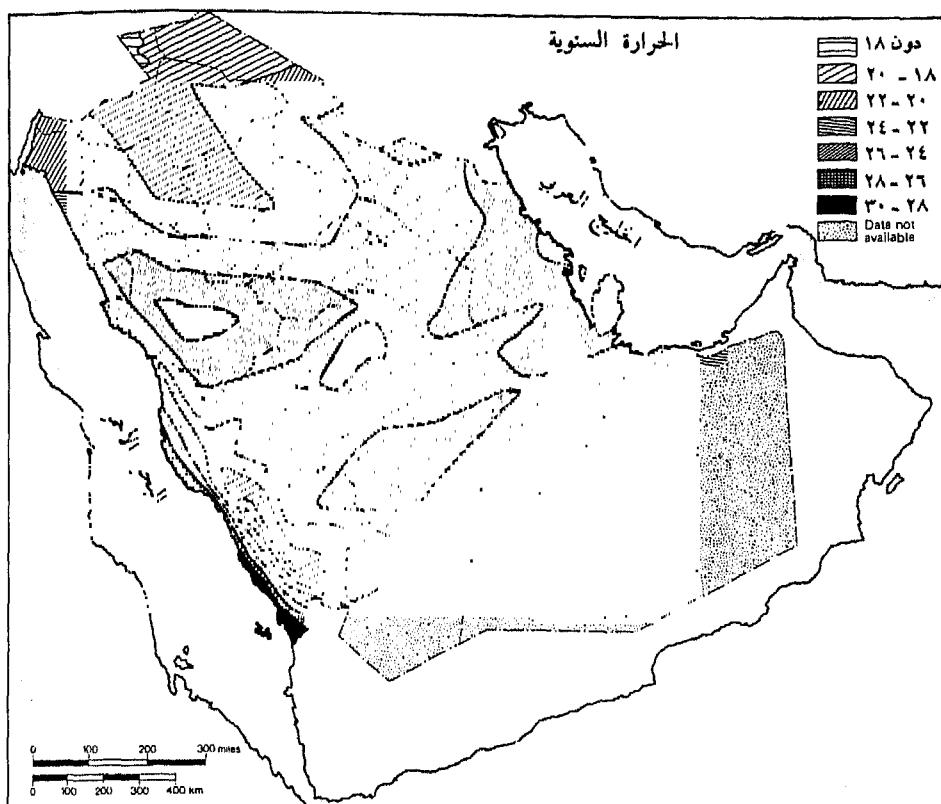
شكل (٣)

ينتجعون بالربيع نحو المراعي على متون السيارات والشاحنات كي يعودوا للواحات حسب أوقات معروفة للسكن في بيوت ثابتة، بل وحتى في فيللات أنيقة.

أما الفلاحون فيعيشون في قرى وفي مدن صغيرة ذات بيوت طينية متباينة الطراز بين منطقة الحجاز وبين منطقة عسير (شكل ٤) وبين منطقة نجد وتهامة. وأصبحت المساكن الآن تجنح للتماثل على شكل فيلّلات وحيدة الطابق محاطة بحديقة، وتحوي كل وسائل الرفاهية. غير أن الزراعة أصبحت ميكانيكية، حيث تبدو حقول القمح ـ المرواة بمياه الآبار المروحية ـ من الجو
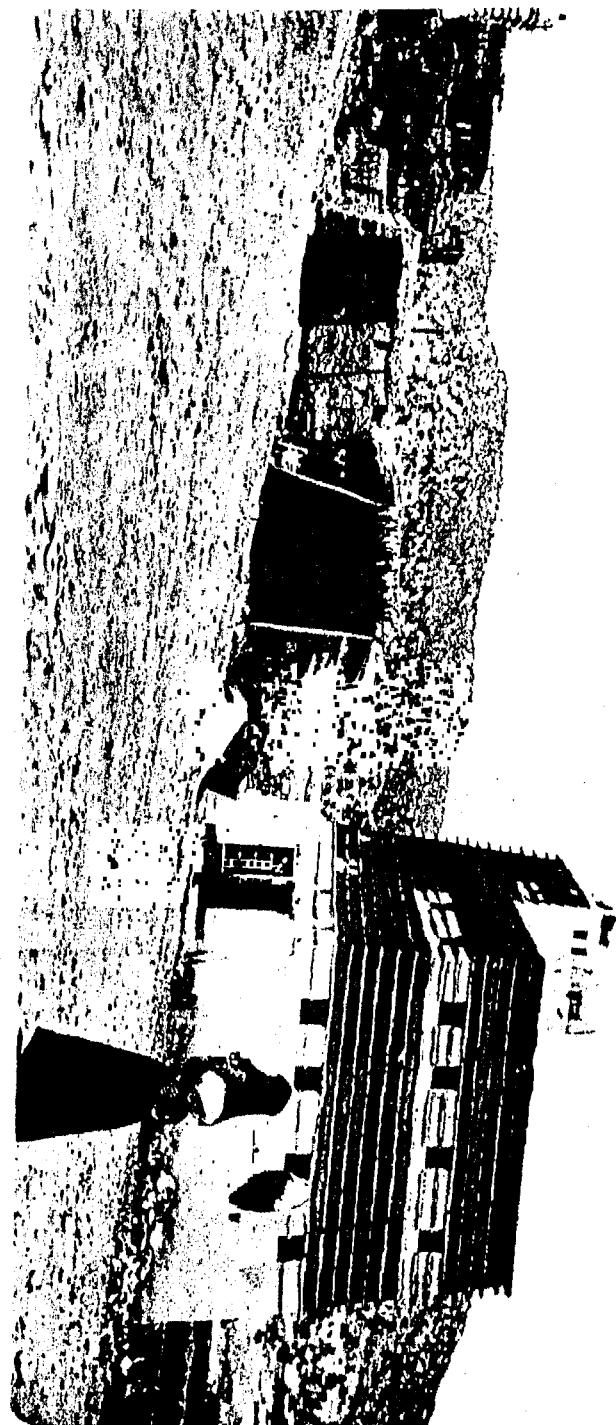
شكل (٤) إنها: البيوت والرقق لحماية الجدران من المطر

كأقراص خضراء قطرها كيلومتر واحد نموذجية كما نراها في واحة الكفرة الليبية أو في ولاية داكوتا الأمريكية.

المدن الكبرى:

الرياض: وهي حاضرة المملكة وتضم الآن حوالي مليون نسمة، ولم يكن يتجاوز عدد سكانها في مطلع القرن العشرين ١٥٠٠٠ نسمة و ٣٥٠٠٠٠ في ١٩٧٠. وتمتد على رقعة تعادل ١٦٠٠ كم٢ نظراً لمخططها الشطرنجي، كالمدن الأسترالية أو الأمريكية (شكل ن)، باستثناء النواة القديمة التي تتعرض للتحديث بسبب هدم البيوت الطينية ـ شأن الأحياء القديمة في دمشق ـ وتتصف الشوارع بعرضها الفسيح الذي يتراوح بين ٨٠ و٦٠ م، حتى أن بعض الشوارع تحمل اسم عرضها من الأمتار كشارع الستين. وقد قامت في الماضي في وسط واحة مؤلفة من مجموعة روضات نخيل خصيبة، وازداد عدد سكانها بعد أنن جعلها الملك عبدالعزيز آل سعود عاصمة بلاد نجد ومن ثم عاصمة المملكة، ومن ثم توسعت رقعتها بشكل يثير الانتباه، وتكون الشوارع العريضة محفوفة بأرصفة عريضة تطل عليها عمارات حديثة للغاية متعددة الطوابق وذات وظائف رسمية، أو عبارة عن مكاتب لأرباب المهن الحرة والشركات والبنوك. وغالباً ما تتوسط الشوارع أشجار النخيل المثمرة. وقد قام الحي الدبلوماسي بجوار قرية الدرعية وعلى مسافة غير بعيدة عن جامعة الملك سعود وهي أقدم جامعات المملكة. أما جامعة الإمام محمد بن سعود فلها حي خاص بها أو Campus على طريق المطار الجديد. وتتصل الرياض بخط حديدي مع الدمام، وتضم معاهد علمية ومهنية عالية متعددة الاختصاصات.

جدّة: وتقع على ساحل البحر الأحمر، وهي الميناء الرئيس في البلاد وأول نافذة لها على الخارج لاستيراد البضائع المختلفة، كما ترسو فيها سفن

شكل (٥)
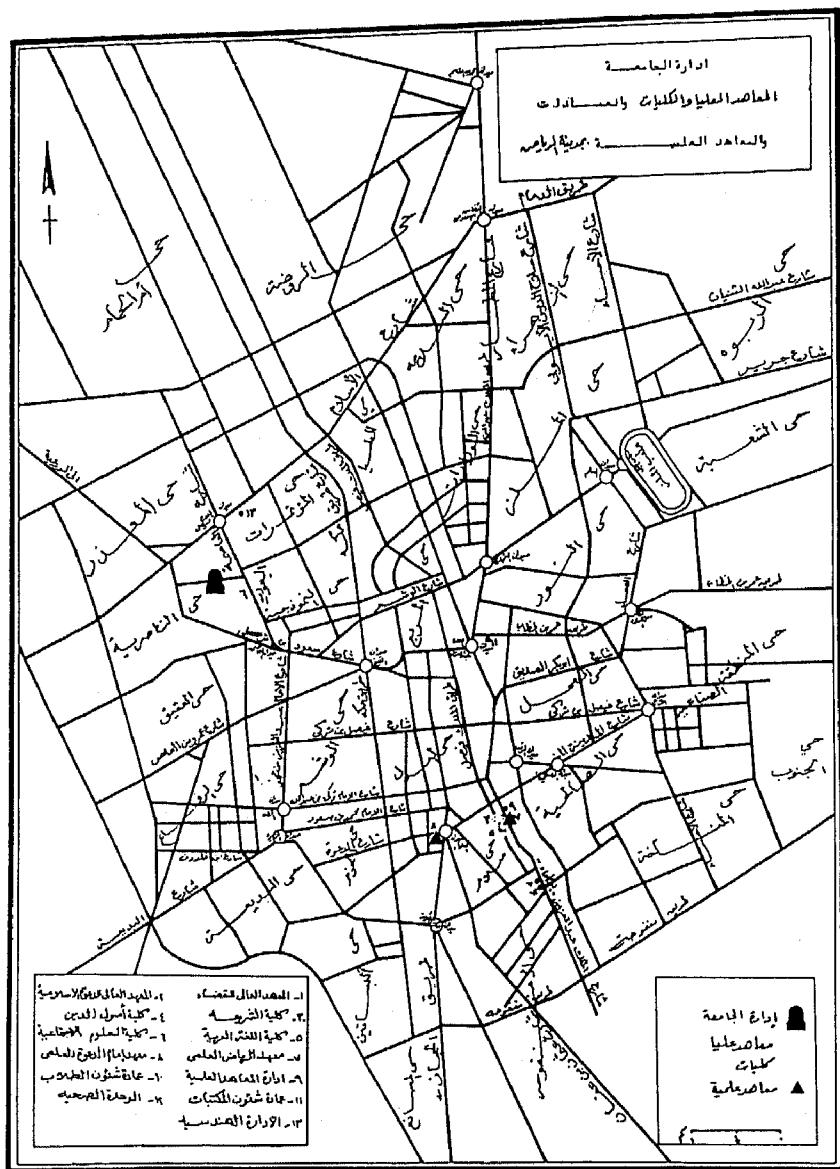
الحجاج، وكذلك في مطارها بحيث تستقبل حوالي ٧٥٪ من الحجاج القادمين من الخارج لأداء فريضة الحج. وتحوي جدة نفس المفارقات التي تحويها

العاصمة بالتباين بين الأحياء القديمة ذات الطوابق والشرفات الخشبية الرائعة، والأحياء الحديثة المماثلة لأحياء أوروبا وأميركا. وقد عانت جدة في الماضي من شح موارد الماء وصعوبة استقبال أفواج الحجاج، وبعد أن ظلت جدة تعتمد على مياه عيون وادي فاطمة التي نضبت بالكامل تقريباً، راحت الآن تستمد مياهها من مصانع الإعذاب (أو التحلية) التي أصبحت تمد مكة المكرمة والطائف بالمياه العذبة. وبعد أن ظلت كذلك العاصمة الدبلوماسية للمملكة حتى مطلع الثمانينات، تخلّت عن هذا الدور للعاصمة، وتحوي جامعة هامة هي جامعة الملك عبدالعزيز، ويقارب عدد سكانها حالياً ٧٥٠٠٠٠ نسمة.

مكة المكرمة: ويبلغ عدد سكانها ٤٥٠٠٠٠ نسمة بعد أن كانوا ٢٠٠٠٠٠ في ١٩٧٠ وهي مركز العالم الإسلامي وفيها الكعبة التي يتوجه نحوها مليار مسلم في كل القارات. وتستقبل في موسم الحج ١,٥ مليون نسمة وحوالي ٢٥٠٠٠٠ نسمة في بقية أيام السنة يقصدونها لأداء العمرة في خارج موسم الحج. وهذا التوافد الضخم من الحجاج الذي لا مثيل له في العالم في أيام محدودة وثابتة لا يمنح المدينة مظهرها الفريد المائج من البشر من شتى العروق واللغات فحسب، بل يشكل أيضاً جوهر حياتها الاقتصادية وازدهار التجارة الصغرى. ويؤدي وقوعها في واد محاط بجبال جرداء غرانيتية إلى جعل مخططها متطابق مع تشعب الأودية الواقعة بين الجبال، مثلما منحها مناخاً مرهقاً للغاية، لولا وسائل التكييف الحديثة. وكانت تعتمد حتى عهد قريب على مياه عين زبيدة إلى أن تمَّ جر مياه الإعذاب من جدة، وقد أسّست فيها جامعة أم القرى، وهي محظورة على غير المسلمين.

المدينة المنورة: وسكانها ٣٥٠٠٠٠ نسمة، وهي المدينة المقدسة الثانية لدى المسلمين لأنها تضم المسجد النبوي وضريح الرسول الكريم

محمد بن عبدالله وخليفتيه أبي بكر وعمر. ولما كان (الحج عرفة) فإن زيارة المدينة المنورة ليست إجبارية في مناسك الحج، لذا يكون الازدحام فيها ممدداً على مدة أطول والازدحام أقل حدة، وترتفع حوالي ٨٠٠ م عن سطح البحر، وتحوي حدائق نخيل غناء وبساتين خصبة من طرف الجنوب الشرقي. وفيها الجامعة الإسلامية. ويتألف شطر كبير من سكانها من مختلف عناصر العالم الإسلامي من الذين آثروا الإقامة بجوار المسجد النبوي الشريف، وتعتبر سوقاً هامة للتمور والخضار.

الظهران: مدينة تحوي ٢٠٠٠٠٠ نسمة وتحوي مطاراً دولياً وتقع على مسافة صغيرة من ساحل الخليج العربي وفي وسط منطقة نفطية. وقد أسستها شركة أرامكو خلال الحرب العالمية الثانية وهي الشركة الرئيسة في استغلال النفط السعودي. وهي مركز صغير أمريكي الطابع مجهز بأحدث المؤسسات، وتقع إلى جوارها مدينة الدمام، وإلى الشمال وعلى الساحل تقع مدينة الجبيل الصناعية الحديثة، وهي نظيرة ميناء ينبع الصناعي التي هي ميناء المدينة في الماضي.

الوضع الاقتصادي

إن أكبر موارد في البلاد هو النفط الذي يشكل إنتاجه ما بين ٨٥ إلى ٩٠٪ من الدخل الوطني و٩٥٪ من قيمة الصادرات. وقد بلغت هذه العوائد أوجها في عام ١٩٨٠ أكثر من ١٠٠ مليار دولار أمريكي وقد هبطت إلى خمس هذا المبلغ في ١٩٨٧، بسبب تخفيض الإنتاج وهبوط سعر البرميل إلى أقل من نصف سعره في ١٩٧٩، وقد استثمر القسم الأعظم من هذه المبالغ في إقامة مصانع حديثة للبتروكيماويات وتكرير النفط، في كل من مدينة الجبيل في الشرق وينبع في الغرب، وعلى تحديث المواصلات والمطارات والعمران وتطوير التعليم بشكل تظاهري، أو

بعبارة أخرى لقد حققت المملكة العربية السعودية خلال نصف قرن ما يمكن تسميته بالمعجزة، وارتفع عدد سكانها إلى ١٢ مليون نسمة فضلاً عن أكثر من مليون أجنبي من عرب وآسيويين ويمنيين وكوريين.

وتقع مكامن النفط كلها على ضفاف الخليج العربي الغربية، وفي منطقة الوفرة جنوبي الكويت، فضلاً عن الحقول البحرية (شكل ٦). وقد بدأ
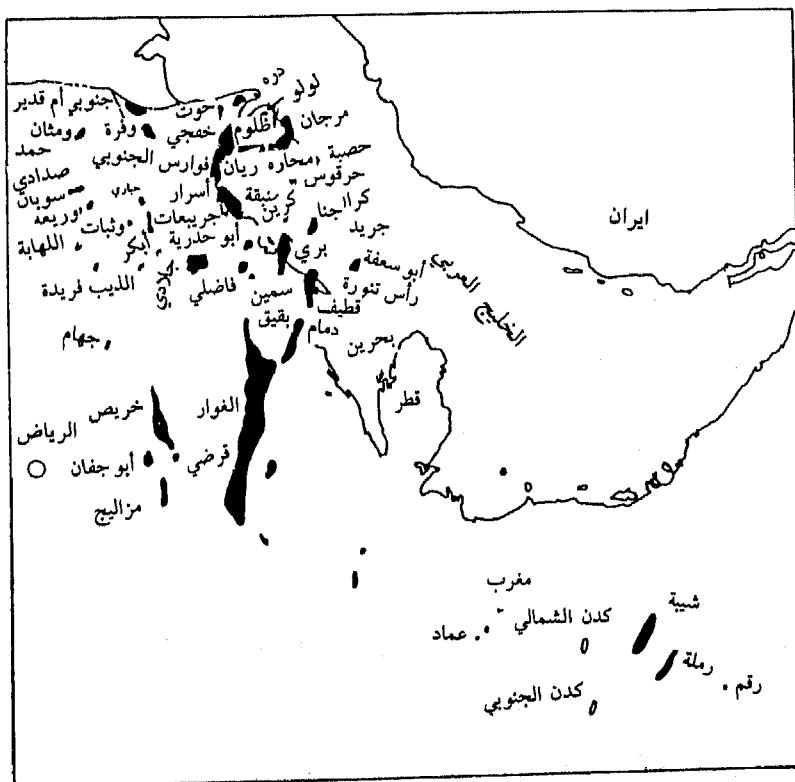
شكل (٦) حقول البترول المكتشفة في المملكة العربية السعودية والمنطقة المقسومة

شكل (٦)

الانتاج في ١٩٣٣، ولكنه قفز كثيراً خلال الحرب العالمية الثانية إلى أن أصبحت المملكة العربية السعودية ثالث منتج للنفط بالعالم بعد الاتحاد

السوفيتي والولايات المتحدة. ويعادل احتياطي المملكة من النفط ربع احتياطي العالم أو نصف احتياطي الوطن العربي كله. ويكرر قسم من النفط الخام المستخرج من الآبار في مصافي المملكة كما ينقل قسم منه بالناقلات من ميناء ينبع ورأس تنورة أو بوساطة الأنابيب التي كانت تنقل النفط إلى ميناء الزهراني جنوبي صيدا والذي لا يزال يعمل حتى عمان. وطول هذا الأنبوب الكلي ١٨٠٠ كم ويدعى خط التابلاين. واعتباراً من ١٩٦١ شرعت تستغل غازها الطبيعي واستعماله في صناعة الأسمدة الكيماوية كاليوريا، أو تمييعه للتصدير بعد أن ظل يحرق هدراً أكثر من ٣٠ سنة.

هذا ولا تزيد الرقعة الصالحة للزراعة في البلاد عن ٢٪ من مساحة البلاد، اعتماداً على مياه الأمطار في بلاد عسير حيث تقوم المدرجات (الجلول) (شكل ٧)، وعلى الري في بطون الأودية من الآبار العادية، ومؤخراً، وذلك منذ أواسط القرن العشرين اعتماداً على الآبار الأنبوبية العميقة التي تدعى خطأ (الآبار الارتوازية). وتنتج المملكة الدخن في سهول تهامة والقمح بحيث حققت الاكتفاء الذاتي وحتى تصدير حوالي نصف مليون طن في ١٩٨٧. ولكن بكلفة عالية جداً غير اقتصادية، لأن المياه الجوفية تعود في معظمها لاحتياطي جيولوجي مخزونة من العصور المطيرة التي تعود لأكثر من ٢٤ ألف سنة والقابلة للاستنزاف بسرعة. بيد أن بناء عشرات السدود على الأودية الهامة يساعد على تغذية الأغشية المائية الباطنية. وهناك اتجاه لتكثيف بعض المحاصيل كالخضار ضمن الدفيئات البلاستيكية، والتوسع في زراعة النخيل للاستهلاك المحلي وللتصدير لبعض الأقطار العربية أو كمساعدة لبعض الأقطار الإسلامية الفقيرة، وما أكثرها!!

ويتألف القطيع من الأغنام والماعز، ويشكل المورد الرئيس لدى القبائل التي لا تزال بدوية. غير أن ارتفاع سوية المعيشة وشدة الحاجة لأعداد كبيرة

شكل (٧) بلاد عسير

من الأضحيات خلال موسم الحج، جعل المملكة تلجأ للاستيراد من الصومال والسودان وحتى من أستراليا ونيوزيلندة، لأن دخل الفرد كان يبلغ في عام ١٩٨٥ مقدار ٨٨٥٠ دولار أو عشرة أضعاف متوسط دخل الفرد العربي المتوسط.

وتتطور الصناعة وتنمو بسرعة تبعث على الدهشة كصناعة الأسمنت التي تغطي الاستهلاك المحلي، ومواد البناء كالبلاط والقرميد الأحمر، ومصاهر الحديد والأسمدة الكيماوية بقصد التصدير، وتعليب الأطعمة والخضار

والمربيات، وحتى اللحوم المحفوظة، وتجميع أجهزة التكييف والأثاث الخشبي.

وتتجهز البلاد بشبكة من الطرق المزفتة تصل بين سائر أنحاء البلاد (شكل ٨)، وتبلغ أطوالها حالياً قرابة ٩٠٠٠٠ كم أو ضعف محيط الأرض تقريباً، وهي من نوعية ممتازة تستجيب لكثافة حظيرة السيارات التي تبلغ نسبتها مستوى يعادل أرقى الدول الأوروبية المتقدمة، أو سيارة واحدة لكل ٤ أشخاص، هذا فضلاً عن أسطول جوي تجاري يعتبر الأول في الوطن العربي بعدد الطائرات ونوعيتها وجودة خدمتها سواء على المستوى الداخلي والخارجي.
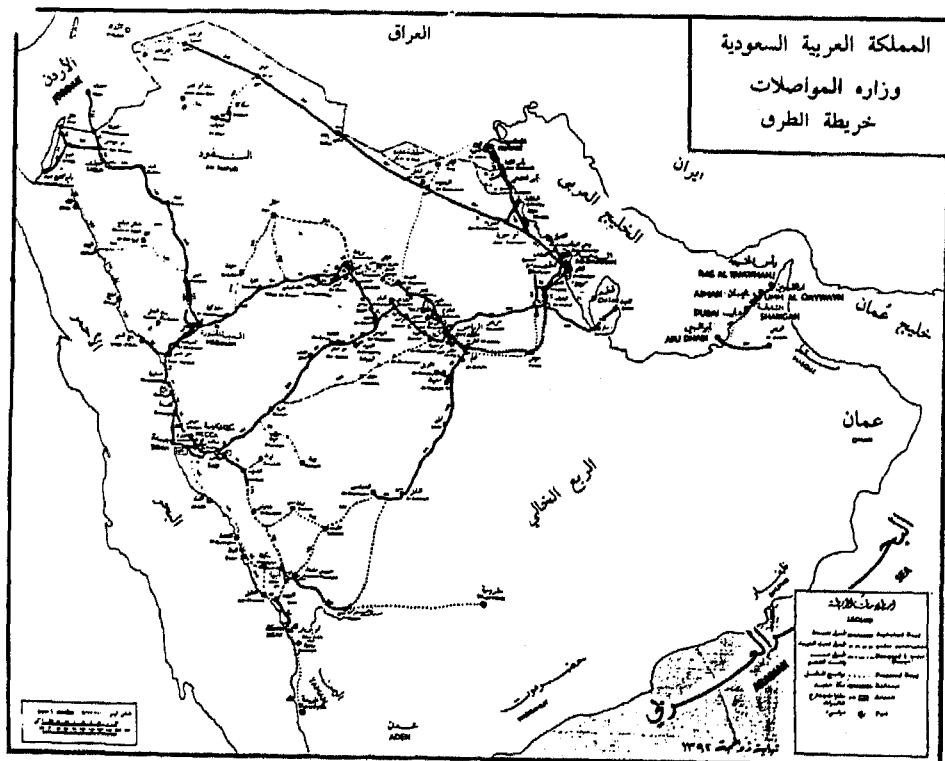
شكل (٨) المملكة العربية السعودية

لوحة اقتصادية

المادة	١٩٧٤	١٩٨٦
القمح		٢,٥ م ط
الدخن	١٥٠٠٠٠ ط	٤٠٠٠ ط
الذرة البيضاء	٢٠٠٠٠٠ ط	٤٣٠٠٠ ط
السمسم	١٧٥٠٠ ط	٤٠٠٠ ط
التمور	٢٦٠٠٠٠ ط	٤٥٦٠٠٠ ط
الحمير	١٤٦٠٠٠	١٠٠٠٠٠
الأبقار	١٨٠٠٠٠	٥٤٠٠٠٠
الماعز	٧٦٠٠٠٠	٢,٤ مليون
الإبل	٥٩٠٠٠٠	١٦٠٠٠٠
الأغنام	١,٣ مليون	٧,٨ مليون
الصوف	٢٦٠٠ ط	٤٠٠٠ ط
النفط	٤٢٢ م ط	٢٦٤ م ط
طاقة التكرير	٢٠,٦ م ط	٧٧,٢ م ط
عائدات النفط	٢٢,٥ مليار دولار	٢٢,١ مليار دولار
الأسمنت	١ م ط	١,٨ م ط
الاستيراد	١٠ مليار ريال	١١٨ مليار ريال
الصادرات	١٢٦ مليار ريال	١٢٩ مليار ريال
ملاحظة	٣,٦ ريال = دولار	

هذا ويظل مصير المملكة العربية السعودية مرتبطاً بشكل وثيق بالنفط الخام الذي تستمد المملكة منه ٨٦٪ من قيمة صادراتها.

وقد شهد عام ١٩٨٦ تبدلاً كاملاً في السياسة النفطية. فبدءاً من نهاية عام ١٩٨٥ وحتى شهر تشرين الأول من عام ١٩٨٦ غمرت المملكة السعودية أسواق العالم بنفطها، ذي كلفة الاستخراج المنخفضة، إذ يكلف البرميل الواحد دولارين إلى ٣ دولارات مقابل ١٠ دولارات لبترول بحر الشمال، وتحتل المرتبة الثانية بين الدول المصدرة للنفط بالعالم. وفي بداية ١٩٨٦ ضاعفت إنتاجها فبلغ ٤,١ مليون برميل يومياً بل وحتى ٦ ملايين برميل في

تموز من العام ذاته، فانهارت أسعار النفط. وظلت المملكة ترفض الإعلان عن ميزانيتها الذي يعطي مؤشرات عن سياستها المستقبلية. وفي ٢٩ تشرين الثاني تمت تنحية الشيخ أحمد يماني من منصبه كوزير للنفط، وقبلت السعودية في كانون الأول ١٩٨٦ الإذعان لقانون الحصص الذي يحدد الحد الأقصى لإنتاج دول الأوبك، وسمح لها بإنتاج ٤,٢ مليون برميل باليوم[1]. ونتيجة لهذه الاضطرابات بالإنتاج وبعد أن هبط سعر البرميل إلى ١٠ دولارات ارتفع إلى ما بين ١٤ و١٨ دولار، ويبدو أن السعودية التزمت بحصتها. وبعد هذه الهزة العنيفة نشرت الميزانية في شهر كانون الأول ١٩٨٦، فكان النفط لا يزال يقدم ٢٥ مليار دولار مقابل ٢٨ مليار في ١٩٨٥. وقد لجأت الدولة للاستعانة باحتياطياتها من العملة الصعبة لدعم الميزانية ومارست نوعاً من التقشف، ويبدو أن العصر الذهبي للبترول قد ولّى لغير رجعة. وبعد أن كان النفط يقدم ٦٠٪ من الناتج القومي الخام في ١٩٧٧ لم يعد يقدم سوى ٤٠٪. وقد جرى تخصيص ٤٥٪ من الميزانية للتسليح. وتمثل التوظيفات ٢٧٪ من الناتج القومي الخام لإقامة مشاريع كبيرة وبنى تحتية. ولكن إذا كان الميزان التجاري لا يزال إيجابياً فإن ميزان المدفوعات الدارجة أصبح سلبياً. أما في مضمار الزراعة فإن المنتجات التقليدية هبطت كالدخن، هذا في حين أصبح القمح فائضاً عن الحاجة أو ٢,٣ مليون طن في ١٩٨٧ مما سمح بالتصدير نحو الأقطار المجاورة كمصر وسوريا، وحتى نحو سويسرا!. وتأتي نسبة ٣٥٪ من الاستيراد من بلدان السوق المشتركة، وتذهب ٢٩٪ من الصادرات نحو أقطار السوق المذكورة. ولا يزال يعمل بالزراعة وتربية الماشية ٦١٪ من العاملين، و١٤٪ في النفط والصناعة، ٢٥٪ في الخدمات نظراً

(١) البرميل يعادل ١٥٩ ليتراً أو كل ٧,٢ براميل تعادل طن واحد، أو ما يعادل ٥٠ مليون طن سنوياً لإنتاج يومي قدره ١ مليون برميل.

لتورم قطاع الموظفين والمستخدمين لدى الدولة. وأصبحت اليابان أول زبون سعودي، وتقدمت على الولايات المتحدة التي أصبحت أول دولة مصدرة للسعودية. وزادت فرنسا من مشترياتها من النفط السعودي بنسبة ٢٠٪. وتوسعت المملكة في بناء مصانع إعذاب ماء البحر لتأمين مياه الشرب والمنزلية لمدن المملكة كلها تقريباً مثل جدة ومكة والمدينة والطائف ومدن الساحل الشرقي وحتى الرياض ذاتها جزئياً، حيث يكلف المتر المكعب الواحد حوالي ٣ دولارات. وتمّ توسيع المنطقة الصناعية في جدة. وجرى اكتشاف واستغلال نشيط لبعض مكامن خامات الذهب، ولا سيما في منطقة مهد الذهب على مسافة ٢٠٠ كم إلى الشمال الشرقي من جدة. وتملك السعودية أول أسطول تجاري في العالم العربي، ويتألف من ٥١٤ سفينة في حين لا تملك مصر سوى ٤١٤ والمغرب ٢٩٢.. ويجري إعداد برنامج كبير للتصنيع الإلكتروني وصناعة بناء الطائرات مع عون تقني وتشارك مع شركة بوينغ.

ولكن العائق الأكبر في التصنيع هو العقلية البدوية الموروثة التي تزدري العمل اليدوي، مما يترك المجال الرحب للعمال الأجانب وللخبرة الأجنبية، أي صناعة دون بروليتاريا فريدة في نوعها بالعالم، مما يتنافى مع الإسلام الذي يبارك العمل لقول عمر بن الخطاب. انظر إلى الرجل فإذا عرفت أن لا مهنة له سقط من عيني، مثلما يكرم العمال كما ورد في الحديث الشرف: أُعطوا الأجير أجرة قبل أن يجف عرقه.

تطور عائدات النفط لدى كل من الجزائر وإيران والعربية السعودية بملايين الدولارات

السنة	الجزائر	إيران	العربية السعودية
١٩٧٠	٢٧٢	١١٠٩	١٢١٤
١٩٧٤	٣٢٩٩	١٧٨٢٢	٢٢٥٧٣
١٩٨٠	١٢٥٠٠	١٣٥٠٠	١٠٢٢١٢
١٩٨٥	٩٢٠٠	١٥٦٠٠	٢٤٥٠٠
١٩٨٦	٥٢٠٠	١٠٠٠٠	٢٢١٠٠

ملحق:

ومن المستجدات في المملكة السعودية هو الاستفادة من لحوم الأضاحي في الحج بدءاً من عام ١٤٠٣ هـ. وفي عام ١٤٠٨ هـ أو ١٩٨٧ أمكَن تبريد نصف مليون ذبيحة تمّ توزيعها بالمجان على عدد من الأقطار العربية والإسلامية، كما تمّ توزيع ٦٠٠٠٠٠ رأس في عام ١٩٨٨ (١٤٠٩ هـ).

وأصبحت مطاحنها تنتج ١ مليون طن من الدقيق بالعام أي دون إنتاج القمح البالغ ٢,٥ مليون طن في عام ١٩٨٦، كما صعد إنتاجها من التمر إلى نصف مليون طن في عام ١٩٨٦ وفي ١٩٨٧ صدرت السعودية القمح إلى الكويت وبلجيكا وتايلند وكينيا والنرويج والبرتغال وإنكلترا وإيطاليا وناميبيا ومالطة.

وفي عام ١٩٨٧ كان بالمملكة ٢٤ مطاراً منها ٣ مطارات دولية في الظهران وجدة والرياض.

وفي ١٩٨٧ استطاعت المملكة السعودية أن تصدر الزهور إلى هولندا، وضاعفت أراضيها الزراعية ١٥ مرة في مدة ربع قرن من الزمن. وأصبحت تملك أحد أكبر حظائر الأبقار في العالم، ففي بلدة الخرج الواقعة على مسافة

٧٥ كم إلى الشرق من العاصمة تتم تربية ١٧٠٠٠ رأس من البقر وسيرتفع عددها إلى ٢٥٠٠٠ في عام ١٩٩٢ وتنتج الأعلاف محلياً في معظمها، وتدار هذه الحظائر بالحاسب الآلي.

هذا وتمكن مجمع الشركة السعودية للحديد والصلب بالجبيل من إنتاج ١,٢ مليون طن من قضبان التسليح.

أما شركة (سابك) فقد أنتجت أكثر من ١٠ ملايين طن من الكيماويات كالبلاستيك و٣ ملايين طن من الأسمدة.

ونقتصر على مثال المدينة الصناعية في جدة التي تحوي على الفروع الصناعية التالية:

١ ـ شركة الزيوت النباتية (صافولا) وتنتج زيت الذرة وزيت الصويا وزيت النخيل وفي ١٩٨٦ أنتجت مقدار ١٢٠٠٠٠ طن من الزيوت الغذائية.

٢ ـ الشركة السعودية للطوب والجير الرملي وتحوي معملاً مماثلاً للمصنع القائم في العاصمة.

٣ ـ الشركة السعودية لصناعة الثلاجات من ماركة (كلفيناتور) طاقتها ٤٥٠٠٠ برّاد بالعام.

٤ ـ شركة النصر لصناعة الأجهزة المنزلية: وتنتج بطاقة قدرها ٩٠٠٠٠ وحدة تشمل برادات ومجّمدات وأفران الغاز والكهرباء والغسّالات الأوتوماتيكية ونشّافات الملابس وجلاّيات الصحون.

٥ ـ شركة المنتجات الحديثة: لصنع حفائط الأطفال ومناديل الورق فضلاً عن المنظّفات.

سلطنة عمان

تقع هذه السلطنة ومساحتها ٣٠٠٠٠٠ كم٢ وسكانها ١,٥ مليون نسمة في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة العربية، وتبدو بنيتها فريدة ولا مثيل لها في سائر بلاد شبه الجزيرة وبلاد الشام، ذلك أن الجبل الأخضر، الذي يمتد من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي، هو عبارة عن جبل التوائي وهو أكثر شبهاً بجبال لواء أسكندرونه لوجود الصخور الخضراء الاندفاعية على نطاق واسع، وإن كانت النواة آركية والخواصر من الصخور الرسوبية. وقد أدت الصدوع المتعددة في بلاد عمان إلى ظهور الأودية التكتونية أي الغرابن، والكتل الناهضة أو الهورستية، ولا سيما في شبه جزيرة مسندم، بل وكثيراً ما تظهر الخلجان الضيقة العميقة التي تبدو أشبه بالفيوردات أكثر من شبهها بخلجان الرياس، والتي تمتد باتجاه الداخل على شكل ألسنة ضيقة عميقة محاطة بالسفوح شبه القائمة لشدة انحدارها، ونجد أعظم هذه الألسنة في شبه جزيرة مسندم، إذ يتعمق أحدها في البر لمسافة ١٧ كم وتطل عليه جروف يتراوح ارتفاعها بين ١٠٠٠ و١٣٠٠ م، لذا تكون هذه الخلجان عبارة عن مراسي رائعة ولكن بلا ظهير إذ تنتهي صـدورها بمناطق جدباء، فميناء مسقط يصعب الوصول إليه من الداخل (شكل ١).

وتتجه سلطنة عمان في حياتها الاقتصادية نحو الخليج وساحل إفريقيا

رأس مسندم
ليمه
ديا
خورفكان
الفجيرة
كلبا
الأسود
شناص
صحار
صحم
الخابورة
سويق
السيب
مطرح
مسقط
خليج عُمان
الخليج العربي
رأس الخيمة
أم القيوين
عجمان
الشارقة
دبي
أبو ظبي
العين
البوريمي
إمارات ساحل عُمان
ساحل الباطنة
بركة
جبل الحجر
السيفة
قريات
ضباب
نزوى
ابرا
ازكى
كلهات
صور
الحجر
الحد
الشرقية
آدم
جبال
فهود
الهويسة
المملكة العربية السعودية
سويح
الأشخرة
رأس الجيش
الربع الخالي
بر الحكمان
الخلوف
جزيرة مصيرة
رأس الدقم
الجوارة
رق الجازر
الجازر
غبة صوقرة
بحر العرب
ظفار
الشصر
مرمول
صوقرة
انطور
جزر الحلانيات
(خوريا موريا)
جبل سمحان
حاسك
طاقة
مرباط
جبل القمر
ريسوت
سدح
صلالة
رخيوت

شكل (١)

الشرقية أكثر مما تتجه للداخل، أي تدير ظهرها لبقية جزيرة العرب والتي تنعزل عنها برمال الربع الخالي، وفي ذلك بعض التفسير لعزلة عمان مدة طويلة عن الداخل.

ومناخ البلاد ثقيل بسبب ركود الهواء المرتفع الحرارة والمصحوب بالرطوبة، وفي الماضي كان قسم من السكان يستقر شتاءً في عمان ويعمل في مهنـة الصيد البحري، فإذا ما حل الصيف انتقلوا إلى العراق الأدنى للمشاركة في جني التمور.

وتتكون الجهات الداخلية من عمان من هضبة يتراوح ارتفاعها بين ١٠٠٠ و ١٣٠٠ م ولكن تسمو إلى أكثر من ٣٠٠٠ م في الجبل الأخضر.

وإذا كان مطر عمان أقل كمية من أمطار اليمن، فهي تبلغ في الجبل الأخضر حوالي ٢٥٠ مم، وتجري السيول في أودية نحو الشرق ونحو الغرب، ويستفيد السكان من مياه الأفلاج ـ وهي تماثل الفجارات الجزائرية أو السرابات السورية أو الكهاريز في إيران (شكل ٢) ـ لري المزروعات من نخيل وحضار. وفي المرتفعات تنتشر أشجار المناطق المعتدلة كالكروم والرمان والخوخ والجوز والزيتون واللوز. أما النخيل فينتشر في المنخفضات التي تروى من مياه الآبار أو من مياه الأفلاج، وكذلك ينتشر فوق السفوح الدنيا حيث يقوم عليه نشاط السكان والذين يصدرون الفائض منه للخارج، كما تنتج المناطق المنخفضة التبغ وقصب السكر والقطن. وتقوم القبائل برعي قطعان الأغنام والماعزعلى السفوح الدنيا والوسطى للجبل الأخضر. وقد تم تحديث صناعـة صيـد الأسماك البحرية بقصد تأمين حاجة الاستهلاك الداخلي المتعاظم بسبب ارتفاع سوية الأهالي المعاشية بعد ظهور النفط بكميات وفيرة قبل حوالي عشرين عاماً.

ويشتهر سكان نزوى عاصمة عمان الداخلية بصناعاتهم الحرفيـة

رسم توضيحي لأحد الأفلاج قرب صحار

مناطق صخرية
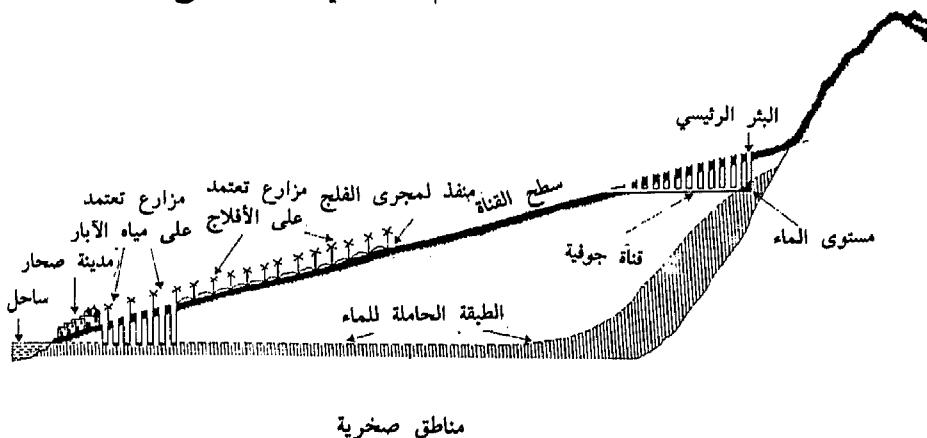
شكل (٢) رسم توضيحي لأحد الأفلاج قرب صحار

كالنسيج والحرامات والأواني النحاسية والخزفية، ولا تزال السلطنة تحتفظ بكثير من صلاتها القديمة مع الخارج، ولا سيما مع إفريقيا الشرقية وسواحل الهند. ولموقع العاصمة مسقط أهمية استراتيجية عند مدخل الخليج العربي مما دفع بالبرتغاليين لاحتلالها في القرن السادس عشر ومن ثم الفرس وأخيراً الإنكليز. غير أن توسع الميناء يظل محدوداً لفقر ظهيره وصعوبة المواصلات مع الجهات الداخلية، وعلى كل اكتسبت مسقط أهمية تفوق أهمية عدن، بعد أن اكتسب الخليج العربي تلك المكانة المتعاظمة بعد اكتساب الدول المطلة عليه ذلك المركز الاقتصادي الدولي.

وقد كان لاكتشاف النفط، وإن كان متأخراً بالنسبة لسائر دول الخليج (شكل ٣)، في المنطقة الواقعة خلف الجبل الأخضر ولا سيما في حقل
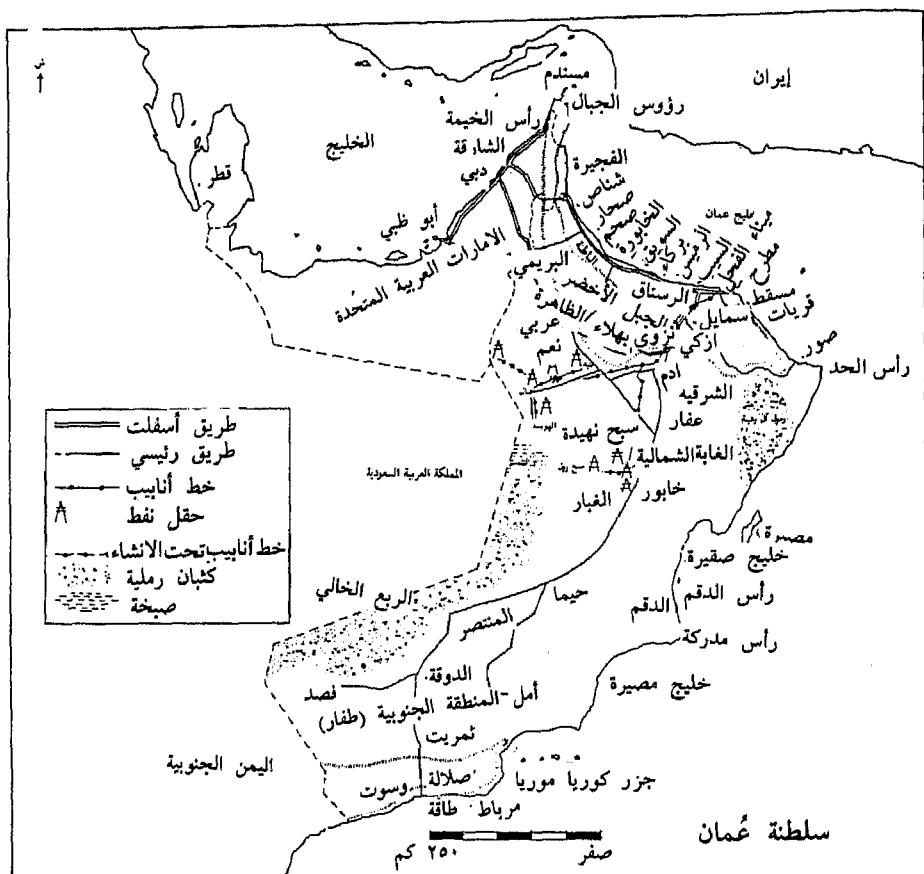
شكل (٣)

الفاهود، دوراً حاسماً في نهضة السلطنة على مختلف الأصعدة، وتحولت صورة البلاد بصورة متسارعة من قطر كان يغط في غفلة القرون الوسطى إلى بلد ينعم بكل أشكال الرخاء، وبشكبة بنية تحتية تمتد على سائر أنحاء البلاد كالطرق والري الحديث، ونشوء جامعة قابوس في ١٩٨٧، ومصفاة نفط تكرر يومياً ٥٠٠٠٠ برميل من النفط المحلي.

هذا كما تم اكتشاف خامات النحاس في شمالي البلاد، ودخلت ميدان التصدير، وقام بعمان مصنع ضخم للإسمنت وآخر لليوريا، هذا فضلاً عن

أسطول حديث لصيد الأسماك.

وسكان البلاد ١,٥ مليون نسمة، ينتشرون فوق مساحة قدرها ٣٠٠٠٠٠ كم[٢] وفي عام ١٩٨٠ صعد دخل الفرد في هذه البلاد إلى ٤٥٩٠ دولار[١].

وفي عام ١٩٨٧ كان النفط يؤلف ٨٠٪ من قيمة صادرات عمان مقابل ٩٠٪ من دخل البلاد، في عام ١٩٨٥ حيث كان يؤلف ٩٩٪ من صادرات البلاد.

وتتجه البلاد نحو التصنيع وتنويع الاقتصاد، كانتاج خامات النحـاس، وصناعة الكابلات، والأسمنت، والرخام، والألمنيوم (٦٠٠٠ طن) والذي يصدّر إلى السعودية وقطر. وفي عام ١٩٨٨ انتجـت دول مجلس التعاون الخليجي من دبي والبحرين وعمان ٣٦٠٠٠٠ طن من الألمنيوم من مصاهر خاصة محلية وتملك الدول المذكورة ٤٤٪ من احتياط نفط العالم.

---

(١) في عام ١٩٤٩ كان دخل الفرد السنوي كما يلي في الأقطار التالية وبالدولار: السعودية ٤٠٠، تركيا ١٢٥، لبنان ١٢٥، سورية ١٠٠، مصر ١٠٠، إيران ٨٥.

اتحاد الامارات العربية

تمتد أراضي هذا الاتحاد من خليج عمان شرقاً حتى قاعدة شبه جزيرة قطر، فيحدها من الشمال الخليج العربي ومن الشرق شبه جزيرة مسندم التابعة لسلطنة عمان ومن الجنوب عمان والمملكة العربية السعودية وكذلك من الغرب. مساحتها ٧٧٧٠٠ كم٢ وقد تشكل في عام ١٩٧٠ (شكل ١).

وتضم هذه الدولة عدة أمارات هي: أبو ظبي، دبي، الشارقة، عجمان، الفجيرة، أم القيوين، رأس الخيمة. ويتركز ٦٠٪ من السكان في أبو ظبي ودبي.

وأكبر الأمارات السبع هي «أبو ظبي» ومساحتها ٦٧٣٤٠ كم٢ ويبلغ تعداد سكانها مليون نسمة ونصف حسب إحصاء ١٩٨٨ م أكثر من نصفهم أجانب وأهم مدنها هي مدينة أبو ظبي (شكل ٢)، ومدينة العين، ومدينة زايد. وعاصمة الاتحاد هي أبو ظبي ومقر وزارات الحكومة الاتحادية ومؤسساتها. والعين هي ثانية مدن الأمارة، وتكثر بها مياه آبار المياه العذبة والمنسابة أصلاً من السفوح الغربية لجبال عمان مما أدى لازدهار القطاع الزراعي فيها، كما تحتضن هذه البلدة جامعة الأمارات بكلياتها السبع.

وتأتي أمارة دبي في المرتبة الثانية بعد أبو ظبي من ناحية المساحة، إذ
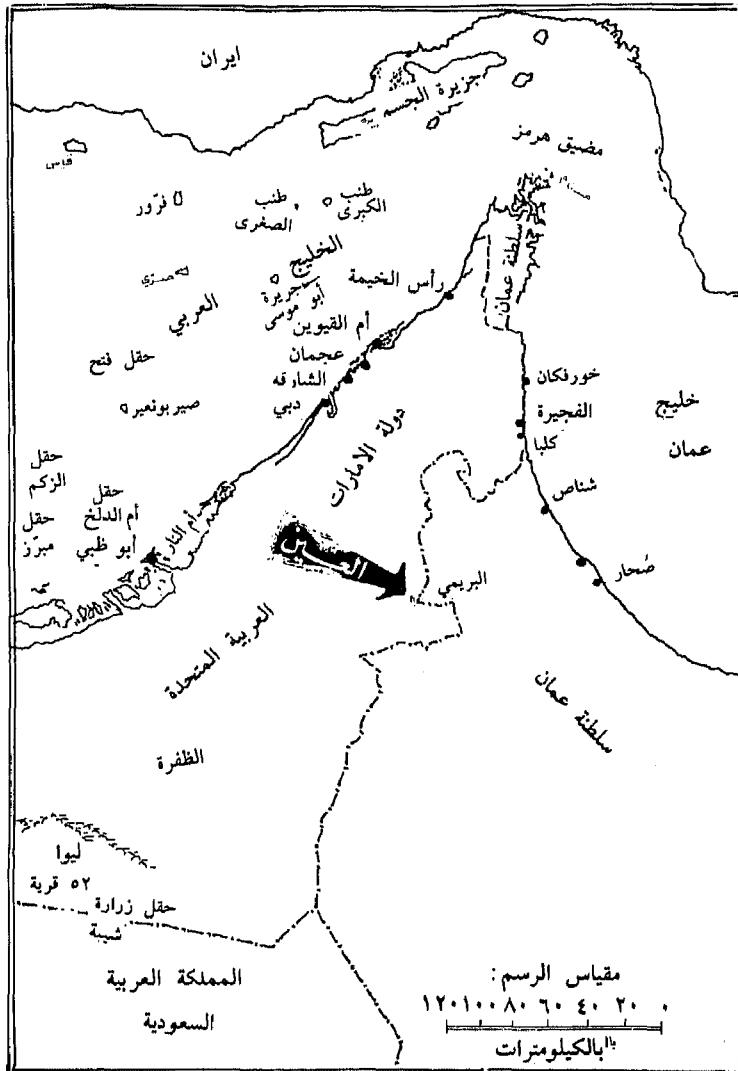
شكل (١)

تبلغ مساحتها نحو ٣٨٨٥ كم٢ ويبلغ عدد سكانها نحو ٤٣٠٠٠٠ نسمة، وقد عرفت (شكل ٣) دبي منذ القدم بأنها أحد المراكز الهامة للتجارة في منطقة الخليج العربي.
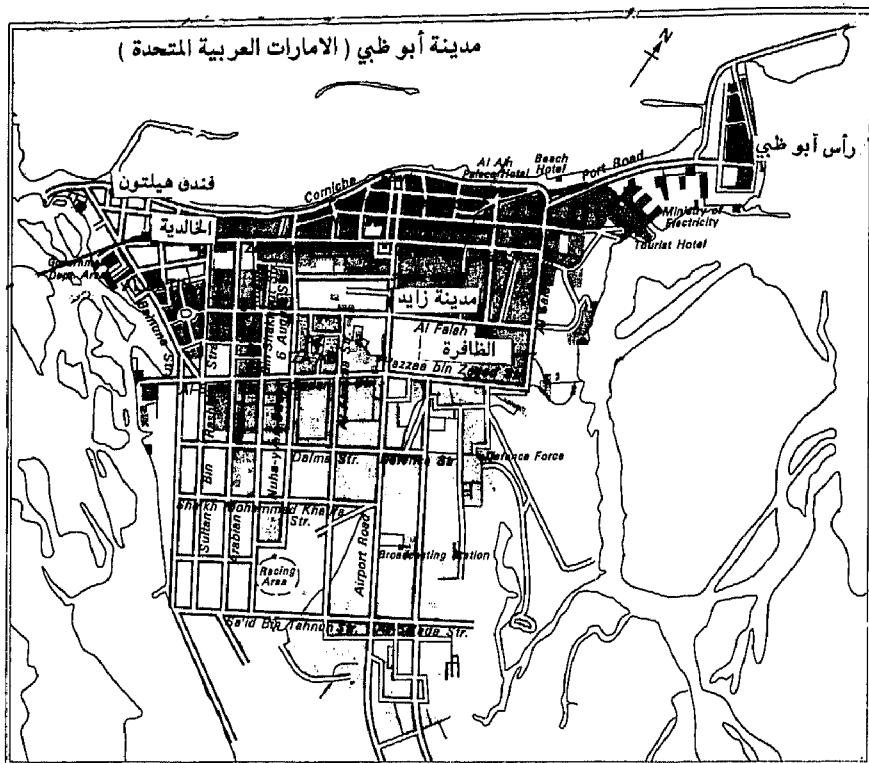
شكل (٢) مدينة أبو ظبي عاصمة اتحاد الأمارات العربية.

وتعد **الشارقة** الأمارة الثالثة بين أمارات دولة الامارات العربية المتحدة، إذ تبلغ مساحتها ٢٦٠٠ كم٢ وسكانها ٢٧٠٠٠٠ نسمة، وقد تم اكتشاف النفط يها بكميات تجارية في عام ١٩٧٢ وتتبعها **خورفكان** على ساحل خليج عمان شمال الفجيرة (شكل ٤).

يتميز الساحل الممتد من رأس مسندم حتى قاعدة شبه جزيرة قطر بالجدب التام، لأن الأمطار يندر أن تزيد عن ١٠٠ مم وسطياً في العام. وقد تحدث سيول استثنائية كما حدث في شتاء ١٩٨٨، إذ هطل مقدار ١٢٥ مم في يوم واحد في دبي وهو ١٧ شباط ١٩٨٨، وليس هناك من زراعة
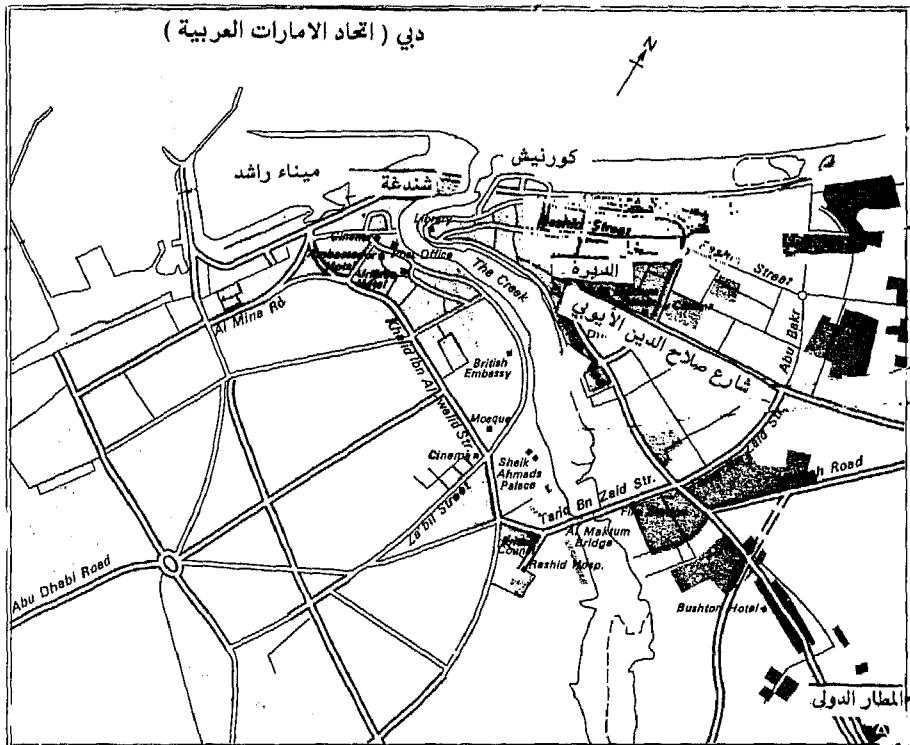
شكل (٣) دبي (اتحاد الأمارات العربية)

حقيقية إلا بجوار بلدة العين، على مساحة لا تتجاوز ٧٠٠٠٠ هكتار، ومن ثم اعتمد سكان البلاد على البحر سواء على صيد الأسماك أو على التجارة، ولا غرابة في ذلك ففي هذه المنطقة ظهر الملاح الشهير ابن ماجد الذي دلّ فاسكو دوغاما وأرشد أسطوله في الاتجاه إلى الهند. وهناك قبائل بدوية في الداخل تعتمد على تربية الإبل.

وأهل دبي تجار مهرة ولاتزال تستحوذ على معظم النشاط التجاري في الأمارة، وفي ١٩٦٠ كان لديهم نحو ٤٠٠ سفينة شراعية كانت ترتاد مختلف موانىء الخليج العربي والهند وزنجبار وسائر سواحل إفريقية الشرقية، كانت تحمل صادراتها من السمك الصغير المجفف ولا سيما إلى سيلان. وتقوم دبي
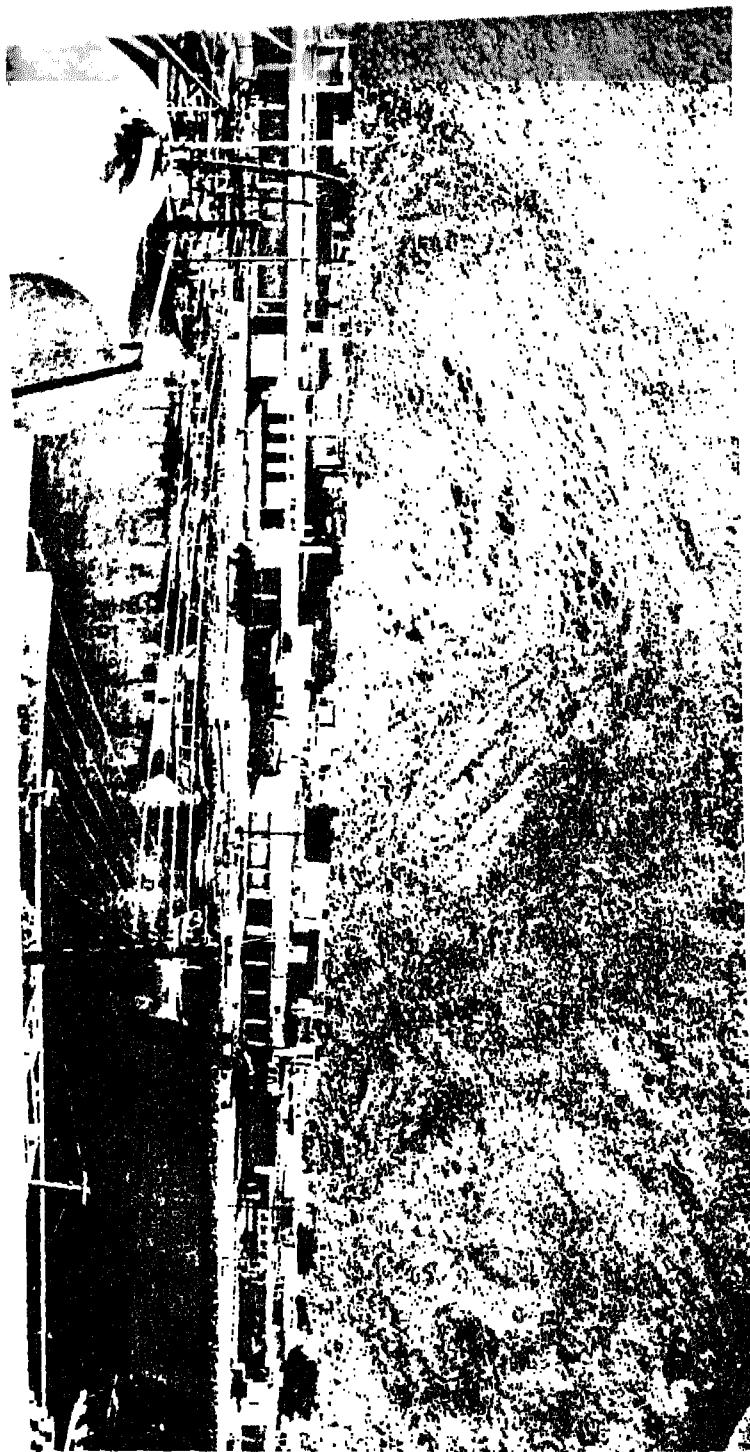
شكل (٤) خورفكان .. من أجمل مناطق الشارقة . حيث تنحصر المباني بين مياه الخليج والجبل .

أيضاً بدور الوسيط التجاري بين الخارج وبين أمارات الساحل، بل وبين السعودية وإيران، لأن البضائع التي تستوردها يتم توزيعها على جميع الأمارات، كما يقدّر أن ثلث مستورداتها يعاد تصديرها مرة أخرى إلى إيران وقطر والسعودية. كما أن بها المطار الثاني في المنطقة الذي ينافس مطار أبو ظبي ومطار الشارقة وقد أنشىء في عام ١٩٦٠. وقد ظهر البترول بمقادير كبيرة في المنطقة المغمورة المواجهة لها فضلاً عن حقول نفط أبو ظبي.

أما أمارة **أم القيوين** التي كانت فيما مضى أقوى أمارات الساحل فكانت تأتيها المؤن من البصرة والأرز من الهند لتموين الساحل كله، ولكنها لم تلبث أن تدهورت، ونظر لخلو أم القيوين من الماء فقد كان الأهالي يستوردونه من الشارقة، وكانوا يعتمدون في غذائهم على الأرز والسمك والتمر، غير أن محطات إعذاب ماء البحر أخذت تأخذ على عاتقها تموين كل الأمارات بالمياه العذبة، حتى أن الاتحاد بدأ يفكر باستيراد المياه العذبة من تركيا بإنبوب يمتد عبر الأراضي السورية والأردنية والسعودية حيث سيكلف متر الماء المكعب ١,٥ دولار بينما المتر المكعب من مياه التحلية البحرية يكلف ٣ دولارات.

وقد تم اكتشاف النفط لأول مرة في اتحاد الأمارات عام ١٩٥٨ في حقول بحرية (شكل ٥) قرب جزيرة أم داس، وبدأ أول انتاج تجاري للتصدير عام ١٩٦٢ وجرى تمديد خط من الأنابيب يربط حقل أم الشيف بجزيرة داس وزودت الجزيرة المذكورة بالأرصفة والصهاريج. وفي ١٩٦٠ اكتشف في البر في الأمارة حقل موربان، الذي يسيل نفطه بأنابيب طولها ١١٠ كم وفي ١٩٦٥ كان الإنتاج النفطي بالأمارة ١٣,٥ مليون طن، وفي الوقت نفسه قام بالأمارة مصنعان لتقطير ماء البحر.

عجمان: أصغر الأمارات، وإن كانت أعذبها ماء ويسمونها مصيف
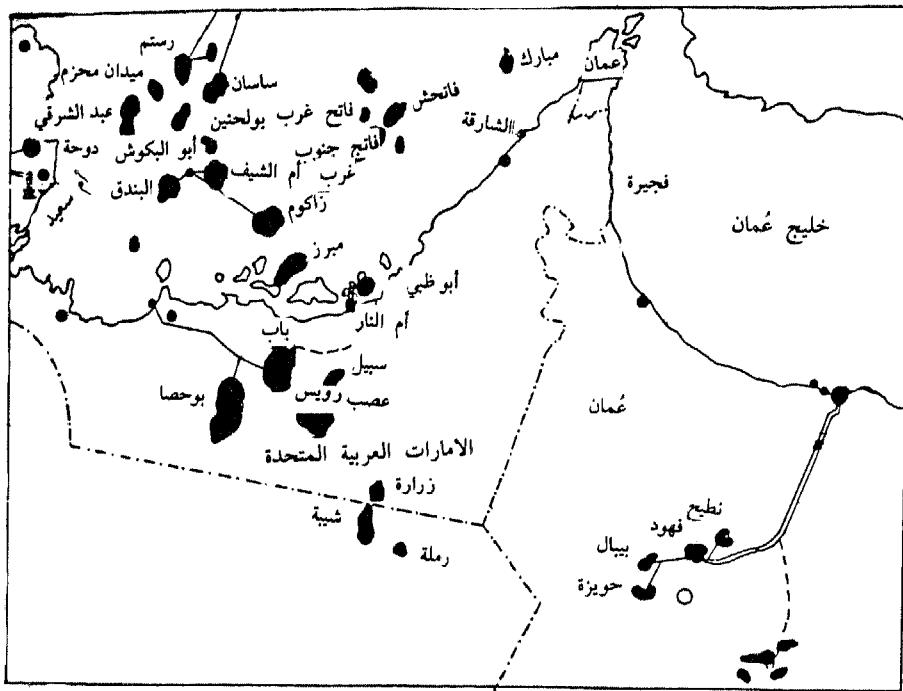
شكل (٥) أهم حقول البترول في دولة الإمارات العربية المتحدة.

الساحل، ونظراً لضيق أسباب الرزق فيها، ارتحل كثير من أبنائها إلى أقطار البترول المجاورة.

رأس الخيمة: من أمارات القواسم، ويرجع تأسيس بلدة رأس الخيمة كعاصمة لجميع ساحل عمان بزعامة القواسم إلى منتصف القرن الثامن عشر، وسكان الأمارة بحدود ٤٥٠٠٠ نسمة ثلثاهم بالعاصمة.

الفجيرة: وهي الأمارة الجبلية الواقعة على الشاطىء الشرقي على خليج عمان، وتطل على قسم من سهل الباطنة، ورغم وجود واحات خصيبة بين أحضان الجبال وبعض المزارع في أراضيها الساحلية، إلا أنها أفقر أمارة لولا دعم ميزانية الاتحاد، وتعيش في شبه عزلة، ويزيد عدد سكانها على ٤٠٠٠٠٠ نسمة.

وتبدو مشكلة اتحاد الأمارات هو ارتفاع نسبة الجاليات الأجنبية من غير العربية كالهنود والإيرانيين، كما أن منهم من حمل الجنسية المحلية ويملكون العقارات والمحلات التجارية ولعل ذلك واضحاً بصورة أكثر في دبي.

وقد أدى ظهور النفط الذي يزيد انتاجه السنوي عن ١٠٠ مليون طن وسطياً في الوقت الحاضر لتطور عمراني مذهل بحيث تبدو المدن هنا أشبه بالمدن الأمريكية بالعمارات الضخمة أو ناطحات السحاب، بالإضافة إلى نهضة ثقافية تتجلى في نشوء جامعة العين، وارتفاع سوية المعيشة مما جعلها في عام ١٩٨٠ أغنى دولة بالعالم بدخل الفرد المتوسط، إذ ارتفع في ذلك العام إلى ٢١٠٠٠ دولار، وتملك الأمارات ثاني احتياط نفطي بالعالم بعد المملكة السعودية أو ٢٠٠ مليار برميل، وفي ١٩٨٧ تم الاحتفال بمناسبة مرور ٢٥ عام على تصدير أول شحنة نفط من جزيرة داس.

كما قامت صناعات فيها كتكرير النفط والإسمنت الذي فاق إنتاجه الاستهلاك المحلي بكثير، ويجد صعوبة في وجه التصدير للخارج بالإضافة إلى صناعة سماد اليوريا والغاز السائل.

هذا وقد ارتفع الإنتاج الزراعي في عام ١٩٨٦ بمقدار ١٠٪ عن العام السابق، وبلغ الإنتاج الكلي ٦٦٢ ألف طن. وتبلغ مساحة الأرض المزروعة ٧٠٠٠٠ هكتار وفيها ٤ ملايين نخلة، بالإضافة إلى مساحة أحراج تبلغ ٣٢٠٠٠ هكتار. وتكفي الأمارات نفسها من إنتاج الخضروات الشتوية. أما إنتاجها من الألبان والدواجن والبيض فيكفي نصف الطلب المحلي تقريباً.

هذا ويعاني التصنيع ولا سيما إنتاج الإسمنت الذي بلغ إنتاجه ٥ ملايين طن في عام ١٩٨٨ من أسوأ أزمة على ضوء المنافسة بين المصانع القائمة، حيث يباع بسعر يقل عن سعر التكلفة أو ٤,٥ دراهم للكيس مع أن كلفته ٧ دراهم وأصبح المستثمرون يحجمون عن المساهمة بمشاريع صناعية.

ويكون ترتيب الصناعات في الأمارات حسب قيمة إنتاجها كما يلي: الصناعات المعدنية الأساسية، صناعة المواد الغذائية والمشروبات والتبغ، صناعة الكيماويات والمنتجات الكيماوية ومنتجات البترول والفحم والمطاط والبلاستيك، الصناعات المعدنية الأساسية، صناعة الخشب والأثاث، صناعة الورق والطباعة.

دولة قطر

وهي شبه جزيرة ممتدة في الخليج العربي باتجاه الشمال وجذعها ملتحم بجزيرة العرب، (شكل ١) مساحتها ١١٤٧٣ كم٢ أي تعادل مساحة الجمهورية اللبنانية، ويقارب عدد سكانها حالياً ٣٠٠٠٠٠ نسمة، العاصمة الدوحة وسكانها ٢٠٠٠٠٠ نسمة.

وتتكون أرضها من هضبة كلسية تأثرت بالظاهرات الكارستية تحت مناخ رطب غابر تظهر آثارها بالهوتات أو الدحل، وهي منخفضات عميقة عبارة عن كهوف خافسة بفعل التحلل، ويصل ارتفاعها إلى ٨٠ م فوق سطح البحر، كما تعلوها الكثبان الرملية في كثير من المواقع. ولكن نعثر على بعض الروضات، أي الواحات الصغيرة، بفعل المياه شبه الارتوازية المنسابة من الغرب ضمن الطبقات العميقة.

وقد كانت تعتمد في الماضي على استخراج اللؤلؤ، وفي مطلع القرن الحالي كان عدد السفن المنصرفة لهذه المِهنة حوالي ٤٠٠٠ سفينة، وقد أصيب هذا النشاط بتدهور سريع بظهور اللؤلؤ الياباني المزروع، وإن كانت قطر لا تزال تحتفظ بأكبر سوق بالعالم لتجارة اللؤلؤ الطبيعي الثمين.

وكان لجدب قطر أثره الكبير حتى في حرفة الرعي التي أصبحت لا تسد حاجة الاستهلاك المحلي وأصبح من الضروري استيراد الأغنام من إيران ومن
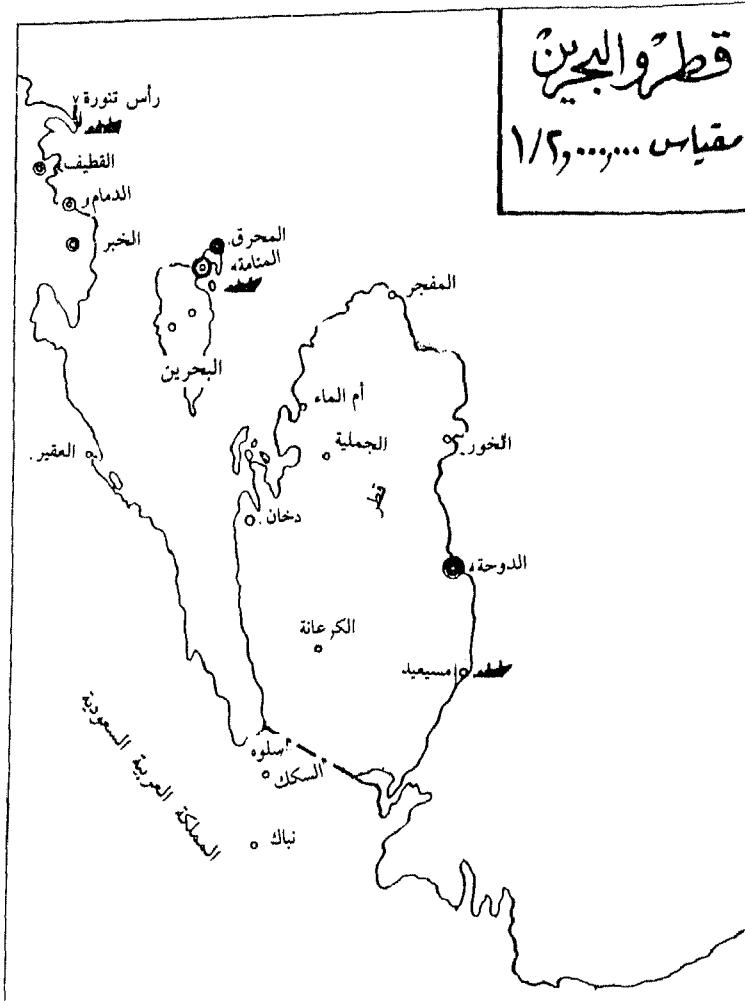
شكل (١) قطر والبحرين

الصومال وحتى من أستراليا ونيوزيلنده بسبب تعاظم الاستهلاك لارتفاع سوية الحياة ولا سيما بعد تدفق النفط.

وإذا كان النشاط الزراعي محدوداً لقلة المياه الجوفية فإن هناك مزارع حديثة نموذجية تنتج قدراً لا بأس به من الخضار. كما قامت في قطر بعض المصانع الصغيرة للحلويات والأثاث ولإنتاج الجليد والطوب والإسمنت

لخدمة الاستهلاك المحلي، ولكن يعتبر مصنع الحديد من أهم أمثاله في الوطن العربي إذ ينتج حوالي ربع مليون طن.

وأول حقـل نفط تم اكتشافه في دولة قطر كان حقل دخان الواقع على الساحل الغربي وذلك في عام ١٩٤٢، لكن الإنتاج لم يبدأ إلا في ١٩٤٩ وكانت شركة بترول العراق IPC هي صاحبة الامتياز، وبلغ الإنتـاج مقدار ٢١,٤ مليون طن في ١٩٧٧ بعد أن كان ٨ ملايين طن في ١٩٥٨ و ١١ مليون طن في ١٩٦٥، وارتفع إلى أكثر من ٨٠ مليون طن في الثمانينات، حتى أصبحت قطر تضارع في سوية معاشها اتحاد الأمارات والكويت. وتمتد الأنابيب إلى نقطة تبعد مسافة كم جنوب ميناء مسيعيد (شكل ٢) لتمتد تحت الماء لمسافة ٣ كم حيث تقف ناقلات النفط.

غير أن أمارة قطر تبدو أغنى دول الخليج قاطبة بحقول الغاز التي ظهرت منذ بضعة أعوام، وأصبحت تصدر الغاز السائل في ناقلات خاصة، وتكاد تماثل في غناها بهذه المادة القطر الجزائري في المغرب العربي، وتفكر قطر بتصدير الغاز السائل لليابان ولدول الشرق الأقصى. وقد أقامت قطر جامعة في العاصمة كسائر دول الخليج.

ويشكل النفط ٦٦٪ من الناتج الإجمالي الوطني وتحتل قطر المرتبة ١٦ بين منتجي النفط بالعالم، وتقدم الزراعة ١٪ والتي بلغت قيمة انتاجها في عام ١٩٨١ : ٥٢ مليون دولار، منها ٤٪ للانتاج النباتي، و ٢٦٪ للحيواني، والأعلاف الخضراء ٢٢٪، والصيد السمكي ١٢٪. ومساحة الأرض الزراعية ٣٣٤٨ هكتار أو ٢,٩٪ من مساحة قطر.

وفي ١٩٨٦ بلغت القيمة الكلية لإنتاج الزراعة في قطر ٨٧,٤ مليون دولار، أي بنمو مقداره ١٪ عن السنة السابقة. وبلغ صيد السمك في العام المذكور ١٩٧٩ طن ويقدم ٩٠٪ من الاستهلاك الوطني. وتسد الخضروات
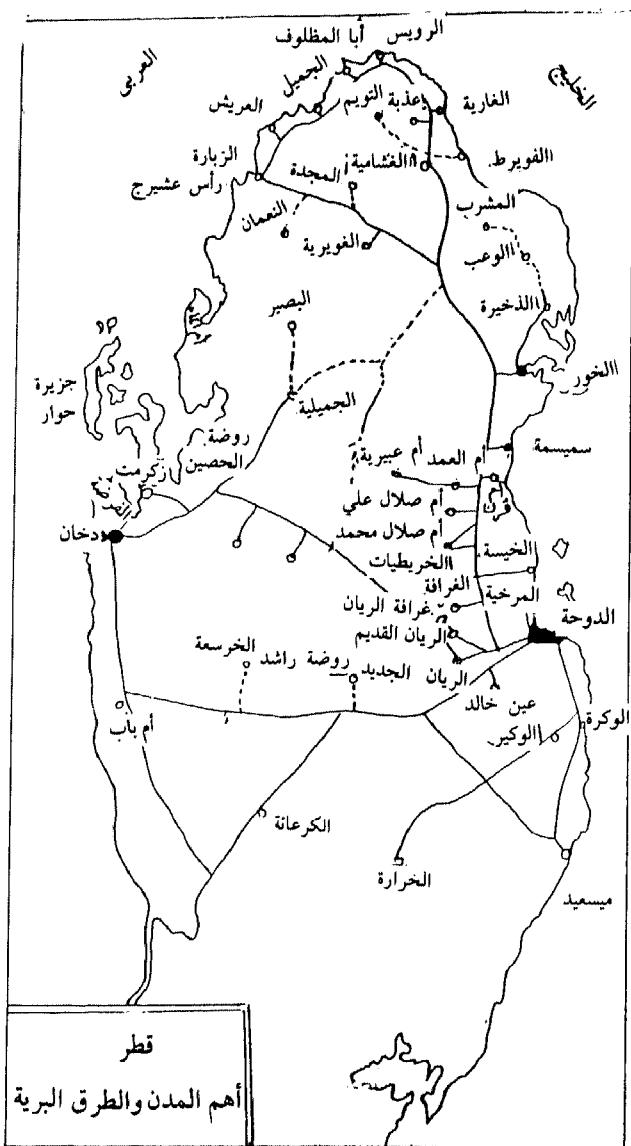
شكل (٢) قطر أهم المدن والطرق البرية

المحلية ٦٠٪ من الطلب، وبلغت قيمة منتجات الحليب والألبان ٢٤,٤ مليون دولار. وقد شرعت قطر بزراعة الزيتون على نطاق واسع أو قرابة مليوني غرسة.

وقد كان عدد سكان قطر في ١٩٨١ : ٢٤٥٠٠٠ نسمة مقابل ١١١٠٠٠ في ١٩٧١، وكانت سرعة النمو السكاني بين ١٩٧٥ و ١٩٨٤ بحدود ٣,٢٪ ودخل الفرد السنوي ١٤٠٠٠ دولار.

وإذا كانت قطر دولة نفطية أولاً فهي دولة صناعية ثانياً.

صناعة الغاز: يعتبر حقل غاز الشمال من أضخم حقول الغاز بالعالم. وتتولى المؤسسة العامة القطرية للبترول الإشراف على مصنع سوائل الغاز الطبيعي في بلدة مسيعيد، الواقعة إلى الجنوب من العاصمة، والذي باشر إنتاجه في عام ١٩٨١ وقد بلغت منتجات مصنع سوائل الغاز الطبيعي خلال عام ١٩٨٥ مقدار ٧٤٨٧١٨ طن فضلاً عن ١٦٧٠٠٠٠ برميل أمريكي من المكثفات.

وتتولى شركة قطر للبتروكيماويات (قابكو) إدارة مجمّع البتروكيماويات في مسيعيد وبلغ إنتاج هذا المجمع في عام ١٩٨٥ من مادة الإثيلين ١٨٤,٩ ألف طن و ١٥٢,٩ ألف طن بوليثيثيلين و ٢٧,٦ ألف طن كبريت.

أما صناعة الأسمدة الكيماوية فقد أنتجت في ١٩٨٥ مقدار ٨٩٤,٩ ألف طن من الآمونيا و ٤٥٠ ألف طن من اليوريا ويصدّر كل هذا الانتاج إلى الأسواق الآسيوية.

هذا وتشترك اليابان في شركة الحديد الصلب المحدودة (قاسكو) بنسبة ٣٠٪ وبلغ إنتاجها في ١٩٨٥، ٥١١٥٨٧ طن من قضبان التسليح.

وتنتج صناعة الإسمنت التي تأسست في ١٩٦٥ الإسمنت العادي والبورتلندي والإسمنت المقاوم للأملاح الكبريتية وبلغ إنتاج قطر من الإسمنت في ١٩٨٥ ٣٣٥,٢ ألف طن.

وتملك قطر أسطولاً صغيراً لصيد السمك والروبيان قوامه ٦ سفن حديثة مبردة، هذا فضلاً عن صناعة الورق والبلاستيك والمنظفات.

أمارة البحرين

تتكون من أرخبيل يضم إحدى عشرة جزيرة تبلغ مساحتها ٥٩٨ كم^2 يسكنها ٤٠٠٠٠٠ نسمة (عام ١٩٨٧) وكان عددهم ٢٦٠٠٠٠ في ١٩٧٦ وتبلغ الكثافة فيها ٦٤٤ نسمة/كم^2. وتقع هذه الجزر التي استقلت في عام ١٩٧١ في الخليج الذي يفصل بين شبه جزيرة قطر وبين ساحل الإحساء السعودي (شكل ١). وأكبر هذه الجزر هي جزيرة البحرين التي تحوي العاصمة، وهي المنامة في الطرف الشمالي للجزيرة التي هي عبارة عن محدب تغلب عليه الصخور الكلسية، وقد استطاع الحت أن يفرغ قبته وتشكل ما يدعى بالجيومورفولوجيا براي Bray، وهو كومب فسيح منخفض تطل عليه عروة من المرتفعات المغلقة القليلة الارتفاع. أما على الأطراف ولا سيما الشمالية منها فيظهر عدد من الينابيع التي تقوم عليها حدائق النخيل فضلاً عن بساتين الحمضيات والخضار. وكانت الأجزاء الداخلية شبه خالية من السكان. ويقع المطار الدولي في الجزيرة الشمالية أوجزيرة المحرق، التي يؤلف حلقة الوصل بين آسيا وأوروبا، ويصل هذه الجزيرة مع جزيرة البحرين جسر حجري فوق مضيق طوله حوالي ١٨٠٠م. وفي ١٩٨٧ تم بناء جسر بين البر السعودي وبين جزيرة البحرين على حساب المملكة العربية السعودية، وهو إنجاز رائع وصل أرخبيل البحرين بالبر السعودي.
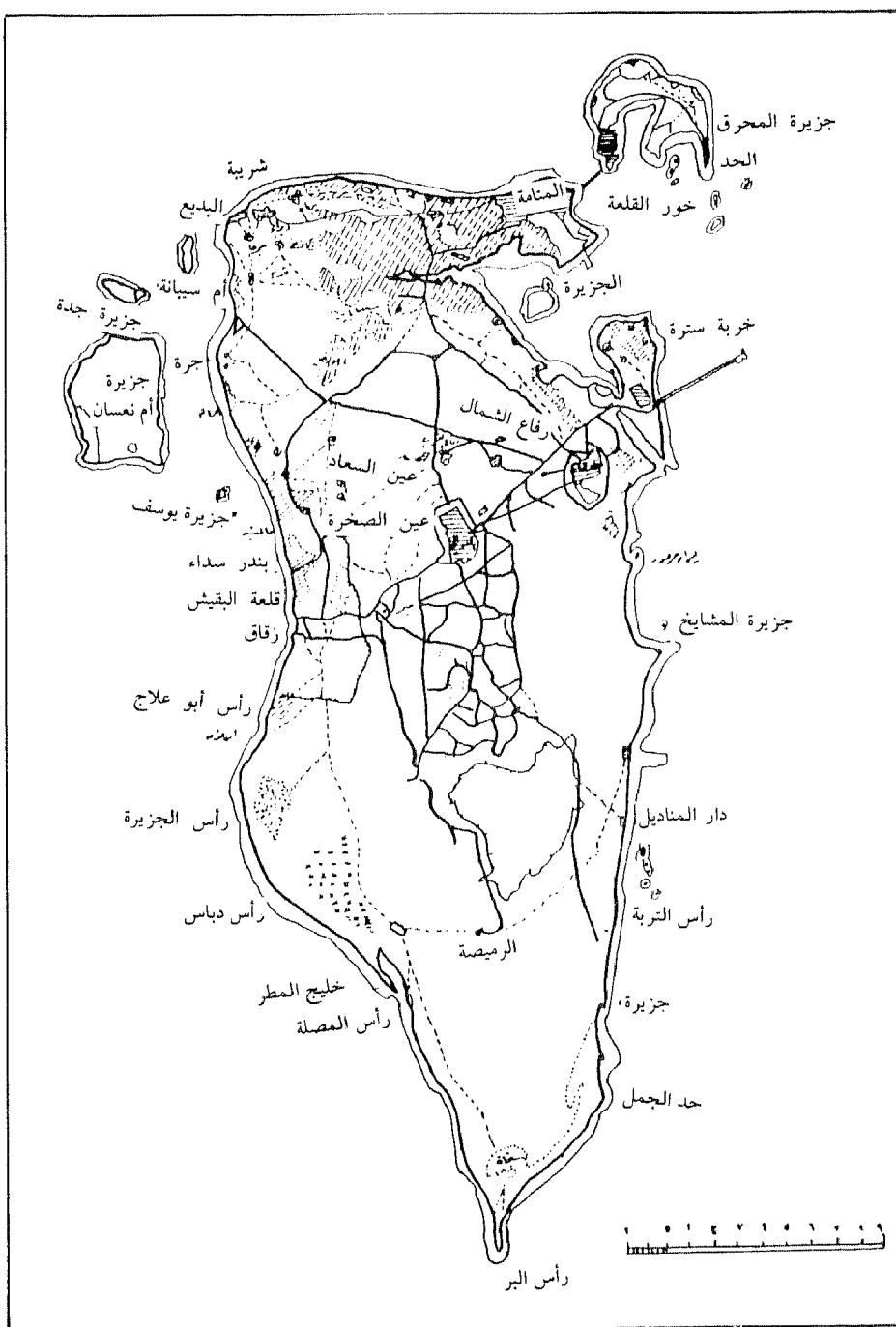
شكل (١) البحرين

وكانت البحرين أيضاً تهتم بصيد اللؤلؤ، وكان لأهلها أكثر من ألف سفينة ولكنها تلاشت بدورها، وإن كانت تجارته لا تزال مزدهرة. وقد شجعت دولة البحرين الزراعة حتى أصبحت تمتد على ٤٦٠٠هـ، قبل عشرين عاماً معتمدة على الري، غير أن مشكلة ملوحة التربة وظهور علامات نضوب المياه أدى إلى تقليصها وإلى اللجوء لزراعة الدفيئات والزراعة بالتنقيط، أي نحو زراعة لا تعتمد على الكثير من المياه..

وإذا كانت البحرين أكثر دول مجلس التعاون الخليجي عراقة في إنتاج النفط الذي يعود للثلاثينيات فهي أقلها إنتاجاً حالياً، لأن إنتاجها هبط من ٥ ملايين طن إلى ٢,٨ مليون طن عام ١٩٧٧ وإلى ٢,٣ مليون طن في ١٩٨٦، ولهذا فإن أهمية البحرين في مجال التكرير أكبر من ميدان الإنتاج. وقد بدأ استغلال النفط عام ١٩٣٢ في منطقة العوالي (شكل ٢) على بعد ٢٥ كم جنوب غرب العاصمة المنامة، ولم يتجاوز الإنتاج ٥ ملايين طن إطلاقاً، أي تماثل ثراؤها بالنفط سوريا وتونس واليمن الشمالي.

وقد أنشأت الشركة المنتجة للنفط معملاً للتكرير في جزيرة سترة التي تقع إلى الشرق من جزيرة البحرين، وتزايدت طاقة إنتاجه حتى ٨ ملايين طن سنوياً، وبالتالي يعتمد على البترول القادم من السعودية بإنبوب يبلغ طوله ٢٦ كم تحت الماء.

هذا وقد أقامت البحرين مصنعاً لصهر الألومنيوم اعتماداً على خامات مستوردة، مستغلة بذلك الغاز الذي تنتجه بوفرة من مصافيها، وهو أهم مصنع في الوطن العربي من هذا النوع، وإن كانت الأمارات الغربية قد أنجزت بناء مصنع يأتي بالدرجة الثانية.

وقد أقامت البحرين مؤخراً جامعة هي جـامعة الخليج على نفقة كل دول مجلس التعاون الخليجي، تنصرف لتدريس التكنولوجيا ولا تنافس
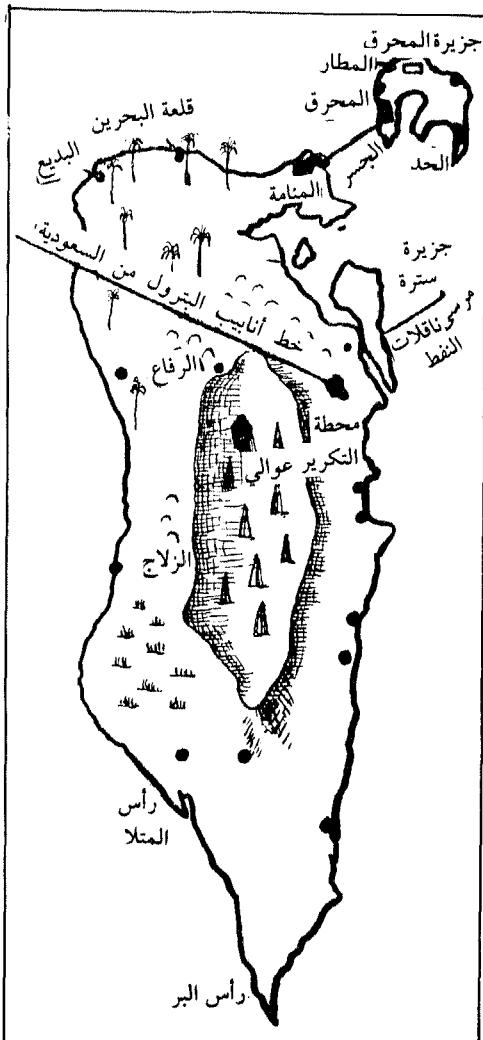
شكل (٢)

جامعات الخليج الأخرى، بحيث لا تكون صورة مصغرة عنها، وذلك في العاصمة المنامة (شكل ٣).

وفي ١٩٨٨ كانت ميزانية البحرين تعادل ١,٣ مليار دولار، وكانت قيمة تجارتها في ١٩٨٠ تعادل ٦٠٠٠ مليون دولار تقريباً منها ٣٢٠٠ مليون دولار للصادرات و ٣٠١٥ مليون دولار للواردات.

شكل (٣) مخطط مدينة المنامة

دولة الكويت

دولة تشغل الزاوية الشمالية الغربية من الخليج العربي، ويحدها من الشمال والغرب العراق مثلما تحدها المملكة العربية السعودية من الغرب والجنوب (شكل ١). ومساحتها ١٧٨١٨ كم٢ وبلغ عدد سكانها في ١٩٨٧ ١,٩ مليون نسمة بعد أن كانوا مليوناً واحداً في ١٩٧٦ وضربت الكويت رقماً قياسياً في نسبة تكاثر السكان السنوي التي بلغت ٦٪ سنوياً.

أراضي الكويت كلها رسوبية ـ تعود للحقب الثالث والرابع ـ تتألف من رمال وحصى وكثبان تمتطي صخوراً كلسية، تظهر أحياناً على السطح في جنوب الكويت وشمالها، مثلما يحيط بأراضي الكويت جرف قليل الارتفاع هو (الجال) من جهة الشمال والجنوب، تنحدر منه بعض الأودية الجافة (شكل ٢).

وهي صحراء عارية لا تختلف كثيراً عن ساحل الإحساء المجاور، والتي تؤلف استمراراً له نحو الشمال، ولهذا اتجه سكانها منذ القدم نحو البحر، وساعد على ذلك وجود خليج أمين والذي يتخذ شكل حوض ينفتح نحو الشرق، ولا يتجاوز عمق مياهه ١٠ م وعند الساحل ٣ أمتار مما يقسر السفن للرسو بعيداً عن الساحل اللهم إلا عند أرصفة الموانىء.

وكان عدد سكان الكويت قبل ظهور النفط في مطلع القرن الحالي يتراوح بين ١٠ و ١٥ ألف نسمة، معظمهم من البدو الذين يمتون بصلة القرابة

شكل (١) نمط انتشار الرواسب السطحية بدولة الكويت
(برنامج البيئة معهد الكويت للابحاث العلمية ١٩٨٨)

لبدو نجد من شمر وعنزة، ثم ارتفع هذا العدد بمن وفد إليها من الأقطار المجاورة بحثاً عن الرزق من العراق ومن المملكة السعودية التي لم يكن النفط قد ظهر فيها بعد. فوصل عدد سكانها عام ١٩٥٧ إلى ٢٠٠٠٠٠، وفي إحصاء ١٩٦١ صعد إلى ٣٥٠٠٠٠ (٥١,٦٪ منهم كويتيون) وبلغت نسبة
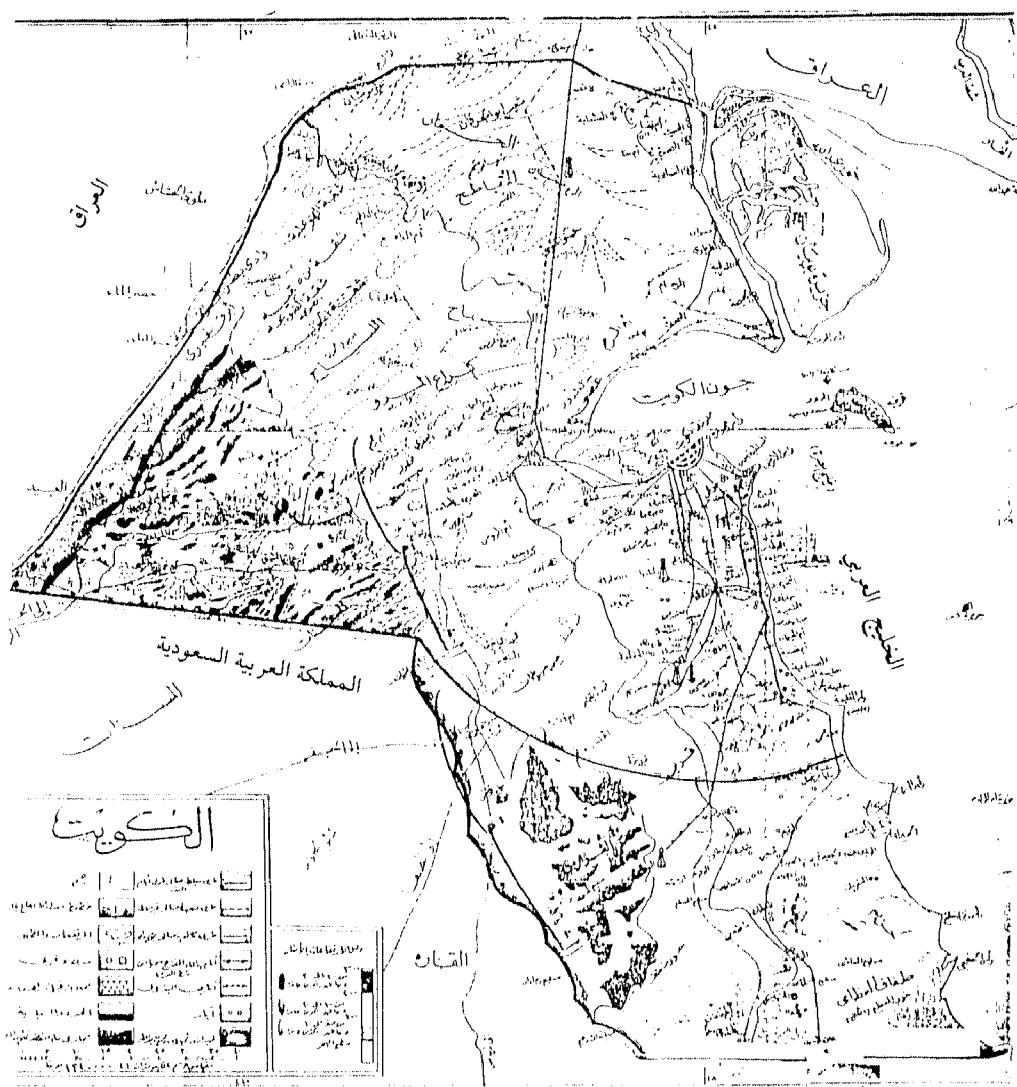
شكل (٢) الكويت

الجاليات العربية بين هؤلاء الأجانب ٧٢٪ والباقي من إيران ومن الهند والباكستان ومن أوروبيين ويعد تكاثر الكويتيين من أكبر أمثاله بالعالم (شكل ٣) و(شكل ٤). بحيث يتضاعف الكويتيون مرة كل ١٧ سنة.
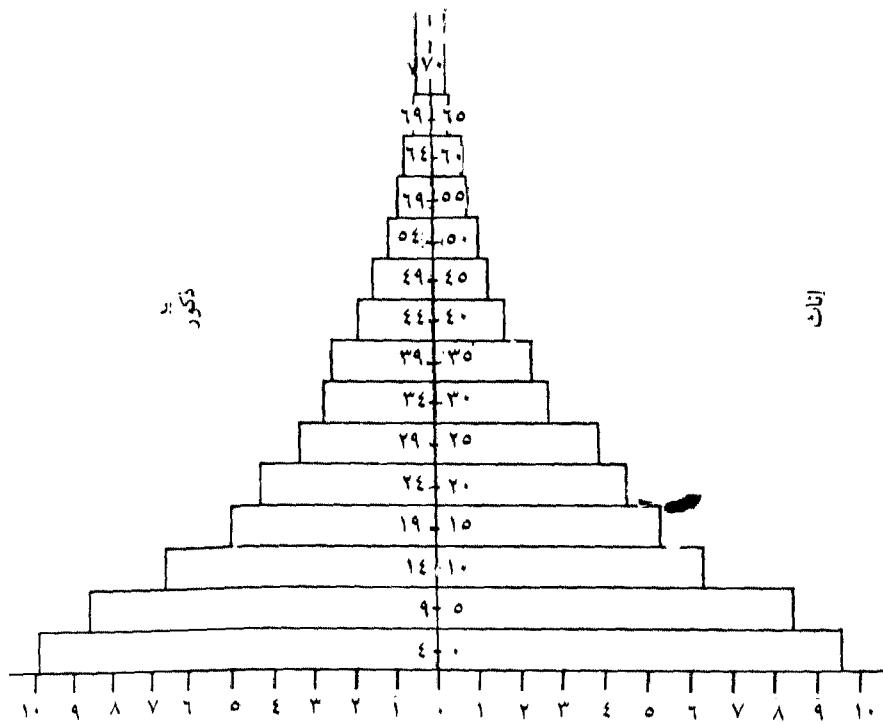
شكل (٣) الكويت: الهرم السكاني حسب العمر والجنس للكويتيين، ١٩٧٥

وتكون الزراعة محدودة للغاية لشح الأمطار، وكان يأتيها مقدار ١١ ألف طن من الخضروات الطازجة من سوريا ولبنان والأردن عبر مسافة طويلة كانت تصل إليها بحالة شبه تالفة، مما دفع بحكومة الكويت لإقامة محطات زراعية حديثة جداً، أصبحت تسد قسماً كبيراً من الحاجة المحلية اعتماداً على المياه المستعملة بعد معالجتها، ومساحة الأراضي الزراعية ١١,٢٪ من المساحة الكلية.

ومشكلة المياه عويصة جداً بالكويت منذ القديم حتى أنها في أوائل
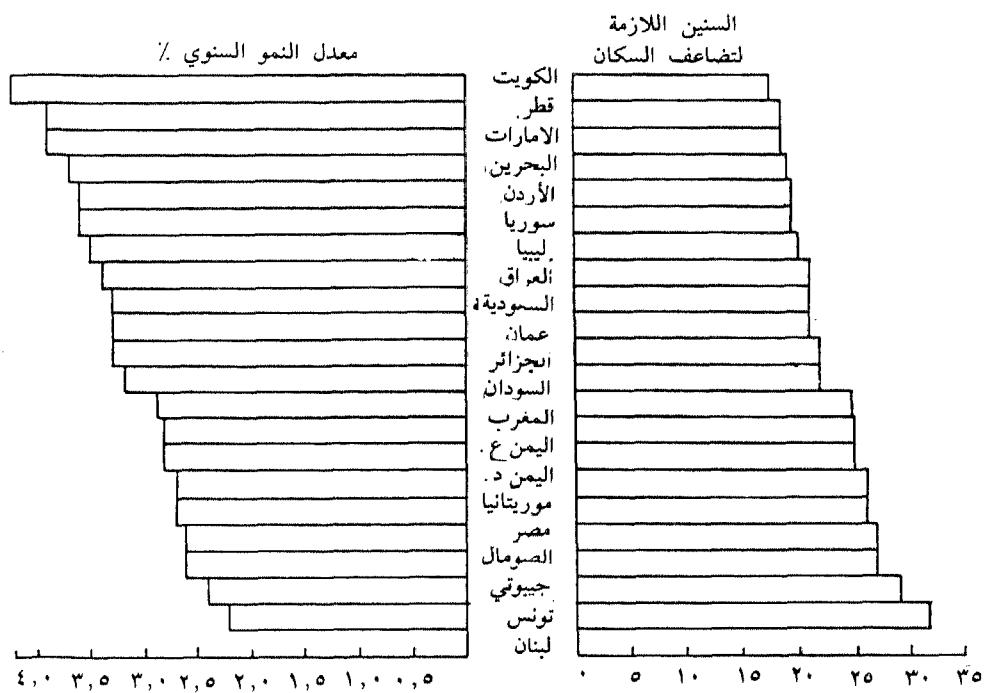
شكل (٤) معدل النمو السكاني بالبلاد العربية وعدد السنين اللازمة لتضاعف السكان

القرن العشرين كانت تنقل المياه بالسفن من شط العرب ورغم اكتشاف حوض الروضتين المائي في شمال البلاد، ظلت الحاجة ماسة للمياه العذبة وكان الحل الأخير هو بناء مصنع تحلية الماء بكلفة عالية كضمانة لحياة السكان، بعد أن أخفقت المحاولات لجر مياه شط العرب التي تذهب هدراً للبحر بسبب صعوبة التفاوض مع الحكومات العراقية المتعاقبة وفشل اتفاق عام ١٩٦٤ لتزويد الكويت بمياه تضخ من شط العرب.

ولهذا السبب كانت الحياة في الكويت ما قبل النفط تعتمد على النقل البحري وبناء السفن والتجارة، فكانت سفن الكويت تحمل سلع الهند إلى

ميناء البصرة أو المحمرة بإيران كالأخشاب والتوابل والأرز والمنسوجات كما كانت تنقل الجلود والأصواف من السعودية للخارج. هذا كما كان الغوص بحثاً عن اللؤلؤ مهنة معروفة منذ القرون الخالية إلى أن اندثرت في أواسط القرن الحالي.

وفي ١٩٦٣ تكونت بالكويت الشركة الوطنية لصيد الأسماك لسد حاجات البلاد من الاستهلاك بمساعدة من خبراء يابانيين، ونجحت في صناعة تعليب الروبيان وتبريده لتصديره إلى الأسواق الأوروبية، غير أن التلوث الذي أصاب مياه الخليج على أثر حرب الناقلات وتفجير آبار النفط الإيرانية البحرية أدّى لضمور هذا النشاط.

البترول: أما الثروة الرئيسة في الكويت فهي البترول الذي يبلغ احتياطها منه ٩٠ مليار برميل. والذي تم اكتشافه في عام ١٩٣٨ في حقل **البرقان**، وخرجت أول شحنة منه في تموز ١٩٤٦، ومساحة هذا الحقل ٢٠٠ كم مربع، ويكمن النفط في الصخور الرملية العائدة للكريتاسي الأدنى (شكل ٥). وفي ١٩٤٩ أنشىء ميناء الأحمدي وهو أكبر ميناء شحن بترولي في العالم، مجهز بأرصفة كبيرة تتسع لرسو ثماني ناقلات في وقت واحد، كما أقامت شركة بترول الكويت معملاً ضخماً طاقته ٨,٥ مليون طن بالعام. ومن ثم عُثر أثناء البحث عن المياه الجوفية على حقل مناقيش شمال شرق برقان، وحقل مقوع شمال برقان، بالإضافة إلى حقل الأحمدي، ثم حقول الروضتين والصابرية.

وفي الوقت نفسه تأسست شركة الناقلات وكانت أولى ناقلاتها **كاظمة** وحمولتها ٤٦٠٠٠ طن.

وتطلعت الكويت للتصنيع فاختير موقع بين ضياء عبد الله وقرية الشعيبة بعيداً نوعاً ما عن العاصمة لإقامة صناعات تعتمد على النفط والغاز، كصناعة
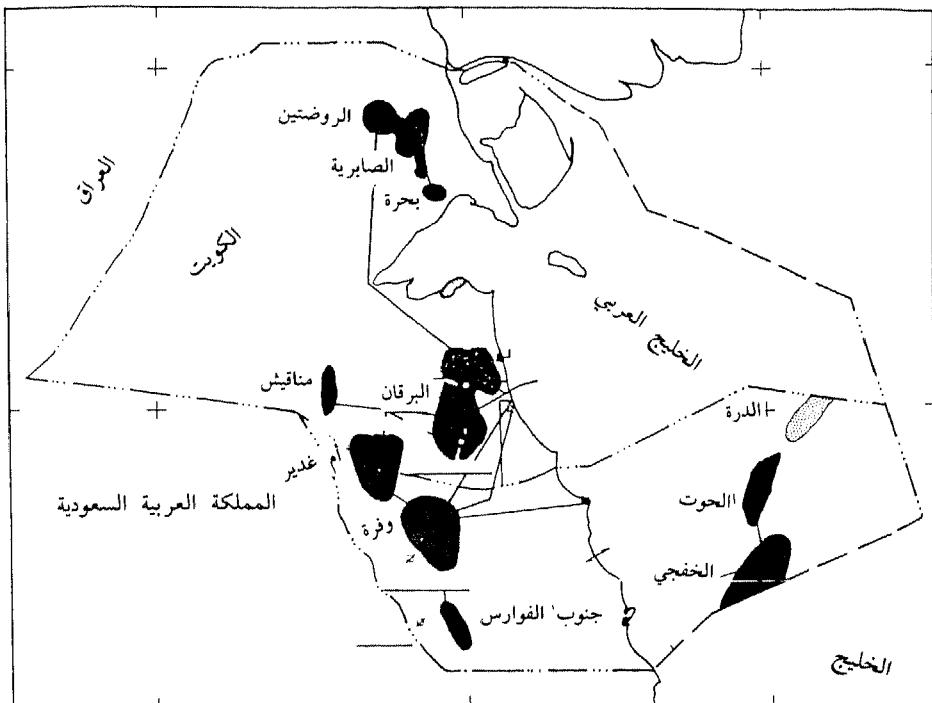
شكل (٥)

الحقول النفطية في دولة الكويت والمنطقة المقسومة.

الأسمدة، وتكرير البترول، ومحطة لتقطير مياه البحر بطاقة ٣ ملايين غالون في اليوم. وهكذا صعد إنتاج الكويت من النفط إلى ١٠٩ ملايين طن في ١٩٦٥ وكان ٩٣,٦ مليون طن في ١٩٧٧ بحيث أصبحت تحتل المرتبة السابعة بين منتجي النفط في العالم وكان إنتاجها في ١٩٨٦ مقدار ٧٤ مليون طن. وكان احتياطيها في ١٩٨٧، ١٢,٨ مليار طن أو ضعف احتياطي كل من إيران والعراق وأربعة أضعاف احتياطي ليبيا.

وتستثمر الكويت مبالغ طائلة في الخارج فهي مثلاً تملك خمس أسهم شركة البترول البريطانية، وفي شركات عديدة أوروبية وأمريكية، ونتيجة لذلك تتعرض أحياناً لخسائر جسيمة. ففي ١٩٨٧ مثلاً خسرت ٤ مليارات دولار

نتيجة الانهيار المالي في وول ستريت. وتستثمر حكومة الكويت ورجال المال فيها ٦٠ مليار دولار بالخارج على شكل أسهم في أسواق المال وفي العقارات، منها ما يقرب ٣٣ مليار دولار في الولايات المتحدة و ٣,٦ مليارات دولار في اليابان. ومع ذلك تساعد الكويت بعض الدول العربية عن طريق الصندوق العربي الكويتي الذي قدم، على سبيل المثال، في ١٩٧٤ مقدار ١٠٠ مليون دينار كويتي للتنمية الإقتصادية العربية. أو تتحمل نفقات مرتبات أساتذة التعليم العالي كما في اليمن الشمالي.

الجمهورية العربية اليمنية

تمتد إلى الجنوب من منطقة عسير الجبلية بلاد اليمن الشمالي، أو جمهورية اليمن العربية، ما بين خطي العرض ١٣ و١٨ شمالاً، بمساحة تبلغ ١٩٥ ٠٠٠ كم٢، أو ما يعادل مساحة سورية ولبنان أو نصف مساحة بريطانيا، وبلغ عدد سكانها ٨,٥ ملايين نسمة (١٩٨٧) بكثافة تبلغ ٤٠ نسمة/ كم٢ (شكل ١).

وتعتبر اليمن امتداداً في بنيتها وتضاريسها لبلاد عسير، ولكن على مقاييس أكبر، فهناك مساحات واسعة منها يتراوح ارتفاعها بين ٢٥٠٠ و٣٠٠٠م، وتظهر فيها أعلى قمة في شبه الجزيرة العربية بل وفي آسيا العربية، وهي قمة النبي شعيب التي تسمو إلى ٣٦٧٠م على بعد ثلاثين كيلومتراً إلى الغرب من صنعاء. وقد حززت المجاري المائية سطح الهضبة بصورة أكثر عمقاً مما هي في الحجاز أو عسير، وذلك لشدة الأمطار نسبياً وقدرتها على الحت الشاقولي، هذا علماً بأن هناك مساحات كبيرة في الوقت ذاته يغلب عليها طابع الاستواء. وتستغل السهول فيها، أو القيعان، في الزراعة، وتطل السروات هنا على البحر الأحمر بسهل ساحلي عريض نسبياً هو امتداد لتهامة عسير. وتتكرر هنا مرة أخرى أشكال الأودية العميقة التي تنحدر من المرتفعات مثل وادي زبيد (شكل ٢) والتي تغيض مياهها في السهل
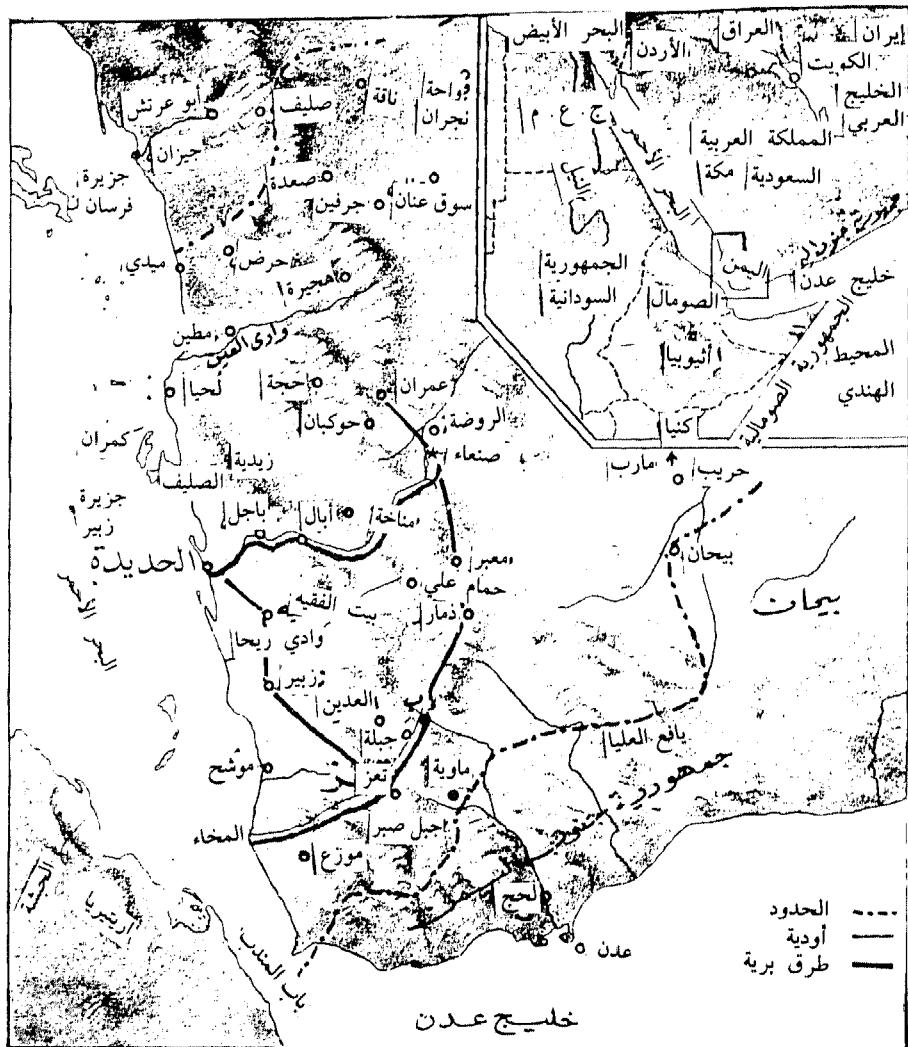
شكل (١)

وقلما تدرك البحر الأحمر، هذا كما تكثر الطفوح البركانية شبه الطبقية والتي تدعى Trapp وهي التي أعطت اليمن تربتها البركانية، وساعدت على إنشاء المصاطب أو الجلول كما تسمّى هناك.
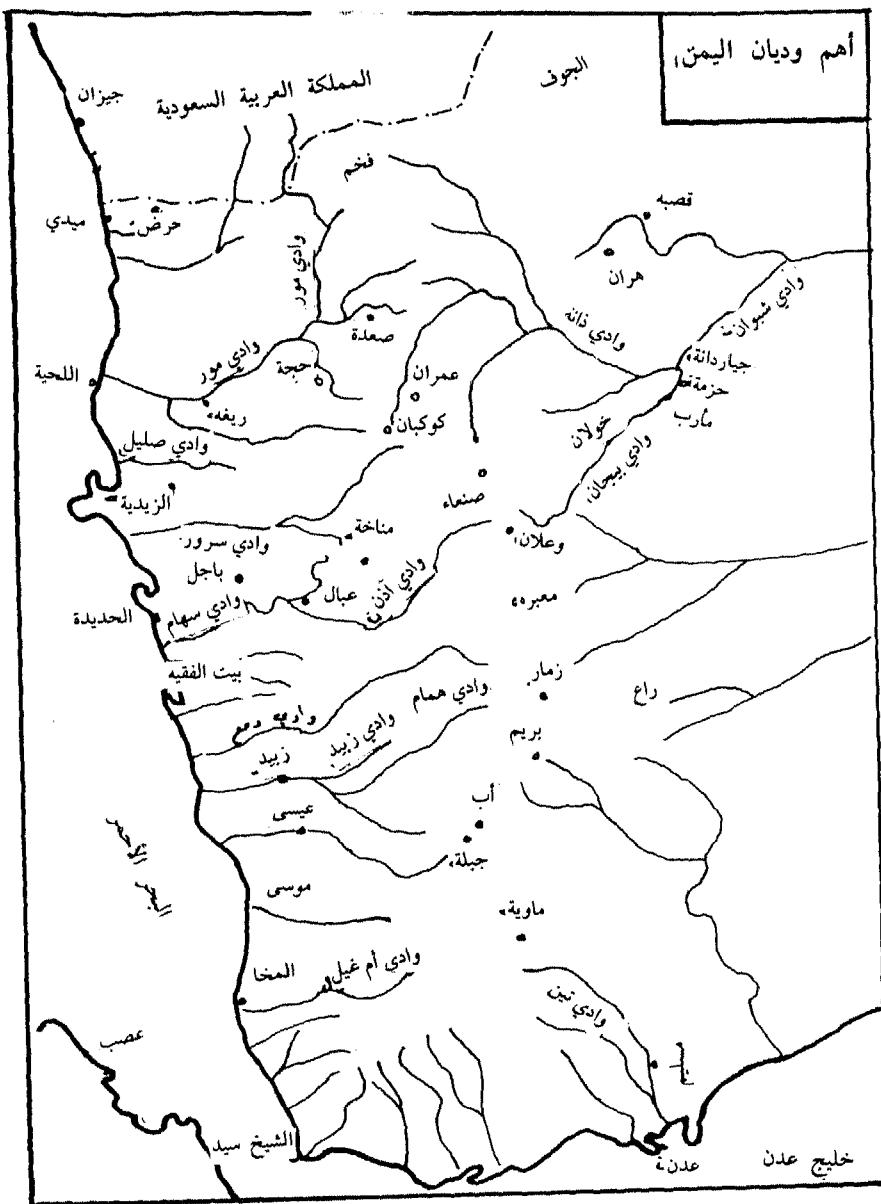
شكل (٢) أهم وديان اليمن

ونظراً لاختلاف مستويات التضاريس، تظهر في اليمن ثلاثة مستويات مناخية: فتنخفض درجة حرارة الهضبة شتاء إلى (ـ ٧) أحياناً، وكثيراً ما يتكون

الصقيع بل وأحياناً تعمم الثلوج القمم الشاهقة، وإن كان تساقط الثلوج أقل تواتراً مما هو الحال في جبال الحجاز الشمالية، وتظل الحرارة صيفاً معتدلة بحيث يكون متوسطها دون العشرين فوق ارتفاع ٢٥٠٠م، ويلطف الجو طبقة من السحب التي كثيراً ما تغطي المنطقة خلال شهري تموز وآب وايلول. ويزيد مطر المنطقة عن ٥٠ سم في معظم الهضبة، بل قد يصل إلى ١٠٠ سم فوق مستوى ٣٠٠٠ م، ويمكن تمييز فترتين لسقوط المطر: المدة الرئيسة وتمتد من تموز إلى ايلول، وتنجم عن الرياح القادمة من خليج غينيا والمارة فوق الحبشة، أما المدة الثانوية فتقع في آذار وهي ذات طابع متوسطي.

ويكون للمنطقة الواقعة بين ارتفاع ١٥٠٠ و ٢٠٠٠م مناخ انتقالي، فهنا تجود زراعة القهوة وحالياً القات ونباتات المناطق المدارية كما تنتشر أشجار شوكية كالسنط والتمر الهندي والنخيل.

أما السهول الساحلية المنبسطة المتموجة التي يصل اتساعها إلى حوالي ٨٠ كم، فتكون شبه مهجورة ولا يعيش فيها سوى القليل من السكان إلا بجوار الأودية حيث تنجح زراعة الدخن والقطن، ويختلط مع السكان العرب عناصر حبشية وصومالية ودناقل، بل وتظهر المستنقعات والبحيرات الساحلية قرب البحر، وتحوي المنطقة رسوبات ملحية صخرية قرب بلدة الصليف التي تبعد ٥٠ كم شمالي الحديدة.

ويقع على الساحل ميناء اليمن الرئيس وهو **الحديدة** الذي يستقبل السفن الكبيرة وهو ميناء التصدير والاستيراد ويقطنه أكثر من ١٥٠٠٠٠ نسمة. وقد قام الميناء الجديد نتيجة تعاون الاتحاد السوفيتي مع حكومة اليمن، وله ثلاثة أرصفة طولها ٩ كم ومحطة لتموين السفن فضلاً عن محطة لتوليد الكهرباء (شكل ٣).

الاقتصاد: تقوم الزراعة في سهل تهامة اعتماداً على مياه السيول التي

تنحدر من المنطقة الجبلية، فتغمر مساحات واسعة من الأرض بالماء والطمي، بالإضافة إلى المياه الجوفية، ولكن السيول قد تكون مدمرة، وتتحول بعض المناطق إلى برك ومستنقعات موبوءة ببعوض ناقل للحمّى الصفراء والبرداء الخبيثة.

وتتّبع في الزراعة طريقة تشبه طريقة ري الحياض التي كانت سائدة في صعيد مصر قبل بناء السد العالي، فتقام سدود ترابية تدعى العقوم، وتروى الأرض المجاورة للسهل، وبعد ذلك تنثر البذور.

ويزرع في تهامة القطن المتوسط الألياف وتستمر حقوله مدة ثلاثة شهور ونصف، وينقل المحصول إلى الحديدة لحلجه، وفي باجل مصنع للنسيج، وتزرع أيضاً الذرة البيضاء التي تنمو بشكل ممتاز فتعطي ثلاثة مواسم بالعام وتستغل لصنع الخبز أو (القرصة) وللحصول على علف أخضر للماشية الكبيرة، كما يزرع الدخن والتبغ والسمسم والخضار فضلاً عن الموز والجوافة والبابابة.

وفوق مستوى ١٥٠٠م تنتشر مزروعات البحر الأبيض المتوسط كالتين والخروب والجوز.

ولكن بعد ٢٠٠٠ م تظهر أكثر جهات اليمن انتاجاً حيث تزرع الحبوب: كالقمح والذرة البيضاء والصفراء، والفول والعدس والشعير حيثما وجدت التربة الصالحة وحيث أمكن تشييد المدرجات. وبالإضافة إلى هذا تظهر أشجار الفاكهة والخضروات كالمشمش والكرمة والفرسك (خوخ) والتفاح والتين والجوز واللوز بالإضافة إلى أعشاب المراعي.

غير أن الذي يعطي بلاد اليمن طابعها المميز هو نبات البن الذي يزرع في الارتفاعات المحصورة بين ١٣٠٠ و١٥٠٠م بل وحتى ٢٠٠٠ م على

السفوح الرطبة المعرضة لنسائم البحر الأحمر. وأشهر منطقة في زراعته هي منطقة مناخة جنوب غرب صنعاء، وإن كانت المنطقة المنتجة تمتد جنوباً حتى تعز على مساحة تبلغ ٧٠٠٠ هكتار. وتدخل أشجار البن مرحلة الإنتاج بعد أن يبلغ عمرها خمس سنين، وتستمر في الإنتاج فترة ٢٠ عاماً. ويقدر المحصول السنوي من البن بحوالي ٤٠٠٠ طن يستهلك معظمه محلياً، فضلاً عن قهوة القشر، ويصدر قسم زهيد من الإنتاج نحو المملكة السعودية، وكانت صادرات البن في الستينات تمثل ٦٠٪ من قيمة الصادرات.

غير أن شجرة البن تعاني من منافسة شجيرة القات التي تشبه شجيرة الشاي، ويصل ارتفاعها إلى ٣ م وتمضع أوراق هذا النبات التي تحوي سائلاً قلوياً مخدراً، ونظراً لانتشار (تخزين) القات على نطاق واسع، فقد أخذت شجرته تنافس البن منافسة شديدة كما لا تتطلب مجهوداً كشجيرة البن وسعره أعلى من البن بعدة أضعاف.

وفي ١٩٨٧/١١/١٤ ثم تصدير أول شحنة نفط لليابان من حقول مأرب أي من حقل الجوف، حيث تمّ حفر ٥٠ بئر كان منها ٣٠ بئر منتجة. ويقدر إحتياطي اليمن الشمالي من النفط الخام ٥٠٠ مليون برميل. والإنتاج اليومي ١٧٥٠٠٠ برميل أو يقارب إنتاج سورية وتزيد قليلاً عن إنتاج القطر التونسي أو البحرين. وغنى اليمن بالغاز أكثر من النفط. وإذا كانت عوائد النفط السنوية تعادل ٦٠٠ مليون دولار فهي لا تعوّض هبوط دخل العمال اليمنيين المغتربين بسبب هبوط أسعار النفط.

هذا وقد أقامت اليمن بمعونة مالية من اتحاد الأمارات العربية وفنية تركية سد مأرب الذي يقع على مسافة ١١ كم إلى الغرب من مأرب الواقعة إلى الشرق من صنعاء ويبعد ٣ كم عن موقع السد الأثري القديم.

ويتكون بناء السد الجديد من حائط طوله ٧٦٢ م وارتفاعه ٢٩ م،

ويلحق بالسد الرئيس أربعة سدود تحويلية موزعة على طول الوادي، تتفرع منها قنوات أخرى لسقي الأراضي الزراعية. ويبلغ مجموع أطوال هذه القنوات ٦٠ كم. وتبلغ مساحة حوض السد السفحي أو الحوض الساكب ٩٠٠٠ كم^{٢} أي أقل بقليل من مساحة لبنان وطاقته التخزينية ٤٠٠ مليون م^{٣}. ومساحة البحيرة ٤٠٥ هكتار وسيروي السد ١٧٠٠٠ هـ.

هذا وتبلغ مساحة اليمن ١٩,٥ مليون هـ والمستغل منها لا يزيد من ١,٥ مليون هـ. ويبلغ إنتاج الحبوب الكلي ٣٥٠٠٠٠ طن أو ثلث حاجة الاستهلاك.

الصناعة: لقد ركزت اليمن على دعم صناعة الغزل والنسيج سعياً منها نحو تحقيق الاكتفاء الذاتي من الكساء. وأهم مصنع للغزل والنسيج يقع في صنعاء والذي بدأ الانتاج في ١٩٦٧ وبعد التوسعة بلغ الإنتاج ٤٠٠٠٠ ياردة يومياً من الأقمشة.

وتأتي صناعة الإسمنت في كل من باجل وعمران واللذين يغطيان ٧٠٪ من حاجة اليمن. وقد تم افتتاح مصنع إسمنت عمران سنة ١٩٨٢ وطاقته نصف مليون طن بالسنة ويغطي ٤٠٪ من حاجة البلاد، وتم بناء مصنع ثالث للاسمنت في موقع البرج بمنطقة تعز، كما قامت محطة توليد كهرباء في المخا قرب تعز وتمدّ أجزاء كبيرة من اليمن الشمالي بالطاقة الكهربائية.

هذا وهناك صناعات أخرى تحت التأسيس كالصناعات الورقية والطباعية والخشبية والمعدنية ولإنتاج الرخام والأنابيب وصناعة المصابيح والأجهزة الكهربائية.

ويعتبر القطاع الزراعي من أهم القطاعات الاقتصادية إذ يساهم بنسبة ٢٨٪ من الدخل القومي، ويعمل به ٧٠٪ من القوى العاملة في اليمن. وتستأثر منطقة تعز وإب بأكثر الاهتمامات للتوسع في زراعة القهوة والأشجار المثمرة.

والآمال معقودة على إرواء قسم من تهامة اليمن بعد بناء عدد من السدود على الأودية التي تصب في البحر الأحمر.

وتقع العاصمة **صنعاء** على ارتفاع يزيد عن ٢٠٠٠م وتضم حالياً ٢٨٠٠٠٠ نسمة، وكانوا لا يتجاوزن ٦٥٠٠٠ نسمة قبل عشرين عاماً في وسط إقليم زراعي غني بالحبوب والفواكه والخضار، ويعتمد على الري من الآبار، كما تربى في منطقتها الماعز والأغنام. وأصبحت تضم جامعة تتكامل تدريجياً وتنفق عليها دولة الكويت، وبدأ التحديث العمراني فيها بشكل حقيقي بعد عام ١٩٧٠ (شكل ٤).
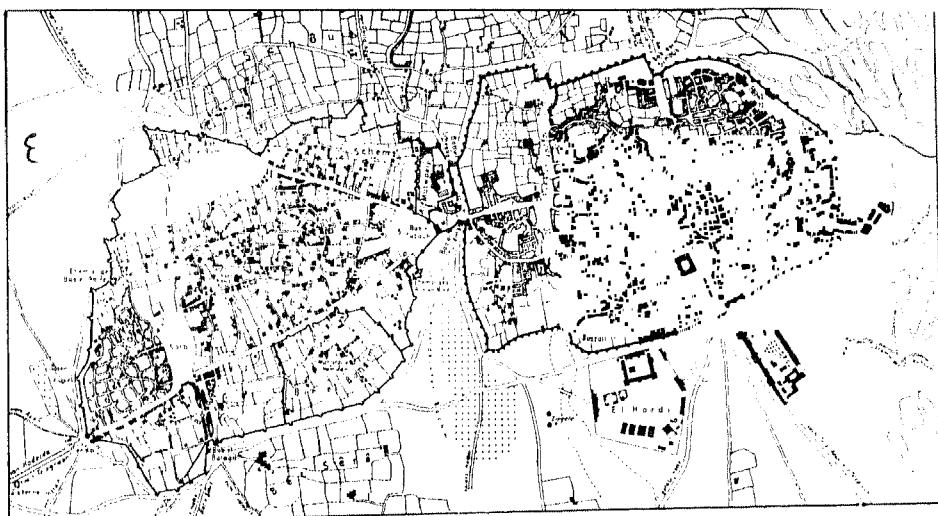
شكل (٤) خريطة صنعاء

والمدينة الثانية بالبلاد هي تعز وسط منطقة ذات تضاريس عنيفة وهي أقرب لعدن منها للعاصمة صنعاء وسكانها ١٢٠٠٠٠ نسمة.

وليس في اليمن أي خط حديدي، وقد أمكن ربط العاصمة بميناء الحديْدة بطريق جيد انتهى في عام ١٩٦٢ الذي فتح اليمن على العالم الخارجي، وفي ذلك العام حدثت الثورة والحرب الأهلية التي استمرت بضعة أعوام استقرت بعدها الجمهورية، وعرفت بلاد اليمن الحداثة على أثرها، وإن كانت البنية القبلية لا تزال تؤلف أحد عوائق التقدم السريع المنشود، ونجد اليمنيين تحت كل سماء بدءاً من كارديف في بريطانيا ومدينة ديترويت في الولايات المتحدة والحبشة وحتى نيجيريا. ومع ذلك يعتمد اليمن على معونات تأتيه من الدول العربية النفطية، وهناك حوالي مليون يمني يعملون في المملكة العربية السعودية في شتى الأنشطة من زراعة وحرف عادية وحدادة وسباكة.

اليمن الديموقراطي

يمتد من الغرب للشرق ويحده من الشمال اليمن الشمالي والمملكة العربيـة السعودية ومن الشرق سلطنة عمان ومن الجنوب البحر العربي، وتلحق به جزيرة سقطرة وتطل على البحر الأحمر ومضيق باب المندب ومساحة البلاد ٢٨٧٦٨٣ كم٢ وعدد سكان ٢,٥ مليون نسمة والكثافة السكانية بحدود ٨ نسمة/كم٢ (١٩٨٧) (شكل ١).
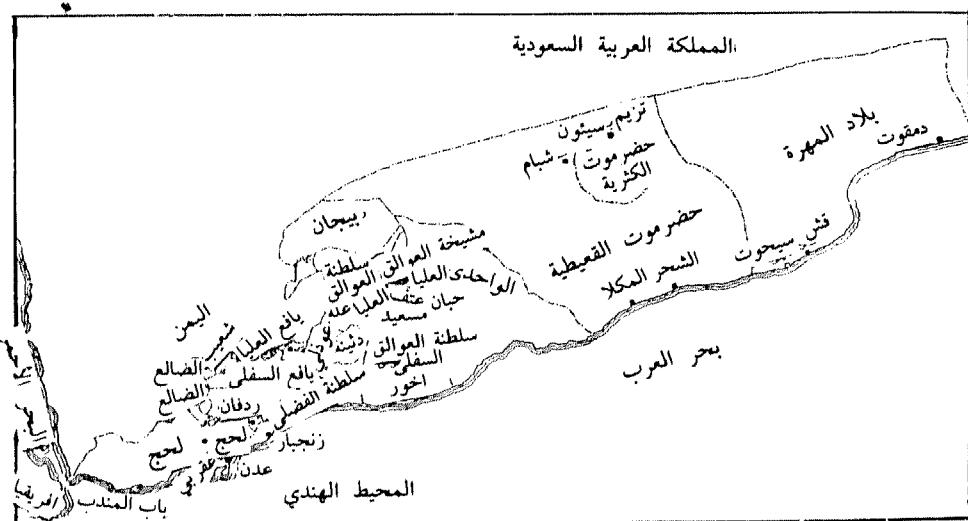
شكل (١)

الوصف الطبيعي: الظاهرة البارزة في اليمن الجنوبي هي الانحدار التدريجي من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب. ففي أقصى الغرب تمتد هضبة تقل ارتفاعاً عن هضبة اليمن الشمالي، وإن كانت تصل الارتفاعات فيها إلى حوالي ١٥٠٠ م ذات حافة محززة بسيول وبأودية خصيبة، ولكن الارتفاع في الشرق لا يزيد عن ١٠٠٠ م قرب سيحوت ثم تنحدر إلى أقل من ٢٠٠ م قرب خليج سناقير. وتملك اليمن الجنوبية بعض الجزر الصغيرة مثل قمران، وبريم عند مدخل مضيق باب المندب وجزر كوريا موريا في الشرق.

غير أن الملامح الطبغرافية التي تميز المنطقة هي امتداد واد عريض محدد بجروف شبه قائمة وقاع عريض فضفاض هو وادي حضرموت الذي يمتد موازياً للساحل نوعاً ما على مسافة تبعد ١٦٠ كم، ويبلغ طوله قرابة ٥٠٠ كم قبل أن ينعطف نحو الجنوب الشرقي مجتازاً الهضبة الساحلية الفاصلة ليلتحق بالبحر العربي تحت اسم وادي مسيلة، وهو أكثر عرضاً في عاليته من سافلته. وينخفض عن الهضبة المحيطة به بحوالي ٣٠٠ م وقد تم اتصاله بالبحر نتيجة عملية أسر حدثت في الأزمنة الجيولوجية الغابرة تحت مناخ يختلف عن المناخ الحالي الصحراوي.

ومن ناحية البنية تشبه الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة العربية مثيلاتها في اليمن وجنوبي المملكة السعودية، فتظهر صخور الركيزة الآركية من صخور متبلورة ومتحولة تمتطيها طبقات الحجر الرملي (حث الوجيد) والكلسي، وتنبثق فيها الأشكال البركانية نتيجة الانكسارات الموازية للسواحل كما تظهر لابات أفقية من نوع تراب Trapps (شكل ٢).

ويظل السهل الساحلي من النوع الضيق فلا يزيد عرضه عن ٨-
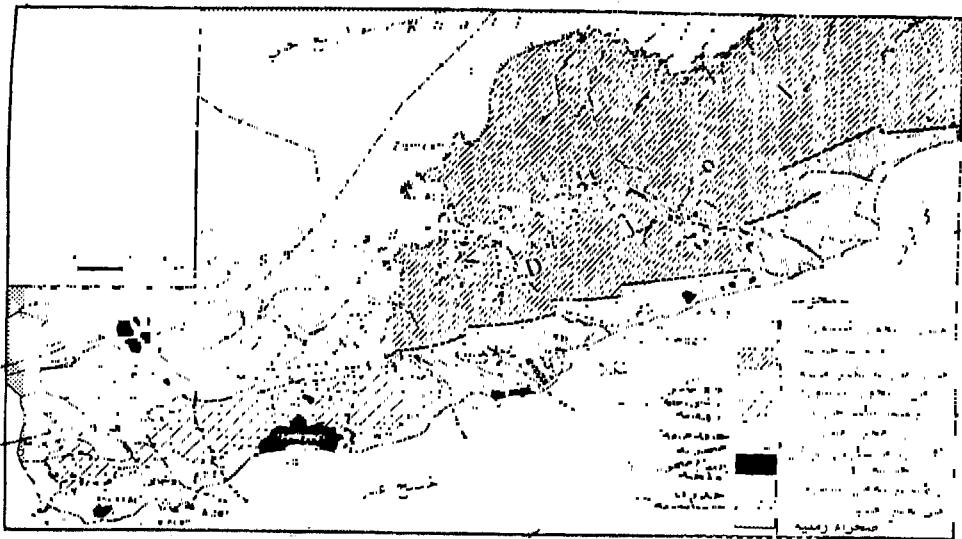
شكل (٢) جنوب الجزيرة العربية: تقسيم مورفولوجي ووحدات طبيعية كبيرة.

والمناخ مداري مع ملامح صحراوية غالبة، فيكون فصل الصيف حاراً جداً وشديد الرطوبة على طول الساحل الذي لا ينجو من العواصف الرملية. غير أن الحرارة تنخفض نسبياً فوق الهضاب ولكن دون أن تلطف المناخ كثيراً، ويزيد المطر مع الارتفاع ولكن دون أن يتجاوز ٣٥٠ مم فوق أعلى المناطق الغربية، في حين يقل عن ١٥٠ مم في المناطق الأخرى، حتى أن أمطار عدن العاصمة لا يزيد عن ١٠٠ مم. وهذا ما يفسر جدب البلاد باستثناء بطون الأودية كواحات وادي حضرموت المتناثرة ووادي لحج في الغرب (شكل ٣).

الاقتصاد: يعمل الموقع والمناخ على جعل محاصيل اليمن الديموقراطي أقرب لمزروعات الصومال، فالذرة البيضاء هي المحصول الرئيس ويليها الشعير بالاضافة إلى النخيل بالداخل والمانجة والبابابة والموز والنيلة والجوافة فضلاً عن القطن والتبغ وبذور الخروع.

شكل (٣) جنوب الجزيرة العربية: النباتات الطبيعية والأراضي المنزرعة
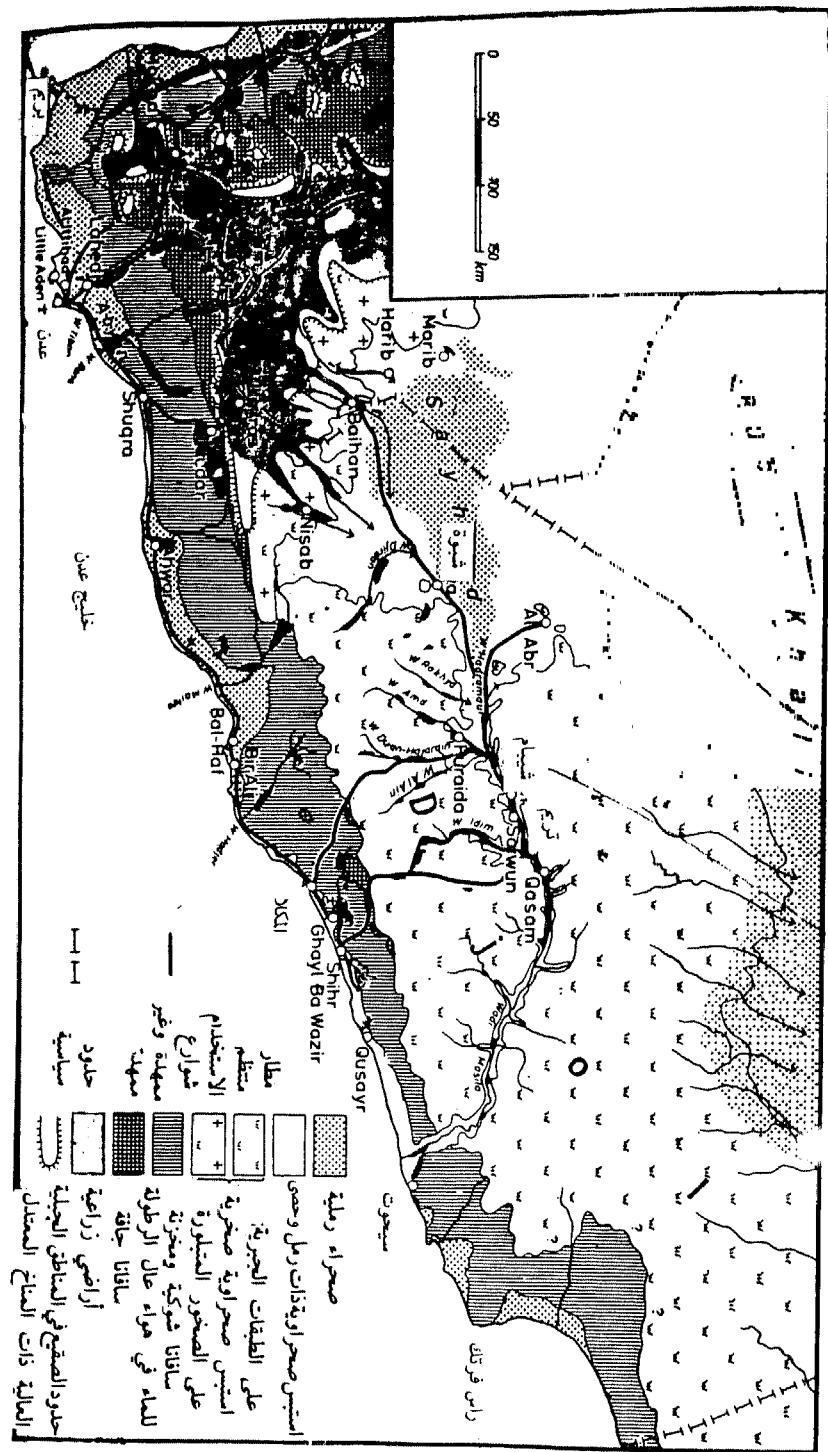
ويشتهر الجنوب العربي بمحصولين تقليديين هما المر واللبان، حيث تنمو هذه الأشجار بشكل طبيعي على السفوح الرطبة، ويقوم السكان بجمع اللبان بعد صنع جروح في لحاء الشجر قبل موسم الأمطار، ويأتي معظم المحصول من المناطق الشرقية المجاورة لسلطنة عمان.

وتكثر الواحات نسبياً في الغرب، وأكبرها لحج والساحل شمال المكلاّ، غير أن وادي حضرموت يظل المنطقة الرئيسة حيث ساعدت المياه الجوفية على قيام زراعة بجوار الآبار، ويحوي أكثر من ٥٠٠ مضخة، وقد بدأت ملامح استنزاف هذه المياه فضلاً عن الملوحة، وتسمد الأرض بالسماد الطبيعي وبقايا الأسماك والتي تقدم أحياناً كعلف للإبل.

وفي الخوانق الضيقة تظهر مناطق الاستقرار على شكل مدن صغيرة مثل شيبام وتاريم وسيون. وتتألف كل مدينة من مئات المساكن المؤلفة من بضعة طوابق وتعطي الكهرباء والسيارات فكرة عن تفتح آفاق الحضارمة وعن أثر التحويلات التي تأتيهم من المهاجرين في أقطار جنوب شرق آسيا الإسلامية.

غير أن الثروة الحقيقية للبلاد تكمن في الثروة البحرية، إذ يعتبر صيد الأسماك من الحرف الرئيسة، إذ تصاد كميات كبيرة من سمك القرش والتن والسردين وفي ١٩٨٧ بلغ إنتاج اليمن الجنوبي من السمك ٩٠٠٠٠ طن منها ٤٠٠٠٠ طن للتصدير وفي المكلا مصنع لتعليب الأسماك، التي يتم صيدها ضمن إطار تعاونيات تعتمد على سفن صيد حديثه، ولكن المشاريع تتعثر بسبب عدم الاستقرار السياسي الناجم عن الكيانات القبلية رغم وجود نظام إشتراكي، وأحداث ١٩٨٦ أكبر دليل إذ تحولت عدن إلى ساحة حرب سقط فيها آلاف القتلى هذا عدا الدمار العمراني.

ونظراً لكثرة اتصالات السكان مع الخارج وأسفارهم البعيدة فقد

أصبحوا أبعد نظراً وأوسع أفقاً من أبناء اليمن الشمالي مما دفع الحضارمة للاستيطان في الحجاز وأندونيسيا وشرقي إفريقيا ويؤلف الحضارمة في أندونيسيا جالية يبلغ تعدادها ٢٠٠٠٠٠ نسمة مثلما نجدهم في سنغافورة وتانزانيا ولهم دور كبير في نشر اللغة السواحلية في جزر القمر، وبدءاً من شمال موزمبيق حتى حدود الصومال.

عدن: تؤلف عدن الميناء الرئيس في الجنوب العربي إذ تكون الميناء الوحيد الصالح لرسو السفن بين مسقط في عمان حتى مضيق باب المندب، لوقوعها في جوار فوهة بركانية دائرية تشكل ميناءً طبيعياً عميقاً، وعدن بسكانها البالغين حوالي ٥٠٠٠٠٠ نسمة تعتبر سوقاً لمنتجات متنوعة شرقية وغربية، فيأتيها البن والقات من اليمن ومن الحبشة والمواد الغذائية من الهند وشرقي إفريقية والأخشاب لبناء المراكب والمساكن من بورما وأندونيسيا، هذا فضلاً عن أنها كانت محطة للفحم الحجري لتموين البواخر حتى مطلع القرن الحالي ومن ثم قامت فيها مصفاة لتكرير نفط أقطار الخليج بطاقة ١,٥ مليون طن بالعام (شكل ٤). غير أن عدن حساسة جداً بالوضع السياسي في الشرق الأوسط، إذ يخمد نشاطها في كل مرة تغلق فيها قناة السويس. وتقوم في عدن ملاحات لتبخير مياه البحر ويصدر الملح إلى اليابان. كما تقوم فيها صناعة السجائر والصابون والبسكويت وصناعة غزل القطن ونسجه، والقطن مادة أولية محلية تزرع في وادي الحج.

وقد نمت مدينة عدن بسرعة لأن سكانها كان عددهم في سنة ١٨٣٩ ٦٠٠٠ نسمة أي عند الاحتلال البريطاني في حي الكريتر. وفي ١٨٤٢ صعد إلى ١٥٥٠٠، ثم بلغ ٢١٠٠٠ في ١٨٥٦ في حي كريتر وفي حي التواهي. وفي ١٩٥٥ أصبح مجموع السكان في كل مناطق العاصمة عدن ١٣٨٤٢١ نسمة منهم ١٠٦٤٠٠ من العرب و ١٥٨٠٠ من الهنود و ١٠٦٠٠ صوماليون
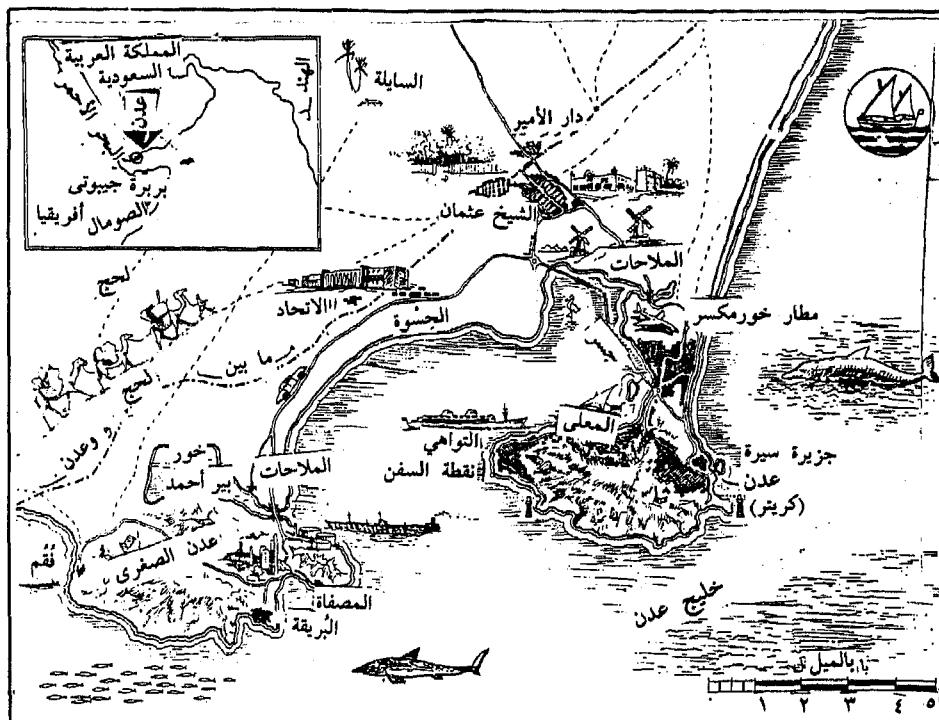
شكل (٤)

و ٤٤٠٠ أوروبيون و ٨٠٠ من اليهود وفي ١٩٦٣ بلغ عدد سكان عاصمة اليمن الجنوبية ٢٢٠٠٠٠ نسمة. هذا وبلغت طاقة مصفاة تكرير النفط في عدن ٨ ملايين طن.

وإلى الشرق من عدن يقع ميناء المكلا وميناء الشحر. والمكلا يسكنها أكثر من ٢٥٠٠٠ نسمة وتؤلف مشكلة مياه الشرب مسألة عويصة الحل، غير أن الشحر يلعب دور ميناء صيد سبق له أن اشتهر بتصدير البخور وقد عرف سكانها بمهارتهم بالحدادة وصنع الأسلحة وصباغة المنسوجات.

وفي عام ١٩٨٧ بلغت صادرات اليمن الجنوبي ١٠٪ من قيمة الاستيراد

وعلى كل يعتبر اليمن الجنوبي كشقيقه الشمالي من أكثر بلاد العالم فقرا، إذ يقل الدخل الفردي المتوسط عن ٤٠٠ دولار بالعام، وهذا ما جعله يعتمد على العون المادي والتقني من أقطار الكتلة الشرقية فضلاً عن معونات من بعض الأقطار العربية النفطية.

وفي عام ١٩٨٧ بلغت صادرات اليمن الجنوبي ١٠٪ من قيمة الاستيراد والأراضي المزروعة لا تتجاوز ٥٪ من مساحة البلاد. وصعدت قيمة تحويلات العاملين بالخارج ٣٠٠ مليون دولار.

جزيرة سقطرة:

تبلغ جزيرة سقطرة مساحة قدرها ٣٦٠٠ كم٢ وسكانها حوالي ١٠٠٠٠ نسمة وفيها مجموعة طيبة من خصائص الجزر، وتقع في امتداد الكسر الشمالي الصومالي، وقد احتفظ محدب سقطرة بالقسم الأعظم من الدرع الأيوسيني. ويثقب الصخر المتبلور العائد للركيزة العروة كي يبلغ ١٥٠٠ م ارتفاعاً. وتفتقر سقطرة للجاذبية فأطرافها حارة، مرزغية، عسيرة المرتقى لندرة التسنّنات الساحلية، وفي سرر الوديان تقع الحقول التي توفر الغذاء لسكان الجزيرة. ويكون الداخل جزئياً عبارة عن كارست شديد الوعورة تتردد الإبل والحمير في السير فوقه. ويكون المناخ قاحلاً والأمطار غير منتظمة في الشتاء (بين تشرين الثاني وآذار) والتي تجلبها الرياح الموسمية القادمة من الشمال الشرقي، ولذا تكثر سنوات الجفاف والمجاعات. وللمرتفعات الشرقية ضبابها الرطيب الندي والذي يسمح بوجود نبات فريد من نوعه: كأشجار البخور والمر و Adenium oblsum التي تعطي راتنجاً تجارياً وذات جذع شجر التبلدي وتحمل أغصاناً تافهة. وتساعد الرطوبة على نشوء حزازيات غزيرة فوق الأشجار. ويماثل سكان السواحل إخوانهم في جنوبي جزيرة العرب مع دم إفريقي واضح ولغتهم مشابهة لغة بدو الداخل، أي لهجة يمنية. ويستعمل

السكان قوارب مستوردة من سواحل مالابار الهندية، ويجهلون صناعة المعادن ودولاب الخزف. ولديهم نوع من البقر القزم يقدم الوفير من الحليب. وقد عثرت بعثة أثرية على بقايا مصاطب زراعية، وعلى طرق مرصوفة، وأبنية حجرية. وتتألف العاصمة من قرية هديبو الفقيرة، وهي تابعة لجمهورية اليمن الديموقراطية.

المراجع

١ ـ عبد الرحمن حميده. الجمهورية التونسية. القاهرة ١٩٧٢.

٢ ـ عبد الرحمن حميده. المملكة المغربية. القاهرة ١٩٧٣.

٣ ـ محمد عبد الغني سعودي. الوطن العربي. القاهرة ١٩٧٠.

J Beaujeu-Garnier: images économiques. Paris 1976.

J Despois: la Tunisie Orientale. Paris 1955.

J. Despois et Raynal. l'Afrique du Nord. Paris 1970.

Fisher: The Middle East. London 1980.

P. Gourou: l'Afrique. Paris 1970.

الفهرس

كتب للمؤلف

- جغرافية العالم المعاصر ١-٥ (سلسلة)
- جغرافية الوطن العربي (سلسلة جغرافية العالم المعاصر)
- مبادئ الجيومورفولوجيا (أشكال التضريس الأرضي)
- الأطلس الاقتصادي للعالم الإسلامي
- جغرافية الدول الكبرى (سلسلة جغرافية العالم المعاصر)
- الوجيز في المناخ التطبيقي
- جغرافية أوربة الغربية (سلسلة جغرافية العالم المعاصر)
- جغرافية أوربة الشرقية (سلسلة جغرافية العالم المعاصر)
- جغرافية آسية (سلسلة جغرافية العالم المعاصر)
- أعلام الجغرافيين العرب
- الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى
- تطور الفكر الجغرافي

بنك القارئ النهم

عزيزي القارئ ..املأ بيانات هذه البطاقة وأرسلها إلى عنوان دار الفكر ليتم تسجيلها في حسابك الخاص في بنك القارئ النهم، حيث يكون بإمكانك الحصول على نسخ مجانية من مطبوعاتنا تتناسب طرداً مع اقبالك على قراءةمطبوعات دار الفكر.

البيانات الدقيقة

تساعدنا على خدمتك بالشكل الأمثل

الاسم الثلاثي: ....

تاريخ ومكان الولادة: ....

المهنة: .... المؤهل العلمي: ....

الاهتمامات الفكرية والثقافية:

☐ علمية ☐ دينية ☐ أدبية ☐ تاريخية ☐ ....

العنوان: الدولة .... المدينة ....

....

....

ص.ب: .... الهاتف ....

الفاكس .... E-Mail ....

هل ترغب في الحصول على النشرات الإعلانية بشكل دائم؟ ☐ نعم ☐ لا

رأيك يهمنا !

الرجاء ملء البيانات بعد قراءة الكتاب

موضوع الكتاب:	☐ هام جداً	☐ هام	☐ غيرهام
الأفكار:	☐ قيمة	☐ مقبولة	☐ غير مقبولة
الأسلوب:	☐ واضح	☐ مقبول	☐ غير مقبول
الإخراج الفني:	☐ ممتاز	☐ مقبول	☐ غير مقبول
الطباعة:	☐ جيدة	☐ مقبولة	☐ غير مقبولة
مرافقات الكتاب:	☐ جيدة	☐ مفيدة	☐ غير مفيدة
إصدارات الدار:	☐ هامة	☐ مقبولة	☐ غير مقبولة
متابعتك لها:	☐ دائماً	☐ أحياناً	☐ نادراً

اقتراحات: ....

....

....

دَارُ الفِكْرِ

للطباعة والتوزيع والنشر

سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٩٦٢

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦ هاتف: ٢٢١١١٦٦ـ٢٢٣٩٧١٧

بنك القارئ النهم

٢١١٥٦٨

ARAB WORLD GEOGRAPHY
Jughrāfīyat al-Waṭan al-'Arabī
By: Dr. 'Abd al-Raḥmān Ḥamīdah

(جغرافية الوطن العربي) لوحة جغرافيّة واقعيّة، يجد طلاب العلم والمثقفون فيها مايروي فضولهم العلمي وتعطشهم للمعرفة، عن وطنهم العربي الكبير.

لقد ضمّ الكتابُ مقدمة حول ملامح ومشكلات الوطن العربي والتحديات، والجناح الإفريقي أو إفريقية البيضاء، والدول الصحراوية...

ثمّ تناول الدكتور المؤلف كل دولة على حدة دارساً اقتصادها ومشكلاتها البيئيّة والزّراعيّة والصّناعيّة.. مع لمحة تاريخية مختصرة لكلٍّ منها.

ولم يغفل المؤلّف نمط الحياة، والمناخ، والمدن الهامة. ولم ينسَ المشكلة السُّكانيّة، ووقوف الأقطار العربيّة أمام شعار (الأمن المائي)، بعد أن طرحت شعار (الأمن الغذائي).

(جغرافية الوطن العربي) كتاب جدير بالقراءة، من قبل كل مثقَّف، ليزيد من معلوماته عن وطنه العربي الكبير.

Dar Al-Fikr
414S. Craig St., #269
Pittsburgh, PA 15213
USA
Phone: (412) 441-5226
Fax: (412) 441-8198
E-mail:info@fikr.com
http://www.fikr.com/

ISBN 1-57547-381-X
9 781575 473819